الأعمال الرقمية الكاملة

لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

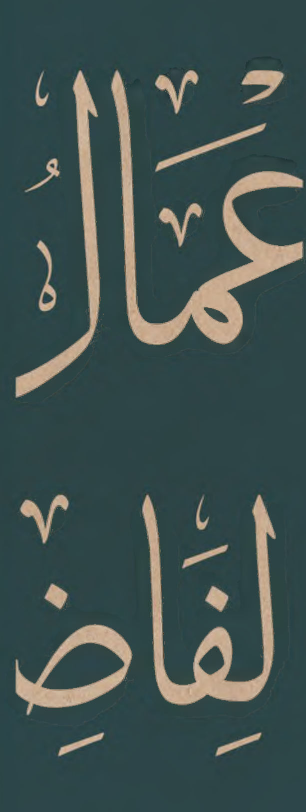
د. أحمد عمر

د. محمد المهدي رفاعي • د. خالد خالد • د. إياس الرشيد

د. إسلام جانكير • د. عرابي عرابي • د. أنس صالح

الجزء الثاني

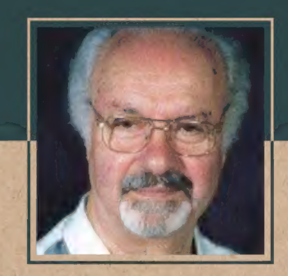




درا

الجزء الثاني

«إلى الأصدقاء.. الذين يقرؤون الخواطر التي أكتبها وأنشرها في صفحتي، يوميًّا وعلى مدى سنوات، مؤرِّخًا الحالةَ التي يعيشها البلد، متابعًا الحراك الثقافي في الوطن الكبير، في تجلّياتٍ أَستوحيها من المجتمع بقِيَمه التليدة والمستحدثة، وبما أُوَشّي ذلك من ذكرياتٍ شخصية هي غيضٌ من فيضِ الذاكرة الجَمعية في بلاد الشام. أناشدكم الاهتمام بهذا الإرث، المتنوّع، الذي لا تُعوزه الصراحة والصدق ولا الدقة والموضوعية والنزاهة، ومساعدتي في أن أقدّمه للقراء في مجلدات بعددها... والعون الذي ألتمس أن يتولّى هذه المهمّة القادرون عليها من المثقفين الغيورين على الوطن والمجتمع والتاريخ والأدب والحقيقة...»



فاضل السباعي



+90 506 023 22 35 www.dar-ikdam.com

+90 212 671 62 48 dar-ikdam@gmail.com

www.facebook.com/dar-ikdam



9 786256 483033



9 786256 483057

2. cilt isbn

الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي

دراسة وتحقيقاً

الجزء الثاني

د.أحمد عمر | د.محمد المهدي رفاعي

د.خالد خالد | د.إياس الرشيد

د.إسلام جانكير | د.عرابي عرابي

د.أنس صالح

اسم الكتاب: الأعمال الرقمية الكاملة لفاضل السباعي دراسة وتحقيقا
المؤلف: مجموعة مؤلفين
الناشر: دار إقدام للطباعة والنشر
الطبعة: الاولى
سنة النشر: 2023
مكان النشر: اسطنبول- تركيا
isbn: 978-625-6483-03-3
2. cilt isbn: 978-625-6483-05-7

بعد منتصف الليل.. يبتدئ السهر

مما يمارَس في حقنا، بعد تقنين الكهرباء وقطع الماء عنّا، أنّ "النظام" مدّ يده إلى "الشابكة".

كنا نسهر الليل -إمّا كان هناك كهرباء أو ما في حكمها- نتواصل فيما بيننا، داخل الوطن وخارجه، نجتاز الفلوات ونقطع المحيطات، متحدثين متسامرين، نبثّ بعضنا الآلام ونتبادل الأوجاع، نُضمّخها بما تيسّر من أخبار فرح خجول.

هل استكثر النظام علينا ذلك؟!

في الآونة الأخيرة، بدأ يُضعِف الطاقةَ، التي منها يستمدّ الإنترنت عزمه، فأنت تطلب "التحميل" سُويعات المساء، فلا يواتيك إلا بعد صبر وملل أو لا يأتي... ثمّ تمادى النظام بأن جعل فُتور الطاقة يبدأ عند الظهيرة مستمرًّا إلى منتصف الليل أو ما بعده، حين يكون النعاس قد أخذ يُرنّق على أجفانك المتعبة.

الذي لاحظتُه أخيرًا أني ما أكاد أطلق خاطرتي في هزيع متأخّر من الليل، حتى أرى "اللايكات" تنهمر عليّ من كلّ حدب... فأدركت أنّ الأصدقاء أمسوا ينامون في ساعات المساء الأولى، ليبدؤوا سهرتهم بُعيد منتصف الليل، ممتدّةً إلى موعد الذهاب إلى العمل!

منتصف ليل الأربعاء ٢٧-٣-٢٠١٣

من تحت الرصاص

افتقدتُ، على مدى أسابيع، حروفَها الناعمة، صوتَها الذي تحوّل إلى صمت.

كان آخر ما أرسلتُ إليها وهي في حلب، معاتبًا: «ثلاث قذائف سكود أرسلتَها إلى الشمال، راحت تقطع المسافة في ظلمة الليل، لتمحو من الوجود فقراء، يهجعون في مساكن عشوائية، طالما رأيناك تتغنّى بأنك تعطف عليهم، وتحنو، وترحم؟».

صباح هذا اليوم فوجئت بها تكتب:

«لو تعلم ظروفي التي تتجاوز بقسوتها كلّ آلام الحياة! كنت حدّثتك عن أني اضطررت إلى أن أغادر بيتي مرتين إلى بيوت الأقارب. وأما في المرة الثالثة فقد غادرت إلى... إلى إسطنبول، حيث سبقتني إليها ابنتي وأسرتها الصغيرة. أنا لا أصدّق أني خرجت من الجحيم، وأني احتضن بعد غياب طويل حفيدتي "رام"، وأني كففت عن أن أسمع أزيز الرصاص وهدير المدافع...

أكتب إليك والحروف تغيم أمام عيني... ».

لما كفكفت دموعها، عادت تكتب:

«سعيدة أنا هنا في إسطنبول. سوف أمشي في شوارعها وطرقاتها وأزور مساجدها وجوامعها، بصحبة ابنتي "إيغار" وزوجها الرائع "خالد"، وحفيدتي الحلوة الذكية "رام". ما أتمناه لك أن يرتاح بالك وبال كل سوري مقيم أو مغادر بانتهاء هذا الذي بدأ ولم يقدّر له أن ينتهي...

كيف حال البركة والنافورة في حديقة بيتك الجميل؟ وأشجار الكبّاد التي آن لها أن تزهر في هذا الربيع... في هذا الربيع...؟ ».

إنها أديبة حلب الكبيرة، ضياء قصبجي.

ضحى الخميس ٢٨-٣-٢٠١٣

حين نفتقد عبير الأزهار

خرجت إلى حديقة بيتي وفي يدي كتاب. كان عبير أزهار النارِنْج والكبّاد يتسلّل إلى صدري في مطالع هذا الربيع.

دخلت لأكتب ما عنّ لي. صديقٌ يحدّثني بأنّ رائحة البارود تملأ فضاء الحيّ، تخالطها روائح الدماء المسفوحة.

لما عدت إلى الحديقة لم أعد أستنشق عبير أزهار النارنج والكبّاد!

دمشق الشام: ظهيرة الخميس ٢٨-٣-

الشعب يذبح النظام

لعلّ من أعجب ما سوف يقرأ الناس في التاريخ غدًا أنّ نظامًا يتفنّن في ذبح شعبه، وهو يعلن: شعبي ينوي أن يذبحني!

مساء الجمعة ٢٩-٣-٢٠١٣

البندورة

البندورة نباتٌ موطنه الأصلي المكسيك، أتى به البرتغاليون بعد اكتشاف القارّة الأمريكية. زُرع بحلب عام ١٢٦٨هـ (١٨٥٢م). عاف الناسُ أكله أول الأمر -كما يروي العلامة "الأسدي م. خير الدين" في "موسوعة حلب المقارنة"- خشية أن يسبّب مرضًا، ثمّ أكلوا الأخضر منه سلطةً، ثمّ أقبلوا على الأحمر منه إقبالًا عظيما. وسمعت قبل ثلاثين سنة سيدة دمشقية تأخذ على الحلبيات أنهنّ يكثرن من اتخاذ البندورة في المآكل.

طبخوا منها بحلب ما سمّوه "مُسَقّعة البندورة" مع اللحم ناعمًا أو على شكل كرات صغيرة وبصل. وفي دمشق جعلوا اللحم فيها على شكل "الكباب" لكن صغيرًا، وسمّوها "كباب هندي"، وهي في دمشق من أصناف "منزّلة بأحمر" (تقابلها "منزلة بأسود"، أي بالباذنجان) كما حدثتني أمس إحدى صديقات التواصل.

وكلمة "بندورة" في بلاد الشام مستمدّة من اسمها بالإيطالية Poma d’ ora أي "تفاح

الذهب"، ربما لأنّ من جاء بها إيطالي من أهل القنصليات الأوروبية في حلب (طريق الحرير). وكنت أسمع الناس وأنا طفل يسمونها أيضا "فرنجي" اعتمادًا على أنها آتية من بلاد الإفرنج، أوروبة.

وفي مصر يسمونها "طماطم"، عن الإنكليزية tomato عن لغة الأزتيك القديمة في المكسيك). ويسمونها أيضا "قُوطة". وكنت في منتصف الخمسينيات وأنا بالقاهرة أسمعهم يطلقون عليها "المجنونة"، لتفاوت أسعارها من وقت لآخر ارتفاعًا وانخفاضًا حسب مواسم زراعتها المتوالية.

ويُعرِّف بنبات البندورة العلامةُ الأمير مصطفى الشهابي في "معجم مصطلحات العلوم الزراعية": «بقل سنوي زراعي مشهور، من الفصيلة الباذنجانية، تُطبخ ثماره وتُعصر [وتُربّب: رُبّ البندورة]، وله أصناف زراعية كثيرة، ولجنس البنادوري [هكذا يرسمها] أنواعٌ غير هذا النوع يُعدّ من نباتات التزيين»... ويبيّنها.

فجر السبت ٣٠-٣-٢٠١٣

حبّتان من البندورة

كنت أقول للخضريّ: عَبّئ لي في الكيس كيلو بندورة.

اليوم... صرت أنتقي حبّتين اثنتين بعناية، وأراقب الميزان!

إنها الحرب التي تقتل الإنسان، وتدمّر البنيان، وتجرف أمامها كلّ شيء.

فجر السبت: ٣٠-٣-٢٠١٣

عن البندورة... ثالثة

في عام ١٩٦٧ (إن لم تخنّي الذاكرة) وقعت أزمة بندورة بدمشق، فأغرى ارتفاع أسعارها المزارعين بالإقبال على زراعتها في الموسم التالي... وبدا أنهم بالغوا في ذلك لحدّ الإسراف، ما جعل وفرةَ المحصول تقضي على الجدوى الاقتصادية، حتى أحجم كثير منهم عن قطفها، وتركوها "على أمّها" لمصيرها المحتوم!

في ذلك الصيف رأت الأسرة أن "نموِّن" منها، بأن نصنع في البيت "رُبّ البندورة". وقد اعتدنا أن نرى في تلك الأيام زارعيها يتنقّلون بها، بعرباتهم الريفية أو على ظهر الدواب في طرقات المدينة، يبيعونها بـ"السحّارة" وليس بالكيلو.

استوقفت في ذلك اليوم أحدهم، واتفقت على أن آخذ سحارة بليرتين سوريتين (بعملة ذلك الزمان)، فنصحني الرجل بأن آخذ اثنتين، فاستحسنت رأيه. ورافقته إلى حديقة البيت، ليدلق محتوى السحارة الأولى في البركة (البحرة)، تمهيدًا للغسل ثمّ العصر. وتركته لآتي بالثمن.

لما عدت رأيته –وقد دلق الثانية– يحمل ثالثة... وما ترك لي مجالًا للاعتراض، حين سمعته يقول بلهجة مؤثرة: «يا أستاذ! السحارة[١] كلها بليرتين، والله ما بتجيب حقّ قطفها ونقلها للشام!»... وكم كان صادقًا!

كان ذلك في دمشق صيف ١٩٦٨.

ظهيرة السبت ٣٠-٣-٢٠١٣

أعناق غضّة

الذين بكَوا واستبكَوا واستمطروا اللعنات على متخلّف قام، في وَضَح النهار، بقطع رأس

---

(١) كلمة شعبية شمالية، معناها الصندوق المخصص لوضع الفواكه أو الخضار لبيعها في الأسواق.

تمثال أبي العلاء في معرة النعمان، المصنوع من معدن... لم نرَهم يذرِفون دمعة، تعبيرًا عن حزنٍ يمكن أن يكون قد لامَس قلوبهم، حين قام مأفونون يمرّرون سكاكينَهم، الحادّة أو المثلومة، تحت جُنْح الليل، على أعناقٍ غضّة لأطفالٍ في "الحُولة" وما حولها وما بعدها وفي كل مكان...

نحن شجبنا حماقةَ ذلك المجنون... وهم؟!

ما ذاك إلا لأننا ندرك مدى انتمائنا إلى شعبٍ... هم عنه غرباء.

فجر الأحد: ٣١-٣-٢٠١٣

في ظلال الحكومة العادلة

صديقٌ لي شابٌّ من أنصار النظام، تبسّطتُ بالأمس في حديثي إليه، شاكيًا أني دخلت أشتري ربطة خبز، فأشار عليّ البائع بأن آخذ اثنتين، فاستجبت. وفي البيت، بعد أن فتحت واحدة منهما، تبيّنت أنّ الخبز سريع التفتُّت مما يعني أنه "بايت".

ثمّ توجّهت إلى ساحة "الجسر الأبيض"، أشتري من بائعي الخضار (الذين سمحت لهم الحكومة باتخاذ الأرصفة مكانا للبيع في هذا الزمن الصعب)، أتسوّق قليلاً من الخضار والفاكهة، فكان البائع يزن ثم يضع أمامي الأكياس واحدًا بعد آخر. وفي البيت افتقدت كيس الموز.

ومضيت في حديثي إلى صاحبي، بأني دخلت المكتبة أشتري مجلات وشيئًا من القِرطاسية، جمعَ الكتبيُّ بالحاسبة الصغيرة في يده، فنقدتُه الثمن ومضيت. وفي البيت اكتشفت أنه غالطني بأن زاد في الجمع مئة!

هنا قهقه صاحبي، الذي يعرف مقدار مدافعتي عن الحريات العامة، قائلا بشماتة: «هذا هو الشعب الذي تناضل من أجل حريته».

فاستفزّني قوله... حتى إني صرخت به: «لتعلم أنّ ما جعلهم كذلك هو معاناتهم اليومية، فهم أنّى توجّهوا وجدوا الرشوة، والابتزاز، والظلم، والتعسّف... فاقتدَوا!».

ورأيته يتغافل عن التقريع، ويسألني... فأجبت بأني عدت إلى بائع الخبز، فبدّل لي إحدى الربطتين، محتجًّا بأن الثانية فُتحت وقطع فيها رغيف، قلت متسامحًا: «دعها عندك، ووزّعها على أبناء السبيل»، فخجل وأعطاني البديل الثاني.

وعلى رصيف الجسر الأبيض عاتبت الخضري الذي كان يضع أمامي كل الأكياس، عدا الكيس الأثمن -الذي فيه الموز- يُخلّيه عنده... فانبرى زبونٌ فضوليّ يقول: «سهو! كان منه سهو!»، فقلت: «ولماذا تتطوّع، أيها السيد، للدفاع؟»، فحمل كيسه ومضى.

والبائع يغمغم كالخجلان، بأنه مستعد لأن يعطيني بدل الكيلو اثنين كي أكون راضيًا، ولكنه ما أعطاني إلا واحدًا!

سألني صاحبي، وهو يتابع حديثي بكل جوارحه، عن الكتبيّ؟ قلت: «ادّعى أنه كان له عندي حساب سابق فأضافه! فاعترضت بأنّ هذا إنْ صحّ كان عليه أن يبيّنه عند الإضافة». واستوفيت حقي.

قال صاحبي: «أرأيت كم هم الناس طيبون؟!».

قلت: «يا منظوم! قبل لحظة قلت إنهم لا يستحقون الحرية!».

فضحك، وضحكت، وأنا أقول هادئًا: «في ظلال الحكومة العادلة، ينصلح الناس رويدًا رويدًا، وتحت وطأة غيرها يزدادون فسادًا. ليس هناك شعب سيّئ، هناك حكومات فاسدة».

ومضى صاحبي راضيًا أو كالراضي.

ظهيرة الإثنين: ١-٤-٢٠١٣

ضحكٌ وبكاء

زارني ابني فراس، والد الأطفال الأربعة، وأخذ يحدثني عن أنه، ساعة تلقّى مقصفُ كلية هندسة العمارة بدمشق، قبل أيام، القذائفَ التي أودت بحياة خمسة عشر طالبا وجرحت العشرات... كان هو، بالمصادفة، قد مرّ، قبيل لحظات، في شارعٍ لا يبعد عن المكان إلا مسافة خمسين من الأمتار!

العجيب أنّ ابني، الوحيد، كان يتكلم وهو فرحٌ يضحك، لأنه نجا بروحه.

وأما أنا... فقد كان قلبي يبكي!

فجر الثلاثاء: ٢-٤-٢٠١٣

ما غاب عن صاحبي

مرّ بي، بعد أن قبض معاشه التقاعدي من الصرّاف الآلي قريبًا من بيتي، وأخذ يحدّثني ويُفيض... عن أنّ معاشه كان -في بداية "الثورة"- يعادل ثلاثمئة دولار، لكن مع ارتفاع "الأخضر" اللعين (يقصد الدولار) الذي أدّى إلى ارتفاع فاحش في الأسعار، هبط معاشه إلى المئة، فما عاد يفي بضرورات الحياة اليومية!

وعذرتُ صاحبي في نفسي... لأن ما يؤرّقه الساعة قد غَيّب عنه "السكود" اليومي، و "الكيماوي" الآتي على الطريق! ضحى الثلاثاء: ٢-٤-٢٠١٣

رجلٌ.. يريد أن يقول

ضحى اليوم، بعد أن تناولت معاشي التقاعدي من الصرّاف الآلي في شارع "زهير بن أبي سُلمى"، ترامى إليّ نداءٌ ما شككت في أنه يقصدني. واستوقفني رجل، يناهزني سنًّا، مهيب

الطلعة، جعلنا نتبادل النظرات الصامتة لحظة وكأنّ كلٌّ منا يحاول أن يستحضر من ذاكرته ملامح وجه الآخر!

قال: «أنت...؟»، قلت: «لا...»، ولما عرّف بنفسه، هتفتُ مبتهجًا: «الأستاذ الجامعي الـ...»، وكان تعارف استثنائي، على الضفة اليسرى من نهر تورا

بدت لي فيه رغبةٌ في أن يُدْلي، برأي يؤرّقه، لذاك الذي ظنّ أني إيّاه. ولم يتلكّأ، دخل في موضوعه: «بالحبّ يمكن أن نحلّ مشكلتنا!»، وأشار بيده إلى حيث يصل إلى أسماعنا أزيز رصاص!

فأثار قوله رغبتي في القول، وما تلكّأت: «ألا ترى، يا دكتور، أنّ الطرف الآخر ينبغي أن يتحلّى بهذه الفضيلة أيضا؟ سنين طويلة، والناس يعانون وتزداد«......

هنا... تلقّت أسماعنا أصوات قذائف، ستًّا متتابعة، تليها ستٌّ، فستّ ثالثة... ثماني عشرة قذيفة انهمرت في ثوان!

الواقفون في الصفّ، أمام الصراف الآلي، تنبّهوا، اشرأبّوا، لكن ما بدا من أيّ منهم عزمٌ على الانصراف، فإنما جاؤوا -تحت القصف- ليقبضوا رواتب أول الشهر.

لم يتّسع الوقت لمستوقِفي أن يقول، ولا اتّسع لي. وافترقنا بالمكان، مثلما بدونا مفترقَين في وجهات النظر. ليل الثلاثاء: ٢-٤-٢٠١٣

لن نقول - نحن السوريين

لن نقول -نحن السوريين- شكرًا لإدارة "التواصل الاجتماعي" في أرض الوطن، التي دأبت على أن تحرمنا من متعة التواصل، ليلةً بعد ليلة، ابتداءً من منتصف النهار... حتى ما بعد منتصف الليل!

ولن نسامحها!

بعد منتصف ليلة الثلاثاء ٢-٤-٢٠١٣

لقمة سائغة

حيًّا بعد حيّ، قافلةً بعد قافلة، يُقتَّلون، يُذَبَّحون، يُحرَّقون، يُهجَّرون... حتى لم يبقَ في جسدها موضعٌ إلا وفيه ما فيه!

واليوم... يحاولون تجريدها من باديتها المضمّخة بعطر التاريخ.

ولكنها... لن تكون لقمةً سائغة!

منتصف ليل الأربعاء: ٣-٤-٢٠١٣

١٢ ساعة... وزيادة

لماذا يُعطّلون "النت" اثنتي عشرة ساعة في اليوم، وما زالوا يزيدون مقدارها؟

أحقًّا يخافون المثقفين، هؤلاء الجالسين بهدوء وراء الشاشات في منازلهم؟

ضحى الخميس: ٤-٤-٢٠١٣

خفِّف الوطء.. يا ريّس

ليس صحيحًا أنّ بالمال الملتبَس تُبنى الدول.

أنت تعلم أنهم، هناك، ما زالوا يتذكّرون أنّ رجلاً منهم قد جاء من "المهديّة"، قبل ألف من السنين وزيادة، فاختار الموقع الذي تقوم عليه القاهرة اليوم.

وأذكّرك -إنْ كنت لا تعلم- بأنّ شاعرًا منهم، كليّ النفاق، قد أنشد كبيرهم فقال:

ما شئتَ، لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ، فأنت الواحدُ القهّارُ

ولا تُبعِد عن ذهنك الحوثي، ولا ناساً -في بُؤر الفقر في أوطاننا هنا وهناك- قد تمكّنوا بالمال من إغرائهم.

والأزهر، الذي يردّدون أنهم أنشؤوه قبل أن ينتزعه منهم القائد صلاح الدين الأيوبي... ليكن الأزهر الشريف -كما ينبغي أن يكون- متعاليًا على أصوات الساسة وصخب السياسيين.

ثمّ... ثمّ كن على يقين من أنّ معارضيك، إنْ أفلحوا في هزّ كرسيّك حتى السقوط، فإنه لن يصمد رئيسٌ مقبل في الاتحادية.

خفّف الوطء، يا ريّس.

مساء الخميس: ٤-٤-٢٠١٣

السباحة.. في مياه المتوسط

بعد خاطرة أمس «خفّف الوطء.. يا ريّس!»، التمسَ مني أحد أصدقاء التواصل التفصيلَ والتوضيح... وهأنذا أقول:

ليس بالمال الملتبَس تُبنى الأوطان، يا ريّس! [المليارات الثلاثين، الموعودة!].

أنت تَعلم أنهم، هناك، ما زالوا يتذكّرون أنّ رجلاً من مذهبهم قد جاء من "المهديّة"، قبل ألف من السنين وزيادة، واختار الموقع الذي تقوم عليه القاهرة اليوم. [إنهم الفرس، اليوم. وأما الرجل الذي كان، فهو القائد "جوهر الصِّقِلّي"، الذي فتح مصر في شهر ربيع الأول من العام ٣٥٨هـ (يناير ٩٦٩م)، ونزل شماليّ "الفسطاط" (حيث الأزهر اليوم وخان الخليلي)، ثمّ شرع في إنشاء مدينة "القاهرة". وقد تمّ بناؤها في ثلاثة أعوام، وانتقل كرسيّ "الخلافة الفاطمية" من "إفريقية" (تونس اليوم) إلى مصر، أيام "المعزّ لدين الله"، الذي تأتّى له أن يوسّع

ملكه، فيسيطر على المغرب وغربيّ بلاد العرب والشام[.

وأذكّرك -إن كنت لا تعلم- بأنّ شاعرًا منهم، كليَّ النفاق، قد أنشد كبيرَهم فقال:

ما شئتَ، لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ، فأنت الواحدُ القهّارُ

[فأما الشاعر فهو "ابن هانئ الأندلسي"، القادم إليه من هناك، وتُقرأ القصيدة في ديوانه. وأما "الواحد القهار" فهو "المعتزّ"، الذي ادّعى بعده الألوهيّة "الحاكمُ بأمر الله"، ذاك الذي سعت أخته فقتلته في ٤١١هـ (١٠٢١م)!].

ولا تُبعِد عن ذهنك، يا ريّس، الحوثي، ولا أناسًا -في بُؤَر الفقر في أوطاننا هنا وهناك- قد تمكّنوا بالمال من إغرائهم. [وما كانوا، في أشواقهم للاغتسال بمياه البحر الأبيض المتوسط، إلا طامعين في السباحة نحو القارّة السمراء، أملاً في أن يستعيدوا ما كانوا اقتطعوه من عمر الزمان (مئتين واثنتين وسبعين سنة هجرية)، فيستأنفوا ما يعتقدون أنه حقٌّ تسرّب من بين أيديهم... وهاهم أولاء يتغلغلون في مناطق يسودها فقرٌ وجهل وتخلّف].

والأزهر الذي يردّدون أنهم أنشؤوه قبل أن ينتزعه منهم القائد صلاح الدين الأيوبي... [الأزهر الذي بنوه أيام المعزّ، ليُدرسّوا فيه "المذهب الشيعي" ومنه تنطلق الدعوة للمذهب... انتزعه منهم صلاح الدين، واستردّ مصر كلَّها عام ٥٦٧هـ (١١٧١م)، ونُصّب حاكما لها من قِبل سلطانه "نور الدين زنكي" في بلاد الشام].

الأزهر... ليكن الأزهر الشريف -كما ينبغي أن يكون- متعاليًا على أصوات الساسة وصخب السياسيين.

ثمّ... ثمّ كن على يقين من أنّ معارضيك، إنْ أفلحوا في هزّ كرسيّك حتى السقوط، فإنه لن يصمد رئيسٌ مقبل في قصر الاتحادية.

خفّف الوطء، يا ريّس.

منتصف ليل الجمعة ٥-٤-٢٠١٣

كل تدمير يُعقِبه تعمير...

وعندنا: التعمير يُعقبه تدمير، وإعادة إلى الـ ١٩٧٠، عمرانيًّا وبشريًّا!

ثورة الحرية والكرامة زادت في تلاحم السوريين...

عزّزت ذلك وسيلةُ "التواصل الاجتماعي" المستحدثة (الفيسبوك): يَئِنّ المواطن المقيم من الألم، فيتلقّط أنّتَه مَن هاجر إلى القارة الجديدة.

السبت ٥-٤-٢٠١٣

ويعرّفني النظامُ بنفسي

قال النظام، بفظاظة، إني وأقراني من المواطنين سوف نقوم، إذا ما انتصرت الثورة، بأن نذبح –والعياذ بالله– إخواننا "المسيحيين" في بلدنا!

إنّ من حقي، أيها الأصدقاء، أن أَذْكُر أني كنت –في عهد الشباب الأول بحلب– وكنّا، أنا والأديب جورج سالم صديقين حميمين، وكذلك موريس جانجي وجورج طرابيشي. ولن أنسى صاحب المطبعة الظريف أنطوان لحلوح، الذي تولى طباعة أول كتبي "الشوق واللقاء" (١٩٥٨)، حتى إني استلهمت منه شخصية المطبعيّ في روايتي "رياح كانون" (بيروت ١٩٦٨) وسمّيتها "مسيو طوني". ومن أصدقائي بدمشق سهيل أيوب (الأديب ومترجم الروائع) وإسكندر لوقا (الذي أصبح من الإعلاميين في القصر الجمهوري).

واتهمني النظام أيضًا بأني سوف أساهم في ذبح إخواني "الدروز"، وإنّ من أصدقائي فيهم

المربية نايفة نصر (شقيقة شهيد حرب تشرين هلال نصر)، وابنتها لونا الشبل الإعلامية البارزة في القصر اليوم، التي كنت أرى صديقي شوقي بغدادي في ١٩٨٩ وهو يعطيها دروسا في العربية تزيد في مقدرتها.

واتهمني النظام بأني سوف أفعل الفعل نفسه بالمنتمين إلى الطائفة "الإسماعيلية"، وقد كان من أصدقائي فيهم، عهدَ الطلب في ثانوية المأمون بحلب أواسط الأربعينيات، الشاعر علي الجندي، وابن عمه عبد الكريم الجندي الذي أضحى ضابطًا كبيرًا زمن البعث، وانتحر أو قتل في ظروف غامضة عام ١٩٦٨.

واتهمني النظام بأني في إسلامي "وهّابي" الاتجاه. وقد كنت أعرف أنّ "محمد بن عبد الوهاب" من الأئمة الذين دعوا إلى نبذ البدع وتخليص الإسلام مما علق به من أوهام، فعدت إلى مصادري، فرأيت أنّ ممن تأثر بدعوته الأفغاني والشيخ محمد عبده، ولست معنيًّا بذلك، لأنّ لي اتجاهي ومذهبي في الحياة.

واتهمني النظام بأني أفكر بوحي من "حلف الناتو"، مع أني لا أزال أعبّر عن كراهيتي لهيمنة الغرب علينا، وأيضا عن مقتي للابسي الخاكي، الذين استطاعوا أن يُحيلوا شعلة الديمقراطية في حياتنا إلى رماد في أَتُون الديكتاتورية.

كيف يسمح النظام لنفسه بأن يُكيل هذه الاتهامات للمطالبين بالحرية والكرامة؟ وينسى أنه يقصف المواطنين منتظري الخبز على أبواب الأفران، ويقتل في هزيع من الليل الهاجعين في مساكنهم العشوائية، غير متورّع عن استعمال الفسفوري الحارق والكيماوي الخانق؟

يريد بغير الحقّ أن يُعرّفنا بأنفسنا... وينسى أن يعرف بالحقّ نفسه!

منتصف ليلة الأحد ٧-٤-٢٠١٣

بروتين للشعب السوري

زميلٌ لنا في ثانوية المأمون بحلب، غادرَنا بعد "الثانوية" (عام ١٩٥٠) إلى فرنسا، حيث درس الطبّ، وأقام وتزوج وتجنّس. وقد استجاب، بعد نحو عشرين سنة، لدعوة جامعة حلب، فجاءها واحدًا من أساتذتها البُناة.

في أثناء وجوده بدمشق يوم عاد إلى الوطن، أبدى عجبه أمام أصدقائه: كيف يعيش المواطن السوري على خمسين غراما من اللحم وسطيًّا في اليوم، وهو يعرف أنّ الفرد هناك يستهلك ثلاثمئة غرام أو خمسمئة! ولكنه بمعرفته استدرك: البركة في الخضار المتاحة بكثرة في بلدنا، ففيها من البروتين ما يكفي ويُوفّي.

اليوم، تحت وطأة القتال الدائر، وضآلة المساحات المزروعة وصعوبة العمل فيها بل الوصول إليها، شحّت الخضار وارتفعت أسعارها، وأصبح في حكم المستحيل على المواطن أن يغتني بها عن اللحم والشحم.

في نفسي، أيها الأصدقاء، لو أسأل صديقنا الذي أسهم في تأسيس كلية الطبّ في مدينته، الدكتور صبحي داية، ابن حيّ "المشارقة" الأشمّ بحلب: كيف يمكن للمواطن اليوم أن يستغني عن الاثنين، اللحم والخضار؟

ودِدْتُ أن أتوجّه بهذا السؤال إلى صديق الدراسة، لولا أنه أسرع في الرحيل عن دنيانا الفانية، وأنّ... وأنّ حيّ المشارقة -الذي اكتحلت فيه عيناه بالنور- قد هُدم، أبيد بأكملِه لدواعٍ أمنية، فهو منذ عشرات السنين أرضٌ يَباب، يطلّ عليها المبنى الذي يتّخذه حاكم المدينة مقرًّا له في ساحة "الكتّاب".

منتصف ليلة الإثنين ٨-٤-٢٠١٣

أَصيص الباغونيا المعلّق

مررت بالأمس من أمام بائع النباتات. استرعى انتباهي أصيصُ زهر معلّق، سمّاه لي زهر "الباغونيا".

حملته إلى حديقة بيتي. علّقته فوق البِركة، وجعلت أُديره بيدي، فيستجيب متلطّفًا، ويستردّ الدورة بأكثر منها، ويظلّ يدور. أتملى النظر من أوراقه الخُضر السميكة وأزهاره البيض الدقيقة، وأنا أشعر بالألم... ذلك أني كنت أتلقى أصوات القذائف وهي تجوب فضاء مدينتي.

لما وقع التفجير في "السبع بحرات"، رأيت الأصيص يسقط على حافَة البِركة، ويتحطّم.

ليل الثلاثاء: ٩-٤-٢٠١٣

«اكتب أني متّ»

كاتب سوري كبير، هتف عند منتصف الليل إلى صديق له، وقال:

أنت تؤرّخ للكُتّاب... اكتب أني متّ.

ما الذي دعاه إلى أن يقول هذا؟

منتصف ليلة الثلاثاء: ٩-٤-٢٠١٣

شاعر.. وطفل..

شاعر.. وطفل..

ضايقهم

أنه لم يكفّ عن إرسال تغريداته للحريّة

وتحت التعذيب مات

جاؤوا بالمقرّبين إليه

أرغموهم على أن يعترفوا

بأنه كان يعمل إرهابيًّا

طفلٌ

بصَقَ في وجوههم

فتدفّقَ من رأسه الدم.

ضحى الأربعاء: ١٠-٤-٢٠١٣

تحت الأرض

دون أوراق

يعيش بيننا

منذ عقود من السنين

قادمًا من أطراف الوطن

استأذنني أمس

أن يستعير اسمي

لأقبض له معونة آتيةً من الشمال

بعد القبض...

صَحِبني إلى "وجبة كَبَاب"

في مطعم

توخّى أن يكون تحت الأرض!

عصر الأربعاء ١٠-٤-٢٠١٣

وكان ضحكًا كالبكا

أليس عجيبًا أننا، ونحن نتنقّل -أنا وصديقي- بين شوارع العاصمة وساحاتها، كنا نتحدّث فنقول: هنا وقَعَ بالأمس تفجيرٌ أودى بحياة..... وهنا وقع قبله أو بعده آخر أودى.....

هل يصدّق عاقل أننا كنا نضحك، ونحن نتداول هذه "المعلومات" المؤلمة؟

ولكنه ضحكٌ كالبكا

وساعة دخلنا حارتنا، أحسسنا بسعادةٍ ما تتنزّل على القلوب، ولكن يشوبها ما يبعث على البكاء أيضًا.

ليل الأربعاء: ١٠-٤-٢٠١٣

حَتْفَ الأنف.. وحتف القصف

أكاديميّ، يتقدّمني في العمر، عرفتْه المنابر في الجامعات والمؤتمرات، ويرجع الباحثون والطلاب إلى مؤلّفاته، عمل في الوطن حتى استوفى السن القانونية، وانتقل إلى الجامعات العربية فاستوفى ما زاد على ذلك دون أن تنفد فيه سواقي العلم والعطاء. وقد توزّع في ذلك أبناؤه في أرجاء الدنيا.

كان قد أطلعني، في عام مضى، على مخطوطةِ سيرته الذاتية، في العلم والحياة، فراق لي منها

خاصة الصفحاتُ الأولى التي تناولت، بحميميّة بالغة الصدق والشفافيّة، معاناة الطفولة، فلم أملك إلا أن أحرّضه على المبادرة إلى نشر هذا الجزء منها، فلا يؤجِّل إلى ما لا يَعرف أحدٌ ما يكون، وإنما قصدت أن يطّلع الجيل الجديد على ضرب من المعاناة أفضى إلى تحصيل وتميّز.

مساء أمس خطر لي أن أهتف إليه أسأل عن حاله، فطلعت لي زوجته، وهي جامعية متميّزة وإن لم تبلغ شأوه، وحدّثتني عمّا فعلت به وبها الأيام والسنون، وطمأنتني عن أنّ ألزْهايْمر اقترب منه ولكنه لم يزعزعه، وذكرت لي قولة ما تزال تسمعه يردّدها: «أنا أنتظر حتفَ الأنف أو حتفَ القصف».

ولم يخطر لقلبي أن يحزن، وقد أدركني السأم، ولا لعيني أن تدمع... فإنّ تعبير "حتف القصف" استهواني ربما على نحو ما كان من إعجابي بصفحات الطفولة تلك: وجدته تعبيرا مبتكرًا، وصحيحًا، يزيد في لطفه السجع: الأنف والقصف!

لما عدت إلى نفسي وجدت أني مثل صديقي، أنتظر أحد هذين الحتفين... وخاصة حتف "القصف" الذي ما زلنا نتلقاه، أشكالًا وألوانًا، من الأرض ومن الجو، من الراجمات ومن السكود، انشطارًا وفسفورًا، أمام عين العالم المنافق، ورغم أنفه.

نعم. إننا نُمتحَن اليوم في وطننا بحتفين: حتف الأنف (الموت على الفراش، دون قتل أو تعذيب)، وحتف القصف!

مساء الأربعاء ١١-٤-٢٠١٣

تفريق وتجميع

قد يقع لشعبٍ أن يتعادى فيه أتباعُ أديان أو طوائف أو أعراق... ويحاول النظام التوفيق والتقريب.

وأمّا أن يعمد نظامٌ إلى أن يُفرّق بين فئات شعبه، مدّعيًا أنّ بعضهم ينوي أن ينقضّ على بعض. وذلك في الوقت الذي ترتفع هتافاتٌ من الشعب عالية: واحد واحد واحد، نحن شعب واحد...

فإنها لمفارقةٌ يُسجّلها التاريخ في عَجَب!

فجر السبت: ١٣-٤-٢٠١٣

أيام لم تكن في حسبان أبي

تسعة عشر من البنين والبنات أنجبهم أبي، ورحل، وتركهم يُنجبون.

في عالم "الفيسبوك" اليوم، يأتيني من يكتب لي: «عمّو! أنا حمزة السباعي»، فأسأله: «مين أبوك؟»، فأعرف. وتكتب لي إحداهنّ: «خالو! أنا هالة الخطيب»، فأسألها، فتجيب: «أبي ماجد، ابن شقيقتك ملك».

وأتوقّع أن يتصل بي من أمريكا مَن يكتب لي، أو يخاطبني على الهاتف متلعثمًا: «جدّو فاضل! أنا الطفل السوري "آدم ميداني"، ابن حفيدتك زينة، زينة بنت سهير، سهير اللي في فلوريدا»، فأقول له: «نعم، نعم... أنا والد جدّتك، يا آدم. وطنك الأمّ ينتظرك، متى تأتي؟».

رحِم الله أبي الذي لم يخطر في باله -وهو يُنجب- أنّ اقتتالًا سوف يدور، يغيب فيه حفيدٌ اسمه "سعود" لا يُعرف مصيره، ويتعرّض لمخاطر الموت في الجنديّة "أيمن" و"أنس"، تنتهي المدة والاحتفاظُ بهما قائم. ولا دار في ذهنه أنّ كثيرًا من ذريته قد غادروا الوطن، وانتشروا في بقاع الأرض. وأنا باقٍ شاهدَ عصر.

ظهيرة السبت: ١٣-٤-٢٠١٣

نَشرتُ ما لا يُنشر

يحدث لي، كما يقع لغيري من هواة التواصل الاجتماعي، أن تُطلب الصداقة من قبل أناس يتّسمون بالجِدّية، وأحيانا ممّن يفتقدونها لحداثة السنّ أو لغياب الثقافة، فأسأل عمّا إذا كان قد قرأ الطالب لي شيئًا من يومياتي، ومن ثَمّ أتخذ!

ولقد اتفق لي، غير مرة، أن فوجئت بوجه امرأة يزدهى بالجمال مقترنًا بفنّ في التصوير الفوتوغرافي، وكانت السيدة المعنيّة واحدة من هؤلاء، فوجّهت إليها سؤالي إيّاه، وكانت إجابتها بعد أشهر -وقد غاب موضوعها عن بالي- على نحو ما كان.

وإنّ من عادتي أن أعرض، أو أتبادل، الرسائل بيني وبين الخاصة من أصدقائي الذين أحترم ثقافتهم وفكرهم. وهذا ما كان ظهيرة أمس. إلا أنّ "فتور" الإنترنت مضافًا إليه خطأ مني، حَوَّلني إلى حيث أودعت هذه الرسائل في يومياتي، ولم يظهر لعيني ما يدلّ على "الإرسال" حتى أنتبه، وغادرت، ولم أعد إلا بعد منتصف الليل، وإذا بالرسائل منشورة، مفتوحة، في يومياتي، و"تعليقات"، و"لايكات"، و... "رسائل" ترد إلى حيث لا يقرؤها -هذه المرة- غيري.

يمكنني، أيها الأصدقاء، أن أتفهّم وضع الفتاة ذات المحيّا المغري بالتصوير، فهي تبغي استدرار عبارات إطراء تضيفها إلى رصيدها، وهذا ما افتقدتْه عندي على كل حال. ولكني، بصعوبة، أسامح إدارة "التواصل"، التي ماتزال تحرمنا من التواصل على وجهه الصحيح، ابتداءً من ظهيرة كلّ يوم حتى ما بعد منتصف الليل... وبصعوبة أكبر أغفر لنفسي زلّتي.

وتصبحون على الوضع الصحيح.

الساعة ٤:٣٠ من فجر الإثنين ١٥

الحبّ.. والحرب

عندما اشتدّ إقبالي على الكتابة والنشر في منتصف خمسينيات القرن الماضي، مسّت الحاجة إلى أن أقتني "الآلة الكاتبة". وقد واجهتني بعد ذلك مشكلة: أني فيما أبذل من وقت في الكتابة والتعديل والتبييض، يتعيّن عليّ أن أضيف إلى ذلك وقتا آخر مُكبًّا على الآلة، أرتّب الأوراق الخمس وبينها "الكربون"، وأشرع في الكتابة. في ذلك سألت صديقي وأستاذي الأديب الكبير خليل الهنداوي، فأفاد بأنه سعى يومًا إلى تعليم زوجته أمّ كمال (حفيدهما اليوم الناشط السوري في بيروت أنس كمال الهنداوي)، ولكنها سَرْعانَ ما "تمرّدت" عليه! وانتهى الحديث بضحكة.

أقول: وظلت الآلة الكاتبة "التقليدية" صديقتي على مدى بضعة وثلاثين عامًا... إلى أن استُحدث التنضيد الضوئي، فاقتنيت في أواخر الثمانينيات جهازًا يعمل على "برنامج صخر" المتداول. بعدئذ أسست دار إشبيلية للنشر، أنشر في ظلّها أعمالي الجديدة وأعيد نشر ما سبق، فاقتضى الأمر الاستعانة بمن يساعدني، فكانت الفتيات -من حسن حظهنّ وهل أقول من سوء حظي!- ما إن تبدأ إحداهنّ العمل في التنضيد وأعمال السكرتارية، حتى "ينطلق نصيبها" فتتزوج، فأبحث عن غيرها، وهكذا دواليك.

وبدا لي "الحبّ"، هذه العاطفة السامية، وكأنها تعاندني، فكتبت في ذلك مقالة سمّيتها «أيها الكاتب، هل تستعين بـ"سكرتيرة"؟»، نشرتها في مجلة "الأزمنة" الأسبوعية الدمشقية (العدد ٢٠٦، والتاريخ ٢-٥-٢٠١٠، ثم أعيد نشرها في "ورد الشام" منذ قريب. من قبل الصديقة غادة سمارة). ومما قلت فيها: إني ذهبت يومًا إلى اتحاد الكتّاب العرب بالمزّة، ودخلت مكتب التنضيد، كانت الصبايا منهمكات في العمل، سألتهنّ أن يرشدنني إلى فتاة تعمل عندي دوامًا جزئيا، فما ارتفعت إليّ عينٌ منهنّ، فلما أعلنت "شَكاتي" من أنّ ما من صبية عملت عندي

إلا تزوجت، ارتفعت أصواتهنّ: «أنا... أنا... عمّو... شغّلني عندك».

هذا عن الحبّ... وأما الحرب، أيها الأصدقاء... فاستمعوا!

مع ابتداء الاحتجاجات في البلاد، كان مشروع كتابي «قمر لا يغيب، من أدب الرحلات» (نحو مئة ألف كلمة في خمسمئة صفحة) قد تمّ إنجازه على يد المُنَضِّدة المقتدرة "أسمى"... ثم بدأت الحركة الاقتصادية في البلاد تتأثر بما يجري. هنا كان قد آن لي أن أدخل عالَم الفيسبوك، فجاء من يعلّمني المبادئ الأولية الشاب "مهنّد"، الذي أعلمني أنه يتهيأ للسفر إلى كردستان العراق -التي أضحت مزدهرة مثل لبنان- وعَهِدَ بإتمام المهمة إلى أخيه "مؤيّد"، الذي ما إن استأنف التعليم حتى أصبح متعذّرًا عليه المجيء إليّ لاضطراب الأمن في ضاحيته الغربية، فأسعِفتُ بالأستاذ أحمد، شاب متنوّر يحضّر أطروحة الماجستير في الأدب ويكتب وينظم وينشر، ولم أكد أسعد بتعاونه حتى انسحب بسبب اضطراب الأمن في الحيّ الذي يسكنه في الجانب الشرقي من دمشق!

ولم يبق لي أخيرًا إلا فتاتان من أصدقاء التواصل: "غادة" في دمشق، و"لينا" في اللاذقية، أسألهما عبر الرسائل، فتسعفاني بما تقدران عليه!

أجل. الحبّ، ونقيضه الحرب، كلاهما متآمر عليّ، وليس بينهما في الرسم إلا حرف واحد هو الراء.

منتصف ليل الإثنين ١٥-٤-٢٠١٣

مَقولات.. ومدّ

يُغرق الإعلامُ الناسَ بمقولاتٍ يُمهِّد لها، ويُواكب، ويتابع... بحِرَفيّة مشهودة...

ولكن ما لم يستطعه هو إيقاف المدّ...

منتصف ليلة الثلاثاء: ١٦-٤-٢٠١٣

"سفر بَرْلِكْ".. جديد

صديق لنا في "التواصل الاجتماعي"، اضطر أمس لأن يسافر من دمشق إلى حلب.

لما وصل انهالت عليه التهاني من كلّ حَدَب وصوب!

هل نحن في "سفر بَرْلِكْ" جديد؟

فجر الأربعاء: ١٧-٤-٢٠١٣

حين "يَندارُ" الرأس

ذات مرة، سمحت لي جارةُ ابني في "ضاحية دمّر" مدرّسةُ الأدب العربي الرصينة، أن أناقشها الرأي في منجزات ذلك الزعيم الذي مضى... وانتهينا إلى أن عبّرت: «أنت أدرت رأسي».

ولكنها رفضت بإباء أن أناقشها في مزايا "شيخ الضاحية"، خشية أن "يندار" رأسها. إلى أن قامت الانتفاضة، فكفرتْ به، وهاجرت إلى حيث تُندّد ولا تكفّ عن التنديد!

ضحى الأربعاء: ١٧-٤-٢٠١٣

أزهار.. تتفتّح

قبل بضعة عشر عاما قَدِمت إليّ من حلب إلى دمشق، طالبةُ آداب تُعِدّ "حلقة بحث"... وهي اليوم تلقي محاضراتها المتميّزة على طلابها في الجامعة التي تخرّجت فيها.

في جامعتها التقيتُ إحدى طالباتها، وقد تفوّقت على لِداتها بما أعدّته من حلقة بحث،

وهي اليوم تشرع في أطروحة الدكتوراه.

وتلك "الطفلة"، التي صَحِبها جدُّها صديقُ صباي يوما إليّ، وجلسنا في حديقة البيت، تعرض عليّ ما كتبت ليُنشر في "أسامة"... إنها اليوم تُدلي بأقوال وتُبدع مقالات في صفحة لها في التواصل الاجتماعي.

ثلاث... كنّ وأمسين، "شهلا" و"أماني" و"أميّة"... قادهنّ، يقودهنّ، طموحُهنّ إلى أن يصبحنَ كاتبات، دارسات، مبدعات.

أميّة، التي حيّتْني الساعة بكلمات تُعطّرها ذكرى وحضور، أراها تكتب اليوم (وهي في الصف الحادي عشر بعد) أجمل مما كنت أكتب وأنا في مثل سنّها. وأغلب الظنّ أنها ستكون في غدها كاتبة تُضاهيني، وليس إلا الأب -الحقيقي أو الروحي- مَن يسعد بأن يتفوّق عليه أبناؤه.

مساء الأربعاء: ١٧-٤-٢٠١٣

أعتذر للوطن.. لنسياني

هل تصدّقون أنها أنسَتْني "عيدَ الجلاء" يوم أمس، الدماءُ المسفوحة يومَ "٢٩ أيّار"... عفوا، عام٢٠١٢؟

كم ذا عليّ أن أعتذر للوطن!

فجر الخميس ١٨-٤-٢٠١٣

خبّرني الشُّحرور

الشُّحرور، الأسود الجسم الأحمر المنقار، اعتاد أن يزورني كلّ عام قادمًا من بساتين الغوطة. يقيم في حديقة بيتي، متنقّلاً بين أغصان الكبّاد. يأتيني ضيفًا في بداية الربيع ولا

يغادرني إلا مع انتهاء الصيف. أحادثه، أحاوره، وقد بتّ قادرًا على التقاط الكلمات عبر شَدْوه في جُمَله الطويلة المختلفة الإيقاع، ولا أجد صعوبة في تفسيرها. وهو -بالمناسبة- يفهم بالسياسة، التي تجري فصولها اليوم تحت بصره، في الضواحي التي منها تبتدئ الغوطة ممتدّةً شرقًا وغربًا.

جاءني هذا الربيع، وقد مضى على الانتفاضة عامان كاملان، ليُحدّثني حديثًا ما كان ليدور في خاطري قط!

قال: إنّ "النظام"، في إسرافه في القصف والتقتيل، إنما يريد أن يقدّم لجماعته أنموذجا، فكأنه يقول لهم: «انظروا! كما أفعل، سوف يفعلون بكم إنْ ظفروا! فالتفّوا حولي».

أعترف بأني خجلت أمام نفسي لأنّ هذا المعنى لم يخطر في بالي. ولكنْ خفّف من أمري أنّ الشحرور طير، فهو يحلّق ويحطّ حيث يشاء، ويمكنه أن يسترق السمع المرهف والنظر السديد دون أن يشكّ أحدٌ فيه. وهم حتى إنْ شكّوا، كيف يمكنهم أن يمسكوا به ويسوقوه إلى "فرع فلسطين"؟

ثمّ تساءلت: ولكن هل الشحرور الآتي إليّ هذا الربيع من الغوطة، هو مَن قال هذا "التفسير"؟

منتصف ليلة الخميس ١٨-٤-٢٠١٣

اسمك الذي اخترت

اسمك الذي اخترتِ "الأماني العذبة"، ذكّرني بقصة كنت كتبتها مطلعَ شبابي بعنوان "الأماني الحائرة"، نشرت في مجلة "العربي" (التي كانت حديثة العهد) ثم نزلت في كتابي "نجوم لا تحصى" (دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٦٢).

ولكن ما إلى هذا قصدت في دخولي صفحتك، بل لأقول: إني باق في دمشق (التي سكنتها قادمًا من حلب منذ خمسة عقود). وما أحرص على البوح به أنّ أفراد أسرتي، ذرّيتي، اضطُّروا إلى أن يغادروا دمشق، أن يغادروني، فرادى وجماعات... وسوف أكون فيها عما قريب وحيدًا، لكن "شاهدَ عصرٍ" متواضعا، على ما يجري تحت نظر عالم قد فقد الضمير!

دمشق الشام: مساء الجمعة ١٩-٤-١٣

عصر ذهبي.. لبعضهم

قبل اندلاع القتال كان "الموز" بخمسين، ومع ارتفاع الدولار أصبح بمئة وخمسين، وهو اليوم مفقود مفقود. وقد رأيتهم يومًا في ألمانيا (التي كانت غربية)، يدعمون استيراده وتوزيعه، لأنهم يعرفون أنه غذاء نافع للأطفال والشيوخ ولسائر فئات الشعب.

في أيامنا... بعض الباعة يرفعون الأسعار، ويطفّفون الميزان، وعند "الجمع" يزيدون. إن أعطيت أحدهم ورقة نقدية من فئة ما، حاول أن يوهمك بأنّ ما تلقى هو ورقة من فئة أقلّ. إنه عصرهم الذهبي!

لما جادلت في بعض هذا بقّالَ الحي، أجابني بابتسامة مزيّفة: «نحن في حيّ "الروضة" أستاذ!»، يعني أنّ سكان الحيّ أغنياء، وهذا جزء من الحقيقة... إلا إذا كان يومئ إلى أنّ "التفجير"، الذي وقع يوما في "الأمن القومي" وأودى، كان "مخمليًّا" حتى إننا لم نكد نسمعه!

لا أحسّ حرجا في التنديد بهؤلاء. إنّ كثيرًا منهم -دَرَوا أو جَهِلوا- متواطئون: سفاحون يَسلُبون الأرواح، وجشعون ينهبون الجيوب.

مساء الجمعة ١٩-٤-٢٠١٣

أن يكون الطريق.. آمنًا

ما زال صديقي، الذي يسكن في طرف آخر من العاصمة، يتحيّن الفرص لزيارتي، متتبّعًا الأخبار أن يكفّ "القصف" عن الطريق الذي يسلكه وصولاً إلى بيتي!

قلت له على الهاتف: «قد يكون طريقك آمنًا حين قدومك، ولا تأمن ذلك عند العودة».

واقترحت عليه، ضاحكًا، أن يجعل في حقيبته فرشاة أسنان وبيجامة، فعندي له بشكير وشحّاطة!

ضحكٌ كالبكا!

منتصف ليلة الجمعة: ١٩-٤-٢٠١٣

فرسان القرية

ثلاثة كانوا في قرية، في بلدة، في مدينة، ينتمون إلى أسرة انتماءَ عصبيّةٍ أو رَحِم. تمرّغوا في الحاجة وهم صغار، واستعانوا مِن رَبْعهم بما استطاعوا. شبّوا، نهضوا، تفرّقوا في البلاد، عملوا... وحازوا غنى وجاهًا قارَبَ أن يكون عريضًا.

كان "الفرسان الثلاثة" -هكذا سمّاهم أهل قريتهم- يتواصلون، عبر الهاتف، بالذين ظلّوا في الديار يكافحون في سبيل اللقمة المغمّسة والقضية الملتبسة. وكان من شأن التواصل بالنسبة للثلاثة أن يزيدهم إحساسا بالسعادة بما حازوا وبما قصّر سعيُ الباقين في الوطن عن تحقيقه.

لمّا اشتعلت الحرب، وأخذت القذائف تجوب الفضاء في وضح النهار وتسري في الليل مضيئة، وأرواحٌ تُزهق، وناجون يهيمون بحثًا عن المأوى، كفّ الفرسان الثلاثة عن الاتصال، بالهواتف المحمولة أو الأرضيّة، فلا أذنًا تسمع ولا قلبا يخفق، خوفًا من أن يُثير فيهم سماعُهم

للأنين قدرًا من الحنيّة.

وفي ذلك يقول أهل القرية بمرارة: «طيّب ليتّصلوا، ونحن نتحمّل كلفة المكالمة»، ثمّ يبصقون في الهواء!

مساء السبت ٢٠-٤-٢٠١٣

السكاكيني.. من دمشق إلى القاهرة

في عام ١٨٣٠ هاجر رجلٌ من دمشق الشام (يُعرف بـ"السكاكيني" لاشتغاله في صناعة الأسلحة البيضاء)، إلى مصر. ثم إنّ ابنه "حبيب" (المولود في ١٨٤٠(، والذي غدا طبيبًا مرموقًا، عمل على تشييد ما عُرف فيما بعد بقصر السكاكيني بالقاهرة، الذي قُدّر له أن يحوز شهرة واسعة، حتى إنّ الحي المقام فيه سُمّي بحي "السكاكيني".

أتى القصر من يوم إنشائه تحفةً معمارية غاية في الروعة، بما اتُّخذ فيه من فنون العمارة، الإسلامية والفرعونية والصينية أيضًا، إلى جانب فنون النهضة الأوروبية، واعتُبر الأنموذج المجسِّم لفنّ "الروكوكو[١]".

واليوم، قام الورثة الذين آل إليهم القصر، بالتنازل عنه إلى وزارة الصحة، ليكون أول متحف طبي في مصر. (تُرى صور هذا القصر في صفحة مؤرخ الفن يوسف نجار).

تجلّت لي، في سيرة هذا المهاجر الشامي إلى القاهرة "جبرائيل أنطون السكاكيني"، حقيقتان بديهيّتان وجوهريّتان في آن:

---

(١) أسلوبٌ في الزخرفة والديكور الداخلي والخارجي للمباني والأثاث. نشأ هذا المفهوم في باريس في أوائل القرن الثامن عشر، ولكن سرعان ما تم تبنيه في جميع أنحاء فرنسا ولاحقًا في بلدانٍ أخرى، وبشكلٍ أساسيٍّ ألمانيا والنمسا.

أولاهما: احتضان مصر لرجل أعمال شامي مبدع، ولذريته من بعده.

الثانية: أنّ هذه الأسرة المسيحية وأندادها، تعمل وتتعامل براحة وأريحية، في مصر وفي سائر الأقطار العربية، بصفتهم جزءًا من سَدى المجتمع ولُحْمته.

دمشق الشام: منتصف ليلة الأحد ٢١-٤-٢٠١٣

وفي الربيع يستفيق الورد

أرأيتم إلى الشعب: ينام على الضيم حينًا، ثمّ يستفيق مطالبًا بالحرية!

أعرف شُجيرات ورد، ظلّت في سُباتها طَوال الشتاء، تُرى أغصانُها وكأنها أعوادٌ يابسات. حتى إذا حلّ الربيع سرى في عروقها شوق الحياة، وتفتّقت عن ورود بلون الدم، تمنح عبيرًا أخّاذًا، وتستمرّ في العطاء.

مساء الإثنين: ٢٢-٤-٢٠١٣

"حزب الله"..

لنحاولْ، في لحظةِ تأمُّل وتفكُّر، الموازنة:

بين تصدّي حزب الله، للأعداء الإسرائيليين، بالأمس، وبين التعدّي، الذي يمارسه اليوم ضدّ أشقائه السوريين في "القْصير".

أين يمكننا، بعد الموازنة والمقارنة، أن نضع هذا الحزب، الذي يَنسِب نفسه إليه سبحانه وتعالى؟!

مساء الإثنين ٢٢-٤-٢٠١٣

هموم "مايا" في واشنطن

"مايا" طفلة جميلة جدًّا وذكية جدًّا وحنون، وُلدت في واشنطن لأبوين سوريين. كانت تزور الوطن كلّ عام، وتَنعَم بحنان الأهل كلّهم، وخاصة جدّها لأمّها الذي لا يفارق سريره، وجدّها لأبيها الذي تسمعه يتكلّم ولكنه هو لا يسمع حديث الآخرين.

عرفت وهي في واشنطن، أنّ قتالًا بين الناس أخذ يجري في وطنها. ثمّ جاءها خبر أنّ جدّها الذي لا يفارق سريره، دخلت عليه شظيّة من نافذة غرفته المطلة على الشارع فمات، فحزنت عليه حزنًا شديدًا.

وهي منذ وصلها الخبر تُعبّر عن حزنها أمام صديقاتها العربيات والأمريكيات، فتقول بالإنكليزية ما ترجمتُه: «أليس عجيبًا أن يكون لي جدّان، أحدهما يموت بشظية وهو في سريره، والآخر أكلّمه فلا يسمعني».

منتصف ليلة الإثنين: ٢٢-٤-٢٠١٣

عندما لا يقول الخطيب شيئًا

في كتاب بالإسبانية عنوانه "كتاب النوادر"، جمع فيه مؤلفه "لويس بينيدو" نوادر من كل مكان، كان منها أنّ طالب علم أُلجِئ إلى الوعظ، فلما اعتلى المنبر قال، بعد أن ظلّ صامتًا لحظة: «أنتم يا معشر الناس، هل تعلمون ما أودّ قوله؟»، فقال أحد الحاضرين: «بعضنا يعلم وبعضنا لا يعلم»، فقال الطالب: «فليُعلِم الذين يعلمون الذين لا يعلمون، وعندئذ تعلمون جميعًا».(كتاب "فضل الأندلس على ثقافة الغرب"، للبروفسور خوان فيرنيت، دمشق ١٩٩٧).

تلك النادرة اقتبسها المؤلف الإسباني من تراثنا العربي الواصل إلى الأندلس. وإني أعرفها

مذ كنت طفلاً، وهي منسوبة إلى "جحا"، الشخصية الظريفة التي ابتدعها العقل الأدبي وأودع فيها كثيرا ممّا اخترع من المُلح والنوادر. تقول النادرة-الأصل:

وقف جحا يومًا في الناس خطيبًا فقال: «هل تعرفون ما سوف أقول؟» قالوا: «لا»، قال: «إذا كنتم لا تعرفون فلماذا أقول ما لا تعرفون؟»... وذهب. ثمّ إنه جاءهم ثانية وقال: «هل تعرفون ما سوف أقول؟»، قالوا: «نعم»، فقال: «إذا كنتم تعرفون فلماذا أقول ما تعرفون؟». وفي المرة الثالثة تآمروا عليه، بعضهم قال نعم وبعضهم قال لا، فقال: «فليُعِلم الذين يعلمون الذين لا يعلمون».

لست أدري، وأنا أستحضر الليلة من الذاكرة هذه النادرة، التي يقف فيها الخطيب خطيبًا ثمّ لا يقول شيئًا... كيف ذكّرتني بخطباء في زمننا، هم لا يحترفون الفكاهة لكنهم يمتهنون العقول، يقف أحدهم أمام الجمهور ليقول، ليمنح وعودا للمتعطّشين، ثمّ لا يمنح وعدًا قط.

منتصف ليلة الأربعاء ٢٤-٤-٢٠١٣

مقايضة

أحقًّا يتطلّع الإيرانيون إلى التنازل عن "النووي"، لقاء أن تمكّنهم أمريكا من الاغتسال بمياه المتوسط؟

وأنّ عزمهم على امتلاكه، وصراخهم في وجه إسرائيل، ما كانا إلا مناورة لتحقيق هذه "المقايضة"!

فجر الخميس: ٢٥-٤-٢٠١٣

وأصبح "الدَّجّ".. صديقي

سَمْعي، بسبب السنّ، يخفّ. ولكنّ ذلك لم يحرمني من أن أسمع أصوات "الدَّجّ"، فالإطلاق يكون من وراء ظهري، من قمّة قاسيون!

أستيقظ على الدجّ... إنْ أَرِقْتُ فنهضت باكرًا، أو طرحني النوم الأليم حتى ارتفاع شمس النهار...

إن أطللت من النافذة أسمعه، أو نزلت إلى الحديقة أتمشّى تحت ظلال الكبّاد والنارنج...

إن وقفت أُعِدّ فطوري...

إن تناولت القلم، أو جلست أتواصل مع الأصدقاء...

وحين أتلقّى هاتفًا، فإنّ أصوات الدجّ تأتيني من هناك...

قد أصبح الدجّ صديقي!

ما لا أسمعه هو حَزّ الأعناق. فهذا بالصمت الجبان يكون، في ظلمة ليل أو في وَضَح نهار، فليس للسلاح الأبيض صليلُ السيوف.

ظهيرة الخميس: ٢٥-٤-٢٠١٣

حَرَدُ الوَرد

شُجيرة الورد عندي كريمةٌ سخيّة. ما إنْ يحُلّ شهر نيسان حتى تبدأ بالعطاء. أداوم على سقايتها كلّ ثلاثة أيام، وعندما يتزايد الحرّ كلّ يومين. وهي تأذن لي في كرمها بأن أملأ من ورودها المزهريّات، وأوزّع في غُرَف الدار.

ذات مرة غبت عن البيت. فلما عدت وجدتها وقد نال منها العطش فتشقّقت تربتها،

والورد تساقطت أوراقه، والأزرار يبست "على أمّها". بادرت أسقيها، أُغرقها بالماء، وأعود إليها متفقّدًا أذرعتها، أصابعها، قامتها، خدودها. عيونها، حواجبها... بدت لي حزينة حتى جذورها!

أعرف أنّ "الغناء" ينفع الأزهار، يستألفها، يُنشّطها، وكذلك الكلام. فصرت أغنّي لها أحلى الأغاني وليس صوتي بالرخيم، وأتوجّه إليها بالحديث المستفيض معتذرًا، في سويعات الصباح وعند الأصيل، ولم يبق لي إلا أن أعلّق فيها الرُّقَى والتمائم... وهي في حزنها وحَرَدها ما تزال!

ذات يوم... ظهرت فيها البراعم والأزرار، وعادت تُورِد، مالئةً الفضاء بعبيرها، متسلّلاً إلى غرف الدار.

النبات يَحِنّ، أيها الأصدقاء، وقالوا: والصَّوّان أيضًا.

فما بال النظام ما زال، منذ فرّق بغير الهراوات المظاهرات، يرمي البراميل ويرسل السكود عبر المسافات، لا ينفع معه غناء، ولا كلام، ولا يصل إلى سمعه الأنين!

عجباً من أين استمدّ هذه القسوة كلها؟

منتصف ليلة الخميس ٢٥-٤-٢٠١٣

إلى آية الأتاسي في عيد ميلادها

ولقد رأيتك، يا آية الأتاسي، امرأة من قليل من الناس الذين لم يَدَعوا اليأس ينال منهم، بل اتخذوا منه سُلّمًا يرتقون به نحو الهمّة العالية والمعاني السامية.

في عيد ميلادك أهنّئك من الأعماق، وأنت تجوبين الأوطان وهمُّك الأكبر الوطن الأم.

دمشق الشام: فجر الجمعة ٢٦-٤-٢٠١٣

ومرّوا من هنا

ومَرّوا.. من هنا!

أيها الحزانى

على إسقاط مئذنة الجامع الأموي بحلب!

لا تُسرفوا في أحزانكم

لسوف يُعاد بناؤها شامخةً

وأروعَ ممّا كانت

وقد انحفر في الصدور

وانكتب في السطور

أنّ غرباء

مَرّوا

ذات عام

من هنا!

مساء الجمعة ٢٦-٤-٢٠١٣

بيتها الذي في الشام

كانت "لمياء" ينتابها الضيق الشديد ساعة يتعيّن عليهم النوم. بعضهم لِصْقَ بعض ينامون، في غرفة واحدة، في هذه المدينة الغريبة التي حلّوا فيها، هي وأشقاؤها ووالداها، ويَهجَع في الغرفة الأخرى جدّاها المقيمان هنا منذ زمان.

حَلَمت لمياء أمس أنّ الحرب في بلدها قد انتهت، وأنّ إطلاق القذائف توقّف، وأنهم عانقوا الجدّين وعادوا.

لما وصلوا إلى البيت، جعلت تَرِنّ الجرس مصغيةً إلى ما يبعث من موسيقى. قبّلت الباب قبل الدخول. مرّت بالغرف مسرعةً. ثم أخذت تفتح خزائنها والأدراج، ترنو إلى ملابسها التي هجرتها، والألعاب... أحسّت أنها تذوب شوقًا وفرحًا.

هتفت إلى رفقاء المدرسة، الروضة والابتدائية، بناتٍ وصبيانا. أعلمتها "علياء" أنّ المدرسة نزلت عليها قنبلة ودمّرتها، كان هذا في يوم عطلة، وطمأنتها: «معليش لميا، ما راح عليك دروس! ».

لما استيقظت، ووجدت نفسها في سرير ملاصقةً لأختها، أخذت تبكي. وقالت لأمها: «أتمنى لو أنّ بيتنا أمامي، هكذا صغير صغير، أحضُنه وأبوسه».

قالت لمياء: «بيتي»، ولم تقل «وطني»، لأنها يوم اضطرّت إلى الهجرة كانت ما تزال في الصف الأول الابتدائي.

منتصف ليلة الجمعة ٢٦-٤-٢٠١٣

إسقاط مئذنة.. اغتيال تاريخ

مقاتلون أشدّاء، متحصّنون في القلعة المشرفة على حلب كلّها، بدا أنّ "المئذنة"، التي بقيت من الجامع الأموي بعد قصفه وإحراقه، لم تعجبهم، فأطلقوا عليها ونزّلوها على الأرض (يوم الأربعاء ٢٤-٤-٢٠١٣).

أتصوّر أنّ أحد هؤلاء الأشاوس، تساءل أمام رفاقه: ولماذا تبقى المئذنة بعد أن دمّرنا الجامع وأحرقناه؟ فردّ عليه رفيقه: هل ننزّلها؟... ونزلت.

اسمحوا لي، أيها الأصدقاء، أن أروي لكم هذه السالفة: في عام ١٩٧٦، عند اندلاع الحرب الأهلية بلبنان، روى لي الثقةُ، نقلاً عن مقاتل خاض تلك الحرب، أنه وزميلاً له كانا متمركزَينِ على الحدود التي قسمت بيروت إلى شرقيّة وغربيّة. في أثناء ذلك لمحا في الجانب الآخر ربّة بيت تنشر غسيلها: تتناول قطعة، تنفضها هكذا، ثمّ تنعطف على الحبل خارج البلكون وتُدلّي. في ثرثرتهما قال أحدهما للآخر: «شو رأيك أجيبها!»، وسدّد والمرأة منحنية، فسقطت مقتولة مرتين: مرة بالرصاصة وأخرى بالسقطة... ثمّ كان المقاتل القاتل يروي ويتباهى!

لا أبوح من أيّ جانب، شرقيّ بيروت أو غربيّها، كان التسديد.

ولكني أتصوّر، مرة أخرى، أنّ قاصف المئذنة من على ظهر القلعة، قد يكون ابنًا لذلك الذي كان ساهرًا على الحدود بين البيروتين: الأب الافتراضي قتل امرأة، إنسانًا فردًا، والابن اغتال تاريخًا.

فجر السبت: ٢٧-٤-٢٠١٣

سؤال بسيط جدًّا

بعد أن وصلتْ إلى "وادي خالد"، هاربةً من "القْصير" مع أبنائها الذين فقدت منهم اثنين، تتساءل أمام كاميرات التلفزة:

«كيف!

عندما كان يحارب إسرائيل كنا معه

اليوم يقتلنا

هل نحن إسرائيليون؟

كيف! »

نقطة أول السطر.

ظهيرة السبت ٢٧-٤-٢٠١٣

السويد.. تلك التي في أقصى الشمال

في الوقت الذي تسمح حكومة السويد ببناء مساجد على أرضها، ترتفع فيها المآذن، وتوافق اليوم على أن يُرفَع فيها الأذان عاليًا بصلاة الجمعة...

فإنهم هنا... من فوق القلعة يُسقطون مآذننا العريقة، ويُضرمون النار فيها تحتها، و...

ظهيرة السبت: ٢٧-٤-٢٠١٣

كنت فظًّا

أنا على يقين من أنّ قلبه يخفِق لنا، مع أنّ جسده دائمًا هناك، وهو لم يفكر يومًا في أن يغادر، فحبل الاستفادة والاستعانة موصول. ويوم بلغ السنّ اقترح، ووافقوا، أن يسجّل، يؤرّخ. وقد جاءني، صديقًا مقدِّرًا، لأكون من "ضيوفه": كنتُ، نشأت، كبرت... وتألّقت (!!). وأكّد لي أنه حرص على أنّ يكون "الضيوف" من "جميع الأطياف".

من الوجع الذي يتملّكني، صرخت به:

«أيّ تسجيل وأي تأريخ! إنهم دمّروا مدينتي، هدموا الحيّ الذي ولدت فيه وكلَّ ملاعب صباي! أحرقوا "الأموي"، الذي كنت أتردّد عليه طفلاً برفقة جدّي لصلاة التراويح، ثمّ لم يهنؤوا بأن يروا مئذنته باقية وبالأمس عاجلوها. وحمص، المدينة التي منها جاء جدي إلى حلب مستوطنًا، قسّموها، وهم ما زالوا يدمّرونها حيًّا بعد حيّ! وما أظنّ "أمويّك" هنا بدمشق، ناجيًا

إذا ما اقترب منه الموصوفون بالجناية والخيانة... وتأتيني، بعد عامين من سفك الدماء، تظنّ أنك تجرّني إلى... عالم الخلود! ».

كان يقاطعني: «إنه مشروع... ثقا... حضار..... ».

قلت: «ما يرمي إليه مشروعك هو "استئلافنا" في هذه الأيام الدامية... نحن حزانى، نحن رافضون».

وقلت، ولـمّا يهدأ انفعالي: «أعرف، أيها الصديق، أنّ قلبك ينزف ألـمًا مثلما هي قلوبُنا، وأعرف أيضًا أنه يصعب عليك أن تقتلع جسدك من هناك».

ولم تطاوعني نفسي في أن أعتذر له عن صراحتي الفظّة، فقد وجدت أنّ كلّ كلمة فيها مضمّخة بعطر الحقيقة!

منتصف ليلة الأحد: ٢٨-٤-٢٠١٣

أمويّون

تضاءل تهيُّبُها من الموقف عند سماعها السؤال الأول عمّا جعلها تختار "يمام الجامع الأُمويّ" عنوانًا لصفحتها في شبكة التواصل الاجتماعي.

دَعَوها أمس للمُثُول... فما نامت الليل، ولا نام الزوج والأولاد.

«وصورة اليمام، وهو يبيت ليلَهُ متلازًّا بعضُه إلى بعض، على طَنَفٍ[1] في جدار الأُموي... هل أردتِ بهذه الصورة أن ترمزي إلى أنّ الناس "متضامنون" ضدّ النظام؟».

وجدت نفسها، وهي مدرّسة التاريخ، عاجزةُ عن القول!

«ألم يرتكب الأمويّون المجازر؟! وتلك المجزرة الكبرى..... ».

---

(١) الطَّنَف والطُّنُف: ما يبرز عن الجدار في هيئة حافَة أفقية.

لم تتمالك نفسها... خُيِّل إليها أنها رفعت صوتها غير هيّابة:

«يا سيدي! في زمن الأُمويّين تمّ فتح العالم شرقًا وغربًا، والصُّروح الباقية ممّا شيّدوا في إسبانيا، ما تزال الحكومة هناك تتعيّش مما تدرّه من دخل قومي، يا سيدي! إني أدرّس هذا لطلابي في كلّ فصل».

وخيّل إليها، أيضًا، أنه فقد القدرة على الكلام... إلا من جملة خرجت غير متعثّرة من بين شفتيه: «تستطيعين الانصراف بأمان، يا سيدتي».

وعلى مبعدة هناك، كان زوجها قد أمضّه الانتظار، والقلق. وأخذها إلى صدره، على مرأى من المارّة، وفي عينه دمعة.

منتصف ليلة الإثنين: ٢٩-٤-٢٠١٣

مخاوف

كلما تذكّر "أوباما" الخطأ الذي وقع فيه "بوش الابن"، ازداد خوفًا من الوقوع في الخطأ!

مساء الثلاثاء: ٣٠-٤-٢٠١٣

مصر وسورية.. في المرمى

يوم اشتعلت الثورة في مصر (٢٥-١-٢٠١١) ثمّ تتابعت الأحداث، كانت قلوبنا تخفق تأييدًا لأحرار مصر الذين هبّوا، ثمّ إشفاقًا عليهم ونحن نرى سيارات النظام تندفع لتدهس المعتصمين في ميدان التحرير، والبغالَ والجمال تقتحم لينهال راكبوها على الناس ضربًا!

واليوم ما تزال قلوب المصريين الأحرار (منذ ١٥-٣-٢٠١١) تخفق تأييدا للسوريين، وتتمزّق حزنًا وإشفاقا وهم يرون آثار القصف، ويشاهدون قوافل السائرين نهارًا والسارين

ليلاً في البراري طلبًا لمأوى ينقذهم من الموت بالنار قبل أن يفكروا باللقمة يتبلّغون بها!

وقد أثّر في نفسي ما كتبته الأديبة المصرية المرهفة "رانيا أبو العينين" تعليقًا على خاطرتي "بيتها الذي في الشام" (٢٦-٤-٢٠١٣)، من أن كلّ حرف تقرؤه في خواطري يُدمي قلبها حزنًا على إخوتها السوريين، وتُفصح عن مخاوفها من أن يتحوّل حال مصر إلى مثل ما يقع في سورية بسبب عناد الطرفين، السلطة والمعارضة!

من ناحيتي أطمئن الأديبة المبدعة إلى أنّ ما يجري عندنا لم يقع مثيلٌ له من قبل ولا يمكن أن يقع بعد!

حرسَ الله مصر، وأنقذَ سورية.

منتصف ليلة الثلاثاء: ٣٠-٤-٢٠١٣

سوريّة.. يردّها إلى الوطن الشوق والحنين

قلت لها: «هل تغادرين، وتعودين من حيث أتيت؟»، قالت: «لا والله، أموت تحت القصف ولا أغادر».

كانت قد "هاجرت" من حلب إلى حيث ابنتُها في إحدى العواصم العربية. ظنّت أنّ الغربة التي تُمليها الظروفُ القاهرة لا تختلف كثيرًا عن الزيارة التي تحكمها الرغبةُ العابرة. ولكنّ ما وقع لها أنها ما إن استشعرت بالأمان حتى تحرّك فيها الشوق والحنين إلى الوطن الذي خلّفته وراءها، وإلى البيت، والزرعات تَسقيها وتُفلّيها. وما كان ليُخفّف من أشواقها أنها في حضن ابنتها الحنون، وأنّ الحفيد الصغير يُسائلها عند الصباح وفي آناء الليل: «جدّتي! هل أكتب رسالة باسمك إلى خالي بحلب، أقول له.....؟»، ثمّ يقوم يُنجز ما وعد.

واستبدّ بها الحنين إلى الوطن مع ما اشتدّ من القصف على الأحياء التي تكتنف مدينتها من

شرق وجنوب وشمال حتى دمّرها تدميرا. وأعلنت قرارها: العودة إلى الوطن مهما كانت المخاطر! ولكن لا مطار في حلب يستقبل، ولا في العاصمة، قالوا: «تنزلين في اللاذقية، فليس في اللاذقية ضجّةٌ». ولم تر وعثاءَ السفر شديدة بين الساحل وحلب. لمّا وصلت قبّلت الباب، وبعده أولَ جدار استقبلها.

بصعوبة استطعتُ أن أتلقّط كلماتها عبر الجوّال، الكليلِ الصوت حينًا ومعدومِه حينًا آخر.

«ما هذه الحياة؟ لا هاتف، لا كهرباء، لا ماء، لا غاز، والإنترنت يأتي ساعة ويغيب أيامًا! صار لي أسبوع أريد أن أكلّم بنتي بالقاهرة، أطمئنها عن وصولي! كلّمْها أنت من الشام، الوضع أحسن، الله يرضى عليك».

سألتها ممازحًا: «تعودين إلى القاهرة؟». قالت: «لا والله، أحبّ القاهرة، أمان وحنان. أموت تحت الأنقاض في بلدي ولا أغادر».

إنها شقيقتي، بنت أمي وأبي، "أمّ خالد"، المتوَزِّعُ أبناؤها في أنحاء العالم طلبًا للعمل والرزق، وليس لها بحلب إلا ابنها "سعد"، الذي امتزج شوقُها إليه بخوفها عليه، فجاءت تشاركه المخاوف والمخاطر!

ليل الأربعاء: ١-٥-٢٠١٣

ظلال الشجر

ذات شتاء جاء إلى الحارة رجالٌ يحملون شجرا، وغرسوه في حُفر على الأرصفة، ومضوا... كان ذلك في يوم عرفه أهل الحيّ بـ"عيد الشجرة".

اعتنى السكان بالغراس، ما مال منها قوّموه وما نَشَزَ من أغصانها قلّموه. ولم تكن بهذه الغراس حاجة إلى السقاية، فإنها ترتوي من الجوّ.

سَمَقَت الغراس وغدت أشجارا. فرح بها أهل الحيّ، أصبح على أرصفتهم أشجارٌ ذات ظلال تردّ شمس الصيف، وتقي شيئا ما من مطر الشتاء.

ذات عام... قامت حربٌ بين المحكومين والحاكم.

وذات يوم، ذات قَصْف، نزلت في الحارة قذيفة هائلة.

لم تَضِع الأشجار وحدها، ضاع أيضًا خَلقٌ كثير، رجالًا ونساء وأطفالًا، وراحت في ذلك بيوتٌ ودكاكين ومدارس. وقيل إنه كان في الحيّ أوكارُ إرهابيّين.

منتصف ليلة الخميس: ٢-٥-٢٠١٣

صداقة نشأت بيني وبين الأستاذ محمد حلال

صداقة نشأت بيني وبين الأستاذ محمد حلال، بصفته مديرًا مسؤولًا عن مجموعة مزدهرة هي "ورد الشام"، فيها يتبادل الأعضاء من الرأي بمقدار ما يتسامرون تخفيفًا من عناء الأيام.

فلما تلطّف، وتلطّفتْ معه المجموعة، باستضافتي، رأيته يمتلك كذلك فنًّا أخّاذًا في إبداع اللوحات الفنية المواتية.

التمست منه اليوم أن ينزّل اللوحة في صفحتي، اعتزازًا، فكان من أريحيّته أن بادر إلى منحي لوحتين اثنتين.

تحيتي له ولجميع الأصدقاء، الذين أتوقع أن يُمطروني الليلة بأسئلة، ألتمس منهم ألا "يُصعّبوها"!

الساعة الخامسة من مساء الجمعة الثالث من أيار

فنجان قهوة

من شرفة البيت المطلّة، كنت أرى ساعي البريد، الأسمرَ المتّخذ الزيّ الموحّد، وهو يدخل المجمّع السكني، متوجّهًا إلى حيث "صناديق البريد" المنتظِمةُ على جدار، وبمعالجةٍ منه تنفتح مغاليقُها دفعةً واحدة، فيودِع الرسائل حيث ينبغي، فإن كانت البعيثة مسجّلةً أو لم يتّسع لها الصندوق، قرع الباب، وسلّم، ومضى رشيقا محترما مثلما جاء.

خطر لي أن أسأل ابنتي، وأنا في ضيافتها بلوس انجلوس، عمّا إذا كانوا يَبَرُّون هذا الموظف الدقيق الأنيق، بـ"إكراميّة" بين الحين والحين؟ فأجابت بأنْ لا، ثمّ تساءلت: «ولماذا نعطيه؟ هو أساسًا لا يقبل، ولسانُ حاله يقول: لي راتبي!»، وأضاف صهري: «في المناسبات نعم، مثلاً إذا حمل لنا رسالة في يوم عيد، يمكن أن نقدّم له هدية وليس مبلغًا!».

يومئذ تذكّرتُهم، بيضَ البشَرة سودَ القلوب، المتسنِّمين وظائفَ ومناصب، يُعقّدون الأمور كي يظفَروا بحقّ "فنجان قهوة"، هذا الذي قد يوازي ثمن سيارة أو وحدةٍ سكنيّة أو يزيد عن هذا كثيرًا... وإنّ لهم في ذلك لوائحَ متعارفًا عليها، وبياناتٍ تفصيلية!

مساء الجمعة: ٣-٥-٢٠١٣

أصبح مؤكّدًا

أصبح مؤكّدًا أنّ الحزب، المنسوبَ اسمُه إليه سبحانه وتعالى، قادرٌ على أن يقتل من السوريين، في يوم واحد، ما يفوق عددُهم كلَّ مَن قتل من الإسرائيليين طَوال الثلاثين السنة الماضية.

ضحى الأحد: ٥-٥-٢٠١٣

حقيبة.. لسفر ضروري

مَن كان منهم ساهرًا، في هذه الليلة الربيعية، أسرع يفتح النافذة فيراها وهي تعبر السماء مضيئةً، ومَن كان نائما استيقظ على الضوضاء.

ولما تعاقبت الانفجارات تهزّ أرجاء المدينة كما لم يقع من قبل، خافوا أن تنزل عليهم قذيفةٌ تدفنهم تحت الأنقاض، فوجّهتهم أمّهم إلى الحمّام، فأقفلوا على أنفسهم. وفي الظلام أخذوا يبكون عاليًا، أملاً في أن يسمعهم... العالم!

في الصباح رأوا الصغرى تجمع حوائجها، وتسأل أمّها عن حقيبة. وقد اعتقدت أنّ السفر بات ضروريّا وقريبا.

مساء الأحد: ٥-٥-٢٠١٣

أطفالنا في زمن الحرب

استيقظ في الليل على ضجيج ملأ البيت، وخوفٍ، وبكاء.

رأى إخوته يتابعون من النافذة مرور قذائف في السماء، قالوا: إنها تُحدث خرابا وحرائق. وتسرّبت إلى سمعه كلمة "عدوّ"، سمعهم يقولون: إنّ العدو هو الذي أرسلها هذه المرة!

لم يشعر بكثير من الخوف. ولحظة استيقظ عند الصباح، رأى الهدوء يعمّ البيت، فسأل أمّه: «ماما، راح العدو؟».

ليل الأحد: ٥-٥-٢٠١٣

بلاد الشام

استقبال مهاجرين.. وإرسال مهجّرين!

كان من حظّ دمشق الشام أن تستقبل أفواجًا من مؤازرين لها في تصدّيها للفرنجة (الصليبيين) الذين احتلّوا في القرن الثاني عشر للهجرة (السادس الميلادي) أجزاء من فلسطين، وذلك في عهد الدولة "النُّوريّة" (نور الدين زنكي) والدولة "الأيوبيّة" (صلاح الدين الأيوبي)، فأنشأ المحاربون السلاجقة "حيّ سوق ساروجا" (شماليّ دمشق ذات الأسوار)، وأما المقاتلون الأكراد الأيوبيون فقد استقرّوا في لِحْف[1] جبل قاسيون فيما عُرف بحيّ الأكراد (إلى أن تغيّر الاسم إلى حيّ ركن الدين).

أقول: ولكنّ دمشق الشام استقبلت، في عمرها المديد الحافل بالأحداث، لاجئين كانوا قد اضطُّروا إلى مغادرة أوطانهم القريبة أو البعيدة تحت ظروف لا يملكون لها دفعًا.

من ذلك قافلة من أبناء فلسطين، يتزعّمهم "الشيخ عمر المقدسي"، نزلوا أولًا في ظاهر "الباب الشرقي" مدة، قبل أن يختاروا التوجّه إلى بقعة جرداء في سفح قاسيون أيضًا، وسكنوا مرحَّبًا بهم من أولي الأمر ومن أهالي دمشق، وسُمّيت منازلهم بـ"حيّ الصالحية" (نسبة إلى مسجد بناه واحد منهم اسمه أبو صالح)... وفيما بعد غنّى الدماشقة «ع الصالحيّة، يا صالحة... »!

ومن ذلك أيضًا أن استقبلت دمشق قافلة أخرى زمن العثمانيين، حين وقع اضطهادٌ على المسلمين في بعض أنحاء البلقان، فوجّه السلطان عبد الحميد إلى والي دمشق "ناظم باشا" أن يُؤويهم، فكان أن سكن أوائل المهاجرين سفح قاسيون مما يلي الصالحية غربًا، ثمّ لحقت بهم قافلة قادمة من "جزيرة كريت" سكنت بجوارهم باتجاه الغرب أيضا، والحيّ سمّي بالمهاجرين.

---

(١) اللِّحف: أصل الجبل.

ولن تفوتنا الإشارة إلى أنّ "الإمبراطور غليوم" (بروسيا، ألمانيا)، حين زار دمشق في تلك الأويقات (١٨٩٨)، قام الوالي يُمهّد "مصطبة" تطلّ على دمشق الجمال والعراقة.

ونذكُر أيضًا أنّ الدماشقة استساغوا إطلالة هذا الحيّ وهواءه العليل، فصعدوا إليه وقد أُحدثت "الترام"، يسكن الميسورون منهم جانبَي السكة، ويسكن متوسطو الحال ما ارتفع عنها قليلا، وأما الفقراء فقد تسلّقوا ما يُعرف إلى اليوم بـ"الجادّات العليا"، يبنون على أراض تعود ملكيتها للدولة.

إنه لأمر عجيب ما يسجّله التاريخ:

دولة تستقبل في عهودها، الناصعة، مهاجرين يأتونها من كلّ فجّ، وحكومة لا يمكن وصف عهدها بالنصاعة، تنكّل، وتُلجئ إلى الهجرة شعبَها، هذا الذي كان قد صوّت لها بما تجاوزت نسبته ٩٩٪!!

منتصف ليلة الأربعاء: ٨-٥-٢٠١٣

عند بيّاع الخُضَر

تقف أمام بيّاع الخضر لتشتري "آلة سلطة": حبّتين بندورة، خيارتين، قرنين فليفلة، جَرْزة نعناع، طرخون، ليمونتين... تقول في نفسك: لا يتعدّى ثمنها في زمن الحرب مئة ليرة.

ولكن البيّاع، صاحب الشاربين الثخينين، الذي لم يكتفِ بمضاعفة أسعاره، بل هو يطفّف الميزان، ويجمع ثمن هذه "المفردات" غلط، قبل أن يُعْلمك أنّ ما يترتّب عليك مئتان!

ولأنك تبدو أمامه في هيئة "خواجا"، فإنه يتعذّر عليك أن "تفاصله" أو تراجعه، وإلّا فستسمعه يقول في نفسه: خواجا آخر زمن! ثمّ لا يكون في جيبك "فراطة"، فتناوله "أمّ الألف"، فيردّ لك ثلاثمئة! تسأله مستغربًا: كيف؟ فيجيبك: مئتان ورددت إليك ثلاثمئة،

أعطيتني "أمّ الخمسمئة"! بحدّة تقول له: بل أعطيتك أمّ الألف. فيتظاهر بأنه يفكر، ثمّ يعلن: نسيت!

هل آن له أن ينسى خلال عشر ثوان، هذا الغليظ الشاربين، الذي أولى به أن يلتحق بمواكب المطالبين بالحرية، لا أن يتربّص في دكانه منتهزًا الفرص للغشّ والاحتيال في كلّ اتجاه. وآخر مبتكراته أن يظنّ أنه تلقى منك أمّ الخمسمئة. وعند المساء يقعد يَعُدّ غَلّته المتنامية بورم سرطانيّ.

أجل، إنها الحرب، التي تجرّد الذين فوقُ من إنسانيتهم مثلما تفعل في الذين تحتُ.

ليل الخميس: ٩-٥-٢٠١٣

كريستال

لم يكن يملك، في شبابه الأول، سوى راتبه موظفًا في الدولة. ولكنه، بعد أن التهبت كفّاه وبُحّ صوته، تعبّدت الطرق أمامه مفروشةً... بالكريستال!

سارعت إليه البرجوازيّة، الرثّة، تعرض خدماتها: فيلا يبنونها كما في الأحلام: مساحاتٌ وساحات، أقواسٌ وقناطر، وفي الجدران تماثيلُ محفورة، وفي الحديقة أخرى تَربِض على الحافَات ينفِر الماء من ثناياها نحو الأحواض... ثمّ آن لهم أن يهمسوا: الكريستال، يا سيدي!

سافر بنفوذه العظيم، إلى بلد الزجاج العظيم، يصحبه نفرٌ منهم. اختاروا وما احتاروا، وزادوا في الإنفاق. ثمّ عاد يدخل المطار شامخًا، تنفتح أمامه الأبواب، وتتذلّل الصعاب... وهم، الأزلام الرِّثاث، تطفح وجوههم بالسعادة، وقد سبقهم ويلحق بهم كريستال يُغطّي قصرًا.

لم تطل حياته. من النعيم -الذي لم يعتده- مات. من الفرح، من الغِنى. ولم يختلف الورثة

فيما بينهم إلا قليلا... ولكنهم أسفوا كثيرًا لأنه أسرف في التخلّي عن كلّ الكريستال لأولئك الأوباش!

وأنا وأنت، يا أخي المواطن، نأتي ونشكو من ابتزازٍ يمارسه في حقّنا بيّاع خَضْروات، لا يعدو أن يكون رملةً في بيدائهم الشاسعة!

منتصف ليل الجمعة: ١٠-٥-٢٠١٣

إشاعة

يوم اندلعت الانتفاضة تناقل الناس أنّ مسؤولًا كبيرًا قال في مجلس خاصّ له: إنّ النظام مستعدّ لأن يُعيد سكان البلد إلى ما كانوا عليه يوم تسلّم الحكم!

يومئذ ظنّوا أنها إشاعة لبثّ الرعب في النفوس... فهل يُعقل أن يُباد نصف الملايين الثلاثة والعشرين الذين يتكوّن منهم سكان البلاد؟

اليوم عرفوا أنّ ذلك الوعيد صحيح. فلم يكن المقصود تقليصَ العدد بالتقتيل وحده، لكن بالتنكيل أيضًا الذي يؤدّي إلى التهجير من البيوت، في القرى والمدن: بالهَيَمان على الوجوه في فيافي الوطن، وفي اجتياز الحدود إلى ما وراءها لاجئين. وعندئذ شيئًا فشيئًا تعود ملايين السكان إلى العشرة!

فجر السبت: ١١-٥-٢٠١٣

عند تمديد جواز السفر

بعد تلك الليلة الليلاء، قررت الأسرة المغادرة، فاكتشف الوالدان أنّ جواز سفر الطفلة وشيك انتهاء الصلاحيّة، فذهبا بها إلى الإدارة الأمنية المختصة لتمديده.

هناك رأت الطفلة شدة الازدحام، فأشارت إلى أمها ووشوشتها: «كلّ هدول خايفين،

بدهن يسافروا!».

ليل السبت: ١١-٥-٢٠١٣

مؤلمٌ... أن تأتي الصورة هكذا

أرى أنه لم يَعد المواطنون العرب، وفي مقدّمتهم السوريون، يشكّون:

• في التحريض على العنف الصارخ الذي ترعاه موسكو

• وفي ادّعاء المقاومة التي اشتغلت عليها طهران وحزبُها في لبنان طوال عقود

• وفي النفاق الفاضح في عواصم الغرب وفي طليعتها واشنطن

• وفوق ذلك، أو قبله، ضعفُ الأمة العربية الذي بدا متأصّلاً

أم أنّ اليد اهتزّت في رسم هذه الصورة الأليمة!

ظهيرة الأحد: ١٢-٥-٢٠١٣

عند طبيب الأسنان

صديقي طبيب الأسنان، مهتمّ بالسياسة مثل سائر أبناء الوطن، ولكنْ لا وقت عنده للتعاطي مع الشابكة. وإني، في تردّدي على عيادته هذه الأيام، أحدّثه عما أكتب، ملخّصًا له بعض ما أنشر، فيمنحني عبارات التأييد وابتسامات الرضا.

اليوم تراءى لي أن أحمل نسخة ورقيّة من خاطرة الظهيرة: "مؤلم... أن تأتي الصورة هكذا!". لمّا قرأها تجاوزت البسمةُ عنده إلى الضحك العريض... ثمّ سألني بفضولٍ راقَ لي: كيف تَرد هذه الأفكار على خاطري؟ فكان جوابي أني جاريته بضحكة صدرت من الأعماق!

أحرص، أيها الأصدقاء، على بيان أنْ ليس في فمي طقم أسنان صناعي، ولكني أركّب

جسرًا!

مساء الأحد: ١٢-٥-٢٠١٣

كان يا ما كان

كان يا ما كان

أيها النظام

كم أنت متعطّشٌ للدماء!

أما آن لك أن ترتوي؟

كم أنت مولَعٌ بالخراب!

أما آن لك أن تكتفي؟

ولكنّ منطق الأشياء يقول:

إنك سوف تزول

وتستمرّ الأرحام في العطاء

يُعمِّرون

ويقولون: كان يا ما كان...

منتصف ليلة الأحد: ١٢-٥-٢٠١٣

تساؤل

كيف يمكن لأحدنا أن يضحك

أن يبتسم

ونحن نسمع

في كلّ ساعة من ساعات النهار والليل

في كلّ لحظة

أصوات القذائف

تدكّ البيوت حولنا

بيننا

تقتل

وتهجّر الناجين

يبحثون عن مأوى...

كيف؟ كيف؟

ليلة الأحد: ١٢-٥-٢٠١٣

شبّيح.. في حديقة عامة

تواعدتُ وصديقًا لي (كاتبا ومترجما) للتلاقي في حديقة ابن سينا (منتصف "أبو رمّانة"). ثمّ اتفق لي أن وصلت قبيل الموعد أو أنّ صديقي تأخّر قليلاً. وجدت المقاعد التي تظلّلها الأشجار في سويعة الضحى هذه، مشغولة إلا واحدًا، كان يقتعده رجلٌ قد استراح فيه مفرِّجًا ساقيه وكأنه يقول للمتجوّلين في الحديقة: هذا المقعد لي وحدي!

سلّمتُ، واستأذنت في أن أشاركه الجلوس في هذا المقعد الثلاثي، فجاءتني منه الموافقة بطيئة... فمنحني استئثارُه بالمقعد، وتفريجه الساقين، وتباطؤه في الردّ، فضلاً عن شكله

المتشعِّث، الإحساسَ بأنه واحد من... الشبّيحة!

وفي جلوسي في هذه الحديقة الصغيرة الأنيقة، التي تقع في حيّ "السِّفارات" كما يطلقون عليه، كان لا بدّ من أن تتلقى أسماعُنا أصوات القذائف "السداسيّة العدد"، تطلَق على الأحياء السكنية بهدف القضاء على أوكار الإرهابيين، فتنقضّ على البيوت، وتقضي على ساكنيها، وتشّرد مَن بقي منهم حيًّا.

هنا سمعت مَن شاركته الجلوس في المقعد، يشتم الإرهابيين... الذين يخرّبون البلد، مستمدّين سلاحهم من أعداء الوطن، فتأكّد لي أنه شبّيح بامتياز، ولعله يريد أن يجرّني إلى حوار غير متكافئ، فصحّ عزمي على أن أمسك لساني فلا أناقشه الرأي!

وجاء صديقي، وقف أمامي مسلّمًا، وتلطّف الرجل فأوسع له مكانا للجلوس إلى جانبه الآخر، وتابع تنديده. وفي حماسته في القول، كان ينحني بجذعه -وهو يتوسّط ما بيننا- إلى أمام، فيُتيح لي بذلك أن ألتقي من وراء جُمجمته وجهَ صديقي... فغمزتُه بعيني غمزة!

بعد انصرافه، قال صديقي: «دون ما تغمِزني، من شكله مبيّن شبّيح! (ثمّ تساءل) وهل تظنّ أنه لا يعرف أننا لا نشاطره الرأي، وأنه يصنّفنا من الإرهابيين؟!».

وضحِكنا حتى سالت دموعنا... ونحن ندرك أنه ضحك كالبكا!

ليل الأربعاء: ١٥-٥-٢٠١٣

حنتوش

قصة من الأدب الخيالي عنوانها «حنتوش» ألّفتها طفلة بدوية فلسطينية اسمها «صالحة حمدين» (١٤ سنة). فازت بجائزة عالمية.

صالحة حمدين طفلة بدوية من فلسطين فازت بجائزة هانز كريستيان الدولية للقصة

الخيالية من بين ١٢٠٠ عمل من جميع أنحاء العالم عن قصتها "حنتوش".

اسمي صالحة، أنا من مدرسة (عرب الجهالين)، أعيش في خيمة صغيرة في (وادي أبو هندي)، عمري ١٤ سنة. في النهار أدرس في مدرسة القصب، وقد صنّعوها من القصب لأن الجنود أعلنوا أن أرضنا منطقة عسكرية مغلقة، حيث يتدربون على إطلاق النار في منطقة الزراعة.

يعيش معنا في الخيمة سبعون نعجة، وأقوم أنا بحلبها بعد أن أعود من المدرسة، وأصنع الجبن ثم أبيعه لأهل المدينة.

الطريق هنا وعرة لأن الجنود يمنعوننا من تعبيد الطريق، ويتدربون على إطلاق النار في الليل، وأنا أكره صوت الرصاص، أكاد أُجَنّ منه، فأهرب، نعم أهرب.

لا يوجد لدي دراجة هوائية، لأن الطريق وعرة، ولا سيارة عندي ولا طيارة، لكن عندي شيء أستخدمه للهروب. اقتربوا، اقتربوا، سأوشوشكم[١] سراً، عندي خروف يطير اسمه "حنتوش"، لونه أسود وأذناه طويلتان، له جناحان سريّان يخبئهما داخل الصوف، ويخرجهما حين أهمس في أذنيه يا حنتوش يا خروف، أَطْلِعْ جناحيك من تحت الصوف أغني في أذنيه، فيما يبدأ الجنود بالتدرب على إطلاق الرصاص، وأركبه ويطير بي. والبارحة هربنا إلى برشلونة.

سنقول لكم شيئاً، في (وادي أبو هندي) لا يوجد ملاعب أصلاً، لأن الأرض مزروعة بالألغام.

وفي (برشلونة) قابلنا "ميسي" صاحب الأهداف الكبيرة، لعبنا معه لساعات طويلة، خروفي "حنتوش" كان واقفًا حارساً للمرمى، وأنا أهاجم "ميسي" وفريقه، أدخلنا في مرماهم

---

(١) أهمس في أذنكم.

خمسة أهداف.

أراد "ميسي" أن يضمني أنا و"حنتوش" إلى فريق (برشلونة) لكننا رفضنا، نريد أن نعود إلى (أبو هندي) لأن الأغنام هناك تنتظرني، فلا يذهب أحد غيري ليحلبها، فأبي في السجن منذ ست سنوات وبقي له تسع عشرة سنة. سأقول لكم سراً: أخبرني "ميسي" أنه سيزور (وادي أبو هندي) بعد سنتين.

سنقيم مونديال ٢٠١٤ في (وادي أبو هندي)، سننظف معاً الأرض من الألغام، وسنبني أكبر ملعب في العالم، وسنسميه "ملعب حنتوش"، وسيكون الخروف شعار المونديال.

وأهلاً وسهلاً بكم جميعاً في (وادي أبو هندي)، نحن جميعاً بانتظاركم.

علّقتُ هناك قلت: فاضل السباعي: «قد أدمعتْ قصتُك عيني، يا صالحة حمدين... هل لأن سورية أصبحت مثل فلسطين؟»

مساء الخميس: ١٦-٥-٢٠١٣

الإبادة.. والتغيير

لم نقرأ في التاريخ مرة أنّ نظاماً أباد شعبه...

ولكنّا قرأنا كثيرًا أنّ شعوبًا غيَّرت أنظمتها إلى الأفضل.

مساء الخميس: ١٦-٥-٢٠١٣

الفنانة مي سكاف اليوم مساء [منقولًا من صفحتها]:

قامت عناصر الأمن ظهر اليوم باعتقال الفنانة الحرّة ميّ سكاف أثناء ذهابها لمنزلها في مشروع دمر. وقد أعلمت الفنانة ميّ ابنها على هاتفها أن عناصر الأمن أخذوا بطاقتها

الشخصية وأنها تنتظر. وبعد ذلك أغلق هاتفها الخلوي.

بعد ساعات:

مي سكاف حرة الآن، الحمدلله على السلامة.

دمشق الشام: ليل الخميس ١٦-٥-٢٠١٣

نعم، يُصْلح العطارُ ما أفسدَ الدهرُ

ما زال أهل الحكم الشمولي يَعيبون على الربيع أنه لم يُؤتِ ثماره في الدول التي فاز فيها، وساد.

وما أرى تعييبهم هذا إلا وليد فكر قد نما وترعرع في ظلال تلك الانقلابات، التي كان يُتلى من الإذاعة عند الفجر بلاغُها «رقم واحد»، ثمّ يُعقِبه تكميم الأفواه، المصحوبُ بوعود للفقراء بأن يعيشوا زمنا رغدا، وبأن يُرمى بأعداء الوطن خارجًا، فترتفع القامة القومية عاليًا. ثمّ... لا يلبث الناس أن يروا رفاق السلاح يقتتلون بعضهم مع بعض حتى الموت، وأنّ فقر الفقراء في ازدياد، وأن شيئين اثنين يمتلئان في صميم المجتمع حتى الكِظَّة: السجون، والجيوب!

في ربيع الحريات، أيها السادة، يتاح للأزهار كلّ الأزهار أن تورق وتزهر فتتفتّح بعد انغلاق واختناق، وتزدحم الطرقات بالمطالبين بالحريات، وبالتوزيع العادل للثروات، وبمحاسبة النظام الذي ذهب... وليس وقتٌ قليل يتّسع لتحقيق هذه المطالب الجسيمة!

هل أذكّر بأنه كان على الثورة الفرنسية، في عام ١٧٨٩، أن تطوي عقودًا من سنين قبل أن تُؤتي ثمارها؟... فيها قَطَع "رفاق الثورة" أعناق بعضهم بعضا بالمقاصل لا المناجل، ونشبت حروب أفضت إلى كروب، واستردّ النظام الذي باد أنفاسه وعاد. وما ذاق الشعب الفرنسي

طعم الحرية الحقّ إلا عام ١٨٧٨، فيه ابتدؤوا عهدا سمّوه "الجمهورية الأولى"، وكان من حظي أن حضرت، وأنا في باريس عام ١٩٧٨، احتفالهم بالذكرى المئوية الأولى له.

وأُطمئِن القلوب الخافقة الخائفة بأنّ ربيع العرب سوف يختصر تلك المدة اختصارًا، لأنّ أدوات الزمن قد تغيّرت.

نعم... إنّ الربيع يُصْلح ما أفسده الشمولي.

منتصف ليل الجمعة: ١٧-٥-٢٠١٣

على كوكب واحد

في مكان ما من العالم، اجتهد العلماء في أن يعالجوا ذلك الدُّوَار الذي يعتاد بعض الحوامل أحيانًا، خلال الأسابيع الاثني عشر الأولى من حملهنّ، فتوصّلوا إلى أنّ العلاج يكمن في مزيد من الراحة للحامل، وفي تناولها غذاء مخصوصًا حدّدوه، فتضع الحامل طفلها سليمًا معافى، ولأنّ هذه العلّة تنتاب الحوامل في سويعات الصباح، فقد سمّوها دُوَار الصباح.

في مكان آخر من العالم، شاع أنّ رجالًا أشدّاء ينقضّون بالسكاكين على الحوامل، وعلى الوالدات حديثًا وقديما، وعلى الأطفال أيضًا، يذبحون ويبقَرون البطون، في سويعات الصباح وفي آناء الليل ووضَح النهار.

المفارقة... أنّ معالجة الحوامل من دُوَار الصباح بالراحة والغذاء المنتقى، وأن الذبح وبَقْر البطون بالسلاح الأبيض، ذلك كلّه يقع على كوكب واحد في هذا الكون، وفي الآن ذاته!

أليس هذا عجيبا... أم أنه غير عجيب!

منتصف ليلة السبت ١٨-٥-٢٠١٣

بلد يسمّى مهد الحضارات

قبل أن يُحكِم لسانُها النطق، وجدت نفسها مع والديها في ديار الغربة، فكانت تتعلّم لغتهم وتتربّى على ثقافتهم بمقدار انصرافها عن لغتها الأمّ وجهلِها إرثَ الأمة الحضاري.

وإنها لتذكر -وهي في سنوات الصبا- عندما كان التلفاز يَعرض ما تعرف أنه يخصّ أباها، تُهيب به: «تعال اسمع، يا أبي، إنهم يتحدّثون "عنكم"!».

ذات عام، وهي طالبة بالجامعة، وقفت على كتاب فيه ما يتعلق بـ"وطن الأبوين"، يوجز التاريخ ويتوسّع بالآثار... يا إلهي! أيّ صُروح، وآثار، وتُحف، ومتاحف، وليس في الوطن الذي تحيا فيه ما يُضاهي!

وآن لها أن تستيقظ.

كانت، من قبل، نادرًا ما أبهَجَها اصطحابُها للوالدين عند زيارتهما لوطنهما. لكنها، بعد أن عرفت أنها تنتمي إلى وطن فيه مِن تراكم الحضارات ما يجعله جديرًا بأن يُسمّى "مهد الحضارات"، صارت تُلحّ في أن يتجوّل بها والداها في طول البلاد وعرضها، لتملأ العين، وتلتقط الصور، وتعتزّ... والأب يُصبّرها: «يا بنتي، حضاراتُ ألوف السنين، لا يمكنك أن تُحيطي بها في زيارة صيف واحد، تحتاجين إلى أصياف».

فجأة... والقمر يفرُش نوره الفضيّ على أرض الوطن، رأتهم يتقاتلون، والطائرات لا تكتفي بقتل البشر، بل تتعدّى إلى قتل الحجر النبيل. وتسمع أنّ قطعًا، تُحفًا، تباع في سوق النخاسة العالمية!

وضاقت الدنيا بما تملَّكَها من الخواطر والأفكار!

منتصف ليلة الأحد: ١٩-٥-٢٠١٣

الطفل.. وحيدًا من بيروت إلى القاهرة

لأسباب خاصة جدًّا، اضطرّت الأسرة إلى أن يسافر حفيدي فاضل بن فراس السباعي (خمس سنوات) من بيروت إلى القاهرة وحيدا.

كان معتدًّا بنفسه ويحسّ بالمسؤولية. لما رأى والده وهو يحزم حقيبته، مال نحوه جدا حتى استغرب الأب، فقال الصغير: «حتى أعرف كيف أفتحها بمصر«.

تلقّته المضيفة بمطار بيروت بحنان، ورحّب قائد الطائرة بأصغر مسافر في رحلته فأدخله حجرة القيادة يتفرّج.

أطفالنا يتفتّحون على المعرفة والعلم حتى وهم في الجوّ، وأيضا... على القصف الذي يرونه آتيًا من الجوّ!

دمشق الشام: منتصف ليلة الإثنين ٢٠-٥-٢٠١٣

وتشريد كونيّ

كان قد حصل، بعد الجهد، على جواز السفر الأمريكي المرغوب فيه في هذا الزمن، ولكنه لم يشأ أن يقيم هناك، آثر العودة إلى أسرته في الوطن وباشر العمل.

هبّت رياح الحرب، توقف شغله. أسرع يستحصل على تأشيرة سفر لأبنائه الثلاثة وأمّهم، وتعذّر أمر الطفل الرابع لقصور في الإجراءات، رافق ذلك عجزه عن تسديد ما يترتّب عليه من أقساط للمصرف، فحجزوا، وأضافوا منعَه من مغادرة البلاد.

فرأى أن يبعث الأسرة إلى أمريكا عند مَن يخصّه هنالك، البنات الثلاث وأمهنّ، وأما الصبيّ، فكيف يحصل له على تأشيرة ولم يعد في البلد قنصلية لهم، وممتنعٌ عليه هو السفر إلى القنصلية التي في بيروت؟

ودخول الأسرة إلى أمريكا محكومٌ بسنتين هما صلاحية التأشيرة التي لم يبق منها إلا أيام. والطفل يوجّهه إلى القاهرة، حيث سبقت العمةُ للإقامة هناك في زمن القتال الدائر، وذلك ريثما يفكّ هو منع المغادرة.

وتتحرّك الأسرة، أمس، إلى بيروت، مَن يملكنَ التأشيرات، مصطحباتٍ الصبيّ، الذي ودّعوه قُبيل منتصف الليل إلى مصر المحروسة، وامتطينَ، بُعَيد المنتصف، متن الريح باتجاه الغرب... والأب، في عاصمة الوطن، يرصد، ويُدير، ويترقّب.

ويبقى سؤال: إذا ظلّ متعذّرًا فكّ منع مغادرته، فما حال الطفل بالقاهرة، التي لا تمنح قنصليتُهم التأشيرة إلا بحضور الوالدين أو أحدهما؟

إنها الحرب، التي تمزّق شرايين الأجساد بالقتل والتدمير، وتقطّع شرايين الأسر بتشريدها بين القارات.

حقًّا إنها حرب... "كونيّة"!

منتصف ليلة الثلاثاء: ٢١-٥-٢٠١٣

أسئلة إلى... سيد المقاومة[١]

هل تظنّ أنك، في خَوضك القتال اليوم، تتصدّى لتحرير "شبعا"، أم أنك تتعدّى على "القصير"، المدينة الوادعة التي احتضن أهلوها الكرام لاجئيك عام حربك تلك، التي ما انتهت إلا بعد أن بَصَمتَ على وضع حدٍّ للمقاومة، فلم تطلق بعدئذ على العدوّ رصاصة واحدة؟

لتعلم أننا في بلاد الشام، نحترم -رغم اختلاف الرأي- المذهب الجعفري من خلال

(١) يقصد حسن نصر الله اللبناني.

شيعيِّين لبنانيين تاريخيين، "صبحي الطفيلي" و"علي الأمين" و"هاني فحص"... وأما أنت...؟

ثمّ دعني أسألك: هل أنت مسلمٌ حقّ، أم أنك طائفيّ ما زال ينفخ في رماد فتنة يريد أن يوقظ ويُثير ويؤجّج؟

وسؤالٌ آخر ما زال يقرَع سمعي: هل أنت عربيّ النِّجَار، أم منحدرٌ من أصول فارسيّة؟

وسؤالٌ أخير: هل تحلُم بأن تتبوّأ -بعد نفاد زيت خامنئي- منصبَه، فتبسط ذراعيك فوق المنطقة شرقًا وغربًا لتحمي الشيعة -حسب قولك- وتصون مقدساتهم؟

ليل الأربعاء: ٢٢-٥-٢٠١٣

طفولة وأمومة

طفولة وأمومة

مع أنهم، هناك

يُقدّرون الطفولة ويُقدّسون الأمومة

فإنّا نراهم يمرّون، هنا

بقوافل الأطفال والأمهات

وكأنهم عُمْيٌ بُكْمٌ لا يفقهون...

عجبًا!

ليل الخميس: ٢٣-٥-٢٠١٣

«لا».. التي ترتفع في لبنان

عندما أحسّ المتردّدون والمنافقون بالخطر

قرّروا الانضمام إلى الغيورين على لبنان

وبدأت ترتفع منهم كلمة «لا»!

ظهيرة الجمعة ٢٤-٥-٢٠١٣

عنادل الزمن الأخير

كانت العنادل كلما حطّت على الضفاف في أدنى النبعة، يرتشفنَ بمناقيرهنّ الصغيرة قطرات تَبُلّ الظمأ، جاءهنّ من فوق نعيقُ الغِربان: «أنتنّ تُعكّرنَ الماء علينا! ».

هذه المرة صعدت رفوفُ العنادل غاضبةً إلى حيث الغربان...

تقول الحكاية: إنّ ما أثار عجبَ الغربان أنهم رأوا العنادل وقد نشبت لهنّ مخالبُ فبدَوْنَ وكأنهنّ من جوارح الطير!

وتقول الحكاية أيضا: ولكنْ لم يُثِر عجبَ العنادل كثيرًا أنْ رأينَ الغربان وقد تآكلت مخالبُهم!

ليلة الجمعة: ٢٤-٥-٢٠١٣

هواجس.. كبيرة

الهاجس الأكبر عند «الإنسان الغربي»، المتمتّعِ بحريته والمستمتع ببحبوحة من العيش، هو الابتكار، وتصديرُ مخترعاته، والتحكّم بالعالم».

الهاجس الأكبر عند «الإنسان العربي»، هو أن يستخلص، بأسنانه وأظفاره، حريتَه المنهوبة من حكامٍ، هاجسُهم الأكبر التحكُّمُ به وإخضاعُه إلى الأبد».

ليل السبت: ٢٥-٥-٢٠١٣

كم ذا علينا أن نسامح غدًا

كان كلما قرأ أصدقاءُ لي أدباً قصصيًّا ممّا ظللت أكتب على مدى عقود من سنين، بادروا يتساءلون مستعجبين ومعجبين... من أين تأتّى لي ذلك الحَدْسُ الذي مكّنني من أن أرى، وأن أنقد وأندّد، بما يصدر عن الجانب الذي إليه ينتسبون، من أخطاء كانوا يرونها "منجزات" يصفقون لها ويترنّحون طربًا!

أقول: غدًا، في ظلال الديمقراطية الآتية على الطريق، المغمّسة بالدم القاني... كم ذا علينا أن نتقبّل اعتذارات، من مصفقين ومترنّحين، وممّن كانوا يُغمِدون الخناجر في حناجرنا، وخواصرنا... وأن نسامح، ونغفر!

منتصف ليلة السبت: ٢٥-٥-٢٠١٣

التغيُّر الصعب

في سنين مضت، تعذّبتُ كثيرًا مع بعض الأصدقاء والمعارف، في حوارات خضتُها... ما كان لها أن تنتهي إلا إلى تأكيد قناعتهم بأنه... "سيد المقاومة والممانعة"!

ومنذ بدأت الاحتجاجات في الوطن، بدؤوا يتغيّرون.

وهم اليوم ما بين مُتوار لا يريد أن يظهر لي، وبين قادم إليّ متعثّرَ الخطا، وبين نادم... أتلقى منه، عبر الشابكة، كلماتٍ تَنْدى بالخجل، ما يُملي عليّ إسقاطَ العتاب!

هل كان ينبغي أن تصل الجحافل إلى المدينة المضيافة، وأن تمرّ السكاكين على الرقاب، حتى تأخذ القناعة الصحيحة مداها؟ فأين هي الرؤية، والرؤيا، واستشفاف الزمان؟

منتصف ليلة الأحد: ٢٦-٥-٢٠١٣

اقتحام وطن

لو يعلم الشيخ هناك أنه، باقتحامه وطنَنا، يرتكب فاحشتين تاريخيّتين:

- أولاهما تواطؤه على قهر شعب يُجاهد لنيل حريته.
- والثانية أنّ ذلك منه بدوافع طائفية مذهبية بالمطلق.

ونحن ندرك أنه يعمل بأمرٍ من تلك الدولة، التي ما فتئت تتطلّع إلى الاغتسال بمياه المتوسط، أملاً في الانطلاق نحو شمال القارة السمراء لتحقيق حلم باستعادة مجدٍ كان قد وَمَضَ في حين من الدهر وخَبَا.

منتصف ليلة الإثنين: ٢٧-٥-٢٠١٣

زارني ظهيرة اليوم تلميذي وصديقي

زارني ظهيرة اليوم تلميذي وصديقي الأديب وطالب الدراسات العليا أحمد عمر، قاصدًا مدّ يد العون لي في بعض ما ينقصني من تقنيات الشابكة. وقد استطعت أن أستفيد منه أيضًا بأن قام -وساعدته في ذلك- بإعداد طبخة حلبية، وتناولنا الغداء معًا في حديقة بيتي المتواضعة، ونحن نستمع إلى ثرثرة النافورة في البحرة، والقلبُ يُنزَف ألمًا لما يجري في الوطن من أحداث!

الإثنين: ٢٧-٥-٢٠١٣

كَرْبلاءُ جديدة

وتخلّى عنه أصحابُه، فمكّنوا مستخِفًّا من أن يقضي عليه في كربلاء العراق. ولما فطنوا إلى تخاذلهم أخذوا يَلطِمون بالأيدي الصدور، وبالحديد يَجلِدون الظهور.

اليوم... يتحوَّل أناسٌ، شاؤوا أن يروا في أنفسهم ضحايا الأمس، إلى "جلادين"، فهم يتداعَون لاجتياح مدينة صغيرة اسمها "القصَير"، فتتساوى الشناعةُ في الأمس واليوم، والفارق:

• أنّ الناس، كلّ الناس، في القديم، استهجنوا قتل السِّبْط الكريم، وسمَّوه "أبا الشهداء".

• وأنّ بعض الناس، في زمننا، يُسَوِّغون ذبح الأطفال والنساء والشيوخ، انتقامًا لمصرع الحسين يظنّون، وتعجيلا لقُدوم المنتظر يعتقدون.

نسمّي الفاعل هناك: يزيد كربلاء، وبيننا اليوم مَن سوف يضاف اسمُه إلى تلك المدينة الحديثة في بلاد الشام.

ليل الثلاثاء: ٢٨-٥-٢٠١٣

جلسة وادعة في حضن بيت عربي

منذ الصِّغَر، أذكر، ويستحيل أن أنسى، تلك الجلسة في "الليوان" (ذي الثلاثة جدران دون الرابع)، في دارنا العربية بحلب، في ليالي الصيف، في ثلاثينيات القرن الماضي...

أمامنا صحن الدار تتوسّطه البركة، وتظلّله أشجار النارنج والليمون والرمّان، وتحنو عليه دالية واعدة، وينتشر في الأرجاء عبير الياسمين والورد وزهر العسلية.

خمس صور، التُقطت في بيتي أمس، ونزلت في صفحتي (قبل أربع وعشرين ساعة منذ الآن)، ما بين وقفة أمام موقد الغاز، وجلسة وراء طاولة الكتابة، و..... ولكنّ أكثر ما استأثر باهتمام الأصدقاء المتصفحين هو تلك الجلسة الوادعة، على الأريكة، في حديقة البيت، كنا فيها نصغي إلى تغريد النافورة، تتساقط منها حبّات الماء، وتنتشر على السطح مثل حبّات لؤلؤ.

ولكن... كان يصاحب ذلك كلَّه، أيها الأصدقاء، قَصْفٌ من راجمات صواريخ، يَهدِر في

سماء دمشق الأمويين...

أيام سود يسجّلها التاريخ بمداد أشدّ سوادا من كلّ ما سجّل في ماضيه وما قد يسجّل في أيامه الآتيات.

دمشق الشام: العاشرة من ليلة الأربعاء ٢٩-٥-٢٠١٣

كيف تضحكون

هل تصدّقون أني كلما صدرت عني ضحكةٌ، أو كلمة مزاح، أو كتبت ما يُسَرّي عن النفوس... هبط عليّ شعورٌ بالإثم، بأني أخون شعبي؟

إذ كيف تُطاوعني النفسُ بالضحك، وأنا أعلم أنّ قذائف تتساقط في أنحاء الوطن، تقتل النائمين والساهرين، وتدمّر البيوت والحارات، وتحرق المحاصيل والغلال... واليومَ العملُ جار لإبادة مدينة وادعة اسمها "القْصير"؟

كيف يمكن أن يكون في بيت جارك عزاء، وأنت في بيتك تُحيي حفلة طرب!

هل تسمعون؟

كيف تضحكون!!!

منتصف ليلة الأربعاء ٢٩-٥-٢٠١٣

لماذا تقوم الثورات؟

عندما تظهر فيهم قامة، وإن كانت صغيرة، فإنهم يبادرون إلى احتضانها، ويفرُشون في دربها الأزاهير.

فإذا ظهرت عند غيرهم قامة، ورأوها فارعة، أسرعوا إلى ملء طريقها بالأشواك، وإغلاق

الأبواب، وتقليم الأظفار، وقصّ الشعر، والأنامل، و.....

كل شيء لهم... ولنا الفتات.

هل عرفتم لماذا تقوم الثورات في العالم؟

ليل الخميس: ٣٠-٥-٢٠١٣

موسكو... في ربيعَين

في ربيع "براغ" ١٩٦٨، كان شعارهم بسيطًا جدًّا: نريد أن يحكمنا من هم أفضلُنا... فجاءتهم دبابات موسكو السوفياتية، وسحقتهم!

اليوم... يحاول قيصرٌ قصير ظهر في موسكو في مطلع القرن العشرين، أن يسحق، بأسلحته المتطوّرة جدا، ربيعَنا الأخضر!

منتصف ليلة الخميس: ٣٠-٥-٢٠١٣

دبّ روسي آخر

بعينين غير مغمَضتين، يرى لافروف الميليشيات الأجنبية تغزو بلدنا من غرب ومن شرق، وبلدُه الحنون ترسل، أو تَعِد بإرسال السلاح المتطوّر إلى النظام، ثمّ... ثمّ يتشدّق بالحديث عن السلام، الآتي من أمام!

هل يضحك، ما زال يضحك، الديبلوماسي الروسي، على ذقوننا!

وهو ذا "الائتلاف" يتخذ فجر اليوم قراره المتعلق بحضور "جنيف٢"!

ليلة الجمعة: ٣١-٥-٢٠١٣

الياسمين.. والبارود

أخذت الياسمينة عندي حرّيتَها. استطالت حتى وصلت إلى شرفة الجيران، استقبلوها بأن جعلوا من فروعها عريشة بدا عطاؤها يضاهي ما تسخو به الأمّ.

في الصيف، هذا الذي يشتدّ حرّه، أرى ياسمينتي تُجَنّ كلما جُنَّ الليل. عبيرٌ يتسلّل إلى غرف البيت، ويقتحم منازل الجيران، وينتشر في أرجاء الحارة... ولحظة يملأ الصدور يُصلّون على النبي، ويَدْعون بالخير للذي يتعهّد السقاية والعناية.

أقول لكم؟ في النهار تُقصف البيوت والحارات، نعم...

ولكن مرة -أحدّثكم بما وقع لي- وأنا تحت الياسمينة في هزيع من الليل، هَدَر في سمعي قصفٌ مريع، فتخيّلت سقوفًا تنهار على الرؤوس، وناجين يَهيمون على وجوههم، وأتتني -أعترف لكم- رائحةُ بارود معجونةً بدماء الأبرياء، بدلاً من عبير الياسمين الشامي!

منتصف ليلة الأحد: ٢-٦-٢٠١٣

الجمع بين المتناقضات

من المتناقضات، التي استطاع النظام أن يجمع كلّ اثنين منها فوق سطح واحد، أنه جعل في البلد غِنًى فاحشا وفقرا مدقعا، أغنياءَ يلعبون بملياراتٍ قد أودعوها المصارفَ العالمية، وفقراءَ مقهورين دأبوا على أن يَقبُروا أوجاعهم في الحُلوق.

وممّا وُفّق فيه النظام أخيرًا... أنّ المواطن بات يرى، في حيّ من أحياء المدينة، أرواحًا تُزهق تُشيّعها الآهات المخنوقة، على حين أنه يَسمع، في الحيّ المجاور، أصواتَ أفراح وليال ملاح، حيّةً أو مبثوثةً من التلفاز، وكأنْ لا حربَ، ولا أرواحَ تصعد إلى السماء، ولا هَيَمانَ في العَراء

لناجين يبحثون عن مأوى.

إنها البراعة في الجمع بين المتناقضات!

مساء الإثنين: ٣-٦-٢٠١٣

أدب النزوح

لأنها تسكن في منطقة أقلّ توتّرًا، فقد جاءها العشرون، نازحين يستظلّون فيأها. خصّصت غرفة الأطفال للنساء، وللرجال غرفة الجلوس، ولها ولأطفالها الثلاثة وزوجها تلك الغرفة الصغيرة الداخلية... ثمّ تعيّن عليها -كما تقول الكاتبة- أن تُعيد ترتيب حياتها اليومية مع هذا العدد من المفجوعين: فتحت خزانة ملابسها، وبذلت ألعاب أطفالها، وأقامت مع النساء "عيشًا مشتركًا"، بدءًا من إعداد الطعام، ومرورًا بتنظيف البيت، وليس انتهاءً بانتظام الأطفال سويعة الصباح أمام باب الحمّام، وبسماع أحاديث الرجال في السياسة والحرب!

اكتشفتُ، أيها الأصدقاء، هذه القصة في أثناء تجوّلي في صفحات الأنصار والمحبّين. لم أكن سمعت باسم الكاتبة. سحرتني بسموّ عواطفها وتماهيها مع الآخرين. وما أبرعها في تقديم الحوادث، والتعبير المرهف! بادرت أكتب لها معبّرا عن أسفي لتقصيرنا تُجاه الأجيال الطالعة، التي نراها تحفِر بالريشة البارعة، مغمَّسةً بالمداد العذب، تُحرّكها أنامل غضّة، ويُنيرها فكرٌ ممتدّ!

سوريّةٌ من شمال شرقيّ البلاد، الحسكة. والاسم ميرفت. تسكن وزوجها فنان الكاريكاتير بدمشق. خسرت بيتها تحت القصف. تأتّى لها أن تنزح إلى ما وراءَ الحدود، أن تلتجئ. زادها النزوح معرفةً بالنزوح وبانكسارات الحياة، فأنضج فنَّها على نار غير هادئة، فعجّل دون أن يَحرق. تقول لي: «أكتب بشهية».

أُسَمّي ما تكتب "أدب النزوح". القصة عنوانها «ضيوف الحرب». واسمها -لا تنسَوه-

«ميرفت أحمد» سوف يكون له شأن.

دمشق الشام: منتصف ليلة الثلاثاء ٤-٦-٢٠١٣

ضيوف الحرب

قصة قصيرة - بقلم ميرفت أحمد

عندما دخلوا بيتها كان لكل منهم حكاية مختلطة بالدمع والخوف، حكايات مختلفة ومتشابهة في وقت واحد. جاؤوا بما عليهم من ثياب وهموم. صفعات الحرب على وجوههم لا زالت واضحة، فالحرب لم تكن ضيفًا طارئاً عليهم، لقد كانت سائحًا أعجبته البلاد فقرّر الإقامة فيها.

فتحت تيماء بيتها لعشرين شخصًا دفعة واحدة بعد أن فقد هؤلاء العشرون بيوتهم وأشياءهم بسبب الحرب فاضطروا للإقامة عندها كونَها تسكن في منطقة أقل توترًا.

نزوح داخلي كبير، وفائض من الحزن والضياع يحتمي في بيتها الآن. لم تستطع إلّا أن تقدم لهم كل شيء دفعة واحدة، ربما لأنهم فقدوا كل شيء دفعة واحدة أيضًا.

أعدّت غرفة أطفالها الثلاثة للنساء، وجعلت غرفة الجلوس للرجال. وضمت أطفالها إليها في غرفتها الصغيرة مع زوجها.

صار للحياة شكل آخر وتفاصيل جديدة. أوضاع كهذه جعلتها تفكر كثيرًا في مساعدة هذا الكم الهائل من المفجوعين وإعادة ترتيب حياتها كزوجة وأم مع عائلتها بشكل مختلف هذه المرة.

لم تكن تيماء ممن يغلقون الأبواب، لقد فتحت أبواب بيتها كله وخزانة ملابسها أيضًا.

اختلطت مع النساء في إعداد الطعام وتنظيف المنزل في عيش مشترك لأناس جدد وأطفال

كثر وضجيج أكثر.

لم تستطع إلا أن تواسي هذا وتعزي تلك، أن تخلق فرحا صغيرا للأطفال وتقوم بتوزيع ألعاب أطفالها عليهم.

لم تكن تعلم أنها بهذا العطاء تفقد سيطرتها على البيت وعلى أطفالها الذين تغيّر مزاجهم مع مرور الأيام وأصبحوا يتصرفون بلا مبالاة.

كانت تشعر بالضيق عندما تفتح دفاتر أولادها المدرسية لترى صفحات كتابة الوظائف ممتلئة برسوم أولاد أعمامهم، ثيابها أيضا كانت تتنقل من امرأة إلى أخرى مع الكثير من أشيائها الخاصة.

يبدأ الصباح عندها في الانتظار أمام باب الحمام. طابور من الأطفال كان في المقدمة، تنبيهات وأوامر من الأمهات، وأصوات رجال يتحدثون في السياسة والحرب.

لم تدر كيف بدأت الأمور تتعقد، فقد بدأت المشاكل الصغيرة بين الأولاد، وكانت تمتد أحيانا لتصل إلى الكبار.

لكن تيماء لم تستطع أن تخفي خوفها عندما بدأت أصوات الاشتباكات تقترب من بيتها. وما زاد الأمور سوءا الحاجزُ الذي تمركز في طرف حارتها. كل ذلك كان محتملاً، لكن أن تسقط قذيفة في الشارع الذي تسكن فيه هو ما جعل الجميع يصاب بحالة هلع كبيرة. ماذا يفعلون الآن؟ إلى أين يهرُبون هذه المرة؟

مع دويّ صوت القذيفة الأولى عندما كان الجميع نيامًا، قفزت تيماء من سريرها لتتفقد الموجودين الذين بدؤوا بالصراخ والدعاء والبكاء. دون أن تفكر قالت لهم: «ادخلوا جميعًا إلى غرفة نومي فهي بعيدة عن الشارع».

ركض الجميع إلى الغرفة، وسادت دقائق من الصمت. نظرت تيماء إليهم كان على كل

زوجة أن تجلس في حضن زوجها بينما يتكوّم الأطفال حولهما. قالت إحدى النساء لزوجها هامسة وهي ترمي بجسدها السمين في حضنه: «والله اشتقت لك!». ثم أغرق الجميع في الضحك، بينما كانت القذائف تمطر بعيدًا.

في ذلك الوقت كانت تيماء تبكي وهي تنظر إلى وجوه أطفالها التي أصبحت تشبه بشكل كبير وجوه أولاد عمهم.

الانتصار.. في "القُصير"

وقد تحقّق الانتصار في دخول مدينة "القصير" أرضًا محروقة، في الخامس من حزيران عام ٢٠١٣.

ترى... هل يمحو هذا الانتصار خسارتَنا للجولان، التي وقعت في هذا اليوم عينه قبل ستة وأربعين عامًا؟

مساء الأربعاء: ٥-٦-٢٠١٣

اقرؤوا... لاجئون في حاجة...

قرأت الليلة في إحدى شبكات التواصل ما رأيت أن أنقله إليكم، أيها الأصدقاء، لنتشارك معًا في الإحساس بالألم، غُصَصًا في الحلوق ودموعًا في العيون!

• عائلة نازحة (في مدينة عربية)، الزوج مجروح، عندهم طفلان، في حاجة إلى أُجرة بيت... للتواصل: الفيديو..... الإيميل.....

• زوجة شهيد وأمّ شهيد، ابنها البكر متصاوب بقدمه بخمس طلقات نارية، في حاجة للمساعدة في أُجرة البيت... للتواصل...

• عائلة تسكن في مخزن، لا معين لهم، في حاجة للمساعدة في أُجرة المخزن... للتواصل...

• نازحون ١١ شخصًا، يسكنون في مخزن، في حاجة للمساعدة بأدوات كهربائية وأُجرة المخزن... للتواصل...

• نازحة تعاني من ديسك في الرقبة وزوجها مريض بالتهاب مفاصل، في حاجة للمساعدة لتأمين الأدوية... للتواصل...

• عائلة نازحة، الطفل يعاني من حالة عصبية ونفسية، يأكل لسانه وأصابعه، أخذه أبوه إلى عدة أطباء لم يجد أي نتيجة، العائلة في حاجة إلى تبني علاج الطفل... للتواصل...

وفي أثناء ذلك يُسجّل المشرف على الصفحة سخرية: هل تعلمون أن جمعيات الرفق بالحيوان تملك صلاحيات وإمكانيات أكبر من منظمات حقوق الإنسان!

وقرأت شكرا واحدا موجّها إلى متبرّع بمئتي دولار... فهل أهملت الشبكة توجيه الشكر إلى متبرعين كبار بَدَوا حريصين على كتمان أسمائهم، أم أنّ هؤلاء لا وجود لهم بين المتبرّعين؟

منتصف ليلة الأربعاء: ٥-٦-٢٠١٣

قليلًا من الفرح.. للزمن الآتي

يفرحون في دمشق، ويوزّعون الحلوى في الضاحية، احتفاءً بالسيطرة على مدينة صغيرة داخل حدود الوطن.

طيّب... ليُبْقُوا شيئا من الفرح يمارسونه إذا ما قُدّر لهم، لنا، أن نستردّ تلك البقعة الغالية من أرض الوطن، التي حظي بها العدوّ منذ عقود من سنين.

فجر الخميس: ٦-٦-٢٠١٣

خطوة مجنونة

ليس لأحد أن يظنّ أنّ القادمين من وراء الحدود -في وطْئهم ترابًا هو بالجغرافيا ليس لهم- قد حققوا للنظام كسبًا أو انتصارًا.

ولعلّهم بما فعلوا قد أظهروا احتياجَه وضعفه، بمقدار ما استعادوا هم تقليب تلك الصفحات الأليمة من التاريخ، والتي جَرَت الأمم على طيّ مثلها. وهم نشروها، وكأنهم يريدون أن يمسحوا الجرح بالملح!

ولا أرى أصحّ من وصف حكيم فيهم، اليوم، عملَهم بأنه «خطوة مجنونة»!

منتصف ليلة الخميس: ٦-٦-٢٠١٣

يا أستاذ الحسين قيسامي

ما هذه الهجمة الجميلة للنشر عندكم من قبل الكاتبات السوريات المتميّزات إحداهنّ وراء الأخرى! «هند مرشد»، «لبنى ياسين»، «ميرفت أحمد»...

ما ذاك إلا لانفتاح الصدر ههنا... ولكني أتمنى تجاوبا من المتصفحين.

أحيّيك، وأحيّيهنّ.

دمشق الشام: منتصف ليلة الخميس ٦-٦-٢٠١٣

العدل أساس الملك

الحاكم، الذي وثق به السلطان فأقطعه حلب والمدن المجاورة (عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م)، مَن تُسمّيه كتب التاريخ "قسيم الدولة"، كان هدفه الأول هو القضاء على ما للفاطميين من نفوذ في بلاد الشام، وكان أن بدأ باستئصال الفوضى والتخلص من الفاسدين. وفي عهده تمّ

القضاء على اللصوص وقُطّاع الطرق، فاطمأنّ القادمون والمسافرون، وعاد الاستقرار إلى حلب، ونَشِطت التجارة.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ "قسيم الدولة" كان يتابع بنفسه القضاء على قطاع الطرق. وقد أقرّ في ذلك مبدأ المسؤولية الجماعية، بأن فرض على أهل القرية أو المدينة، التي يُسرق فيها تاجر أو قافلة، أن يدفعوا قيمة ما سُرق. وفي ظلّ تطبيق هذا المبدأ جعل الناس يُسهمون في إحلال الأمن. وكان من شأن ذلك -تقول المصادر التاريخية- إنه إذا دخل تاجر بلدًا ووضع أمتعته إلى جانبه ونام قرير العين، فإنّ أهل البلد يقومون بحراسته، وحمايته حتى يغادر حدود بلدهم!

وقد أدّى الأمان الذي شهدته البلاد في عهد هذا الأمير السلجوقي (الذي خَلَفَه ابنُه عماد الدين زنكي ثم نور الدين)، إلى عودة الناس إلى التجارة وتنشيطها في جميع الأرجاء، فأُغرقت أسواق حلب بالبضائع الواردة من جميع الأقطار، ورخُصت الأسعار، وعاش الأهالي في أمن ورغد.

منتصف ليلة الجمعة: ٧-٦-٢٠١٣

في ديمقراطية الثقافة

قبل أعوام أصدرتُ الطبعة الثانية من رواية لي تحكي كفاح أمّ مات عائلُها مخلِّفًا لها أطفالًا وقليلاً ممّا يتابعون به العيش الكريم. وقد أخذت نسخة من هذا الكتاب، الذي نشرتُه في دار استحدثتُها لنفسي بعد عزوف المؤسستَين الثقافيتين الكُبريين في بلدي عن التعامل مع نتاجي الأدبي نشرًا وتوزيعا، ومضيت إلى المنظمة الشعبية التي تنطِق باسم المرأة في وطني، أملاً في تشجيع يُفضي إلى أن توضع الرواية في فروع المحافظات، ليقرأ بعض الناس سيرة امرأة، أسرة، لم تنحنِ لأحداث الزمان، وظلت تمشي في طريق الاستقامة... حتى إنّ الأمّ سُمّيت "أمًّا

مثلى" في حفل أمام الجمهور.

وقد انتهت مقابلتي مع المسؤولة الثقافية في هذه المنظمة، إلى أنْ ليس في "ميزانيّتهم" ما يمكّن من الاستجابة لمثل هذا الاقتراح.

الذي فوجئت به عند انصرافي من مقرّ هذه المنظمة، أني رأيت فيها مَن يدخل بِرُزَم عريضة من كتاب ألّفه في ذلك الحين مَن ليس له علاقة لا بالتأليف ولا بالأدب، ولكنّ له من الكاريزما المصنوعة ما زَيّن له أن يضع نفسه في صفوف الكُتّاب، وله من النفوذ ما يمكّن المنظمات من الاستجابة كلّ الاستجابة!

نعم، أيها الأصدقاء... وقبل مدة نشرتُ كتابا في تاريخ الاقتصاد العربي لمؤلف مغربي عن اقتصاد الأندلس في إحدى حِقبها التاريخية، كتبتُ له مقدّمة ضافية... وكان من شأن هذا الكتاب، المتميّز، أن حَبّب إلى أحد أصدقائي من المهتمّين بالاقتصاد، أن يذهب بنسخة منه إلى صديق له يترأس مؤسسة اقتصادية كبرى، وقد أعجب هذا المسؤول بالكتاب، حتى إنه همّ بأن يوعز باقتناء كمية منه، يُهديها لكبار موظفي المؤسسة ولمن يزوره من أهل الاقتصاد الحديث، ليتعرّفوا على ما كان عليه اقتصادنا الأندلسي من ازدهار حتى في أيام الحروب المستمرة بين الأندلس المسلمة وجيرانها من الممالك المسيحية... لولا أن فَطِن إلى أنّ ناشر الكتاب هو من الناس المعارضين.

ما تجدر الإشارة إليه أنّ المسؤولة الثقافية في تلك المنظمة أمست بعد حينٍ وزيرة، وأنّ المسؤول عن المؤسسة الاقتصادية الكبرى غدا وزيرًا.

نموذج من ديمقراطية الثقافة والمعرفة، في وطني الحبيب!

مساء الأربعاء: ١٢-٦-٢٠١٣

أعداء الثورة.. أعداء الشعب

احتضنوه

وحمّلوه السَّوط

يرفعه فوق رؤوسنا

ويصرخ بنا:

«أعداء الثورة! خونة!»

لـمّا استنزفوه، ونبذوه

ذهب إلى حيث بدّل جلده

واندسّ في صفوفنا

يرفع صوته:

«يا أعداء الشعب! أين الحريّة؟»

منتصف ليلة الجمعة: ١٤-٦-٢٠١٣

فَطور الصباح

في خريف العمر

بسَطتُ عند الصباح فَطوري:

كأس من حليب ينفع

ملعقتان من سكّر يُحلّي

ومثلهما من "نسكافيه" يعطي مذاقا

مع كعكتين بحبّة البركة

والختام خمس رُطَب من تمر السعودية

في ربيع العرب:

ملعقة في كأس الحليب، وملعقة

وقطعة واحدة من الكعك

وثلاث رُطَب

ونحمده على أنّا ما نزال على قيد الحياة

والآخرون تحت الأنقاض

أو على وجوههم يهيمون!

منتصف ليلة الأحد: ٢٦-٦-٢٠١٣

كادحون.. كادحون..

عندما أُعلِن «البلاغ رقم ١»

اجتاز الحدود ناجيًا بنفسه

وخلال سنوات التواري

تمّ عقْد صفقة:

يؤيّدون

فتُفتح لهم الأبواب

والنوافذ

والتهبت كفّاه

وأدمن:

كادحون كادحون

شرفٌ كَدْحُ السنين

سوف نبقى كادحين! »

ولكنهم لم يبقَوا كادحين

ولا هو بقي

وأزهرت أفكارٌ.. تحوّلت إلى أفعال

فمَن ذا يُصدّقه

إذا ما خلع جلده!

ظهيرة الإثنين: ١٧-٦-٢٠١٣

عند حلاق الحارة

طال شَعري واستحقّ القصّ. هتفت -كعادتي- إلى حلاق الحارة أن أذهب إليه، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، تجنّبًا للانتظار في ساعات النهار.

لمّا وقفت في بابه وهممت بالدخول، كان عليّ أن أمشي بحذر بين أجسادٍ صغارٍ وكبار، إناث وذكور، يغُطّون في النوم، هم ذرّية الحلاق، الذين هاجروا من حيّهم بعد أن قُصف، ناجين بأنفسهم، حاملين ما تيسّر من الفُرُش والطّراحات، يمدّونها على أرض المحلّ إذا ما جُنّ الليل، وبعد طلوع الشمس يلمّونها وينتشرون على الرصيف.

همس الحلاق في أذني، وهو يُعمِل مِقصّه في شعري الفضيّ اللون، أنْ لم يعد ثمة انتظار في

النهار، فأهل الحيّ... يهاجرون!

ليلة الإثنين: ١٧-٦-٢٠١٣

جريح.. من "خان الشيح"

أنا أدري لماذا خطرت في بالي اليوم قصةُ للكاتب الروسي الأشهر تولستوي، كنت قد قرأتها في خمسينيّات القرن الماضي، عنوانها "بوليكوشكا".

أقول: مواطن يساعدني أحيانًا في العناية بحديقة بيتي الصغيرة، سقايةً وعناية بالشجر والزَّهَر. رأيته يماطلُ، خلال العشرين يوما الماضية، في الحضور، إلى أن جاءني اليوم يُعلمني أنّ القصف الذي تعرّضت له بلدته "خان الشيح" (جنوب غربي دمشق)، ألجأه وأسرته إلى الفرار منها، وأنهم في هروبهم نحو العاصمة صدمتهم سيارةٌ ما أدّى إلى إصابة ابنه بكسر في ثلاثة مواضع من ساقه... فشغلتْه العناية به في المستشفى عن المجيء إليّ حتى الاتصال الهاتفي.

في قصة تولستوي تكالبت المصائب على أسرة بوليكوشكا المسكين، وكان آخرها أنّ الأمّ البائسة، لما بلغها خبر المصيبة، انزلق طفلها من بين يديها وهي تغسله وتدعك جسده في الطَّسْت، فغرق ومات. ذلك طعمٌ للموت ما كان له أن يُزايل خاطري عبر نصف قرن، قد أبدعه خيالُ أحد نبلاء المجتمع الروسي، ليو تولستوي، (١٨٢٨-١٩١٠) الذي كان يُحسّ بأوجاع البشر بمثل ما أحسّ كاتبٌ لاحق به من بني قومه قد خرج من القاع، مكسيم غُوركي!

لعلّ مردّ تذكّري تلك القصة إلى تشابهٍ ما، مع الفارق: أنّ تولستوي اختتم قصته بمأساة إضافية، وأنّ في واقع ابن "خان الشيح" قصفًا أودى بحياة أناس كُثْر، ولم تأتِ النجاةُ في هربه تامّة!

ويظلّ الخيال عند الروائيين يوازي وقائعَ الحياة، يسبِق الخيالُ تارة وتسبق الوقائعُ تارة

أخرى.

مساء الثلاثاء: ١٨-٦-٢٠١٣

الجلوس أمام الشاشة

• من آلاء رضوان، بحلب:

كم تحتاج من التصميم لتجلس أمام شاشة.. أفسحتْ لك المجال أخيرا لتتنفس الحرية.. وتعبّر دون مشقة عما في قلبك الرهيف.. رغم كل الصعوبات التي تعتريك؟

فكم تحب أن تعطي إذا؟

سلمت يداك.. سلمت يداك.. سيدي الفاضل، فاضل السباعي!

ليل الثلاثاء ١٨-٦-٢٠١٣

• من فاضل السباعي:

لاحظت، منذ انتسبت إلى عالم التواصل الاجتماعي، أنّ انجذابي إلى الشاشة أشدّ إغراءً من الإكباب على الورق. وأعترف بأني، يوم بدأت هوايتي للكتابة، كنت خاف الجلوس أمام الآلة الكاتبة التقليدية، فهناك الخطأ المطبعي -والآخر ولأسمّه الإبداعي- صعب تصحيحه أو تعديله. وقد ظللت أتعجب من مهارة "إبراهيم عبد القادر المازني" في الكتابة على الآلة مباشرة، فلما وعَيت واستوعَبت لاحظت أنّ في نصوصه، التي نشرها في مجلة "الهلال" وغيرها، ما كان يَحسن مراجعته وإعادة النظر فيه.

ولكني منذ بدأت التواصل في "التواصل"، تشجّعت لأن أبادر إلى الكتابة نقرًا على الحروف بدلًا من المرور بالقلم على الورق... فهنا يمكن التعديل والتبديل بسحبة الترجيع ولمسة "الماوس"، وأنا من وُصفتْ كتابته بالتجويد والتنميق، ولم أعترض!

وأما «تنفّسي الحرية» -كما تقولين يا آلاء- وأنا وراء الشاشة، فقد كان ذلك بالمصادفة، إذ شاع اتخاذ "التواصل" مع بداية "الربيع"، وبان عدم قدرة النظام على الملاحقة والمنع، فهي مشغولة بحمَلة السلاح عن حملة القلم أو من قد نسمّيهم اليوم أصحاب الأنامل الناقرة على الحروف، فهناك جحافل ممن كان أسكتهم الخوف فقاموا يكتبون بمستويات من الحرية والتمرّد، وأنصار النظام يتوعّدون: «بعد الانتصار سوف نأتي بكم واحدا واحدا!»، قالها لي منهم صديق، بين الجِدّ والهزل، ولن يتاح لهم أن يفعلوها!

ولكنك لا تجهلين، يا ابنتي، أني مارست التنديد بالقهر والفقر على مدى خمسين سنة، تشهد على ذلك كتاباتي في الدوريات العربية، التي تردّدَ أو تهيّبَ بعضهم هنا أن ينشروها إلا النَّزْر اليسير منها، فكأنه يمرّ من سَمّ الإبرة، وذلك ما أضاع عليّ فرصا يجدّ غيري في اقتناصها، ولست في ذا آسفًا أبدا. وأنت في أغلب الظنّ قرأت ليلة أمس «جريح.. من خان الشيح» وفي الليلة التي سبقت «عند حلاق الحارة» هذه الخاطرة التي أجرت دمعا في عيون مرهفين يقيمون بعيدا.

وتظلّ الكتابة صعبة المنال، سواء اتخذنا فيها القلم أو مفاتيح الحروف، فإنّ الإلهام إن حَرَن كان عسيرا تَرَضِّيه... ولكني رأيته الساعة يطيعني وأنا أستجيب لمغريات نصّك، يا آلاء رضوان، التي تعيش بحلب الشهباء مدرّسة للعربية.

وأتمنى أن أظلّ أعطي ما متّعني الله بالقدرة على العطاء.

دمشق الشام: فجر الأربعاء ١٩-٦-٢٠١٣

التباكي والتناسي

رأيناه أمس، في قِمّة الثماني بإيرلندة الشمالية، يتباكى على أنّ أحدهم، متوحشًا مقزّزا، أكل

لحم بشر... ويتناسى الثلاثة والتسعين ألف شهيد!

أليس جديرًا بأن ينزل اسمُه في موسوعة غينس، بصفته أكثر السياسيين في العالم نفاقًا!

ليل الأربعاء: ١٩-٦-٢٠١٣

يا مَن ذهبتم إلى أفغانستان يومًا

يا مَن ذهبتم إلى أفغانستان يومًا!

هل كان من حُسن الحظّ

أو من سوئه

أنكم توجّهتم في الثمانينيّات

إلى أفغانستان

المحتلة من قبل السوفيات

فكسرتم بالـ"ستينغر"[١] أنوفَهم

وزرعتم في قلب موسكو

كرهًا للمسلمين ما ينقضي

فكان أن أبادوا شعبا منّا هناك

و..... البقية تأتي؟

والمفارقة

---

(١) صواريخ متتبعة للحرارة، قدّمتها أمريكا للأفغان، ولعبت دوراً كبيراً في إسقاط طائرات الاتحاد السوفياتي، ومن ثم هزيمته.

أنّ هناك تواطؤًا في ذلك

بين ما قبل ٨٩ وما بعده!

منتصف ليلة الأربعاء: ١٩-٦-٢٠١٣

من قمّة قاسيون...

ساعة أتناول فنجان قهوتي

وأنا أطلّ على دمشق

فإنّ هدير القذائف السداسيّةِ العدد

لا يفارق سمعي

آتيًا من وراء ظهري

من قمّة قاسيون

باتجاه الأحياء الشعبية

والغوطة التي تزرع المِشمِش

فأتذكر قصيدة كانت تُغنّى

أبدّل فيها كلمات

وأردّد في نفسي الحزينة:

مِن قاسيون «أُباد» يا وطني

وأرى «الدماء» تعانق «اللهبا»[1]!

---

(١) أصله: مِن قاسيونَ أُطِلُّ يا وطني...فأرى دمشقَ تعانِقُ السُّحُبا (للشاعر خليل خوري).

مساء الخميس: ٢٠-٦-٢٠١٣

مَن يذبح مَن؟

بكلّ بساطة وأرْيحيّة، أقول: إنّ المجتمع السوري جديرٌ بأن يُعَدّ من أكثر المجتمعات، في آسيا وإفريقيا، بعدًا عن النزعة الطائفية والعنصرية. ودون دخول في التفسير والتعليل، فإني أشير إلى أنّ الجيش السوري، على سبيل المثال، قد ضمّ -زمن الانتداب الفرنسي- ضُبّاطا من كلّ الأطياف المتآلفة في سورية، أديانًا ومذاهب وإثنيّات. وقد ظلّ هذا الاتجاه متَّبَعًا في عهد الاستقلال.

ويطيب لي أن أستحضر من الذاكرة شخصيتين عسكريتين من ذوي المراتب العالية:

الأول: اللواء "آرام قرامانوكيان"، الذي عرف عنه حسن القيادة والانضباط، وقد شغل في أواخر أيامه منصب "آمر سلاح المدفعية".

والثاني: اللواء "بشير ليان مارين"، الذي شغل منصب "قائد موقع دمشق". وكنا، ونحن شباب في خمسينيات القرن الماضي، نتناقل عنه نادرة طريفة، أنه من فَرْط تمسكه بالانضباط العسكري، سجّل عقوبة لنفسه لأنه حضر يومًا إلى عمله متأخرا!

ذكرتُ هاتين الشخصيتين العسكريتين التاريخيتين. وللعلم إنّ الأول حلبي وينتمي بأصوله إلى الأمة الأرمنية، والآخر من أبناء لواء الإسكندرون، ويَدين الاثنان بالمسيحية.

ويأتينا في آخر الزمان من يُحَذّر من أنّ "النظام" إذا ما تغيّر فإنّ الشعب سوف يَذبَحُ بعضُه بعضا!

ولكن... مَن يذبح مَن؟

منتصف ليلة الجمعة: ٢١-٦-٢٠١٣

صديقي أمين فرع حزب

لم يكن صديقي على قناعة بجدوى الأحزاب التي تأسست في ظلّ القانون الجديد، إلا أن شغفه بالحرية أفضى به إلى أن يصبح "أمين فرع" لحزب جديد يتبنى شعارات العروبة والحرية.

ولكنّ ما لم يخطر في باله أن يتعرّض له مجهولون، في ليلة اشتدّ بردها، ويقتادونه في ظلمة الليل إلى حيث ظلَّ معصوبَ العينين، مقيّد اليدين إلى خلف، ملقى في مكان مهجور (رجّح أن يكون بناء غير مكتمل)، وكانوا يطعمونه بأيديهم الخبز الحاف، وهم يوجّهون إليه الشتائم، على مدى أسابيع لم يعرف عددها... انتهت إلى أن صحبوه في ليلة، وقد أوهموه أنهم سينفّذون فيه الإعدام، إلى مكان، أطلقوا فيه الرصاص، ثمّ كفّوا، ثمّ لم يعد يسمع لهم حسّا... وبالمراوحة كسر قيده ونزع العصابة، فوجد أنه في أرض عراء، وأغذّ السير باتجاه بيته، سعيدا بأنه ما مات خلال الاعتقال، ولم ينفَّذ فيه الليلة الإعدام... تماما كما وقع لـ دوستويفسكي في نهاية اعتقاله!

وأدع لخيال القارئ أن يتصور استقبال زوجته والأولاد له، ولكني أحرص على أن أبيّن أنّ طفلته بنت الخامسة، أصبحت تُهرع إليه -كلما قرع الباب- فتقف أمامه، ناشرة أذيال ثوبها تريد أن تحمي أباها من شرّ جديد!

والمفارقة أنّ الأمين العام لهذا الحزب في العاصمة، لما سمع بالاعتقال غادر الوطن. وأما صديقي فقد عرفت من "التواصل" أمس، أنه يقيم في إحدى الدول العربية ساكنا ساكتا.

منتصف ليلة السبت ٢٢-٦-٢٠١٣

دمعة فرح.. فيض من الأحزان

عمّني الفرح، وأنا أشاهد الفنان الشابّ يتفوّق مطربًا متميّزا، وأراه يسجد شكرا لله، وأبناء شعبه -في رام الله وغزة والناصرة- يعلنون ابتهاجهم. ويتقدّم منه من يسلّمه دِرعًا

ويسمّيه سفيرا للنوايا الحسنة في العالم، ويبلغونه أنّ رئيس بلده منحه المزايا الديبلوماسية في أسفاره.

عند هذا الحدّ أحسستُ شيئا ما ساخنا يجول في المآقي.

لمّا جلست لأرسل هذه الكلمات الموجزات إلى أصدقائي في "التواصل"... رأيت، تذكّرت، توجّعت ممّا يعاني أبناء مدينتي من العطش: المياه في الأنابيب مقطوعة، والصهاريج من الوصول إلى الحيّ ممنوعة، والقناني مفتقدة في أماكن البيع، و... صديقة تكتب لي، بصمت على الخاص، بأنها لم تنم الليلة أرقًا وقلقًا، لأنّ الأطفال منذ أسبوعين ما عرفوا الاستحمام!

وانتابني ما يشبه الشعور بالإثم، لأني سرقت فرح ساعة من أحزان وطني الطويلة!

وانتحيتُ ركنا... أحبس في المآقي ما أوشَك أن يفيض.

مساء الأحد: ٢٣-٦-٢٠١٣

كتابي.. "الألم على نار هادئة"

يوم صدرت مجموعتي القصصية "رحلة حنان" عن دار المعارف بمصر في خريف ١٩٧٥، التي كانت وزارة الثقافة في وطني الحبيب قد اعتذرت عن نشرها بحجة عدم الجدارة، أخذتُ نسخة من الكتاب ومضيت إلى مسؤول النشر في الوزارة، أسائله عن مسوّغات الاعتذار؟ فأخذ يبرر بأنّ قصص الكتاب ليست بالمستوى، وأنّ "سابقة" الكاتب في الكتابة لا تَشْفَع له دائما في أن يقدِّم إلى جمهوره كل ما يكتب... وكلام من هذا القبيل! وعندما أظهرت له الكتاب مطبوعا في سلسلة "اقرأ"، طَلَع من جِلده، وجعل يؤكد أنه لم تقع عينه على مخطوطته، ولا سمع به، ولا ولا... وأذكر أنه كان في الغرفة وراء مكتبه مستشار الوزارة الثقافي الكبير القدر، يصغي ويتابع النظر من وراء نظارته السميكة.

ثم إنه اتفق لي أن تعرّفت، بعد نحو عشرة أعوام، على موظف في هذه الوزارة ذي نفوذ، فعبّر لي عن استغرابه من افتقاده أيَّ كتاب لي ضمن منشورات الوزارة المتدفقة مثل سيل، وأخذ على عاتقه أن يتبنّى نشر عمل أدبي لي جديد. وكان اتحاد الكتّاب العرب (وأنا فيه عضو مؤسّس في ١٩٦٩)، قد ردّ إليّ قبيل مدة، مخطوطة "الألم على نار هادئة" بحجة ما في قصصها من جرأة سياسية، فقلت أقدمها إليه! والأمر المفارق أنّ هذا الكتاب قُبل على جرأته، وكان المستشار قد أسنِد إليه الإشراف على مديرية النشر... هل أثر في نفسه ما كان قد سمع من ذلك الحديث قبل عشر سنين؟ ذلك أنه أوعز بأن يطبع الكتاب حالا، وقد جرت العادة أن تأخذ المخطوطات دورها في انتظار النشر أربع سنوات! وحدثني بعد ذلك مدير المطبوعات في الوزارة (سميح عيسى) أن الكتاب نفِدت نسخه في مدة قياسية هي ستة أشهر!

فأما المستشار فهو الكاتب الكبير أنطون مقدسي رحمه الله، وأما مسؤول النشر في ١٩٧٥ (وكانت سيدة) فإني أحجم عن بيان اسمها.

ثم إني نشرت هذا الكتاب ثانية في عام ١٩٩٠ بالدار التي أحدثتها تيسيرا لوضع أعمالي بين أيدي القراء جديدها والقديم، ثم طبعة ثالثة في ٢٠٠٢، ولم يبق -لتعرية التعسف- إلا أن يترجم الكتاب إلى إحدى اللغات، مثلما وقع لكتابي "حزن حتى الموت" الذي أصرّ "عبقري القصة السورية" في اتحاد الكتّاب على رفضه، فنشر في بيروت بثلاث طبعات، والرابعة في داري "إشبيلية للدراسات والنشر"، والخامسة في باريس مترجمًا إلى الفرنسية!

بعد عقود من السنين، حين ألتقي اليوم واحدا من هؤلاء المتعسفين، الذين أرادوا كسر قامتي فلم تنكسر، لا ولم تنحنِ... يقول لي متودّدا مُمالئا: «الحقيقة... أنت ظُلمت».

منتصف ليل الاثنين ٢٤-٦-٢٠١٣

طالب صداقة.. من "عبادان"

لأصدقائي الأعزاء أقول: إني ساعة أتهيّأ للجلوس إليكم، غالبًا ما تكون في انتظاري طلبات صداقة ممن يطّلعون على الخواطر التي أنشرها في صفحتي قبل أن أنشرها في مجموعاتٍ صديقة تعميمًا لما أحسبه أفكارا تلقى صدى. والذي جريت عليه أني أدخل، قبل الموافقة على "الإضافة" أو بعدها، إلى صفحة مَن رغب في أن أكون له صديقا، لأُلِمّ بما عرّف به بنفسه، مِن وطن إليه ينتمي أو يقيم، ومن مستوى ثقافي تحصّل له، وما قد يقدّمه من معلومات صغيرة أخرى. وإني ألاحظ أحيانا إيجازا في التعريف يصل إلى حدّ العدم، وربما اتفق لي أني خاطبت الصديق الجديد بصفته رجلا فيأتيني الردّ منه أنثى!

هذه المرة لم أعرف عن طالب الصداقة إلا أنه من "عبادان"، التي أخذتْها منا إيران في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبسببها اشتعلت حرب ضروس بين إيران والعراق في ١٩٨٠ طال أمدها، وكان من تداعياتها أن حوصر العراق، ثمّ احتلّ، وهو اليوم غارق في خِضَمّ النزاعات الطائفية والشعوبية والإثنيّة!

وأعترف بأنه قد سرّني أن يكون هذا الصديق من هناك، أملاً في أن أحاوره وأضيف إلى معلوماتي جديدا عن بلده إن كان يمكنه البوح والإفضاء. اسمه الأول "رسا" (بالسين)، ولم أعرف ما إذا كان رجلا أو امرأة، فسألت بحذر: «هل يمكن التعريف بشخصك بسطرين؟»، فجاءني منه ردّ بكلمة واحدة: «لماذا؟».

بأريحيّة قلت له:

«يهمّني أن أعرف أقلّ المعلومات عن الأصدقاء الذين يمرّون بصفحتي، ما يتمتعون به من مستوى ثقافي... هل يَضيرك هذا؟»، واضعًا أمامه الـ(C V)، المخبّأ في يمينِ عنوان

صفحتي تحت كلمة "حول" لمن يحبّ الاطلاع عليه، وفيه بيان وجيز بما أنجزت في مضمار الأدب والعمل.

وما كان لي أن أتوقع أنّ الصديق الجديد سوف يرى في موجز سيرتي الذاتية تباهيًا وغرورا، وأنه سيتّهمني بالغنى والترف، ويصف نفسي بـ"الأمّارة!

قال، كتب:

«تحب تمدح نفسك. ما تأثير أعمالك على المجتمع المظلوم؟ بذلك زادت ثروتك وترافتك. وصرت من المترفين البطالين. تكتب ما توحي اليك النفس الأمارة. فابتديت بغرور وانتهيت بتكبر»!

ولم يسؤني قوله، بل وددت أن أكتب إليه عن حقيقتي، قلت وأنا أحسبه أنثى لأني أخطأت في البدء حين قرأت اسمه "رشا": «يا ابنتي رشا، إنّ ما تقولينه عني بعيد عن الحقيقة جدا.

فأما تأثير أعمالي، وتقصدين كتاباتي، على المجتمع المظلوم، فلست أنا من يُبدي في هذا رأيا، ولكن أنت والقراء!

وتقولين زادت ثروتي! فلتعلمي أني أسكن في بيت مستأجر.

وكيف أصير من المترفين، والمعاشان التقاعديان اللذان أتلقى من الحكومة ومن اتحاد الكتّاب معًا، كانت قيمتهما قبل الحرب تعادل أربعمئة دولار، وتدنّت اليوم إلى المئة!

وهل يكون مدحًا للنفس وصدورًا عن نفس أمّارة، إن كتبت أفكاري وتحدثت عن ذكرياتي، وقد رأيت الناس يتأثرون بما أكتب؟

سوف أنشر في صفحتي غدًا، يا رشا، هذا الذي تقرئين... هل يسوؤك أن أذكر اسمك الكامل، أم تفضلين تغييبه؟».

فلاذت رشا، أو لاذ رسا، بالصمت.

أقدم لكم هذا، أيها الأصدقاء، للتسرية في زمن الأحزان، ولتطّلعوا على شيء مما يتعرّض له الخائضون في عالم التواصل الاجتماعي!

ليل الثلاثاء: ٢٥-٦-٢٠١٣

مائدة مستديرة

أمسِ، رأيتهم في ليبيا يتناقشون وهم متحلقون حول ما سمَّوه "مائدة مستديرة في شأن مناهضة التعذيب في السجون الليبية".

ربّ شانئ يقول: «انظروا انظروا! بعد أن أطاحوا بحاكمهم الذي وصفوه بالاستبداد، يشتكون اليوم من التعذيب في السجون!».

وأقول: «نعم، نعم! إنّ الذين تجرّعوا كؤوس القهر والهوان على مدى عقود من السنين، ليس يسعهم أن يتخلّصوا من متراكم أحزانهم دفعة واحدة غداةَ حلول الربيع... وإنّ فضيلة النظام الجديد أنه يمَكّن من مناقشة الطارئ من الأمور علنًا، في جلسات يشهدها الداني والقاصي!».

ألا ليت مثل هذه "الموائد المستديرة" يُعقد عندنا اليوم، في العشيّة وليس في الغداة!

منتصف ليل الأربعاء: ٢٦-٦-٢٠١٣

ما بعد غسل الأيدي...

في مثل هذه الليلة، قبل ثلث قرن من عمر الزمان، حملت ثلاثُ مروحيّات أعدادا من شبانٍ خِفاف، إلى مكان في طرف الصحراء، حيث قتلوا مئات من سجناء الرأي، المحصورين

في زنزاناتهم الضيّقة.

ثمّ... ذهبوا يغسلون بالماء أياديهم.

ولكنها ما اغتسلت، إلى اليوم، ضمائرهم... التي ما زال يَعيث فيها اليباب.

منتصف ليل الخميس: ٢٧-٦-٢٠١٣

الحرية للكاتب السوري فؤاد حميرة

الحرية للكاتب السوري فؤاد حميرة

الصادق في إحساسه، وفي قلمه، الذي تمّ اعتقاله صباح اليوم[١]

منتصف ليل الخميس: ٢٧-٦-٢٠١٣

«سمعتِ، يا أُخَيَّتي؟»...

في السُّويعات القليلة، في اللحظات الوجيزة، التي يتأتّى لخطوط الهاتف الأرضي بحلب أن تنعم بالطاقة المتاحة للحديث، يُمْكِن للحلبيين أن يتواصلوا مع... العالم!

سألتْني إحدى شقيقاتي بحلب عن الأحوال، وقبل أن أجيب دوَّى بالقرب من سكني صوتُ انفجار، فقلت: «سمعتِ "الدَّجّ"، يا أخَيَّتي؟!».

وقبل أن أتلقى منها الجواب جاءني من ناحيتها صوتُ انفجار، فقالت: «سمعتَ الدّجّ، يا أُخَيّ؟».

وهكذا كنا نتبادل أصوات الدّجّ مثلما نتداول أطراف الحديث... تُخامرنا سعادةٌ غريبة...

---

(١) أطلق سراحُه بعد اعتقال دام ١٢ يوماً.

بأنّا ما نزال على قيد الحياة!

فجأة انقطعت المكالمة... ليس لأنّ الدّجّ قد حلّ بأحدنا -لا سمح الله!- ولكن لأنّ الطاقة الروحية للهاتف قد نفِدت، وعاد كلّ منا يصغي إلى الدّجّ منفردا!

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٧-٦-٢٠١٣

وجهان لورقة واحدة

بدايةً أعُدّ نفسي "كاتبا ورقيًّا" بامتياز، بمعنى أني أحتفظ بالمسوَّدات التي أريق عليها مداد قلمي لدى كتابتي المقالات والبحوث والقصص. ولأني أعتمد التزويق والتنميق في صنع الديباجة، فإنّ المسوّدات عندي تتعدّد لكلّ نصّ، وتتكاثر تكاثرا، وإني -بأَثَرَةِ كاتب[1] يحسب نفسه مبدعًا- أحرص على الاحتفاظ بها. ومع ابتداء عصر الطباعة الإلكترونية في المنازل، زادت كميات المسوّدات عندي زيادة جعلتني أتساءل: وماذا أفعل بها أخيرا؟

في الغلاء الذي طال الورق ومحابر الطباعة وسائر مستلزمات العمل، عدت إلى مسوّداتي، وأخصّ تلك التي طبعتُ فيها النصوص على الطابعة، إلى ما تراكم منها عندي على مدى خمس وعشرين سنة، أستعمل وجه الورقة الآخر!

هنا تبدّت لي مفارقة، أيها الأصدقاء: أنّ وجهًا للورقة قد تُفصح كلماتُه عن حنان تُغدقه أمّ على طفلها، وتعبّر الكلمات في وجه الورقة الآخر عن أحزان يسبّبها مصرع أمّ بشظية أو ذبح طفل بسكين!

منتصف ليل الجمعة: ٢٨-٦-٢٠١٣

---

(١) تفضيل الكاتبِ نفسَه.

حليب الغوطة

لن أتحدث عن البيض والبندورة والباذنجان، بل عن الحليب، الذي ينزل من ضَرع البقرة... هل له علاقةٌ بالدولار الأمريكي، حتى ارتفع سعره أضعافَ ما كان عليه قبل الحرب؟

قالوا: إنه الاقتتال، الذي طال البشرَ والحجرَ والشجر... قد وصل إلى البقر.

والبقرة، إنْ سلمت من القصف والقنص، تقطّعت بحليبها السُّبل... فالذين يخرجون به من الغوطة باتجاه العاصمة، إن كان الطريق أمامهم آمنا لم يجدوا الوقود الذي يشغّل المركبة، فإن توافر أفسدت الحليبَ سويعاتُ الانتظار على الحواجز الأمنيّة في هذا الحرّ اللاهب، فيدلقوه على أبواب دمشق.

منتصف ليل السبت: ٢٩-٦-٢٠١٣

رَوابٍ.. يُعمّرها الشاميون

تجوّلتُ، يومًا، فيما يسمّيه أهلُ مدينة "تِطْوان" (في بلاد الريف بالمملكة المغربية) المدينةَ العتيقة، وهي مرتفعٌ من الأرض، رابيةٌ، كان قد اختارها الغرناطيّون، آخرُ من غادر أرض الأندلس ملتجئين إلى أقرب مكان آمن تيسّر لهم. وقد وجدوا هذه الرابية -بهوائها العليل ومائها السلسبيل- ملائمة لأن ينشئوا فيها مدينة صغيرة على طراز ما خلّفوا وراءهم. فخطّطوا الأزقة الصاعدة المتعرّجة وبنوا البيوت الباذخة المتأنّقة، قناطرَ وزخارف مما كانوا برعوا فيه في بلادهم.

وقد لاحظت أنّ كلّ باب يطلّ على الزقاق، يعلوه "شعار"، هو ما كانت الأسرة تتّخذه لنفسها قبل النزوح، وما زالت تلك الشعارات ماثلة للعيون، فهي إما منقوشة في الحجر وإما

مسكوبةٌ من معدن لم تنل منه الأيام.

تُرى... كم رابية، تسمّى كلّ منها غدا "المدينة العتيقة"، يمكن للنازحين من بلاد الشام اليوم، أن يختاروا وأن يبنوا، في بلدان عربية وإسلامية، وهم يهيمون على وجوههم، تحت وطأة "السكود" و"الكيماوي"، السلاحين اللذين ما عرفهما الإسبان عندما كانوا يباشرون تلك الحروب التي تمادوا فيها ضدّ مسلمي الأندلس وسمّوها "حروب الاسترداد"؟!

منتصف ليل الأحد: ٣٠-٦-٢٠١٣

العودة.. من الوطن

لم تتأخر في التعبير لأهلها، وهم في استقبالها على الحدود، أنّ الشوق للوطن "ذبحها" (لماذا استعملت هذه الكلمة!). وانهلّت دموعها، وهم يمضون بها إلى الضاحية: لاحت لها، في ظلمة الليل، البناياتُ متهدمةً جوانبُها بفعل انزلاق القذائف عليها، والأشجار التي تعرفها بدت محترقةً، أو ذابلة وذليلة!

عندما همّت، ساعة الضحى، بأن تزور مركز المدينة، لاحظت أنّ السائق يدعس بسرعة هوجاء، فكأنه يريد أن يجنّب ركابه إنعامَ النظر إلى الجثث المنطرحة هنا وهناك، منتفخةً وممزّقة. وعرفت أنّ لهذه الجثث قنّاصيها، الذين "يحمونها" من أن تُنتشَل، فهم يريدونها أن تبقى على قارعة الطريق قذًى في العيون وإرهابًا للأفئدة والقلوب!

كلمة واحدة قالتها، والعين جفّ دمعها: احجزوا لي، سأعود غدًا!

منتصف ليل الاثنين: ١-٧-٢٠١٣

احذروا العسكر

نعم، ليس من عقيدة الجيوش النظامية انتهاج الانقلابات. ولكن اقتراب العسكر من

الحكم يُغري. وتتجسّد البداية في أن ينصّب قائد، يحمل سمات ما، نفسه حَكما في منازعة بين فصائل الشعب.

عندما تحسِم صناديق الاقتراع الأمر لصالح فرد أو جماعة، فليس للعسكريّ أن يعلن الاستجابة لمطالب فصائل أخرى من الشعب ، قد تجمّعت -وهي المختلفة ابتداءً- وداخَلَها "فلول" الماضي. ولسنا نرى "النظام" قد ارتكب خيانة ولا أتى فعلا إدّا، بل هو سُلبت منه كثير من الفرص، بمشاغبات الذين أخفقوا، وبمعاكسات عدالةٍ كانت قد تربّت في أحضان العهد المغادر... أليس في الوسع الاصطبار حتى انتهاء الولاية، وبعدها سوف يُسقِط الصندوقُ الخائبَ والخائن؟

ذات يوم كتبت، قلت: «دع الأزهار تتفتّح يا مرسي»! وأنا أدرك أنّ هذا عسير المنال في ظلّ ديمقراطية قد ولدت من خاصرة الزمن. فليس مَن ملَك السلطة بعد حرمان (من السجن إلى السّدّة) بقادر على أن يمسك نفسه فلا يتغوّل، في أوطانٍ قد طالت جَوْعتُها إلى الديمقراطية. فـ"الأَخْونة" ماضية في درب شائك... تمامًا كما وقع في وطني الحبيب، الذي "بَعْثَن" فيه الثوريون الإدارة، وفي تماديهم بعثنوا الدولة (متحاشيًا أن أستبدل بـ"البعثنة" تعبيرا آخر)، فكان ما كان مما لست أذكره. فالعين ترى، ويبكي علينا حتى مَن قُدّ قلبه من حجر.

أقول: احذروا العسكر، وإن بدا ريقهم مثل العسل... فإنه من هنا تبدأ الطامّة.

منتصف ليل الثلاثاء: ٢-٧-٢٠١٣

عجبًا لمن يقولون: اسكت.. ثمّ..

صنّف الأجداد في الزمن القديم الكتب في آداب الفنّ والصناعة والإبداع، في أدب الطبيب وأدب القاضي وأدب الكاتب... وقد قصدوا بكلمة "أدب" تجلّيات السلوك التي

يتعيّن اتّباعها عند ممارسة هذه الصناعات الشريفة. ويحلو لي أن أتصور أنهم تركوا لنا أن نؤسّس لأدبٍ ما كان ليخطر لهم ببال، أعني: "أدب التعليق" في مؤسسة "التواصل الاجتماعي" المستحدثة، وهو أدب يشتقّ من أدب الكلام ويندرج في أدب الحوار!

وأزعم أنّ تواري "المعلِّق" عن الأنظار، في الشبكة العنكبوتية اليوم وهو في جلسته أمام الشاشة، يمَكّنه من أن يركّز في نصّه فلا يلقي بالكلام جزافا، ولكنه من ناحية ثانية يفسح المجال لمن يُعْوِزهم الاتّزان كي يسرفوا في القول، وأن يُسِفّوا في التعبير خارجين عمّا أسميه منذ الآن "أدب التعليق" في شبكة التواصل الاجتماعي!

أمس الأول نشرتُ عند منتصف الليل، في صفحتي وفي نحو عشرين موقعا، خاطرتي التي وسمتُها "احذروا العسكر!"، تضمّنت قراءتي لما وقع في ذلك اليوم في مصر العزيزة.

أصدقائي، من السوريين وغيرهم، شاهدوا، وعبّروا، وبعضهم استأذن في "المشاركة"، قلت: «خذوا بلا استئذان»!

في "اتحاد كتّاب مصر" ظهَر مَن رفض قراءتي للحدث التاريخي، ولم يعبّر أحد سواهم، ولكن تجاوز بعضهم حدود "أدب التعليق" تجاوزا... إليكم ما قال أكثرهم تجاوزًا:

• «كان وطننا في قبضة احتلال إخواني كافر تسانده أمريكا وإسرائيل»!

• وصرخ بي: «كن بعيدا حتى لا تهدر ماء وجهك»!

• ولأنه ظنّ أني أقيم خارج وطني، قال: «لتلعب هناك، في منفاك، بعيدا يا رجل. أنت تخون وطنك»!

• وتوقّعت أن يرعوي إن هو عرف أني أقيم بدمشق، ولكنه ازداد سفاهة: «مرحى مرحى، يا عمّنا السباعي، الكاتب السوري، أنت في دمشق، ولكن أنت خارج الوطن. أنت لا يعنيك انهدام الدولة كلها، سورية الوطن، التاريخ، الحضارة...»!

• وأمرني: «لا تتدخّل في شؤوننا، الصمت أبلغ والله»!

ما لاحظته أنّ قلمًا واحدا لم يعلق إيجابًا على كلمتي، لا ولا علق أحد على هذه الفظاظة التي طفَحت من هذا القلم... سوى صوت خجول، انساب إليّ مثل هديل اليمام، يحمل اسم "إيمان"، تقول إيمان لمن أمروني بالسكوت: «عجبًا لمن يقولون (اسكت)، ثمّ يدّعون حرية الكلمة والإبداع!».

سوف أظلّ أتساءل: كيف يمكن لمثل هذا الرجل أن يُسهم في إقامة صرحِ ديمقراطية تتطلّع إلى إرسائه الأمة العربية في أقطارها؟

منتصف ليل الخميس: ٤-٧-٢٠١٣

اتحاد كتّاب مصر.. يحظُرني

هذا الاتحاد الكبير، الذي يضمّ آلاف الكتّاب، عَجَز عن تحمّل آرائي التي تخالف أراء المهيمنين عليه.

أعترف بأني نشرت عند الفجر، في موقعهم، خاطرتي «عجبًا لمن يقولون اسكت.. ثمّ..»، وبدا أني تماديت حين علقت في النهار على بعض آرائهم (وأَدْناه آخر ما هنالك...).

وكانوا قبل اليوم قد تهجّموا على ابنتي الفنانة التشكيلية سهير السباعي، قادت الهجمة مَن تسمي نفسها "الأديبة الصباغ"، ووصلت في تَهجُّمها أن شتمت الشعب السوري، ما حدا ابنتي إلى أن تقدم لهم كتاب انسحاب، وأما الأب فقد صبروا عليه مدة واليوم حظَروه، عند الساعة ٣:٣٥ مساء!

اقرؤوا، يا أصدقائي:

شخص اسمه شرقاوي: الشعب المصري هو الذي اختار مرسي رئيسا وهو الذي عزله.

ولو أن الشعب المصري ضد الإسلام ما اختار مرسي من الأول.

سعيد: ومن قال يا سيدي إن مرسي هو الإسلام وإن الإخوان هم الإسلام؟ لقد شوهوا الإسلام أكثر مما فعلت جحافل الغرب على مَرّ العصور. اذكر لي خدمة واحده قدمتها للإسلام هذه العصابة الإرهابية.. التي تتمسح بأمريكا وإسرائيل لتطلب عونا منهما ضد الوطن.. الإخوان ليسوا إلا عصابة.. عصاب.. عصابة.. يا هووو

حسين: واللهِ لو أنفقت أُمة لتشويه صورة الإسلام -ما أنفقت- لما أصابت صورة سماحة الإسلام بمثل ما أصابوه، لا سامحهم الله.

فاضل السباعي: لا، يا شرقاوي حافظ... ليس الشعب من أسقط مرسي، ولكنها المؤامرة... وسوف يُحسب عليكم، أنكم استعنتم بالجيش لإسقاط رئيس مُنتخَب... ومن المؤسف أنّ ذلك قابل للتكرار!

خطيئة قاتلة، يستحيل عليكم استيعابها وأنتم اليوم في أفراحكم الملتبسة!

وكان الحظر.

دمشق الشام: مساء الجمعة ٥-٧-٢٠١٣

بعد استرداهم الحرية

إني لأفكّر، ويغمُرني العجب، في أنّ "اتّحادًا" يجمع شمل كتّاب، وقد بات اليوم يتفيّأ ظلال "ثورة" نجحت في أن تستردّ من القامعين الحرية المفقودة... أن يعمد إلى حظر كاتب لأنه أبدى من الرأي ما لم يُرضِ المشرفين على صفحة التواصل الاجتماعي!

وأتساءل: أيمكن أن يخشى "ثوارُ حرية" من قلم، يُقيم صاحبه في أرض قد أوهَنَها القَصْف، وأهلكها الموت حتى أغرقَ القلوبَ في بحار الأحزان؟

كفّوا عن إهانة رئيسكم المنتخب!

بدايةً لا أؤيّد ما يقال عن نُزوع الرئيس محمد مرسي لـ"أخونة" الإدارة والحكم. وأناصر، بكلّ طاقتي الفكرية، حكمًا مدنيّا ديمقراطيّا في مصر وفي كلّ قطر عربي. ولكنني لا أرضى لرئيس منتخب أن يُعزل بفعل:

- المنخذلين في الانتخابات،
- وفلول العهد السابق،
- وقضاء قد أربك الدولة بقرارات ملتبَسة،
- وبمغامرٍ عسكري، خيّل إليه أنه منقذ البلاد،
- و... من دعم خارجيّ!

عزلُكم بانقلابٍ رئيساً هو أول من انتخبتموه بنزاهة مشهودة، وإهانتُه «انت من دلوقتي محبوس»، عيب، تهوّر، خُيَلاء... ذلك ما سوف يُخضِعكم لتجرُّع هذه الكأس مستقبلا.

كفّوا عن ازدراء مَن جعلتموهم خصوما لكم في السياسة، أنتم يا من بالأمس ملأتم الدنيا صُراخا بأنكم مظلومون، مقموعون، مروَّعون!

مساء السبت: ٦-٧-٢٠١٣

فرحتان.. بينهما ٦٠ سنة

يوم قلب الضباط الأحرار نظام الحكم في مصر فجر ٢٣ يوليو/ تمّوز ١٩٥٢، عمّت الفرحة الناسَ جميعا... فهل عمّتْهم كلهم يوم (٣) من يوليو ٢٠١٣؟

وساعة أعلنت إذاعة القاهرة (ولم يكن ثمة بَثٌّ تلفزيوني بعد) عصر يوم السبت ٢٦ يوليو

٥٢، عن مغادرة الملك قصر رأس التين بالإسكندرية إلى المنفى، فاض الفرح في القلوب... حتى إني (وقد كنت أدرس بجامعة فؤاد الأول)، لم أتمالك نفسي فخرجت وأنا في بيتي (بشارع سليمان جوهر في حيّ الدقّي) إلى الشرفة، أريد أن أتواصل مع الناس، فرأيتهم وقد خرجوا هم أيضا إلى شرفات بيوتهم، ودون معرفة بيننا صرنا نُلوّح بالأيدي بعضُنا لبعض، معبّرين عن فرحة، كان مَبعثها اعتقادنا بأنّ الأنظمة المَلَكية فاسدة، وأن الأنظمة الجمهورية -وإن كانت من العسكر- سوف تبدّد الظلم والظلام، وتقدّم للشعوب المنّ والسلوى.

ثمّ إنّ حركة ٥٢ (التي اقترح -كما سمعت- طه حسين أن تتسمّى ثورة)، خيّمت على الشعب ستين سنة، ضيّعت خلالها ثلاث "وحدات" عربية (السودان، وسورية، واليمن)، وخاضت حروبا واجترحت نكسات، وسوى ذلك أنها -بهيمنتها على المقادير- أثارت أطماعا في صدور مغامرين في دول ودول، فتأثّروا خطاها مثل وقْعِ الحافر على الحافر.

فهل تُعمَّر حركة (٣ يوليو) الجديدة ستين سنة أخرى، تنجب لنا فيها ما تنجب... أم أنها أسرعت فكَتبت نهايتها بيدها ساعة لقي مصرعَهم، فجر هذا اليوم، خمسون من المعتصمين... قتَلَهم الخاكي بدم فاتر جدا؟

منتصف ليلة الاثنين: ٨-٧-٢٠١٣

بدرجة امتياز...

كانت البداية أني تلقيت منه مكالمة هاتفية يسألني -بصفتي صاحب دار نشر- عملاً له في التدقيق الطباعي واللغوي... فأجبته بمرارة: «وأي نشر وطباعة وتدقيق، أيها الشاب، والتفجيراتُ في الشوارع والقصف من فوق جبل قاسيون، والمطابع غابت!». والذي كان بعد هذه المكالمة أنّ علاقة عمل لم تنشأ بيننا، بل توثقت صداقةً لُحمتها العلم والأدب، وسَداها

أحزان الحياة! وأعترف بأنّ ما زاد في التقارب بيننا أنه كان يُعِدّ أطروحة ماجستير، تفوح منها أنفاس الأندلس، البلد الذي عشقته وألممت بشؤونه لدرجة "التخصّص"، حتى إني وسمتُ ما أسّستُه من مُنشأة لنشر الجديد من أعمالي وإعادة طباعة القديم، باسم "دار إشبيلية للنشر"!

كان يشتغل على المتصوّف الأندلسي الأشهر "الشُّشْتَري" (من أهل القرن السابع للهجرة، ق١٣م). ولأني عرفت اتساع مساحات البحث عنده وانغماره في بحر المصادر والمراجع، مع إتقانه اللغة وأناقته في التعبير، فقد كنت أردّد على مسمعه: «أنت إنْ لم تنل على أطروحتك درجة الامتياز فسوف أزعل...»، دون أن أبيّن له ممّن سوف يُداخلني الزعل: منه هو، أم من لجنة المناقشة!

ظهيرة اليوم حضرتُ المناقشة في كلية الآداب بجامعة دمشق، وتأتّى لي أن أسمع من الإشادة بجهوده ما وصل إلى التعبير عن الإشفاق عليه لما بذل من التتبّع والتوثيق... ثمّ كان أن منحوه درجة... الامتياز، فأسقَطوا بِفِعلهم موجب الزعل عندي!

إنه الباحث الشاب العصامي صديقي «أحمد عمر»... الذي ما زال يجلس أمام الشاشة في بيته، يردّ على كلّ واحد من المهنّئين، الذين تجاوز عددهم حتى منتصف الليل المئتين. وما أدري إلى كم يصل العدد مع حلول الفجر. إنه يمارس فرحة العلم ممتزجة بتعب النهار، في يوم يُعَدّ من الأيام المشهودة عند طالبي العلم الجادّين.

له مني ألف تحية.

منتصف ليل الثلاثاء: ٩-٧-٢٠١٣

وصل إلى ٣١٥

قبل أيام صرّح مسؤول بأنّ روسيا والصين وإيران... تمدّنا بخمسمئة مليون دولار كل

شهر دعمًا لعملتنا المنهارة.

طيب... كيف وصل الدولار اليوم إلى ٣١٥ ليرة؟

هل يَدلّني هذا المسؤول على كلمة أصفه بها ألطفَ من... كلمة متبجّح!

منتصف ليل الثلاثاء: ٩-٧-٢٠١٣

لا لحم في رمضان.. بل دم

أقسَم لي لحّامُ الحارة، على الهاتف هذه اللحظة، أنه منذ أيام لم تصل لدمشق من دوما «ولا كمشة لحمة»، وأنه يلتزم بيتَه لا يعمل... وخيّل إليّ أني أسمع نحيبه: هل ذلك منه إشفاقٌ على زبائنه الجائعين للّحم في هذا الشهر الفضيل، أم هو حزنه على رزقه المقطوع؟

أيها النظام!

أنت دمّرتَ بيوتنا وشوارعنا وأحياءنا

وسوّيت بالأرض مدننا وقرانا

أنت قتلت رجالنا

واغتصبت نساءنا

أنت مكّنت الميليشيات

من أن تحُزّ بسكاكينها

أعناق أطفالنا وهم في المهد

أنت أحرقت الزرع

ونشّفت الضَّرع

أنت هبطت بعملتنا إلى الحضيض

وجعلتنا الأقلّ قدرةً بين شعوب الأرض

على استيفاء الحاجات

وما زالت راجمات صواريخك الروسية

تعمل من فوق قمة قاسيون!

ظهيرة الأربعاء: الأول من رمضان ١٤٣٤ / ١٠-٧-٢٠١٣

مَشاوي.. في مطعم برَبْوة دمشق

ما كنت أدري ظهيرة أمس (اليوم الذي ما قبل بداية رمضان)، وأنا في أحد المطاعم المنتظِمة إلى يمين المغادِر دمشق من ناحية الرَّبوة، مدعوًّا وعشرين من أكاديميّي كلية آداب دمشق، أنّ ما نأكله في ساعتنا من "المشاوي" سيكون آخر ما يُتاح لنا أن نتناوله ببحبوحة من اللحوم غدًا.

فقد عرفت، اليوم، أنّ اللحم قد كفّ عن الوصول -إلا بشقّ النفس- إلى العاصمة من الأرياف، بسبب احتدام المعارك في الطرقات الواصلة ما بينها.

ولأحدّثكم، أيها الأصدقاء (ولا يسيل لعابُكم)، عن أنّ الغداء كان من المشاوي: كباب، وشُقَف، وشيش طاووق من لحم الدجاج، فضلا عن الصْفيحة الدمشقية تلك الأقراص من العجين مُغَشّاةً بكثير من اللحم.

أكتب هذا، وأصوات القصف تترامى إلى سمعي آتيةً من قمة قاسيون، الذي «يطلّ على

وطني» الحبيب![1]

منتصف ليل الأربعاء: ١٠-٧-٢٠١٣

السوريون.. بين الحنين والأنين

الذين غادروا الوطن يعصف بهم الحنين إليه، ويتلهّفون للعودة ولو تحت الضرب.

والذين يقيمون فيه اشتدّ فيهم الأنين، فهم يتمنّون الهرب.

شقيقتان لي:

أمّ منار، التي في "الدوحة" عند ابنها في عيشة راضية، تبكي شوقًا لحلب، ولا تعرف السبيل للعودة وهي في سنّها العالية.

وأمّ خالد، التي في حلب، تحزم حقائبها للسفر إلى تركيا.

وتظلّ راجمات الصواريخ تغرّد في ساعات الليل مثل تغريدها طوال النهار... والدولار يحلّق عاليا جدا!

ليل الخميس: ١١-٧-٢٠١٣

إنشاء "مجموعة" بمصر لطرد السوريين والفلسطينيين

«تم إنشاء هذا الجروب [مساء الأربعاء ١٠-٧-٢٠١٣] بعد أن أثبتت الأحداث أن حضن مصر الدافئ المعطاء قد ضم السوريين والفلسطينيين، ولكنهم اشتركوا في كثير من المؤامرات ضد أم الدنيا، واشتركوا في ضرب جيش مصر، ولذلك يجب أن يعودوا إلى بلادهم

---

(١) وحضر هذه الجلسة الدكتور أحمد عمر، بعد مناقشته للماجستير، مع لفيف من الأكاديميين والزملاء، منهم الدكتور أحمد جاسم الحسين، والدكتورة حسناء أقدح...

لنرى كيف يدافعون عنها، ويعود الأمان إلى مصر»

أقول:

لا لطرد أحد... بل لاحتوائهم في هذا الزمن الصعب...

قلة قليلة لا يعامَل الجميع بقسوة بسببها.

النظام الجديد الذي عزل رئيس البلاد لا يُعجزه التعرف على من يسيئون إليه.

ولا تزر وازرة وزر أخرى.

يجب أن يتغلّب المنطق الإنساني.

ليل الخميس ١١-٧-٢٠١٣

هذه التصرفات النابية

أمعقول أن يقف مسلحون بحلب على الحدود الفاصلة بين الأحياء التي يسيطر عليها الجيش الحر وتلك الواقعة تحت سيطرة الجيش النظامي، يمنعون نقل الطعام من حيث يتوافر في المناطق الأولى إلى حيث يعاني الناس من شدة الجوع، ويعاملون ناقليه بالفظاظة المتناهية، بأن يَدلقوا الطعام على الأرض ويندّدوا بحامليه، هم مَن يدّعون أنهم من تنظيمٍ أطلقوا عليه عنوان "دولة العراق والشام الإسلامية"!

فأي تنظيم! وأية دولة!

وما بال هؤلاء يقومون بهذه التصرفات النابية التي تجرّدهم من كل قيمة يقدّرها المواطنون!

صباح الجمعة ١٢-٧-٢٠١٣

بناء المدارس.. وتدميرها..

ما رأي المواطن العالمي، الإنسان في كلّ مكان، في نظام يدمّر في بلده نحو خمسة آلاف مدرسة أو يجعلها بالقصف غير صالحة للاستخدام؟

وكانت حكوماتنا الوطنية قد أحدثت، قبل ستين أو سبعين سنة، ما سمّته مشروع الفرنك (خمسة قروش)، يدفعها المواطن زيادة في المعاملات لتُبنى، بما يتجمّع، المدارسُ واحدة بعد أخرى!

منتصف ليل الجمعة: ١٢-٧-٢٠١٣

بدْنا الخبْزة.. جوعانين

عندما نَشِبت الحرب العالمية الثانية، وأنا أناهز العاشرة من عمري، اتفق لي يومًا أني كنت أمرّ في الطريق الواصل ما بين "السويقة" و"خان الوزير"، قريبًا من بيتنا في حيّ "وراء الجامع" بحلب الواقع شماليّ الجامع الأموي.

وبينا أنا أمام جامع الخير، الذي يتوسّط تلك الطريق، ترامت إليّ أصواتٌ جماعية تتردّد على وتيرة... تبيّنتُها عند اقتراب المسيرة مني: ترتفع أصواتُ أناس منهم وكأنهم يستَجْدون: «بدْنا الخبْزة» فيجيبهم آخرون بصوت صادر من القلب: «جوعانين»!...

وقد عرفت بين هؤلاء الناس وجوهًا أَلِفتُها في الحيّ، منهم اليهودية "نزّوهة"!

في البيت تحدّثت -ولم يغادرني ذهولي- عمّا رأيت، أمام جدتي... وإذا هي تبكي في أثناء سماعها، وتلطِم بغير عنف خدّيها! وعرفتُ في ذلك أنها تخاف أن يتكرّر في البلد ما كانت عاصرتْه في شبابها أيام "السفر برْلِكْ" (الحرب العالمية الأولى)!

من يومئذ عرفت من جدّتي (الحموية الأصل، ومن أسرة كردية الأرومة) أنّ هناك جوعًا

يمكن أن يعُمّ البشر!

بعد جوع ١٩١٥ المتكرّر في ١٩٣٩... هو ذا الشعب السوري في عام ٢٠١٣، يقع -دون شعوب الأرض كافّةً- تحت وطأة الجوع، ليس من جرّاءِ حرب كونية، لكن عبر احتراب ما زال يقتل البشر، ويدمّر الشجر، ويحرق المحاصيل الزراعية، ويَحول دون أن ينتفع بها أهلُ الريف وسكان المدن على حدّ سواء.

ظهيرة السبت: ١٣-٧-٢٠١٣

إنه الجوع.. أيها الأصدقاء

في مكالمة هاتفية لي اليوم إلى صديقي الباحث المؤرخ الكبير الدكتور "محمود حريتاني" بحلب، أسأله -استكمالاً لخاطرتي النهارية- عن اسم ذلك المسجد في الطريق ما بين "السويقة" و"خان الوزير"، أسرع، وهو الخبير في مضماره، يقول إنه "جامع الخير"، وكان قد بناه في مطالع القرن الماضي الثريّ الأريحيّ "أبو موسى الأميري" (ومن ذريّته الشاعر الصوفي الكبير "عمر بهاء الأميري").

لما عرّفتُ صديقي بموضوع الخاطرة، عن الجوع الذي شهدتُ بوادره في الحرب التي بدأت عام ١٩٣٩، طَفِق يحدثني عما تعانيه حلب من الجوع اليوم، حتى إنّ "ربطة الخبز" تضاعف ثمنها إلى عشرة أمثال (هذا إن وجدت)، تذكّر ما كان شاهَدَ بأمّ عينه في شتاء ١٩٤٠-٤١، وكان له من العمر بضعة عشر عاما، من أنه كان مارّا في مكان حول القلعة، فرأى تسع عربات ممّا يسمّى في ذلك الزمان "التَّكّ"، تجرّ كلَّ واحدة منها دابّة، محمّلةً بشوالات من القمح الذهبيّ اللون!

يقول صديقي ذو الذاكرة الذهبية: إنّ المارّة، الجائعين إلى الرغيف، لما رأوا العربات

التسع، هجموا عليها، مزّقوا وهتكوا، وامتلأ كلٌّ منهم من هذا القمح بما قدر... قال: فو الله، خلال ربع ساعة لم تبقَ حبّةُ قمح، لا في قاع العربات ولا منتشرةٌ على الأرض!

أقول: لو أنّ جائعي سوريّة اليوم، اتفق لهم أن لمحوا ليس شوالات قمح، لكن قامات المسؤولين عن المجاعة، لنالوهم بالأظافر وتولّوهم بالأنياب، شفاءً للغليل... ثمّ رضوا بعد ذلك أن يمتدّ بهم زمن الجوع!

إنه الجوع، أيها الأصدقاء!

منتصف ليل السبت: ١٣-٧-٢٠١٣

النجار منصور.. يُمعَس كـ صُرصور

واضحٌ أنّ صاحب هذا القلم لا يتقن النظم، لا بالفصحى ولا بالزجل. ولكنه بدا حريصا على أن يعبّر عما يجري حوله من مفارقات!

لقد تبدّى في قوله الصدقُ ممتزجًا بقدر من الشفافيّة المغمّسة بالبراءة والبساطة: فهناك النّجار، واسمه العمّ منصور، يهتمّ بعمله ولا يُعنى بسوى ذلك، حتى إنه «يهرب من إطلاق النار»! وهو يتلقى توصيات عمل، كأن «يصنع بيتا للعبة» تخصّ أحد زبائنه من الأطفال. ولكنّ اضطراب الأمن حوله، جعلهم يتهمونه بأنه كان وراء انفجار وقع... وعندما ذهبت إليه الطفلة ليصنع بيتا للعبتها، رأت الأغلال في يديه!

ولننظر إلى "مفارقة" في الأبيات: اسم النجار العم منصور، ولكنّ هذا البائس ما عرف النصر والانتصار... فقد فعسوه، داسوه بأحذيتهم، كما يُداس الصرصور!

والملاحَظ أنّ صاحب الأبيات يريدها أن تكون واحدة في سلسلة الأناشيد الجديدة للصف الأول الابتدائي في سورية! فأي انطباعات يرسم النظام في نفوس أطفالنا، وأي مشاعرَ

وأحاسيس يبني، وتصوراتٍ للمستقبل الآتي، وإبداع!

أعيد نشر الأبيات (وكنت قد نشرتها في صفحتي قبل أيام)... للتأمُّل:

عمّي منصور النجّار ... يهرب من إطلاق النار

قلت لعمي عندي لعبة ... اصنع لي بيتا للعبة

هزّ الرأس وقال ... أنا في الاعتقال

بعد قليل رحت إليه ... وكلبشاتٌ بين يديه

اعتقلوا عمي منصور ... فعسوه مثل الصرصور

عمي منصور نجار ... اتهموه بالانفجار[1]

منتصف ليل الأحد: ١٤-٧-٢٠١٣

النوم.. في حديقة منزلية

أستاذنا الغالي

لا أعرف كيف أعبّر لك عن فرحي ساعة أبلغتْني صديقتي (س.ج) أنك سألتها عني وقلت مازحا: (وينا هالمنظومة، صار لي عشر سنين مو شايفها)، وذكرتَ لها أنك تقرأ لي أحيانا في الصحافة التي أعمل فيها منذ سنين. وعندئذ قلتُ لصديقتي: هيا إلى بيت الأستاذ الذي زرته من زمان وأعرف أنّ له حديقة!

سأحدثك في رسالتي هذه، عبر الفيسبوك-الخاص، بما لم يتيسّر لي أن أشرحه وأنا

---

(١) فاتَ الكاتبَ أن يلاحظ ثم يلفت إلى أن هذه القصيدة محاكاة (وتناصّ) لقصيدة ضمن منهاج الابتدائي السوري لسنين طويلة، مشهورة جداً لدى جيل واسع من السوريين، من عُمر أحفاد السباعي رحمه الله.

وصديقتي في حديقة بيتك. كنت تقول لنا وكأنك تعتذر بأن الماء الذي يتدفق من النوفرة هو ماء يعاد ضخّه آليّا من قاع البحرة، وقلت أيضا إنك عندما تسقي الزريعة في هذا الحر اللاهب تبدو لنفسك وكأنك تسقيها بالقطّارة، ذلك -قلت- لحرصك على الماء العام أكثر من حرصهم على المال العام، وخزاتك التي لا تكفّ عن إرسالها! أثناء سماعي ذلك كان الخيال يذهب بي إلى حيث لا يخطر في بالك.

كنت أقيس بنظري أبعاد الحديقة التي نجلس في ركن منها، المساحات المبلطة بالبلاط المغسول تَوّاً، دون الأحواض التي تغطيها التربة الحمراء... وأحسُب كم فرشةً تتّسع، كم طرّاحة، كم لِحافاً، كم ملاءة، تُمَدّ هنا وهناك، وينام فوقها نساء وأطفال ظلوا أحياء بعد قصف بيوتهم... أكشف لك عن خواطري، وأنا أكاد أبكي مع أنه لم يعد في العينين دموع!

ما لا تعلمه، يا أستاذي، أني أسكن مع والديّ في الحي المسمّى "......." القديم الآمن حتى اليوم، والبيت من غرفتين تتوسّطهما غرفة معيشة.

أخي "أحمد" الساكن في حيّ بشرقيّ العاصمة، قُصف بيته منذ عام، ونجوا والحمد لله بأعجوبة، فجاؤوا إلينا "نازحين".

أخي "محمود"، الساكن في "معضّمِيّة الشام"، قُصف بيته أيضا منذ ستة أشهر، ونجوا، فحمل أسرته إلينا!

وأخيرا أختي "حميدة"، الساكنة في "برزة"، جاءتنا تحت القصف مع أسرتها.

امتلأت الغرف الثلاث بالساكنين. صرنا إذا مشى أحدنا ليلا يخشى أن يدوس على لحم! ولن أحدثك عن إعداد الطعام في المطبخ، والتحلق حول الموائد أو الانتباز بعيدا عنها! والاستحمام، والانتظار صباحا وفي كل وقت أمام باب الحمّام!

وأنا في حديقة بيتك، يا أستاذنا الكريم، أستمع إلى حديثك عن الانتفاضة، والآمال

المنشودة، كنت "أفصّل" مساحات حديقتك: كم يمكن أن ينام فيها في فصل الصيف هذا من بشر؟ أنا لا أحسُدك، معاذ الله، فأنا أعرف أنّ البيت مستأجر، وأنّ معونة تصل إليك من أولادك في الخارج تغطية للإيجار. ولكني كنت مثل جائع يتملى النظر من صواني الحلويات!

هل يخطر لك أن تنشر رسالتي عندك، مغفَلةً من اسمي طبعا؟ وأما أسماء أشقائي الثلاثة فاشتققتها الآن من جذر "حمد يحمد"! والحيّ السكني مغيّب، وكذلك الصحيفة التي أعمل فيها.

مع التغيير أنا، أستاذي... ولكن أغرقتْنا الدماء!

منتصف ليل الإثنين: ١٥-٧-٢٠١٣

القذيفة الثانية

يرمون القذيفة الأولى

يُهرَع الأهالي للإنقاذ

فيرمونهم بالقذيفة الثانية!

مساء الثلاثاء: ١٦-٧-٢٠١٣

كاتبة.. عاقّـة

عرف المشاهدون العرب منذ بضعة عشر عاما المذيعة "إيمان عياد" في قناة الجزيرة، التي عُرفت بوجهها الملائكي، الجامع بين الجمال والجاذبية، حتى وُصفت بأنها ملكة جمال الإعلاميات العرب... وأعلم أنها احتجبت عن جمهورها منذ مطلع الانتفاضة في سورية العام ٢٠١١.

قبل ساعة قرأت، في صفحة كاتبة سورية تعمل في الصحافة بحلب (أتحفظ على اسمها)، البوست التالي وعنوانه "وقيل أسلمت سارة"، أنقل لكم نصه حرفيّا:

إيمان عياد مذيعة قناة الجزيرة تَشهَر إسلامها. ذكرت إيمان عياد المذيعة في قناة الجزيرة عبر صحفتها الخاصة قبل لحظات، أنها أعلنت اسلامها. وإيمان عياد مسيحية من بيت لحم. إذن مع وجهها إلى جهاد النكاح!

عرفتُ هذه الكاتبة معرفة شخصية منذ عشر سنين، وتعرفتُ على أسرتها، وزارتني بدمشق وزرت أهلها بحلب، وحزنت لحادثة وفاة أمها في حادث سيارة. وأذكر أنّ كلّ ما بيننا كان طيبا... إلى أن جرى حوار بيننا قبل عام عبر الخاص في التواصل، فكان من موقفها وخطابها وتصرفها ما جعلني... أو ما جعلها تقطع، وتَحظُر، بطريقة تَنُمّ على سوء تعامل.

وقد فوجئت بها الليلة تدخل صفحتي وتُعلّق على خاطرتي "القذيفة الثانية" بعبارة استفزازية، ثم تسرع إلى حذف ما كتبتْ! وبدخولي صفحتها فوجئت بهذا البوست الذي لا أظن أنّ مثله يصدر حتى عن رجل ينقصه الاتزان. ويجدر بي أن أزيد الأمر تعريفا بأن هذه الكاتبة تجاوزت الأربعين من العمر، وعازبة، وهي غير مسلمة!

لن أعلق على العبارة التي ختمت بها قولها، فالانطباع الذي تخلّفه الكلمات عند القارئ يكفي، ولكني أروي أني في عام ١٩٧٠ عُنيت بأدب طالبة جامعية كانت تعمل في الدائرة الرسمية التي أرأسها، توسّمتُ فيها الأدب، وإذا بها تُظهر سفاهة على صفحات إحدى الدوريات بدمشق، كان من ردّي عليها ما جعل صديقي محافظ حلب "عبد الغني السعداوي" يهتف إليّ ويقول: "شو! طلعت تلميذتك عاقّة!»... وضحكنا ما بين حلب ودمشق على الهاتف طويلا!

ويبدو أن ما عند كاتبة اليوم يتجاوز السفاهة إلى ضربٍ من التهوّر، في حظر ووصل

وحذف، ويتخطى ذلك إلى البذاءة (تقول: مع وجهها إلى جهاد النكاح!)... ولا بد من القول بأني لم أقرأ عند ملكة جمال الإعلاميات العرب ما يؤيّد الخبر الذي حفز كاتبتَنا إلى تحبير نصّها.

ولن أُغفِل الإشارة إلى أنّ الكاتبتين تنتميان إلى السلطة، وبسيوفها تطعنان.

فجر الأربعاء: ١٧-٧-٢٠١٣

تحت الأقدام.. وفوق الرؤوس

في حلب اليوم، بين "ضريح هنانو" و"بستان القصر" (جنوب غرب المدينة)، نشأ "مَعبر" هو أشبه بالصراط الصعب، يسيطر على طرفيه الاثنين: من هنا "الجيش النظامي" ومن هناك "الجيش الحرّ"، وأصبح الممرَّ الوحيد الذي يصل بين شطرَي المدينة العريقة.

ورغم العداوة بين الطرفين، فإنّ ثمة تواصلا بينهما عبر الجوّال وتفاهما، أن يُؤذَن لأعداد من الناس، دفعة بعد دفعة، بأن يعبروا، يشترون المنتجات الريفية المتوافرة في جانب الحرّ لصلته بالريف، يحملونها بالأيدي سائرين بها على الأقدام قاطعين المعبر (الذي يناهز الخمسمئة متر) في عزّ الحرّ، ليتفرّقوا بعدئذ في الأحياء الغربية.

تراكَم، مرة، عددُ المتجمّعين في طرف حتى بلغ الثلاثمئة، ولم يمكن لسببٍ ما الاتصالُ للسماح، فتراءى لمتولّي الحاجز أن يقول لهؤلاء البؤساء: «روحوا!»، ففرحوا، وراحوا داخلين المعبر بمشترياتهم.

لما اقتربوا من الحاجز الآخر، بدا الغضب على متولي أمره. صرخ بهم من بعيد: «كيف جيتوا ولْكُون دون إذني؟»، قالوا: «هم قالوا لنا امشوا!»... فأخذ يرشّهم، يرشّ الأرض تحت أقدامهم فيقفزون، فيرفع الرشّ إلى ما فوق الرؤوس فينبطحون!

قالوا لي على الهاتف: «هل تتصوّر الخُرطوم في يد الجنيناتي، يرشّ الشجر بالماء من فوق

ومن تحت؟!». ولم أعرف ما إذا كانت أصواتهم بعد ذلك ضحكا أم بكاء!

ولكنهم -للحقيقة- كانوا يحمدون الله أنْ لم يقع بينهم قتلى، فقط جرحى!

فجر الخميس: ١٨-٧-٢٠١٣

إلى الكاتبة الصحفية، الصديقة التي كانت

في دخولي صفحتَك، بعد أن تراءى لك أن ترفعي الحظر عني فتسجّلي تعليقا استفزازيّا عندي ثم تسرعي فتحذفي...تسنّى لي أن ألمح ذلك الكاتب، الذي كان قد أقذع في هَجْوي يوم حذّرت من انقلاب العسكر هناك... رأيتُه يسرح في يومياتك ويمرح، ويصول ويجول، حتى خُيّل إليّ أني أسمع صرخاته: هل من مُنازل! هل من مُقاتل!

فعرفت أنك تجمعين إلى شبيحتك بعضَ البلطجية، تؤسّسين بهؤلاء وأولئك مدرسة في الهَجْو والتهجّم، ما كنت أظنّك مؤهَّلةً لها يوم منحتك إعجابي كاتبةً أديبة ومودتي سيدةً لبيبة!

مساء الخميس: ١٨-٧-٢٠١٣

في ممرّات البيت الداخلية

أحببت أن أطمئنّ على بعض أهلي بحلب. رنّة واحدة، حتى لا أوقظ النيام في الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

فاجأني الردّ: «نعم!».

قلت: «أيقظتُك؟».

قال: «لا، عمّي! لم ننم. أنا والزوجة والصغار على الطراريح في الممرات الداخلية... نستمع، وننتظر!».

ضحى الجمعة: ١٩-٧-٢٠١٣

حسابات...

وقد تكون «حسابات»

بين أقطاب

تجري تصفيتها على ترابنا

ونحن عنها... غيرُ لاهين! ظهيرة الجمعة: ١٩-٧-٢٠١٣

التواء الأحناك

ذات يوم قرأت هذه السالفة:

«وقف أعرابيّ معوجّ الفم أمام أحد الولاة، فألقى عليه قصيدة في الثناء عليه التماسًا لمكافأة، ولكنّ الوالي لم يعطه شيئا، بل سأله: ما بال فمك معوجّا؟ فردّ الشاعر: لعله عقوبة من الله لكثرة الثناء بالباطل على بعض الناس».

ترى... كم يبلغ عددهم، عندنا، أولئك الذين اعوجّت أفواههم والتَوَت أحناكهم، وطافوا على الأطباء وأقاموا في المصحّات، دون أن يفطنوا إلى أنها عقوبة من الله!

منتصف ليل الجمعة: ١٩-٧-٢٠١٣

حتى قيام.. الحريّة

صدّقوني...

إني تمنّيت لو أنّ المؤيِّد، الذي اغتيل بالأمس في لبنان، ظلّ بيننا حيًّا... حتى قيام الحرية،

ليرى أنّا لن نَحرِمه ورَهْطَه من حقّهم في ممارسة الانتقاد السياسي، هذا الذي حرمونا منه طوال نصف قرن، وهمّشونا، وشرّدونا.

أم... أني... أحلُم!!

مساء السبت: ٢٠-٧-٢٠١٣

ويتجمّع الأطفال

كان الصغار

كلما أراد أن يُفرِّقهم

اتّقاءً

يُحسّ أنهم يتجمّعون

حولَه

وحول أمّهم

في عَتَمَةِ الممرّ...

ليل السبت: ٢٠-٧-٢٠١٣

عبد العزيز الخيّر.. بين ذكاء النظام وقصور تفكيره

إن نحن أنعمنا النظر في حرص النظام على احتجاز حريّة المناضل عبد العزيز الخيّر، يُراودنا إحساسان متناقضان:

الأول أنّ النظام يعرف بذكائه أبعاد شخصية هذا المفكر ومدى تأثيره فيمن حوله، فيعمد إلى احتجازه،

والثاني ظنُّ النظام أنّ اعتقال هذا الرجل، عشر سنين أو ثلاثين، قادرٌ على أن يلغي فكره أو يبدّد تأثيره، في حين أنّ صنيعهم يُسهِم في جذب الأحرار إلى دائرة ضوئه، وهو يتبدّى لهم أنموذجًا للفكر الصامد، حرًّا بقي أو شهيدًا ارتقى إلى السماء.

ضحى الأحد: ٢١-٧-٢٠١٣

حكاية الخبز واللحم.. بين الغوطة والعاصمة

"النظامي" يمنع الرغيف عن الغوطة، حتى لا يتغذّى به "الإرهابيون"، فيطحن الناسُ هناك علف الدجاج -إن وُجد- ويأكلون.

و"الحرّ"، انتقامًا، يمنع اللحم عن العاصمة، فتنفتح أبواب التهريب إليها، ويدفع ساكنوها أربعة أمثال السعر!

حدّثني بذلك، الليلةَ، لحّامٌ عتيق.

ليل الاثنين: ٢٢-٧-٢٠١٣

الخوف على أموال الدولة

إذا كنتَ قد اقترضت من مصرف مبلغ مليون ليرة سورية (تدنّت قيمتُها اليوم إلى خمسة آلاف دولار)، وعَجَزت بسبب ظروف الحرب عن سداد الأقساط، فإنّ القوانين تُبيح الحجز على أموالك أنت وكفيلك، وأن تُمنَعوا من مغادرة البلاد أيضا، وذلك خوفًا على أموال الدولة من الضياع!

ولكنّ ذاك الذي ابتزّ المجتمع مئة مليون دولار، واقتنى في الداخل وسرّب إلى الخارج، فإنه يظلّ يتمتّع بحريّة التحرّك في كل اتجاه، محميًّا ومدلّلا!

منتصف ليل الثلاثاء: ٢٣-٧-٢٠١٣

الدولار.. الذي يَشْغَف القلوب

لو أنّ أغنياء مصر، الذين جمعوا في غفلة من الشعب ثرواتهم الطائلة، عمدوا إلى أن يَهَبوا ثلاثة مليارات دولار سنويًّا للدولة، لكانوا حرّروا جيشهم من عبء المنحة الأمريكية التي تُقيّد وتعقّد!

ولو أنّ أغنياء سورية، الذين جمعوا بالحرام ثرواتهم الفاحشة، طرحوا -وليس وهبوا- شيئا من ملياراتهم، في السوق السوداء أو البيضاء، لجنّبوا شعبَهم معاناةَ هبوط ليرتهم، فلم تنحدر قيمتها إلى خُمس ما كانت عليه قبل اندلاع القتال!

ولكنّ أبناء الرأسمالية الرثّة... ما حُبُّ الجدار والديار، ولا حبّ الوطن، يشغَف قلوبَهم، بل هو حبُّ الدولار، وإن كان مغمّسًا بالدماء والدمار.

مساء الأربعاء: ٢٤-٧-٢٠١٣

عيون.. بصّاصة

عيون.. بصّاصة!

حول الطاولات يتحلّقون

والعيون تجول

وهم يَعُبّون أنفاسَ "المعسّل"

ثمّ تتقارب الرؤوس

وتشتغل الوشوشات

وفي آخر الليل -يقال -

يكتب كلٌّ ما سمع

وما استوحى!

ويدّعي المغرِضون:

أنّ بعضهم يكتب عن بعض أيضا!

فجر الخميس: ٢٥-٧-٢٠١٣

قضاء "العِدّة".. في الشارع

سيدة فلسطينية تقيم في مصر اسمها «فرح يوسف»، نشرت في صفحتها قبل ساعات ما يلي: «امرأة سُوريَة تَسأل: زَوجي استُشهِد، وبيتِي دُمِّر، فَهَل يَجُوز لي أن أقضي عِدَّتي في الشَّارع؟!».

وتعلّق فرح: قتلتني الصراحة!

والسوريون يقولون: نحن نتحمّل ما تراه العيون، وتسمعه الآذان، وصنوفا من العدوان لا حدّ لها!

اسمع، أيها العالم!

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٥-٧-٢٠١٣

في "مَعْبر الموت".. بحلب

وكنتُ قد سمعت الناس يسمّونه "مَعْبر الموت"، فرأيته كذلك... ولكنْ كان فيه عذابٌ كبير لمن يعبُره قبل أن ينجو من الموت.

ماذا أحدثك عن رحلتي فيه، يا أخي، أنا التي خرجت أمسِ من حلب، وأنت المقيم في غربتك بإسبانيا، تتعذّب بالتصوُّر من أجلنا ما لا يقلّ عمّا نعانيه نحن في أرض الواقع تحت القصف والضرب!

لحظة نزلنا من التكسي في أول هذا المعبر العجيب، أخذنا عربة يدفعها باليد شابٌ بائس. فتّشونا عند حاجز الجيش النظامي، ثمّ اتجهنا نحو حاجز الجيش الحرّ (تعابير أصبحت مألوفة عندنا!). وكان علينا أن ننفصل أنا وابني عن العربة، تسلك هي الطريق الأكثر عُرضة للقنص، ونحن ألزمونا السير في طريق أقلّ عرضة. هو صراط متعرّج وغريب!

أخذنا نسير، نحن المشاة وعددنا هائل كما في يوم الحشر، في أرض عراء تارة، ثمّ يتحتّم علينا أن نعبر بيوتا قد تهدّمت، نمشي في أطرافها فوق أنقاض وأتربة، نخرج من جانب هذا البيت إلى الذي يليه... يا حرام! لقد هَدم القصف هذه البيوت، والله أعلم كم قُنص أناس هنا! كنا كأننا نجتاز ساحة حرب انتهت دون أن ينتصر فيها فريق على فريق فبقيت "أرضا محايدة"! لقد درَستُ التاريخ، يا أخي المقيم في غرناطة، أربع سنوات بالجامعة ودرّستُه ثلاثين سنة للطلاب والطالبات، والله لم أقرأ تفاصيل حرب جرت وسط مدينة، في أحياء وحارات وأزقة مثل هذه!

نعم... وكنا في مسيرنا نتجنّب الخوض في مستنقعات قد طفَحت فيها مياهٌ أغرقت التربة وبعثت روائح، وندوس حجارة قلقة قد رصفها في غير انتظام مارّون قبلنا. وصعدنا جسرا انتشرت فيه المكعّبات الإسمنتية وأكياس الرمل الممزقة. وانتهينا إلى "هنغار" واسع يَعِجّ بباعة الخُضَر الذين سُمح لهم بجلب منتجاتهم من منطقة "الحرّ" إلى هنا، حيث يؤذَن لأهل "النظامي" -الذين نمشي في حشدهم- أن يأتوا، ويشتروا، ويحملوا بالأيدي، أربابَ بيوت جائعين للمواد الغذائية ومساكين متربّحين يخاطرون بأرواحهم من أجل الكسب.

هنا، تفقّدنا -يا أخي- العربة التي تحمل الحقائب فلم نعثُر عليها. صرخ ابن أختك بالمقلوب: «حقائبنا انسرقت»، فسقط قلبي من بين الضلوع. ولكن سَرعانَ ما وجدنا العربة في رتل الواقفين أمام حاجز الحرّ في انتظار التفتيش.

وفي ساحة كانت فيها حركة وسيارات، أخذنا تكسي وقلنا له: «إلى ساحة بعيدين» (اسم ما أظنّك سمعت به، يقع شرقيّ حلب!). ومن هناك حافلة بولمان تُقلّنا إلى تركيا، غربًا باتجاه لواء الإسكندرون. ونزلنا في بيت استأجرناه، كانت ليلتي فيه أول ليلة أستغرق فيها بنوم لا يرعبني قصف ولا هدير طائرات ودبابات!

لا بأس إن أحببت نشر رسالتي هذه، لكن في غير صفحتك، يا أخي، بعد أن تصحّح ما كتبته وأنا في قلقي واضطرابي. وأعدك بأن أتابع الكتابة إليك، ليس عن حاضري بل عن الأيام التي لا تفارقني ذكرياتها المؤلمة.

(منقول، بقليل من التصرف)

دمشق الشام: مساء الجمعة ٢٦-٧-٢٠١٣

مسألة فيها نظر

الرئيس المنتخب لم يقتل إنسانا

وتركهم يشتمونه، ثمّ بأريحيّة عفا

وهم قيّدوه بإعلام منعّم في ظلّ وارف

وكبّلوه بقضاء معزّز من قِبل نظامٍ رحل

واليوم... يقدّمونه إلى المحاكمة بتُهم فيها... نظر!

وأما قتْل خمسين سويعةَ فجر

وأضعافِهم في ليلة شديدة الصفاء

فمسألةٌ... فيها نظر، أيضا!

منتصف ليل السبت: ٢٧-٧-٢٠١٣

مؤلم.. كحزّ السكين في القلب

مجزرة من المجازر ارتكبها قُبيل أيام فريقٌ مقاتل في حقّ مقاتلين كانوا قد صبروا على الحصار، فهم في حكم الأسرى، تمّت تصفيتهم بوحشية تقشعرّ لها الأبدان.

مواطنة متواصلة، هي ابنة صديق حميم، كتبت في صفحتها، مع نشر صورة للشباب بدَوا وكأنهم ينتظرون لحظة تنفيذ أمر الموت... تقول: «الذين يجادلون دفاعا عن الجريمة لهم في إبليس أسوة، إذ جادل الله تعالى دفاعا عن جريمته بمنطق صحيح عند من هم من مدرسة إبليس».

متواصلٌ من غير أصدقائي، علّق في صفحتي، على منشور لي بكلمات عتاب حول هذه الواقعة تقطر دمًا وحزنا، فكتبت (مُزاوجًا، هنا، بين تعليقيّ الاثنين):

مؤلم، يا "ريّا" يا ابنة صديقي، ويا "حازم" أيها الصديق الذي لا أعرفه... مؤلم كحزّ السكين في القلب ما يقع في البلد، شباب تُزهَق أرواحهم، مقاتلين أو مستسلمين،.. ماذا يجري في وطننا الحبيب!

ولنتذكّر كذلك البراميل التي تلقى على أُسَر قد تحلّق أفرادها حول مائدة إفطار، أو هم نائمون ساعة السحَر... ومع ذلك إنّ تصفية أسرى -هم من زهرات مجتمعنا- جريمة يجب المحاسبة عليها! وتراءى لي أن أنصح: انظر بالعينين معا، يا حازم.

أحسب أنّ ريّا قد تأثرت بكلماتي، وإن غاب عني صوتها. وأما حازم، فقد جاءني منه

تعليق مؤلف من مفردة واحدة: «حاضر»، وبدا لي من القناعة -إن لم أكن واهما- بحيث عمد إلى أن يحذف عتابه البليغ، الذي كم وددتُ لو أدرجه هنا.

إنّ تقاتُلنا، إنّ قتلنا بعضنا بعضا، هو كمن يطعن قلبه بسكين... فمن ذا يملك المقدرة على انتزاع هذه السكين من اليد؟ أم أنّ هناك رغبة مدمّرة عند بعضهم في أن يرانا هكذا!

مساء الأحد: ٢٨-٧-٢٠١٣

الكذبة الكبرى

نعم، نعم...

نحن كما تقولون وأكثر:

سرقْنا الحكم

بلطجيّة وشبّيحة

ديكتاتوريون

متآمرون ومتواطئون

قولوا ما شئتم!

لكنّا سوف نظلّ نحكمكم

وسيطول ما تحلمون به

الكذبة الكبرى:

الديمقراطية!

منتصف ليل الاثنين: ٢٩-٧-٢٠١٣

... ويُصْلِحُ العطار

حلّ الربيع

انتصر الربيع

وبدأنا في لملمة ما بعثروه

جاءتنا من صوبهم قهقهات:

هذه هي الديمقراطية التي كنتم تحلُمون!

يا هؤلاء!

دهرًا طويلا وأنتم تخرّبون...

أمهِلونا جزءًا من الزمن الذي ضيّعتم!

نعم...

يُصْلِحُ العطارُ ما أفسدَ الدهرُ!

صباح الثلاثاء: ٣٠-٧-٢٠١٣

وداع أمّ

ناشطة سورية... قرأت في شبكة التواصل وهي في غربتها خبر وفاة أمها في الوطن، فكتبت وطَوَت... وسمحت لي بأن أنشر:

يا "يسرَى"، يا أمي!

ما أكثر ما كنت تردّدين

أنّ الدنيا تتغيّر ما بين ليلة وضحاها

وأنّ شمس غد ستكون أكثر دفئا

لكنّ الموت كان أسرع إليك

حين عبرت الواقع فجأة إلى عالم الخلود

كنت أقضي معك دقائق

نسرقها من عمر الزمان

نشرب في العتَمة قهوتنا

ونحكي أسرارا كنا كتمناها

أبي في السماء ينتظرك

سوف ترينه متأنّقا، متعطّرا

تملأ ضحكته محيّاه الوسيم

مشتاقا، فاتحا ذراعيه

فاحضُنيه بحرارة، يا أمي

وحدّثيه عني

وعن وطن ينهض

ودماء تبني صروح الحرية!

لمى توفيق الأتاسي - إسبانيا ٢٧-٧-٢٠١٣

عندما أرادوا تذويب الفُروق بين الطبقات

قَدّرت الدول المتقدّمة أبعادَ الدور الذي يتولاّه كبار الموظفين في الإدارات العامة،

فعمدت إلى تأهيلهم بدورات لتحديث معلوماتهم وإنعاش أفكارهم، ثمّ مدِّهم بالرواتب العالية والمنح السخيّة والامتيازات، لعلمها بأنّ نهوض المجتمع في كل مجاليه يكون من إبداعات هؤلاء العاملين في الدولة، بقِطاعيها العام والخاص.

وعندنا... رأينا النظام، منذ مطالع السبعينيات، يسير في الاتجاه المعاكس، فهو كلما ألزمت ضروراتُ غلاء المعيشة رفع الرواتب والأجور، فإنه يحرص على أن تكون الزيادة وفق "شرائح"، تقلّ فيها الزيادة صعودًا... لماذا؟ قالوا: لتذويب الفروق بين الطبقات، أخذًا بمبدأ الاشتراكية، هذا الذي يحتلّ مكانه في شعار الحزب المرفوع.

وليست تحتاج المسألة إلى نقد وتنديد...

ولكن تقتضي الإشارة إلى أنّ النظام قد أطلق، في الوقت ذاته، أيدي "الأحباب والأصحاب" في رحاب الدولة، ما ظهر من أرجائها وما خفي، فهؤلاء يحتازون المال العام ويبتزّون المال الخاص، حتى شكّلوا طبقة يُضرب المثل بسرعة ما جنته من الثراء العجيب... على حين أُغرِق العاملون في الدولة، صغارًا وكبارا جميعا، في لُجّة الفقر.

منتصف ليل الأربعاء: ٣١-٧-٢٠١٣

سؤال.. أريده بريئا

في معزل عن أنّ السوريين فتحوا الصدور والقلوب للضيوف الذين قدموا من لبنان أيام عدوان إسرائيل عام ٢٠٠٦...

يخطر لي أن أقول: لمّا كان الطيران الإسرائيلي يقصف الضاحية الجنوبية ببيروت (مساكن الشيعة اللبنانيين)، كانت قلوبنا تتفطّر وجعًا ونفوسنا تتقطّر جزعا...

ثمّ أطرح سؤالي البريء جدا: وعندما يقصف، اليوم، الطيرانُ القصير، وحمص، امتدادًا

باتجاه حلب، وعَوْدًا إلى الغوطتين... تُرى ما المشاعر التي تنتاب قلب نصر الله الحنون، وتتردّد في صدور رجال حزب الله الشجعان، وسائر أصحاب العمائم السود؟

فجر الخميس: ١-٨-٢٠١٣

سؤال بريء.. آخر

• هل أنت «عربيّ»؟

فنحن نشاهد خطاباتك الفصيحة البليغة، مع ما يخالطها من عبارات بالعامية تسريةً عن النفوس.

• هل أنت «مسلم»؟

فنحن نقرأ اسمك الجميل مضافًا إلى لفظ الجلالة، وكذلك اسم حزبك العتيد.

• ثمّ أسألك، مرتابًا: هل أنت «وفيّ»؟

فإنّا نراك تقاتل الناسَ الطيبين الذين آوَوْا في أيام المحنة قومَك!

• وأسألك أيضا: هل أنت «إنسان»؟

فأنت تُثْخِن بأبناء العروبة، المسلمين، الجيرانِ الأوفياء... حتى ذبحِ أطفالهم بالسكاكين!

اعذرني لقلّة البراءة، في أسئلتي هذه، أيها الحسيب النسيب!

مساء الخميس: ١-٨-٢٠١٣

يا ربّ.. كم نحن سيّئون

• يوم وقع الانقلاب ولم نبادر إلى إعلان التأييد، قالوا لنا: أنتم رجعيّون!

• ويوم أمّموا المعامل والشركات فعبّرنا عن عدم الرضا، قالوا: أنتم يمينيّون!

• ويوم ضاع من أيديهم جزءٌ من أرض الوطن، اتّهمونا بأننا متواطئون!

• وحين استردّوا بدماء أبنائنا تلك المدينة ولو مهدّمة، كادوا يقلعون أعيننا خُيلاء!

• ويوم سكبوا دماء كثير من الأبرياء على ضفة ذلك النهر، قالوا: أنتم إخوان مسلمون!

• ويوم دخلوا في "تحالف دولي" ضدّ دولة عربية شقيقة، سخروا من جهلنا بفنّ السياسة الذي يمارسونه بحنكة خارقة!

• وحينما تأتّى لهم أن يغتَنُوا بغير عرق الجبين، احتقروا الفقر الذي رمَونا في مستنقعه!

• ويوم اضطروا للانسحاب من قطر عربي شقيق بتلك الطريقة، قالوا إننا شامتون!

• ويوم كتب أطفالٌ ببخّاخ على حيطان حارتهم معبّرين عن شوقهم للحرية، حبسوهم وعذّبوهم و... طلبوا أمّهاتهم أيضا!

• ويوم اندلعت الانتفاضة في البلد، أسرعوا يدّعُون بأننا ننوي "ذبح" الأقليات، هذه التي نتعايش وإياها منذ مئات السنين!

• وحين تحوّلت الانتفاضة إلى ثورة، وَصَمونا بما ابتدعه الغرب بعد ١١ أيلول: "إرهابيّون"!

• ويوم دخلت بلادَنا ميليشياتٌ من غرب ومن شرق تؤازرهم، أطلقوا علينا تسمية أخرى: "يَزيديّون"، ومختارين لأنفسهم اسمًا أحلى: "حُسَينيّون"!

فيا ربّ العالمين... كم نحن سيّئون!

فجر الجمعة: ٢-٨-٢٠١٣

رسالة.. من سيدة سورية.. اليوم

عدت من عند ابنتي وزوجها وأولادهما الهاربين إلى تركيا... عدت أمس شوقًا لمدينتي

حلب رغم المخاطر.

لم أنزل في بيتي فهو معرّض للقصف. نزلت في بيت أقلّ تعرّضًا، يعود لابنة أختي المهندسة "أسماء"، ابنتها طبيبة الأشعة الدكتورة "عبير"، التي غادرت إلى بيروت تعمل، ومعها أطفالها الثلاثة، وزوجها المهندس "خلدون" سافر إلى دبي.

زوجي المريض -كما تعلم- مازال مقيما في بيت أهله بمنطقة أقلّ تعرّضا. قد أعود أنا وزوجي إلى ابنتي في تركيا إذا أصبحت بيوتنا بحلب في حالة الخطر.

العالم يُغمض عينيه... والتاريخ يسجّل! [حلب السبت: ٣-٨-٢٠١٣]

دمشق الشام: ظهيرة السبت ٣-٨-٢٠١٣

حوار.. قُبيل ساعة السحور

طرقَ صفحتي في هزيع من الليل، أنيقَ الكلمات بليغ العبارات، وهو يحمل في يُمناه كتابا من تأليفه "السيوف المسلولة"، يلتمس مني أن أقرأه في رابط، وأن أكتب له ما إذا كان «يضيّع عمره في ما ليس يتقن»! وعرّج -في لباقته- ممتدحًا أسرتي الصغيرة: «أبًا» (يعنيني كاتبًا)، و«الخال» الفنان التشكيلي الراحل لؤي كيالي (يقصد خال ابنتيّ التشكيليتين الهائمتين في الدنيا مناصرتين للربيع: "سهير" في الولايات المتحدة و"خلود" بمصر).

وكان لا بدّ لي من أن أعتذر له بكلال البصر وملال العمر. ومع أنّ الساعة كانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل عندنا، فقد استرسلت أسأله التعريف بشخصه وإلى أي قطر ينتمي؟ فأجاب بأنه -حسب اتفاق سايكس بيكو- من السعودية، وتحدث عن خال له وعمّ كانا من المحتجّين، وأنّ أباه كان ضابطا في الجيش، وقضى مدة بدمشق وحاز وساما من القيادة السورية، وأضاف: «كنت عاشقا للربيع السوري حتى اتسخ بهؤلاء القادمين من ضنك التديّن

وبداوة الفكر... والأشد مكراً أن يتقاطروا أيضا من كل مكان بأيدي بعض المخابرات العربية والغربية، فكأنّ الجهاد لا يصحّ في إسرائيل ضد اليهود، لكنه يصحّ ضد أهل الشام».

أعترف بأنه رابني منه هذا الكلام! ومع اختصاره ربيعَنا بالمتشدّدين، فقد لفتُّه إلى أنهم كانوا في سجون النظام وهو أطلقهم في مستهلّ الربيع، ليمارسوا، ولكي تقول أنت ما تقوله الآن! وأفصحت له عن أني أرى في أقواله مَيَلانا نحو النظام، هذا الذي لم يتعامل في الجولان ما تريد أنت أن يفعله مطلَقو السراح فيها، فأسرع ينفي الميل، ويصرّح بأنّ «البعث فكرة عظيمة، لكن شوّهتها الممارسات الخاطئة!».

هنا تراءى لي أن أسأله ما إذا كان من "أهل الجماعة"؟ أم ممن يسمّون أنفسهم بـ"الحسينيّين"؟! فذهب بالحديث مرة إلى هناك ومرة إلى هنالك. فطمأنته بأني «عروبيّ بمقدار، وإسلاميّ بمقدار، وإنسانيّ بكلّ المقادير» ذلك ما تنطق به كتاباتي منذ ستين من الأعوام!

قال أخيرا: إنه ما كتب مؤلفه "السيوف المسلولة" إلا تخلّصًا فكريًا من مرجعيّاته الدينية التي نشأ عليها، «وعليه أنا علماني ولا تعنيني طائفتي كمعيار للحقّانية».

ثمّ اعتذر -وكنا قد بلغنا الساعة الثالثة والنصف- بأنه مضطرّ للانصراف «لمجاملة زوجته في مشاركتها وأطفالها السحور»... مختتما: «قبلاتي على جبينك يا مولانا».

كان حديثا شائقا، قبيل السحور.

لهذا الصديق -الذي انقطع ما بيننا بعد تلك الليلة- مني أجمل التحايا.

منتصف ليل السبت: ٣-٨-٢٠١٣

اليوم.. في ضيافة السيدة أمّ ماجد

البيت لا يُضيِّع. استدللنا عليه من الوهلة الأولى. نزلنا بضع درجات إلى الجنينة.

كانت في استقبالنا شقيقتك الرائعة أم ماجد. ما ألطفَ استقبالَها لنا. كنا أنا وشقيقتي تسنيم وصديقتي إسراء.

قبل الحديث عن الكتب، قدمت لنا العزيزة أم ماجد، ليس فنجان قهوة فنحن صائمات، لكن "وجبة" من حديث المرأة الحلبية اللذيذ. قالت إنك قبل يومين طبختَ في بيتك الدمشقي "مكمور الباذنجان"، وأن هذه الأكلة قلما يعرفها الشوام، وأنك تحبّها، وهي أعطتك الأوصاف على الهاتف والمقادير، وأنك سكبت ووضعت الصحون في البراد... فضحكنا بسرور، وقد عرفنا أن من هوايات أستاذنا الكبير الطبخ، وكدنا ننسى أننا في حرب!

بعدئذ جاء ابنها السيد علاء، ووضع أمامنا كتبا من تأليف خاله الأستاذ فاضل السباعي، وطلب منا أن نختار. الواقع شعرت بالحرج، خاصة عندما قالت السيدة أم ماجد إنها كلما طلبت منك أن تكتب كلمة إهداء على كتاب، قلت لها: «هيك أحسن، حتى إذا أردتُ أن أقدم كتابا لأحد الأصدقاء بحلب، تعطيه أنت وأنا أعوّض!»، ثم قالت: «نقّي منها، يا بنتي، ما تريدين، وأخي أبو فراس يبعث إليّ من دمشق بديلا عنها، ليس الآن، فالطرقات مقطوعة، لكن بعد الحرب». وضحكتْ، وأحسسنا أن في ضحكتها ما يشبه البكاء!

ولكنّ ابنها علاء حدثنا عن حادثة كان شاهدا عليها. قال إنك وقفت ذات مساء في مدرج المتنبي بجامعة حلب، في لقاء جمع بينك وبين طلاب الآداب، هم يسألونك وأنت تجيب ارتجالا مدة ساعتين، وفي الأخير قرأت عليهم قصة عنوانها "الأشباح"، أصغى الطلاب جيدا حتى إنه لم يسعل واحد منهم مع أن الدنيا "مربعينيّة"، وصفّقوا عند الانتهاء كثيرا. ولكن المفاجئ أنهم اقتادوك من باب الجامعة إلى السجن، بحجة أنك شهّرت بالنظام! فتأثرنا لما سمعنا حتى أوشكت عيوننا أن تدمع.

ماذا أكتب لك عن لقاء اليوم الذي أعتبره إحدى المحطات الثقافية في حياتي؟

حملتُ معي أربعة كتب. الآن بدأت بقراءة أول إصداراتك في عام ١٩٥٨ "الشوق واللقاء" (الطبعة الثانية ٢٠٠٢). أستمتع بالقراءة في ضوء الكهرباء التي من حسن الحظ لم تنقطع، لكن...

عفوا... عفوا... فقدتُ القدرة على التركيز، اشتباكات نسمع أصواتها هنا في حي الميرديان. سأغلق. سلام.

منتصف ليل الأحد ٤-٨-٢٠١٣

اسمحوا لي أن أعبّر عن فكري

أنا "عروبيّ" بمقدار

و"إسلاميّ" بمقدار

و"إنسانيّ" بكلّ المقادير...

منتصف ليل الاثنين: ٥-٨-٢٠١٣

من قاسيون.. إلى الغوطة، يا وطني

في وليمة إفطار رمضانيّة، عند أصدقاء كرام في "حيّ جَرَمانا" المزَرّأ شرقيّ دمشق، تحدّث مضيفي عن أنهم يسمعون هنا "الدجّ" الذي يستهدف الغوطة في كلّ وقت، وسألني مازحًا: «أنتم في حيّ الروضة - المهاجرين هانئون».

فقلت: «يا عزيزي! إنها الراجمات، الرابضات في قمّة قاسيون وراء ظهورنا، تُطلِق... نحن نسمع الإطلاق وأنتم تسمعون الدجّ».

فجر الثلاثاء: ٦-٨-٢٠١٣

ريشة الفنان

(إلى يوسف عبدلكي)

عجبتُ

من نظام

يملك كلّ أنواع القذائف

يُطلقها في كلّ اتجاه

ثمّ يخاف من ريشة

قد صُنعت من شَعر أو وبر

بين أنامل فنان

يستعملها باتجاه الورق

مساء الثلاثاء: ٦-٨-٢٠١٣

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني

في عام بعيد قام مثقفٌ -كان قد عاد لتوّه من بلاد الغرب متزوّدًا بمؤهّلات علمية- بزيارة لأصدقاء له في دائرة رسمية. ولاحظ قبل دخوله أنّ بعضهم يَعيبون همسًا على واحد منهم بأنه مغرور وسَمْج!

وعندما اجتمع شملهم وأخذوا يتداولون الأحاديث، رأى أنّ الشاب الموصوف بالسّماجة كان أرقَّهم حاشية وأكثرَهم ثقافة، وعرف أنه يمارس الأدب إبداعًا ونشرًا.

واتفق أن وردت على لسانٍ كلمةُ "آنسة"، وجرى تساؤلٌ عما إذا كانت الكلمة تطلق على

الثيِّب من النساء أيضا؟ فبادر الشاب يروي، بحضورِ بديهة وفصاحةِ نُطق، أبياتا من الشعر منسوبة إلى الخليفة هارون الرشيد:

مَلَكَ الثلاثُ "الآنساتُ" عِناني   وحَلَلنَ من قلبي بكلّ مكانِ

ما لي تُطاوِعُني البريّةُ كلُّها   وأُطيعُهنّ وهنّ في عصياني

ما ذاك إلا أنّ سلطان الهوى   -وبه قَوِينَ- أعَزُّ من سلطاني

في انصراف العائد من الغرب مال على صديق حميم يهمس في أذنه بأنّ هذا الشاب المرهف سوف يتعذّب كثيرا بين زملائه هؤلاء!

تعود الواقعة إلى العام ١٩٥٧ بحلب. والعائد المؤهَّل اقتصاديًّا، اسمه الدكتور طه... (من أهل حمص)،

ويُملي التواضعُ عليّ أن أنفي أن أكون ذلك الموصوف بـ...السماجة!

منتصف ليل الثلاثاء: ٦-٨-٢٠١٣

بأيّة حال عدتَ...

لا أهْنَأ بعِيد

ولا بنوم

ولا بطعام

ولا يضحك لي سِنّ

وأنا أرى الدمَ يُسفح

والحجارةَ تُدكّ

والناسَ يَهيمون في كلّ مكان...

يا وطني!

عشية عيد الفطر ١٤٣٤ - الأربعاء ٧-٧-٢٠١٣

قرأت.. وعلّقت

قرأت الساعةَ لأحدهم:

«من هو الشهيد؟ عندما تتصارع الإخوة داخل الوطن.. وتنزف الدماء على تراب الوطن.. وكل أم وأب يقول عن ابنه: شهيد.. إذاً أين هو العدو حتى نحقق الشهادة؟... هل صراع الإخوة على تراب الوطن شهادة في نظركم؟».

فعلّقت:

«يا "ت. م"... إنّ الناس في الوطن اليوم لا يقتتلون على عَرَض من أعراض الدنيا، بل على الحرية المغصوبة، وضد الابتزاز والتهميش. فمن مات منهم كان شهيدًا... أم أنك تراهم يتقاتلون على سخافات الدنيا».

دمشق الشام: فجر الجمعة ٩-٨-٢٠١٣

وهبّ الجِياع يأخذون الطحين

(من وحي "مجزرة المطاحن" ٢٩-٧)

خطا بحِمْله خطوتين

أسقطه قصفٌ كهزيم الرعد

تبعثرت الأجساد

وتعثّرت بالأكياس

تحامل بطيئًا

بحِمله مشى مضرّجًا

وأمام البيت سقط

وتتحلّق نسوةُ الحيّ:

يا ربَّ العالمين

رجالٌ ذهبوا وعادوا مخضّبين

ورجالٌ ذهبوا ولن يعودوا أبدًا

... وخلال الدموع

يحاولن أن يَفَتِّن الطحينَ المعجون بالدم!

أول أيام عيد الفطر الخميس ٨-٨-٢٠١٣

وضاع العمر

أفنيتُ العمر كلّه

الشبابَ، والكهولة، وما بعدها

وأنا أعاني...

وأراهم حولي ما بين:

مقتنع،

ومهادن،

وماسح جوخ... حتى اهتراء الكفّ!

والعمر ضاع...

مساء الجمعة: ٩-٨-٢٠١٣

الشاعر سليمان العيسى.. بعثيًّا

فيما تملّكني من حبّ الأدب، وأنا طالب في "ثانوية المأمون" بحلب (التجهيز الأولى) في سنة البكالوريا ١٩٤٩-٥٠، أني دخلت يومًا على مديرنا المحبوب الشاعر "عمر يحيى" أقترح عليه إصدار مجلة يحرّرها الطلاب وتموّلها الإدارة. وما أسرع ما منحني الموافقة، وعهد لمعاون المدير "صبري الأشتر" (فيما بعد أول عميد لكلية الآداب بجامعة حلب) مهمة "الإشراف" على المجلة، وحدث أنّ الأستاذ الأشتر نُقل عقيب ذلك إلى وظيفة أخرى، فجدّد المدير العُهدة لأستاذ الأدب العربي لصفوف العواشر، العائد حديثًا من دار المعلمين العليا ببغداد، الشاعر سليمان العيسى، فكان هو المشرف، وكنت أمين التحرير ممثلاً لطلاب المدرسة ومغامرا بسنتي الدراسية وأنا في آخر مراحل الثانوي.

أحبّ أن أبيّن أنه اجتمعتْ بالأستاذ سليمان العيسى ميزات ثلاث، أُولاها اقتراب سنّه من أعمار الطلاب، وثانيتها أنه شاعر قد جمع بين الرومنسية الشفافة (قصيدته: نجوى) وبين القومية الصادحة الصارخة

لُفَّ اللهيب على الجراح وشاحا خُلق الشباب تمرّدًا وكفاحا

والميزة الثالثة أنه من أبناء لواء الإسكندرون، الذي كان قد فُصل عن سورية وضُمّ إلى تركيا منذ قريب، فحلّ أناسٌ منهم بيننا معزّزين مكرّمين.

جعلت أتردّد على بيت الشاعر، بأوراق أحملها وأعود بغيرها. غرفة يسكنها في بيت في "محطة الشام" بحيّ "الجميلية". وكنت أراها مؤطّرةً تلك الصورةَ للفنانة "أسمهان" بجوار

سريره، لابسة طاقية ملونة، وكان يتحدث لي، ولمن كنا نأتي إليه مترافقين من طلاب "المأمون"، عن منتهى إعجابه بصوتها وصورتها.

صدر العدد الأول من المجلة، التي سمّيناها "صوت الطالب"، في شهر كانون الثاني ١٩٥٠، والثاني في آذار، وعدد ثالث بعده، وقد تجاوزت صفحات كلّ عدد المئة، حافلةً بما يُقَرْزمه[١] الطلاب من شعر وينثرون من الخواطر والمقالات (والأعداد الثلاثة في حوزتي).

وعلمنا، في صيف ذلك العام، أنّ شاعرنا الشاب (ابن التاسعة والعشرين) التقى الطالبة الحلبية العائدة توًّا من بلجيكا معزّزةً بمؤهّلها الجامعي، "ملكة الأبيض" وتزوّجا. ومن ناحيتي توجّهت في ذلك الخريف إلى القاهرة للدراسة بجامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة فيما بعد).

وأحبّ أن أبيّن أنّ سليمان العيسى بدا لنا -منذ ذلك الحين- موفور النشاط في الترويج لحزب البعث بين الطلاب. وللحقيقة كان المجتمع يمور حماسة للفكر القومي (قبل أن يُصاب بنكسة ١٩٦٧). وقد استطاع الأستاذ الشاعر المحبوب أن يؤثّر في طلابه، فانتسب للحزب منهم من انتسَبَ سرًّا وعلانية. (وكان من أمرهم أن تسنّموا بعد ١٩٦٣، ثمّ أقصي بعضهم، ودخل المعتقلات بعض، وهام على وجهه بعضهم الثالث).

بعد عودتي من دراستي بالقاهرة، زاوجت في العمل بين المحاماة متمرّنًا وبين التدريس في الثانوية التي علّمتني مع المشاركة في تصحيح الأوراق في إحدى الشهادتين. وأذكر ما تداولناه في حينه من نادرة، أنّ سليمان قال مرة في أثناء تصحيح الأوراق لأديب حلب الكبير "خليل الهنداوي" (الذي يُكنَى "أبا روحي"): «أبو روحي! اسمع مني، انتسب لحزب البعث اليوم قبل غد، تصبح فيه من الصحابة!». ولا يراها أحد اليوم نكتة.

وانتقل سليمان العيسى، بعد آذار ١٩٦٣، من حلب إلى دمشق، وشغل وظيفة "الموجّه

---

(١) القرزمة (فصيحة): الابتداء في قول الشعر، أو المجيء به رديئاً.

الأول للغة العربية" في وزارة التربية. ومع شهرته في ذلك الحين شاعرًا وبعثيًّا، فإنّ شعراء الحزب من الشباب تهجموا عليه مرة في الصحافة بصفته "شاعرًا عموديًّا"، بمعنى أنه يَعنيه "النظم" أكثر مما تعتريه الحالة الشعرية، التي يظنون أنهم يحققونها في شعر التفعيلة! ولست أدري مدى ألم الشاعر، الذي نظم للحزب نشيده (يا شباب العرب هيا... لحّنه زياد الرحباني أظنّ)، ولكنّا بدأنا نرى جنوحه نحو شعر التفعيلة مع انشغاله بنظم الشعر للأطفال، هذا الذي أغرق به المقررات المدرسية المطبوعة، وبـ"شواهد النحو" التي أخذ يؤلفها في الكتب التي تمر من تحت يده بحسب الوظيفة التي يشغلها في الوزارة.

وأتوقف في محطة أخرى فأقول: إني في زيارة مني لبعض الأهل في الرياض ربيع ١٩٨٥، اتفق أن كان سليمان العيسى في العاصمة السعودية، يشارك في مؤتمر تربوي مما تقيمه منظمة التربية والثقافة والعلوم (أليكسو) التابعة لجامعة الدول العربية. وقد التفّ حوله السوريون العاملون في التدريس هناك، طلابًا كانوا له أو زملاء. حدّثوني بأنهم بُهتوا وهم يستمعون إليه يندّد بالنظام السوري (ولم تكن بعيدة أحداث حماة). وأعترف بأني لم أعجب لذلك كثيرًا، فإنه ضمير الشاعر وإن كان يتلقى ما يتلقى.

ومحطة أخيرة. إني، وأنا في لوس أنجلوس صيف ٢٠٠٤، شاهدت مقابلة له في "قناة المستقبل" (ربما)، بدا لي فيها كالمتنصّل من الحزب ومن اسم الحزب، فكان كلما وجّه إليه المضيف سؤالًا وردَت فيه كلمة "حزب البعث العربي"، رأيت سليمان يرجع إلى "حزب الإحياء العربي"، الاسم الذي كان الاتفاق عليه ابتداءً قبل أن يقع التحوّل عنه في الساعة الأخيرة.

يمكنني القول بأنّ موهبة سليمان العيسى الشعرية لا يضاهيها إلا طيبته ونواياه الطيبة.

رحمه الله.

منتصف ليل السبت: ١٠-٨-٢٠١٣

بكاء الرجل الغريب

بعد أن ودّعوه في المقبرة هناك، وعندما وصلوا إلى بيتهم، تذكّروا أباهم فارتفعت أصواتهم بالبكاء.

تلك اللحظة رأوا رجلاً غريبًا يمرّ من أمام بيتهم. توقف. أخذ ينظر إليهم واحدًا واحدًا... ثمّ انحنى، يقبّل رؤوسهم ويبكي!

توقف الصغار عن البكاء مبهوتين، وسألوا أمهم: «ماما! لماذا يبكي هذا الرجل الغريب؟».

منتصف ليل الأحد: ١١-٨-٢٠١٣

كلُّ شيءٍ للقضيّةْ

قبل عقود من السنين كنا نستمع، بتأثر بالغ، إلى أغنية شجيّة يرسلها صوتُ طاعنٍ في السنّ، يُنبّهنا إلى أنّ:

كلُّ شيءٍ للوطنْ   كلُّ شيءٍ للقضيّةْ

فكان الصوت الحنون يحملنا على الاعتقاد بأننا على وشك أن نحرّر فلسطين ونستردّ الهضبة التي فقدناها.

ولكنّا نتبيّن اليوم أنّ "القضية" هي شيء آخر!

منتصف ليل الإثنين: ١٢-٨-٢٠١٣

السؤال عن قصيدة لسليمان العيسى لم تنشر

إلى الإخوة المثقفين في سورية وفي حلب خاصة.

كان الشاعر الراحل سليمان العيسى قد نظم زمن الوحدة (في عام ١٩٦٠ على التحديد)، عندما كان يسكن حلب، قصيدة تناول فيها بالسُّخْر إفراطَ إعلام الدولة في الإقليمين (الشمالي والجنوبي) بالاهتمام بما كان يحدث في تلك الآونة في "الكونغو" من أحداث (من ذلك مقتل زعيمها "لومومبا")، حتى بدت الكونغو وكأنها قضيتنا الأهم، نستمع إلى تداعيات ما يجري فيها صباحَ مساء وفي آناء الليل.

وكان نظم القصيدة البسيطُ والعفوي، لا يعادله إلا مضمونُها السياسي اللاذع. وقد تداولناها، نحن في حلب، سرّا، وحفظنا بعض أبياتها، التي لم يبق منها في ذاكرتي شيء.

أكون ممتنًا جدًّا إذا أوصلني بعض العارفين إلى حيث أجد نصها، وهي في عشرين بيتًا أو حول ذلك.

صباح الثلاثاء: ١٣-٨-٢٠١٣

ساعةَ كانت "لين" تلعب في شرفة بيتها

قبل عام، وعلى وجه التحديد يوم العاشر من تموز ٢٠١٢، كانت «لين»، التي لم تُكمل عامها السادس، تلعب في شرفة بيت أهلها في "درعا البلد"، فأراد قنّاص بلا قلب أن يلهو، فسدّد إلى رأسها الطافح بأحلام الطفولة...

وتتمّة الحكاية أنه عاد إلى بيته ونام قرير العين، لأنه بلا ضمير، وبلا وطنية، ومجردٌ من كلّ مشاعر الإنسانية.

دمشق الشام: منتصف ليل الثلاثاء ١٣-٨-٢٠١٣

"رجل أمن" على مائدتي

هل أقول: إنّ هاجسًا يظلّ ينتابني من أن يهبِط عليّ "زوّارُ الفجر" في هزيع من ليل، أو أن يَدْعوني بعبارة مهذبة لزيارتهم؟

أمس، وأنا أحضّر طعام الغداء، تلقّيت بالجوال مكالمة، بدا لي في صوت المتكلم لعثمةٌ وغمغمة، وفهمت أنه "رجل أمن" يريد أن يزورني خلال ربع ساعة، وقال إنه يعرف عنواني.

وأخذت أحدّث النفس: ها هم أولاء قد ضاقوا ذرعًا بخواطري، التي أبثّها في شبكة التواصل، فبعثوا إليّ مَن يطرح أسئلة ويجُسّ نبضًا!

وبدا أنّ رجل الأمن هذا غيرُ حصيف. ضيّع العنوان، فعاد يتصل، فزدته إيضاحًا.

ثمّ تراءى لي أن أخرج إليه، أستقبله على رصيف البيت، دلالةً على أني أرحّب به غيرَ متهيِّب!

واتفق لي أن رأيت وجها لصديق قديم أوشك أن يغيب من ذاكرتي، يمرّ بي. أقبل عليّ: «أنا "أمين..."، نسيتَني!». كان شابًّا، سبق أن زارني قبل سنوات متعرّفًا، عصاميّا، يُدرّس الرياضيات بتفوّق. لم أقل له إنّ غمغمتك جعلتني -وأنا لا أبا لكَ في الثمانينِ!- أسمع اسمك "رجل أمن"! «تعال! تعال!»، وتعانقنا على الرصيف أمام الجيران والناس!

وجلسنا في الحديقة، نستذكر أمورًا، ونضحك.

سألته: «أما زلت بعثيّا؟».

أجاب ضاحكا: «منذ الولادة!».

-بالجسم؟

- والقلبُ في مكان آخر!

- أما زلت تعطي الدروس الخصوصية؟

- مستورة، والحمد لله!

- نتغدّى؟

- تناولت فطوري متأخرًا.

- لقمتين.

ودخلنا نستكمل إعداد الطعام.

في أثناء تناول الغداء في الحديقة بجوار البِركة، لاحظ صديقي أنّ في أرضها ورقًا متساقطًا من الشجر، وغبارا، فاقترح، وقمنا بعد الغداء نتعاون في شطف بَلاطها، وهو تولَى غسل أرض البركة، وشغّلنا النافورة "على نظافة"، وهو يشرب الشاي المعطّر.

ومضى صديقي "أمين..." يحمل كتابين... أحدهما بديلاً عن نظير كنت أهديته إليه قبل ثلاث سنوات، قرأه بإعجابٍ دفعَه إلى أن يُعيره لصديق، فما رأى الصديق بعد ذلك اليوم ولا الكتابُ عاد!

ليل الأربعاء: ١٤-٨-٢٠١٣

صديقي.. الذي تعلّمت منه "الخطابة"

لست أدري لماذا يُلحّ على خاطري أحيانًا صديقُ الصِّبا، الذي كان يفتخر في عهد الولدنة بأنّ مقلوب اسمه يشكّل كلمة "حصان"!

يوم كنا في الصف الأول الإعدادي في "ثانوية المأمون"، طلب منا مدرس العربية أن

نستظهر قصيدة حافظ إبراهيم، التي يتحدث فيها عن عظَمة اللغة العربية بلسانها. كان يخرج كلّ طالب منا يلقي القصيدة أمام السبّورة، إلا "ناصح" فإنه -يا للغرابة- التمس من أستاذنا أن يرتقي المنبر مكانه، واستجاب المعلم. فأخذ زميلنا يلقي بنبرة خطابية شعرية متميّزة:

وسعتُ كتاب الله لفظًا وغاية ... وما ضِقت عن آيٍ به وعِظاتِ

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلةٍ ... وتنسيق أسماء لمخترعاتِ

الذي لاحظناه أنّ زميلنا، حين نطق «فكيف أضيق...»، دقّ بيده سطح المنبر، محدثًا جلبة نالت منا الاستحسان ومعه الابتهاج... وظلّ هذا التأثير ماثلا في خاطري منذ ١٩٤٣. وعلى غرار إلقائه ذاك ما زلت أقرأ نصوصي القصصية في الأمسيات الأدبية، لكن دون "خبطة يد"!

ولا ضير في القول بأنه مع براعة صديقنا في إلقاء الشعر، وحفظه القصائد، وتمتّعه بما نسمّيه "الأذن الموسيقية" التي تميز البيت الشعري سليم الوزن من المختلّ، فإنه أخفق في أن ينظم الشعر، على حين أنّ ثلاثة من زملائه، "أحمد" و"زهير" و"فاضل"، أخذوا، أخذنا "نُقَرزِم" الشعر، وقد نشرنا منه شيئًا في مجلة "صوت الطالب" المدرسية (التي أشرت إليها في حديثي قبل أيام عن الشاعر الراحل سليمان العيسى). ثمّ كان أن كبا بأحمد وزهير الإبداع فما تابعوا إلا قليلاً وما نشروا، ولكني تحوّلت إلى النثر، لرحابته أو لضعفي في قول الشعر، فكتبت القصة والرواية والدراسة الأدبية والبحث التاريخي... وهأنذا أقرزم "الخواطر" وأقدمها لكم في بعض الأمسيات!

كلمة أخرى عن صديق العمر ناصح، إنه استجابة لنزعته الصارمة في معالجة الأمور، انتسب إلى الكلية العسكرية عام ١٩٥١. وإذا كان قد نجا من أن يُدرج اسمه في تلك القوائم، زمن الوحدة، محيلةً ضباطًا إلى وظائف مدنية، فإنه صُرف من السلك بعد ٦٣ مع كثير من غيره دون الإحالة إلى وظيفة، فبادر ينتسب إلى كلية الحقوق، وما زال منذ تلك الأيام يعمل محاميًا

بدمشق. وكلما التقينا أذكره بخبطة اليد على المنبر «فكيف أضيق اليوم...»، ونضحك.

تحية إلى صديق العمر "ناصح كيالي"، وأمدّ الله في عمره.

منتصف ليل الخميس: ١٥-٨-٢٠١٣

ويتساقط الشهداء

كم هو مؤلم

أن نجلس مشدودين إلى التلفاز

وأيدينا على قلوبنا

نحصي أعداد الشهداء

الذين يتساقطون

في أرض الكنانة!

ونتساءل:

إلى أيّ حدّ

العربُ

في حاجة إلى... جيوش!

ليل الجمعة (جمعة الغضب): ١٦-٨-٢٠١٣

الآخر... مرفوضًا

لم أرَ في محيّاها ما ينُمّ على ارتياح لي لحظة دخلتُ عليهم، مسلّمًا مصافحًا. لست أشكّ في أنّ مضيفتنا كانت قد أعلمَتْها بأني "كاتب معارض" وهي مَن هي في مجال "الإعلام الرسمي".

كانت المضيفة الكريمة، وهي صديقة في التواصل، قد وعدتني منذ رمضان بوليمة في ثاني أيام العيد، وشاءت أن تجمع فيها شمل صديقات لها، ولم أكن الرجل الوحيد بينهنّ، فهناك زوجها وابناها الجامعيان.

كان لا بدّ من أن يُطرَح سؤال وجيه، عمّا إذا كانت الإعلامية (ب.ش) قد تأتّى لها أن تسمع باسمي كاتبًا في الوسط الثقافي الذي تمارس عملها فيه؟ أجابت بأنْ لا مع الأسف.

وكان من حقي أن أَعتب، كيف أنّ إعلامية، تُعِدّ وتقدّم البرامج الثقافية والإبداعية، المرئية والمسموعة، لم تسمع باسم كاتب في الوطن، أنتج أربعين كتابًا، وقد تُرجم بعض أدبه إلى لغات؟ قالت: «لعلك المقصّر في حقّ نفسك»، قلت: «كنت كلما طرقت بابا صُفق في وجهي الباب، وأسرعوا يوصدون النوافذ أيضًا... وما كنت أحمل إلا قلما يرعف ألما ويسيل بأوجاع الناس الذين يعانون».

واستدركت: «ولقد كنت شفافًا في انتقادي، متجنّبًا "المباشرة" الفجّة، متوسّلاً بـ"الفانتازيا" التي أحلق فيها بعيدا لأقدّم نصًّا قصصيًّا مجرّدًا من المكان، ومن الزمان، ولا تعدو الأسماء فيه أن تكون حروفًا... هل أروي لك منها قصة؟».

ورويت... فانبسطت الأسارير وزال الغمّ كله.

وتابعتُ الحديث، ونحن حول مائدة قد توسّطتها صينيّة "الفريكة"، المغشّاةُ بلحم الدجاج المحمّر، الموشّاة بالمكسّرات من جوز ولوز وصنوبر! ولاحظت أنها تعمّدت الجلوس في مواجهتي، هل لتغترف من الانفعالات الطافحة على الوجه؟

وبعد الغداء -وقد طال جلوسنا حول المائدة- قامت تجلس إلى يميني كما اقترحتُ فأنا أكثر سماعًا باليمنى.

وهكذا تغيّر الرأي عندها مئة وثمانين درجة، وتهاوت الفروق "الإيديولوجية" والمزاجية!

ومما زاد في ذلك أن تعلم أنّ ابنتيّ "سهير" و"خلود" تمارسان الفن التشكيلي عربيًّا وتطلان به على ما هو أرحب. واقترحت أن تستضيفني في اثنين من براجها، هذا الذي تقدّمه والآخر الذي تُحضّر له. وما كان كريمُ ما تعرض ليمنعني من الاعتذار بأني لا أفضّل الظهور في الإعلام الرسمي في هذا الزمن الحزين.

ثمّ إنها تساءلتْ كيف السبيل إلى أن تقرأ لي، وأن تقتني كتبي؟ قلت: الآن وليس غدا، نمضي إلى بيتي، فتُكرميني بأن تقبلي مني ما يتيسّر.

لما وطئت قدمها أرض الحديقة أسرع لسانها يعبّر عن إعجابها بجمال الطبيعة. وفي الداخل -والمكتبات تغطي الجدران- قالت إنها تجد نفسها في "بيت أديب حقيقي". ولم تكتم استحسانها لحديث ابني الطريف، عن أنه أنجب ثلاث بنيّات قبل أن يرزق بوحيده "فاضل الصغير"، مقلّدا في ذلك أباه الذي أنجب ثلاثًا قبل أن يأتي هو إلى الدنيا!

ورأيتها تستعجل طلبَ الصداقة في التواصل الاجتماعي، بأن أرسلت الطلب من جهازي باسمي... إليها.

وخرجتْ مودّعة، وفي يدها أعمالٌ لي، وعمل عني، وسِفر حول الأندلس ألّفه مَن تولّت نشرَه الدارُ التي أعمل فيها بغير ضجيج.

في تلك الليلة، أيها الأصدقاء... انتظرت قبول الصداقة...

وانتظرته في اليوم التالي...

وهي ذي أيامٌ سبعة تتقضّى!

أغلب الظنّ أنها عندما تجوّلت في صفحتي، ورأت ما رأت وقرأت ما قرأت، أسرعت تستردّ الدرجات المئة والثمانين التي مَنَحَت، وذهب هباءً كلّ ما كان من طيّب الحديث، ونحن

أمام صينية الفريكة، تلك المغشّاة باللحم، الموشّاة بالمكسرات المقليّة بالسمن العربي!

إني... الآخرُ... مرفوضًا!

منتصف ليل الجمعة: ١٦-٨-٢٠١٣

نبكي... ويُغَنّون

يا أحبّاءنا

مَن صَبَرَ ثلاثين، أو ستين

يُعجِزه الصبرُ عامًا؟

فتوسّلتم

في زمن الربيع

بمن يدوس الرقاب!

في الشمال نبكي

واليوم يُبكينا الجنوب

وما بيننا عدوّ يرقص طربًا!

دمشق الشام: ١٧-٨-٢٠١٣

»العينان في الأفق الشرقي«

كتب إليّ في الخاص يسألني: «أنت فاضل السباعي صاحب قصة "العينان في الأفق الشرقي "؟». أتاني صوته، بُعَيد منتصف الليل، وكأنه قادم من عمق الصحراء التي انتهت فيها القصة! أجبته: «نعم!». فأنشأ يقول: «قد قرأتها يا سيدي وأنا فتى يافع في مجلة كانت تصدر

بمصر اسمها "الكاتب". قصة من الكوميديا السوداء، ولكنها تحرّض على الاحتجاج ضدّ الظلم والقهر. حفرتْ في نفسي منذ كنت في الخامسة عشرة من عمري».

أقول لكم، أيها الأصدقاء: تحت وطأة أنظمة الحكم الشمولي التي سادت غير قليل من الدول العربية، وما تمارسه من الملاحقات الأمنية للمواطنين في شؤون حياتهم، استوحيتُ عام ١٩٦٧ -فيما جريت على كتابته من القصص المسيّسة- فكرةَ أن تلاحق السلطة الناسَ في آرائهم مذ تكون مجرد أفكار تدور في الرؤوس!

موظف يمرّ عند انصرافه من الوزارة أمام مشهد في ساحة عامة. كان في المشهد قهرٌ من نوع غريب، فانبثق في صدر هذا المواطن شعور بالتعاطف ودار في رأسه اعتراض... وما هي إلا لحظة حتى كان رجل أمن يقترب منه، فقد أبلغت الأجهزةُ المركزية الراصدة هذا الأمني كي يقتاده... ثمّ تروي القصة (في نحو خمسة آلاف مفردة) ما وقع لهذا المواطن في القبو المعتم، وما تعرّض له من إهانة وإذلال، وقد اضطرّه العسكريُّ إلى أن يقبّل بِسْطاره (البوط، الجزمة)، وفي ابتعاده عن المكان يستردّ كرامته، ويتوجه إلى الصحراء، ينبطح على الرمال، ويبكي طول الليل، وعيناه إلى الأفق الشرقي.

قدّمت القصة إلى مجلة "الموقف الأدبي" التي كانت قد صدرت حديثا عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، وكان المكلف برئاستها زميلا لي يكتب قصصا على غرارها. ظلت القصة في حوزته اثني عشر شهرا وهو يماطل، إلى قال لي: طويلة!

كان هذا الزميل -ودعوني أسمّيه "عبقريّ القصة السورية"- مقرّبا من النظام إلى درجة الاحتضان، كان ما إن يترك رئاسة مجلة حتى يَعهَدوا إليه برئاسة أخرى. وقد أورثه احتضان النظام له قَسوةً وتجبّرًا، إلى أن جاء أجَلُ إبعاده، فخرج من البلاد، وحين فتَّح الربيع انضمّ إلى المقهورين!

هل كان يساوره شعور بالندم؟

في مؤتمر عُقد في الدوحة تحت عنوان "وطن يتفتّح في الحرية" (حزيران ٢٠١٢)، ضمّ معارضين سوريين، من مثقفين وحملة أقلام وريشة ونغم، جاؤوا من مختلف البقاع، ودعيتْ إليه ابنتي الفنانة التشكيلية "سهير" من أمريكا، اتفق أن تلاقيا، العبقريُّ والابنةُ البارّة التي نشأ أبوها منذ نعومة الأظفار على شجب الظلم والظلام. همس لها: «أنا بعرف، أبوك زعلان مني لأني ما نشرت له القصة!». ولكنه تناسى أنه وضَعَ كلّ ثِقله في منع نشر مخطوطتي "حزن حتى الموت" ضمن منشورات الاتحاد.

عودة إلى صديق منتصف الليل... يقول: «ما زلت أذكر الاسم الملتبَس لبطل القصة "محمد مأمون الشريف"، والحوادث وكل التفاصيل. كنت أرويها لأصدقائي في مثل سني، وأحيانًا أقرؤها عليهم رغم طولها عشرين صفحة، إلى أن أعرت المجلة لصديق فضاعت. للعلم أنا لست كاتبا، فإن كتبت فبتكاسل، وقد أكون إنسانًا هامشيًّا. ولكني يا سيدي قادر على صيد اللؤلؤ، وقد كنت أنت عندي الكاتب المختلف. وظللت أتتبع ما تنشره في المجلات العربية وخاصة "العربي" الكويتية».

ضاعت المجلة. زارني اليوم وقد وَخَطَ الشيب رأسه، وعاد بالكتاب الذي يضمّ "العينان في الأفق الشرقي"، وقد رأيته لحظة وقعت عينه على عنوان القصة في الكتاب وكأنه يستردّ عالمًا من الذكريات، وربما هو الساعة يعيد قراءتها ويتذكر.

في كل حين أتعرف على "صيّاد لؤلؤ" جديد. أحيّي صديقي الجديد "خليل".

منتصف ليل السبت: ١٧-٨-٢٠١٣

يتـــامى...

نادرةٌ الحالة، ولكنها باتت تنتشر بين الناس تحت وطأة القصف وما تخلّفه قذائف السكود والغارات. الأم المرهفة، بما انتابها من توتّر واضطراب وخوف، ابتدأت تفقد صوابها، عقلها، ثمّ... غابت... وماتت... تاركة أولادها الأربعة لأب رحيم.

أمس الأول، في الغارة التي شُنّت على "بستان القصر"، كان الأب يؤدي صلاة الجمعة في مسجد الحيّ، فطاله القصف... وأودع بيت الأيدي الرحيمة أطفاله: "محمد" و"عمر" و"عبد العزيز" والرضيعة "عائشة"!

أية حضارة نرسم في مطالع القرن الحادي والعشرين!

مساء الأحد: ١٨-٨-٢٠١٣

الكرسي...

نحبّ المقعد الذي نجلس عليه، لأننا نرتاح فيه.

وأقول شيئًا آخر: إنك إذا دخلت بيت صديق لأول مرة، واتّجهت إلى جانب من المكان واخترت مقعدًا ما... فإنك، إن دخلت هذا البيت ثانية، وجدتَ نفسك تتوجّه تلقائيًّا إلى ذلك المقعد، ذلك الكرسي، فأنت جلست فيه، وارتحت له، وأحببته.

ويقال -ويبدو أنّ هذا مؤكّد- إنّ أكثر الناس حبًّا بالكرسي وولعًا واشتياقًا، هم المسؤولون. وصورٌ هزلية نراها أحيانا يظهَر فيها المسؤول مربوطًا، ملصوقًا بالكرسي، حتى استحالة فضّ الاشتباك.

إنه الكرسي، أيها الأصدقاء.

منتصف ليل الأحد: ١٨-٨-٢٠١٣

الحرمان من الوطن

الذين يقتلون الشعب

أدعو عليهم

إنْ نجَوْا من العقاب

أن يحرمهم الله من الوطن!

ليل الثلاثاء: ٢٠-٨-١٠١٣

نذكُر "نَهاوَند..."

بعُنْجُهِيّة كسرى وقف بالأمس يتكلم. ألف ألفان، عشرة عشرون، أذهب بنفسي...

ونسي أننا أجهزنا على حكم الأكاسرة، في "نَهاوَند"، قبل أربعة عشر قرنًا وأربعة عشر عامًا من السنين القمرية!

منتصف ليل الثلاثاء: ٢٠-٨-٢٠١٣

ما زلت... أُكتشَف

مارس النظام عليّ التعتيم خمسين سنة، وفي عونه جَلاوِزةُ المثقفين.

وكثيرا ما ألتقي بمن أسمعه يقول: آسف لأنني لم أقرأ لك، لم أسمع باسمك، ويبالغ بالاعتذار إلى حدّ أن يعتريني الخجل! آخرهم الإعلامية، التي اجتمعنا معا في بيت صديقة حول مائدة توسّطتْها "صينيّة الفريكة"، وكان رَواقٌ، سَرعانَ ما تبدّد بعد قيامها بجولة في صفحتي!

اليوم، في عالم التواصل الاجتماعي، تعارفٌ نوعيّ: يتفق لأحدهم أن يقع على خاطرة لي... هل أقول تروق له؟ فيدخل يقرأ ما سبق، ويُبدي، أعرف ذلك من "لايكاته" التي تَظهر في "الإشعارات" كلّ دقيقة.

هذه السويعة من الفجر، يتوالى ظهور اسم "عصام..."... أحيّيه.

فجر الأربعاء: ٢١-٨-٢٠١٣

ثلاثة

واحدٌ دخَل

وواحد يخرج

وواحد باسم الديمقراطية يسفح

وا عَجبي!

ليل الأربعاء: ٢١-٨-٢٠١٣

يوم حزين

احتقارٌ للإنسان

احتقارٌ للمكان

واحتقارٌ للزمان أيضًا!

ظهيرة الأربعاء: ٢١-٨-٢٠١٣

سؤال في منتهى البراءة...

قرأته الساعة، طرحه مواطن... إذا كان النظام بريئاً من جريمة البارحة التي راح ضحيتها ١٣٠٠ مواطن سوري معظمهم أطفال ونساء (رحمة الله عليهم جميعاً)، لماذا لا يستغلّ فرصة وجود بَعْثة المفتشين الأمميين ويطالب هو بدخولها فوراً إلى الغوطة الشرقية.

• للتحقق عن طبيعة الأسلحة أولاً،

• ومعرفة مصدر الصواريخ ومن أين أطلقت ثانياً، وهذا ممكن من خلال صور الأقمار الصناعية التي تراقب كل شبر من سورية!

ظهيرة الخميس: ٢٢-٨-٢٠١٣

الضحك على ذقن العالم...

عندما أطلق النظام، فجر أمس الأربعاء (٢١-٨)، الثلاث عشرة قذيفة من السُّموم على سكان الغوطة الشرقية المستعصية عليه، وفريقُ المفتشين الأمميين لم يدفأ المقعد الذي فيه استراحوا، فإنما هو يستهتر بهم، يضحك على ذقونهم، يبصق في وجوههم، ويشمّر عن زنده ويقول لهم: خذوا.

وينشغل العالم، الأبله، بهذا السؤال الغبيّ:

• تُرى... هل النظام هو من أطلق؟

• أم أنهم الثوار الذين فعلوها فأبادوا أطفالهم؟!

يا للسُّخْف! يا لَغَيْبة العقل! يا للعار!

مساء الخميس: ٢٢-٨-٢٠١٣

عندما يكفّ النظام عن محبة شعبه

يتساءل المرء، وهو يشكّ في قدرته على التفكير:

هل يمكن أن يكون هناك نظامٌ عدوًّا لشعبه... لدرجة أن يمارس في حقّه الإبادة والإفناء!

منتصف ليل الخميس: ٢٢-٨-٢٠١٣

كلام بذيء.. من تافه حقير

من البذاءات التي طفت على السطح في أيام المحنة السورية، ما كتبه محام ساقط في صفحته يوم أمس عن مجزرة الغوطة الشرقية، ونقله محام ملتزم أخلاقيًّا تصويرًا إلى "المجموعة" التي جرى على الكتابة فيها...

يقول الساقط:

"لا أدري صحة الصور التي تعرضها قنوات العهر الإسلاموي عن قتلى في الغوطة الشرقية، لكن إن صَحّ الخبرُ فأقول:

ولك لشحاطتي

لصرمايتي

الله لا يرحم فيكن ابن ...."!

علقتُ:

هذا "المحامي" لا يتصف بقلة الأدب فقط، بل بانعدام الحسّ الإنساني أيضًا. وأولى بمن يوكله في دعوى أن يُلغي التوكيل، لأنه عديم الضمير وبالتالي فاشل في كل شيء. ولا حاجة، أصدقائي، لمعرفة اسمه، فبحسبنا أننا تعرفنا على نمط منحطّ من البشر.

وقد جاء في تعليقات المحامين في المجموعة، أنه ليس مستبعَدًا أن يعيَّن غدًا في منصب!

فجر الجمعة ٢٣-٨-٢٠١٣

بالمدني

في إخلاء سبيل حسني مبارك أمس (وليس تبرئته)، أقرأ معنى استرضاء الفريق عبد الفتاح السيسي لأنصار الحزب الوطني الديمقراطي الذي كان يشارك مبارك في الحكم.

هذا إلى أنّ الفريق السيسي مؤيَّد، ابتداءً، من السِّلكيْن اللذين طال تنعّمُهما بمِنَح مبارك، القضاء والإعلام، وكذلك من جماعة ٣٠ يونيو. ولنذكر أنّ البرادعي سيمثُل أمام القضاء الشهر القادم بتهمة "خيانة الأمانة" لانشقاقه (قصقصة أجنحة).

واليوم... يُطلّ الفريق السيسي على شعبه وهو باللباس المدني، متجاوزًا تلك الصوَر، العَمْرة تغطي الجبين والنظارة العاتمة تحجب العينين... فكأنه يريد أن يقول: جاييلكم بالمدني... ما تخافوش!

منتصف ليل الجمعة: ٢٣-٨-٢٠١٣

الرثاء.. إلى حدّ البكاء

كلما رأيت إعلاميًّا، أو سياسيًّا، أو مثقفًا، يدافع عن النظام إلى حدّ إنكار مجزرة الغوطة بالكيماوي، أو أراه يعبّر عن فرحه بموت أطفال الوطن اختناقًا... فإنّ قلبي يمتلئ إشفاقًا ورثاءً وتمتلئ بالدمع عيناي!

أحقًّا استطاع النظام أن يُعدّل الجينات الذهنية عند بعضهم، في الداخل وفي الخارج... حتى إنّ أغبياء العالم أخذوا يتناقشون، بخباثة، في أطروحة:

• هل النظام مَن ضَرب؟

• أم أنّ المعارضة هي التي قتلت بالكيماوي أطفالها؟

فجر السبت: ٢٤-٨-٢٠١٣

"تبييض" الوجه

... فكأنّ النظام

بممارساته التي بلغت الكيماوي

يريد أن يمنح أمريكا

فرصة أن "تُبيِّض" بعضَ سواد وجهها

بمقدار ما جعل روسيا

تسفح ماء الوجه

أمام أنظار العرب والمسلمين والعالم!

ظهيرة السبت: ٢٤-٨-٢٠١٣

مَن وراء تفجيرَي طرابلس

التفجيران، اللذان استهدفا المصلّين ساعة خروجهما من "مسجد التقوى" و"مسجد السلام" بطرابلس لبنان، أمس...

• هل هما انتقامٌ للتفجير الذي وقع في الضاحية قبل أيام؟

• أم تفعيلٌ لمشروع بدأه ذلك القابعُ في السجن بعد تلبُّسه بالجرم الفاضح؟

• أم أنّ "التكفيريين" يكمُنون وراءه؟

• أم أنها عدوّتنا اللدود إسرائيل؟

ليل السبت: ٢٤-٨-٢٠١٣

رقصة "ماريّة" الأخيرة

فرحت الصبيّة "ماريّة" الحلبيّة بنجاحها في البكالوريا (شهادة الدراسة الثانوية)، فقامت تدعو -يوم الخميس الماضي- أصحابها لنادٍ في غربيّ حلب الآمن.

في أثناء الرقص قام فتى من الكتائب المدافعة عن الوطن يشارك في الرقص، وفي نشوته رفع يده بقنبلة، سقطت على الأرض وبقي في يده "مسمار الأمان"، ولأنها فقدت الأمان انفجرت، وكان من بين الضحايا ماريّة، التي ضاعت أمنيتها في الانتساب إلى الجامعة لتغدو مواطنة أكثر نفعًا للوطن... (وقيل إنّ تكفيريًّا اقتحم المكان بحزام ناسف وفجّر بالراقصين نفسه!).

فيا ماريّة الجميلة.

صدّقيني إنْ قلت: إني استنفدت كلّ دمعي، ولم يبقَ لي إلا الكلمات يَذرفها قلمي الحزين، أبعث بها إليك وأنت في السماء.

فجر الأحد: ٢٥-٨-٢٠١٣

رقصة "ماريّة" الأخيرة – ٢

كعادته إعلامُنا، الذي يطلق رأيًا ما في حادثة ما يخالف الشائع، فإنّ ثمة خلافًا حول ما إذا كان موت "ماريّة" بفعل انفجار قنبلة بيد راقص مستهتر أو بحزام ناسف فجّره بنفسه تكفيريّ تسلّل إلى ذلك الاحتفال المشؤوم، حيث قُتل (مساء الخميس ٢٢-٨) عددٌ من المحتفلين وهم يرقصون على جثث أطفال الكيماوي الذين قضَوا في اليوم الذي سبق!

في هذا أقول: إن كان السبب هو الأول فإنّ أولئك هم "تربية" النظام ابتداءً وانتهاء، وإن

كان الثاني فإنّ النظام، الذي ظلّ يعتقل "التكفيريين" زمنًا، قد تعمّد إطلاقهم عند احتدام التحرّك الجماهيري، توقّعًا منه -بحقّ- أن ينشب عمّا قريب قتال بينهم وبين أحرار يطالبون بالحرية!

ولكن ما لا خلاف فيه البتّة... أنّ الصبيّة (موضوع خاطرة الفجر) كانت "شبّيحة" بامتياز!

وأما أسفي على موتها، فلست بنادم على ما أرسلته من زفرات الحزن... فإنّ ماريّة، والذين رافقوها إلى العالم الآخر في تلك الليلة، هم إخوتي في الوطن، رغمًا عن أنوفهم الشامخة بالباطل ونفوسهم الصاغرة أمام الحقّ الذي لا يَعترفون ولا يَعرفون!

ورحم الله الجميع.

ظهيرة الأحد: ٢٥-٨-٢٠١٣

ودبّ دبيبُها إلى موطن الأسرار

ظلّت إسرائيل ساكتة ساكنة، والاقتتال دائر بجوارها على مدى سنتين وبعض السنة، سعيدة بما يلحق "قلبَ العروبة النابض" من تقتيل وتدمير وتشريد وخراب في البنى التحتية حيثما يكون.

فلما وصل الأمر إلى "الكيماوي"، انتابها قلقٌ من أن يبلغ حواسَّها عطرُ "السارين"، مباشرةً أو عن طريق ما، فمالت على أمّها الحنون تهمس أنْ قد آنَ «أنْ تُوْقِفي!»، فتحرّكت الأمّ ودولٌ حنونة أخرى... هل أقول: خوفًا عليها لا إشفاقًا على أطفال الغوطة المختنقين أمام أنظار العالم، وقد سبقهم اختناقٌ وتمزيق أجساد وجوع ومرض؟

واسمحوا لي أن أذكر بيتا أرسله شاعر[١] وهو في مجلس شراب:

فلما شربناها، ودبّ دبيبُها إلى موطن الأسرار، قلت لها: قفي

منتصف ليل الثلاثاء: ٢٧-٨-٢٠١٣

ضربةٌ.. لها يعتصر الألمُ القلوب

ضربة... لا يرضاها مواطنٌ غيور، حتى إن بلغ التنكيلُ حدّ استعمال الغازات السامة.

ولكنّا نراها ضربةً أنيقةً مهذّبة... توعُّدًا، وتحضيرًا، وعزمًا على التنفيذ!

ففيها يُحدَّد الزمان، ويُعيّن المكان، فتُهرَع القيادات للانتقال إلى المقارّ البديلة، ويستنفر المعرّضون حمايةً لأرواحهم.

وذلك، أيها الأصدقاء، ما ليس متوافرًا للمواطنين متلقّي الغازات، ولا للمتحلّقين حول الموائد ينتظرون طلقة مدفع الإفطار لا وصول السكود ونزول البراميل، ولا لساكني البيوت العشوائية المستغرقين في نومهم ساعة الفجر الوليد!

ويظلّ الألمُ يعتصر القلوبَ، من قبلُ ومن بعد.

ظهيرة الأربعاء: ٢٨-٨-٢٠١٣

ألْفٌ.. وألوفٌ مؤلّفة

كانت حرب حزيران ٦٧ كاسحة، وفيها يُتوقّع أن تكون خسائرنا البشرية فادحة، ولكنها كانت ألف شهيد أو ما هو حول ذلك.

في أعقاب تلك الحرب، حدّثني زميلٌ في العمل، كان قد دُعي للاحتياط يومئذ وعاد سالمَ

---

(١) هو أبو نواس. وموطن الأسرار كناية عن القلب.

الجسم مجروحَ الفؤاد... قال: في "الانسحاب الكيفيّ" عدنا من الجبهة باتجاه العاصمة سيرًا على الأقدام، وطائرات العدوّ تحلّق فوق رؤوسنا!

وقال: هل تتصوّر راعي الغنم، يسوق قطيعه ويَهُشّ بعصاه أو يضرب صارخًا، فتندفع أمامه الغنمُ، وهذه تدفع ما أمامها وهكذا؟... كنا نحن نتلقّى من طائرات العدوّ الرشّ وراءنا، ولا نظنّها تريد أن تصيبنا، فنندفع هائمين... إلى أن خطر لنا أن نتّخذ من الليل ستارًا نسير في ظلمته، حتى إذا جهجه الفجر التجأنا إلى أول ضيعة نصادفها. أخطأنا مرة، فظهَرْنا ونحن في لباسنا العسكري في ساحة بمدينة "نوى" نهارا، فكنا سببًا في قصفها!

حديثٌ ما زال يقبَع في خاطري منذ ستّة وأربعين من الأعوام، رويتُه لصديق من المسرفين في التأييد، وكان لا بدّ من أن أضيف: «هناك ألف.. وهنا ألوفٌ مؤلّفة، يا صديقي!»... فأشاح بوجهه، وخُيّل إليّ أني أسمعه يقول: «ذاك عدوّ«.

وأعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأني، منذ تلقّت أذناي هاتين الكلمتين، وأنا أفكر في معناهما، الذي لا أراه حَمّالَ أوجُه.

منتصف ليل الأربعاء: ٢٨-٨-٢٠١٣

ماذا فعلت بشعبك، أيها النظام

بالأمس رأينا ناسًا يوزّعون الحلوى ابتهاجًا بموت أطفال الغوطة بالكيماوي أمام أعين العالم!

اليوم سألت أناسًا حولي عن "الضربة" المتوقعة، ومن عجبٍ أن يُعبّر بعضهم عن فرح يماثل ابتهاجَ موزّعي الحلوى!

قبل أن أرسل دمعًا تُسمَع فيه شهقة الموت، أسأل:

ماذا فعلت بشعبك، أيها النظام؟!

دمشق الشام: مساء الخميس ٢٩-٨-٢٠١٣

وعاد الفلول

عندما تصف جريدة الأهرام الرسمية "ثورة ٢٥ يناير" بأنها "نكسة"، فهذا يعني أنّ "عهد مبارك" يستردّ أنفاسه، ليس بشخصه فهو قد هرِم جسدُه وشاخ، وليس بابنه فقد سَخُف أمره وباخ، ولكن بالفلول التي تخفّت في يناير لتظهر في ٣ يوليو.

وهم يعلنون اليوم أنّ للمارشال الذي أنجز، الحقَّ في أن يرشّح نفسه للرئاسة كأيّ مواطن!

وإذن... فإنّ مصر المحروسة قد عادت القهقرى ستةَ عقود من الزمان: عسكريّ يَقضي ويُقصي، يَخْلُفه عسكريّ، لكنْ يُرجَّح أن يكون ثالثُهم قد اتّعظ فلا يفكر في التوريث.

منتصف ليل الخميس: ٢٩-٨-٢٠١٣

الكيماوي

التحقّق من وقوعه، أم من مصادر إطلاقه؟

ما دام المفتشون الأمميون، القادمون يسألون عن الكيماوي، ممتنعًا عليهم التحقّق من مصدر إطلاقه (وهم لن يستطيعوا حتى إن أرادوا)، فلم يكن هناك ما يبرّر تأخر النظام في الموافقة على مباشرتهم العمل، لا ولم تكن ثمة ضرورة لأن يترصّدهم قنّاصٌ يطلق على قافلتهم، فيرتدّون، ويتوجّهون إلى موقع آخر.

ويبقى على الشفة السؤال: لماذا التحقّق من أنّ الكيماوي وقع، والناس في الغوطة، وفي الوطن، وفي العالم كله، شاهدوا الضحايا، في أثناء المعالجة وهم تتقطّع أنفاسهم، ثمّ وهم معبّؤون بالأبيض الناصع، لم يُنكر واقعةَ الغوطة إلا رئيسُ الهيئة الإعلامية يومًا وبعض اليوم،

ثمّ ابتلع إنكاره.

فأمّا التحقّق من مصادر الإطلاق، فإنّ الأمريكيّ "بَقّها"[١] اليوم حين كشف عن أنّ استخباراته رصدت الإطلاق (عبر أقمارهم الاصطناعية) من سبع مواقع هي في جانب النظام.

ولكنّ ما يستفيد منه نظامنا أنّ التأخّر في تسديد الضربة، أو الهجمة، يُفضي إلى التراخي والتخاذل في موقف "الغزاة". فاليوم تراجَع مجلس العموم البريطاني، ورَهَنَ الأسمراني بدْأه الضرب بقرار من الكونغرس، هذا الذي لا يبدو أنّ رئيسه الجمهوري المعارض يوافق على عقده إلا بعد انتهاء عطلة النواب الصيفية، يوم التاسع من الشهر التالي، مدة قد تتراجع خلالها فرنسا عن قرارها، وتلحقها أستراليا، ويعدل الكونغرس والعالم عن الشروع غير المشروع.

ونظلّ، نحن السوريين، نتلقى هدايا النظام من السكود والبراميل... وأما الكيماوي الذي يبرأ منه نظامُنا، فإنّ المعارضة تستمرّ في كَيله لنا قليلاً، والخوف أن تتوسّع فيه إلى الأحياء التي تسمّى آمنة!

منتصف ليل السبت: ٣١-٨-٢٠١٣

ياسمين الشام

في مرافقته لحفيده بحديقة البيت، إلى ما تحت ظلال "الياسمينة" المخيّمة والمنبثِق منها أغصانٌ إلى أعلى، علّمَ الطفلَ كيف يَحسُن قطفُ الزهرة من ناحية عودها وليس بإمساكها من بَتَلاتها[٢].

في أثناء ذلك لاحَظَ الطفلُ أنّ غُصنا كبيرا من الياسمينة قد صعد إلى أعلى حتى مكّن

---

(١) لَفَظها من فمه. أي نطقَها.

(٢) ورق الزهرة.

الجيران من أخذه إلى شرفة بيتهم! وفيما أظهر من استغراب، أن يستأثر الجيران بأزهار ياسمينتهم الغالية، حاول الجدّ أن يشرح لحفيده أنّ الياسمين في الشام، يسقيه صاحبُ البيت، ويكون للجيران، الذين تصل إليهم أغصانه، أن يستمتعوا بما يعطي من أزهار، وأن يشمّه كذلك كلّ العابرين في الحارة.

وبدا أنّ الطفل قد استوعب ما سمع... وتابع القطف كما علّمه جدّه، ثمّ جمع الأزاهير، قبل أن يوزّعها في أطباق، توضع حيث يجلسون، وبجوار كلّ مخدّة نوم...

وهو في ذلك يشمّ، ويرفع رأسه ويقول: «اللهم صلِّ على النبي».

منتصف نهار الأحد: ١-٩-٢٠١٣

ثقافة حرب.. لأطفال سورية

استطاع النظام أن يُعوّد الناس سماعَ هدير القذائف وهي تُلَعْلِع[١] في فضاء الوطن، في كل ساعة، في كل دقيقة، وأحيانا بعدد الثواني التي تمرّ في عمر النهار، وفي الليل يرونها، في الظلام أو في ضوء القمر، تعبر مضيئةً مثل شهاب شَريد شِرّير.

وعلى ذلك تربّى أطفالنا... فهم يستمعون، وبالسماع أصبحوا يفرّقون بين "السكود"، و"البراميل المتفجّرة"، و"الدوشكا"، والـ"آربي جي"، والـ"م.ط"، وراجمات الصواريخ التي تُطلق في ثوانٍ ستةَ قذائف أو اثنَي عشر.

وبدا أنّ أطفال وطننا الحبيب ما آن لهم أن يتعرّفوا على تلك القاذفات التي تحمل "غاز السارين"، فهذه قد يحملها غيرُ نوع من القاذفات والمقذوفات. وإنْ كانوا قد شاهدوا المعاناة التي تحلّ بإخوانهم الصغار، ساعة يستنشقون هذا الغاز السامّ، يرونهم في المشافي الميدانية، وهم

---

(١) يتتشر صوتُها.

يرتجفون، ويَضِيق تنفُّسهم، ويتقيّؤون، قبل أن تلفّهم الأكفان وتنتظم بهم صفوفا صفوفا...

والأرجح أنه لن يكون بعيدا اليومُ الذي يتعرّفون فيه على القذائف، التي تحمل للصغار والكبار، موتًا لا يُراق فيه دم، كما لم يحدث ولا في الأحلام!

مساء الإثنين: ٢-٩-٢٠١٣

قبور... في الحدائق

بعد أن أصبح مستحيلاً على المواطنين، بسبب مخاطر التشييع، أن يدفنوا موتاهم في "المقابر العامة" خارج المدينة، فإنهم باتوا يوارونهم الثرى في أقرب "حديقة عامة"... وهكذا اتُّخِذت جوانبُ من الحدائق وكذلك من الأراضي الخالية، قبورا لأمواتٍ قضَوا حتفَ أنوفهم، أو ذهبوا ضحايا الاقتتال أو التفجيرات أو القذائف التي تستهدف مدينة حلب.

معلومة إضافية تلقيتُها اليوم، أنّ من يعبر الطريق العريض الذي تطلّ عليه "ثانوية المعري" في مدينة الشهباء، يرى... يرى قبورًا... قبورًا قد وُوري فيها نزلاؤها، في ذلك الرصيف الذي يُنصِّف الطريقَ ويقسمه إلى ذهاب وإياب، وتُزرع فيه نباتات الزينة عادة!

وقال لي المتحدث عبر الهاتف، إنه أخذ يقرأ على "الشواهد" المرتجلة: هذا قبر المرحوم... أو هذا قبر الشهيد، أو الشهيدة... توفي... لاقت وجه ربّها... في يوم.... وكلّها تواريخ قريبة، وأضاف إنّ هذا المنصّف قد امتلأ بساكنيه من أول الطريق حتى آخره!

ماذا حلّ بك، يا وطني؟!

منتصف ليل الإثنين: ٢-٩-٢٠١٣

المشي.. في "معبر الموت"

سمّى أهل حلب، قبل سنوات، تلك الساحة التي يدخلها القادمون إلى مدينتهم من غربيّها، "دوّار الموت"، لكثرة ما يقع فيها من حوادث سَير مميتة! وبدا أنّ القدر أضاف، منذ قريب، موقعًا آخر في وسط المدينة يسبّب موتًا لكن بطريقة أخرى، فسمَّوه "معبر الموت"!

هذا المعبر هو طريق مستحدَث، ارتجالي ووَعِر، يصل بين غربيّ المدينة الواقع في يد النظام وبين ما سيطر عليه الجيش الحرّ من المدينة وما يليها من ريف.

ولقد عمَد الحرّ، إمعانًا في التضييق، إلى أن يقطع الإمداد عن المنطقة الغربية ممّا تمنحه الطبيعة في الريف من إنتاج زراعي وكذلك من البضائع المستوردة، فقلّ المعروض في الغربية، وارتفعت الأسعار، حتى جاع الناس، فأخذوا يتوجّهون إلى الشرقية عبر هذا الممر، وقد أمسى الشِّرْيان الوحيد بين ضفّتَي المدينة، يتسوّقون ويُكثِرون، قبل أن يعودوا محمّلين مزمّلين بضرورات الحياة اليومية ولا غير هذا.

وصَفَ لي الشاهدُ (وليست متاحة لي الزيارة)... قال:

أنت لم تر، يا أستاذ، يوم الحشر. لكن لك أن تتصوره في هذا المعبر، الوعر أرضًا ووطْئًا، يمشي الناس فيه، لا تتلاطم بينهم المناكب (رؤوس الأكتاف)، لكن تتلاصق البطون بالظهور، ولا فرق بين أن يكون التلاطُمُ والتلازّ بين رجل وامرأة. والمشي هو -بقليل من المبالغة- مشي السلحفاة، يستغرق العبور ما بين ثلاثين دقيقة إلى ستين... وفي المنتهى يتجمّع الناس أمام الباعة المرتجلين، ليعودوا الكرة مثقَلين بما حملوا.

ويقول صاحبي: هذه كلّها معاناة تشتدّ ثمّ تنفرج... لكن هناك خطر الموت! إنّ قناصًا يكمن فوق "برج الإذاعة"، القائم على مرتفع "جبل شيخ محسّن" والمطلّ على المعبر... إنّ

عديم الضمير هذا، يصحو في كل حين، يتثاءب، يتمطّى، ثمّ يتناول بندقيته ويطلق. هو لا يسدّد إلى شخص معيّن، لكن يضغط على الزناد وكأنه يقول: «إن شا لله تجي براسه!». ويسقط سيّئ الحظ ميتًا، ويتولى حَمَلَ جُثّته مواكبوه من أهل الخير فيزيد حِملُ ما يحمِلون!

ويتابع الزحفُ البشريّ مشيَه الوئيد، والحياة تأخذ مجراها، والموتُ أيضًا.

منتصف ليل الثلاثاء: ٣-٩-٢٠١٣

يا زارع البطيخ.. لك مني التحيّة..

يقوم المزارع، في وطني الحبيب، بأعماله تحت ظروف بالغة الصعوبة والقسوة. فهو يزرع تحت النار، ويحصُل على ما يلزمه من المحروقات تحت النار... ويوم يجني محصوله الزراعي ويتوجّه به إلى العاصمة، فإنه يخاطر بأن تناله رصاصة قنّاص عديم المواطنة والإنسانية.

والأمر المُفارِق أنّ هذا المزارع يقدّم محصوله إلى باعة... يَفرضون عليه سعر الشراء، ثمّ "يُحسّنون" من جهتهم أسعار البيع، وأكثر من ذلك يُطفّفون الميزان. وعندما تتعدّد مشترياتك من عند أحدهم، فإنه "يخطئ" في الجمع، فتكون في الحاصل "زيادةٌ" مسروقة منك أمام عينيك، فإن راجعتَه، هذا اللصّ غير الظريف، تعلّل بالسهو، وهو سهوٌ لا يكون إلا لمصلحته، فإن خطر لك أن تجادله، عدَّك حاسدًا تَنفَسُ عليه رزقًا ساقه الله إليه في هذا الزمن الكئيب.

أقدّم التحيّة إلى زارع البطيخ في الغوطتين، زارع المَقاثي[1] بأنواعها وأصناف الفاكهة، التي يُزكّيها عَرقُ جبين هؤلاء التعّيبة المخاطرين بأرواحهم... وذلك بمقدار ما أزدري البائع الذي يَغيض ضميرُه حتى أسفل قدمه، وهو يبيع لنا نتاج الكادحين الشرفاء، في أيام يموت

(١) مزارع البطيخ في لهجة بعض السوريين، يقولون: مآتي ومَقاثي، وأصلُها في الفصحى: مواضع زرع القِثّاء، جمع مَقْثَأة.

فيها أطفالُهم، أطفالنا، دون دم مسفوح!

منتصف ليل الأربعاء: ٤-٩-٢٠١٣

العودة من "الروضة" إلى البيت

الآن، عند الساعة التاسعة صباحًا، يرافق ابني طفله "فاضل الصغير" إلى روضة الأطفال القريبة، ليلعب فيها ويلهو، ويتناول غداءه الهنيء بين رفاق الطفولة والوطن.

وفي الرابعة مساء، أجدني متوجّهًا إليه، لأعود به، أمشي وإياه في شارع فرعيّ يبدو هادئا وإن جرّحت أسماعَنا في كلّ آن راجماتُ الصواريخ.

أتصور، وأنا وحفيدي نمشي الهوينى تحت ظلال الأشجار الوارفة، أبناء الوطن المهجّرين، حيث لا روضة، ولا بيت، ولا لحاف، ولا... ولا وطن... والطعام يُحمَل إليهم تبرّعًا!

دمشق الشام: صباح الخميس ٥-٩-٢٠١٣

العودة إلى المربع الأول

هل كنتُ ساهيًا عن أنّ الاستباحة بدأت في الوطن، ولـمّا تنتهِ بعد؟

خطر لفتاة يعربيّة (من الأردن، قَبَس الخَلَفات)، أن ترسم، قبل أيام في صفحتي، حروفَ ذلك النشيد الوطني الذي تربّينا عليه في طفولتنا زمنَ الانتداب.

كنا نحلُم بوطن:

- يكون «سالـمًا منعّمًا وغانـمًا مكرّمًا»،
- ونرفض «الذلّ المؤبّدا»،

• متطلّعين إلى استعادة مجد الآباء التليد، فمنّا «الوليد» بن عبد الملك الأموي وهارون «الرشيد» العباسي...

بعد سنين من الاستقلال، أيها السادة، نجد أننا... قد عدنا إلى ما قبل مربّع الحرية الأول.

وا حُزناه!

مساء الجمعة: ٦-٩-٢٠١٣

الفقر.. والقهر

أجل، إنّ في الأدب المخاطِب لضمير الناس، إرهاصًا لما يُؤذَن بوقوعه، قد يصل حدّ النبوءة.

إنّ رواية "ثم أزهر الحزن"، التي اقتنيتَ في عام ما نسخة منها من "مكتبة ميسلون" بدمشق، يا صديقَ "التواصل" الجديد [كلمته أدناه صباح هذا اليوم]، تستفيض في رصد معاناة الأمّ "كوثر" وبناتها الخمس، وهي الحامل بجنينها السادس، الذي شاء القدر أن تضعه -بُعَيد رحيل الأب- صبيّا! وكانت معاناةٌ أبكيتُ عبرها القلوب في أولها، عند مغيب الأب، ثمّ أبكيت العيون -ليس في الحالتين بدافع القسوة!- في آخرها، ساعة اعتلت الأمُّ المِنَصّة، تَسمَع، ويُصغي الجمهورُ إلى قبس من سيرتها العاطرة، وقد نُصّبت "أمًّا مثلى" في الاحتفال بعيد الأم.

معاناة وأحزان، وفقتُ في أن أستمدّ تفاصيلها الحميمة من حياتنا الاجتماعية، تلقّاها النقاد بما تستحقّ، ومثلُهم مَن تسرّبت الرواية إلى أيديهم من المستعربين، ودارت حولها أطروحة جامعية في موسكو وفي وارسو، وقُدّمت مسلسلاً إذاعيًّا في "صوت العرب" وفي الإذاعة الأردنية وتلفزيونيًّا بدمشق... ولكنّ ذلك الكاتب، التي انفرد بالساحة النقدية يومًا في وطني، استفرد بالرواية يُثخنها طعنًا وتجريحًا، ووجد شخصياتها "مسطّحة" قد قُدّت "من ورق"!

هي نبوءة أو ما يُشبهها، يا صديقي "نجم العطواني": مَن يجتهد ليقبر الفقر، هو كمن يجاهد ليُبدّد ظلمات القهر... وكلُّ ما يُعوّل عليه هو الاجتهاد والمجاهدة، وللعاملين الفوز والنصر.

منتصف ليل السبت: ٧-٩-٢٠١٣

تحقيق... كما في الأحلام

كان الفتيان الخمسة يتجمّعون في ناصية الشارع قريبًا من بيوتهم، كي يذهبوا معًا إلى "سوق العيد"، حين "فرمَلَتْ" أمامهم سيارة أمنية، نزل منها رجالٌ "يُخَرْطِشون"[١] بواريدهم وهم يصيحون: «ارفعوا أيديكم!»، وانهالوا عليهم بالضرب!

في التحقيق سألهم الضابط الشاب مبتسمًا، وهو ينظر إلى النقود التي صودرت منهم، عمّا يخطّطون لسرقته عشية العيد؟

أجابه أكبرهم، وكان ما يزال يلبَس قميصًا قطنيًّا بشيّالات في هذه الليلة القائظة قبل أن يتاح له أن يعود إلى بيته فيرتدي: «يا سيدي، نحن أولاد عوائل، لا نعمل هذه الأشياء. وأنا مجنّد أؤدّي الخدمة، جئت أمس بإجازة أقضيها بين أهلي».

اعتدل المحقق في جلسته: «أريد أن أوجّه إليكم سؤالًا: هل أنتم من عبَدة الشيطان؟».

قالوا: «نعوذ بالله، سيدي، نحن مسلمون مؤمنون».

- إذن أنتم من "الإخوان المسلمين"

- لا يا سيدي، نحن لا علاقة لنا بهذه المسائل.

- و"ابن لادن" الذي عمل ١١ أيلول؟

(١) الخَرْطُوش: حَشْوُ السِّلاح النّاريّ (من التُّركية).

- في ذلك العام كنا صغارًا، سيدي!

- و"ياسر عرفات"؟

- كان رئيس منظمة التحرير الفلسطينية.

- و"حسن نصر الله"؟

- رئيس "حزب الله" بلبنان.

وفي الصمت الذي خيّم على المحقق، تجرأ أحدهم وقال: «سيدي، ما دام ما علينا تهمة، هل تأمر بإطلاق سراحنا؟».

قال الضابط: «معليش، منلبّسكن تهمة!» ، وأطلق ضحكة عريضة.

في أثناء ذلك كان الأهل يَلُوبون[1] في البلد، يصرخون بالهواتف ويطرقون الأبواب، ليعرفوا فقط في أي "فرع" أولادُهم يبيتون!

تقول الحكاية: إنّ الفتيان الخمسة لبثوا هناك يُنقّلونهم بين الفروع، هذه التي كان بعضها يعتذر عن استقبالهم لاكتظاظ الأماكن، ولم يكونوا يمارسون فيهم التعذيب، لكن يأخذونهم إلى حيث يستمعون إلى أصوات المعذّبين! والأهل في ذلك "يَفُتّون العُملة" هنا وهناك وهنالك.

وتقول الحكاية أيضا: إنه بعد إطلاق سراحهم، كانوا يُدعَون إلى حضور جلسات محاكمات استئناف... وقيل: إنّ الدعاوى لحقت بعضهم حتى بعد أن التحقوا بخدمة العلم.

ليل الإثنين: ٩-٩-٢٠١٣

---

(١) تشبيه جميل بطواف الحائم حول الماء وهو عطشان ولا يصل إليه.

الشريف...

ضجّ الناس من الابتزاز الذي يمارسه المسؤولون في المدينة، فرفعوا أصواتهم بالشكوى، حتى وصل صريخُهم إلى العاصمة، فتحرّك الضمير هناك، وأوفدوا واحدًا من بينهم -حرصوا على أن يكون شريفًا- كي يصلح الأمور. وبوصوله كفّ المبتزّون عما كانوا فيه، من طلب الرشاوى وفرض الإتاوات، وقُدّر للناس أن يتنفّسوا الصُّعَداء.

الذي وقع أنّ هذا "الشريف" اكتشف أنّ ثمة منابع للغِنى في أموال الناس وممتلكاتهم. وما هي إلا مدة حتى تعرّف على ما يمكّنه من أن "يشفط" من هذه المناهل... وبدا أنه استعذبها فأسرف في ذلك إسرافًا كبيرًا.

وهنا تجرّأ المبتزّون الصغار -الذين كانوا يرقبون بألم وحسد- على أن يرفعوا أصواتهم بالشكوى، حتى وصل صريخُهم إلى العاصمة، فسحبوا موفدهم.

ثمّ إنهم في العاصمة تبيّنوا أنّ شريفهم قد عاد محمَّلاً مزمَّلا.

وكان ما كان... مما لست أذكره!

مساء الثلاثاء: ١٠-٩-٢٠١٣

حمص.. التي في القلب..

كتبتُ، اليوم، في إحدى المجموعات:

أحببت حمص لأنّ جدّي جاء منها إلى حلب أيام حرب "السفر برلك". وكنت أزداد حبًّا لها يومًا بعد يوم... وأما في ثورة الحرية فلم يعد لمزيد الحبّ في القلب متّسع... فمن أين آتي بمكان لحبّ لها جديد؟ أيها الحماصنة الأنجاد، رفقًا بقلبي!

فعلّق حمصي كريم:

كلما استثيرت كوامن الحب اتسعت قلوب الكرام للمزيد منه!

فكتبتُ له: قد غلبتَني...

ظهيرة الأربعاء: ١١-٩-٢٠١٣

الإفراط في الحيازة

تفقد رائعة الجمال القدرة على الحبّ

مثلما يفقد الحاكم المتمكّن القدرة على العدل، والرأفة، والنظر البعيد!

إنه الإفراطُ في الحيازة والتملّك، والإزمانُ[١] فيهما!

ضحى الخميس: ١٢-٩-٢٠١٣

ملح الرجال

سألتني، وهي أمام موقد الغاز، متطوّعةً لإعداد القهوة لضيوف "التواصل الاجتماعي" الجالسين في الحديقة: «كيف قهوتك؟ حلوة؟». فقلت: «أنت فقط لا تغمسي إصبعك فيها».

وقد رأيت الضيوف يطربون لهذه النكتة، المعادة.

وكأني سمعت إحدى السيدات تقول: «... إنه مِلْح الرجال!». وأيّد رجل من الضيوف: «ويبدو أنه ملح ضروري».

منتصف ليل الخميس: ١٢-٩-٢٠١٣

---

(١) الاستمرار زماناً طويلا.

الكيماوي.. استراتيجيًّا

صدّقوني أني لم أصدّق وزير خارجيتنا السيد وليد المعلم عندما صرّح، قبل أيام وهو في موسكو، أنّ النظام سوف يتخلّى عن السلاح الكيماوي للمجتمع الدولي، وحزرت أنها مناورة ذكية.

لأني على يقين من أنّ النظام يحرص على امتلاك هذا السلاح الاستراتيجي... لاستعماله ضد الأعداء.

فجر الجمعة: ١٣-٩-٢٠١٣

أنتم.. يا مَن هناك

حافظوا على أموالكم

إبّانَ حروب الوطن

وأنتم هناك

فالمال أخو الروح

واحرِصوا على أرواحكم أيضًا

وأما الذين يُعانون هنا

فدَعُوهم لقدرهم!

(مع الاعتذار لكرمائهم).

دمشق الشام، ظهيرة الجمعة: ١٣-٩-٢٠١٣

سعدي يوسف.. ليتك بالعينين ترى

تغريدة بالأمس أرسلها الشاعر العراقي «سعدي يوسف»، من "ميونيخ"، وصَمَ فيها أوباما بـ«الزنجي المحرّر، مع امرأته ميشيل حمّالة الحطب، [لأنه] يريد أن يستبيح سورية، ويسبي نساءها، ويجعل أعزّة أهلها أذلّة. [ويتابع] اللعنة! العمى! لا أريد أن أستعيد المتنبي. أريد أن أقول: إنّ الانتقال من العبودية إلى الحرية ليس سهلاً»!

أنا معك، يا سعدي يوسف (وقد التقيت بك يومًا بدمشق فرأيتك محدّثًا يمتلك قدرًا من الشفافية)، في شجبك للضربة الأمريكية المنوي تسديدها لنا.

ولكن ليتك ترى -أيضًا- ما يجري اليوم في الوطن الذي احتضنك مدة:

• هل سمعت بصواريخ سكود، عابرة الثلاثمئة كيلا، تصيب عشوائياً الأحياءَ العشوائية التي يسكنها فقراء الوطن، وليس ذلك بالخافي على أحد؟

• والبراميل المتفجرة ترمَى من الجوّ؟

• وتدمير البنى التحتية؟

• وتهجير الناس، نزوحًا في أرجاء الوطن، ودفعًا إلى ما وراء الحدود، ونبذًا بالجوّ إلى أماكن في العالم شتى؟

وأطمئنك على أن لا خوف من سبي السوريات على يد "زوج حمّالة الحطب"، ولكني أخبرك بانتهاك أعراضهنّ من قبل مَن تعرف وتؤيّد وممن لا تعرف ولا تؤيّد، في السجون، والطرقات، والحقول... والقتل تحت التعذيب، والإعدامات الميدانية.

يوم التقيت بك، في عام من ثمانينيات القرن الماضي، في "مطعم اتحاد الكتّاب العرب" بالمزّة، حول مائدة جمعت خمسة من أدباء سوريين يقدّرونك، كنا نستمع بآذان صاغية إلى

حديثك المؤلم عن ذلك الاقتتال الفظيع الذي كان قد نشب بين فصيلين من الماركسيين الذين كنت تعيش بين ظهرانيهم في دولة "اليمن الجنوبي"، أحدهما أظهرَ اتّئادًا في تطبيق المنهج الماركسي والآخر يتشدّد... وكان قتل وذبح وانتهاك في الطرقات -كما حدثتنا- حتى إنك لم تصدّق أن تنجو بروحك، إلا عبر باخرة راسية كانت تستنقذ من يريد الهرب من الجحيم، وحللت في وطنك الثاني سورية...

ولله كم تفكّرتُ، وتأمّلت، وما زلت أستعيد في الخاطر، ما حكيتَ لنا عن اعتقالك أيام بعث العراق، ومن هنا لمست شفافيتك. لقد منحك سجّانوك ميزة أن تكون "أمين مكتبة السجن"، فكنت فيها تقرأ وتكتب... وإذن ففي سجون صدام كان ثمة مكتبات، وكتب، وقراء من المساجين... وتعال الآن، أبا السعود، فانظر!

لم يعد هناك "عبيد" يُقرَعون بالعصا بحجة أنهم «أنجاس مناكيد»، وهم قد وصلوا في زمن الناس هذا إلى أعلى مراتب الدنيا، وإن قال ذلك شاعرنا العظيم المتنبي، في "لحظة انتهازية" بغيضة عندما استبان عجزَه عن استغلال الحاكم الفطِن كافور الإخشيدي وابتزازه، هذا الذي كان حرًّا متجاوِزًا لون بشرته الذي تعيّره به بعد ألف من الأعوام، وأنت الماركسي الأممي كما نعلم.

ولكنك أنت، مَن يعيش في رغد ويميل مع الهوى و"المعتقد"، وكذلك من هم على غرارك، تُغروننا بأن نلتمس منكم، بلطف زائد، أن تنظروا إلى الوقائع بالعينين معًا، يا سعدي يوسف!

دمشق الشام: منتصف ليل السبت ١٤-٩-٢٠١٣

مَن يسبق لفتح الباب

في الأربعينيات من عمري، عندما كان يتّفق لي أن أعود إلى البيت وبرفقتي طفلي، كنا "نتسابق" مَن يفتح الباب قبل الآخر بالمفتاح في يده، وكنت أتظاهر بالإسراع وأتيح لابني الوحيد أن يشعر بمتعة السبق! وأذكر أنه كان يملأ سمعَنا ضجيجُ السيارات المارّة في الشارع، فباب بيتنا يطلّ على الرصيف.

رأيت أمس ابني، وهو في الأربعينيات، يسابق طفله الوحيد في فتح الباب ذاته!

الظروف متشابهة... إلا في أمر واحد: لقد انضاف إلى ضجيج السيارات هديرُ الصواريخ، تنطلق من وراء بيتنا، ستةً في كلّ إطلاق، من فوق قمة قاسيون، لتنزل في "بَرْزة" و"القابون" و"حَرَسْتا"... ولكني لم أعلم حتى اليوم، من أيّ موقع انطلقت تلك القذائف، التي حصدت أرواح المئات من أطفال الوطن، في الغوطة الشرقية، وقتلتهم دون إراقة قطرة دم!

منتصف ليل الأحد: ١٥-٩-٢٠١٣

لو أنّ في الصدر قلبًا

إنّ المرء ليتساءل في عجب:

كيف تأتّى لذلك "المدفعيّ" المخضرم، أن يوجّه صواريخه السامّة نحو الغوطة الخضراء، بعد منتصف تلك الليلة التاريخية، فيقضي على الأطفال والنساء وهم نيام، والرجالُ عنهم بعيدون، إمّا سعيًا وراء الرزق، وإما غائبون اعتقالا، أو اغتيالا، أو هائمون على الوجوه!

لسوف يظلّ يتردّد في سمع التاريخ ذلك التساؤلُ الأليم:

أليس في صدور الفاعلين قلوب؟

فإن كانت أليس فيها ضمير؟

أليس لهم أمهاتٌ وأخوات؟

ألم يُنجبوا مَن يُدفئ لهم قلوبَهم بالحبّ والحنان وسائر المشاعر الإنسانية؟

منتصف ليل الإثنين: ١٦-٩-٢٠١٣

أيها الغرب...

لم تُعبّر إلا قليلاً عن حزنك الملتبَس على موت الناس بالبراميل المتفجّرة تُلقى في آناء الليل ووَضَح النهار.

ولكنْ... أفزعك الموتُ بالكيماوي، حين تخيّلتَه يغمر أناسًا هناك، فقمت ترفع الصوت عاليًا، وتستعجل التحقيق، وتُهدّد، وتُلوِّح...

فزدتَنا قناعةً بنفاقك، أيها الغرب الكذوب!

مساء الثلاثاء: ١٧-٩-٢٠١٣

إعلاميّ مؤيّد... يتلقّى

عجبتُ لـ"إعلاميّ"، من غلاة المؤيّدين يَشغل وظيفة "سيناتور"، ما زال يطلع في مقابلات تلفزيونية، يُقارع فيها، ويُقارعه بشَفرة السيف معارضون أشدّاء... فيتلقّى من التقريع والتعريض ما يجعل المشاهد "الطيّب" يحسّ إشفاقًا عليه ووجعًا.

عجبتُ... إلى أن أعلمني العارفون بأنه يتلقّى هناك على الطلعة مكافأةً مجزية جدًّا. ومن يومئذ زال عندي كلّ العجب!

منتصف ليل الثلاثاء: ١٧-٩-٢٠١٣

عندما يطول الزمن

عندما يطول الزمن!

ساعة أتوجّه صباحًا

أنا وحفيدي

إلى شجرة الياسمين

كي نملأ أكفّنا بأزهارها

الفوّاحة بعطر الشام

يُراودني شعورٌ

بأنّ صباح أمس الذي ولّى

لا يبعد عني إلا رمية حجر

فالأيام تتواصل

لتغدو لحظاتٍ خارج حدود الزمن

ولكني حين أستمع إلى هدير الطيران

وأصغي إلى أصوات القذائف

في انهمارها على رؤوس الناس

أجد أنّ النهار والليل متباعدان

وأنّ ما بينهما طويل، طويل، طويل...

صباح الأربعاء: ١٨-٩-٢٠١٣

كلام في.. الفاصوليا

أعرف أنّ أسرتي بحلب من محبّي أكلة "الفاصوليا الخضرا"، فهم يكثرون من تناولها في مواسمها! هل حملتُ إلى دمشق حبّي لها؟

وللعلم إنّ أفضل أنواع الفاصوليا تلك الطويلة، المنتفخة والمتلوّية، يسمّيها الدماشقة "ملاطيّة"، ويسمّيها الحلبيون -وما أظرفهم!- "عايْشة خانم"! واستُمِدّ لفظ "فاصوليا" من التركية عن اليونانية الحديثة Fasoulia. تطبخ الفاصوليا باللحم غالبًا، وبالزيت أحيانًا كـ"مقبّلات".

لما ذهبت مساء أمس إلى "الروضة" لأعود بحفيدي "فاضل الصغير"، بدا لي في "المديرة" حرصٌ على أن تخبرني، هاشّةً باشّة، أنّ الحفيد أحبّ اليوم وجبة الفاصوليا الخضرا حتى إنه طلب صحنا آخر، وعدا ذلك أنه توجّه بعد الطعام إلى المطبخ وشكَرَ القيّمة قائلاً لها: «طيّبة»... أهذا بالوراثة؟

وفاتني أن أسألهم عمّا إذا قدّموا الفاصوليا للصغار مطبوخةً باللحم أم بالزيت!

صباح الخميس: ١٩-٩-٢٠١٣

ممّا قالته المواطنة "تغريد.."

في البيت الذي تطوّع رجلٌ ذو شهامة أن يجعله موئلاً لبعض المصابين في مجزرة الكيماوي، انضمّت المواطنة "تغريد" إلى من لاذ بالبيت من نساء وأطفال، هؤلاء الذين كانوا قد أخذوا قدرًا من العناية في مشفى "حمّوريّة"، ورأى الشهمُ أن يصحَبَهم إلى بيته إخلاءً للمكان الذي ما زال يتوارد عليه المصابون بالاختناق.

ممّن رأت في هذا البيت، المثقفةُ المرهفة تغريد، أمٌّ وأطفالُها الأربعة، قد افترشوا "أرض الديار" وهم يرتجفون من البرد في ساعة الفجر هذه، وكانوا قد رُشّوا في المشفى بالماء غسلاً لِما علق بثيابهم من غاز السارين.

بدت الأمّ في حالة غثيان، ما جعل صاحب البيت يرى إعادتها إلى المشفى. كي من خوفٍ الأطفال الذين رأوا الموت بأعينهم هناك. وأما الأمّ، التي توقّعت دنوّ الأجل، فقد فكّت من عنقها عِقدا ذهبيا وجعلته في عنق ابنتها الكبرى بنت العشر، وتوجّهت إلى الشابة تغريد تقول: «إذا ما رجعت، ولادي أمانة برقبتك!»، وأضافت: «أنا فلانة بنت فلان، وزوجي فلان، إذا صار لي شي اتصلوا به حتى لا تتلبّكوا فيني».

وعندما كان نداء استغاثة ينبعث من الجوامع: «يا أهل "حمّوريّة"، يلّي عندو حرامات، يلي عندو لبس، يوصلهم لأقرب "طبّيّة"، الناس بلا لبس رح يموتوا من البرد»... كانت "الميغ" تحلّق في السماء، ويُسمع صوت قصف الهاون وراجمات الصواريخ.

ولا يفوت تغريد أن تلاحظ: «كانت سحابة سوداء كبيرة تحجُب عن الرؤية جبلَ قاسيون، وتحجب الأفق كله».

لكنّ ما لم تقله تغريد أنّ أناسا في حيّ بدمشق، أخذوا يوزّعون الحلوى!

على حين صرّح مسؤولٌ رسمي بأنّ من أطلق السارين هم "المعارضون" كي يتّهموا بذلك النظام، وأعقبه تصريحٌ بأنّ الأطفال الذين قَضَوا بالسارين إنما هم أطفال قد سُرقوا من الساحل!

ولم يفسّروا لنا لماذا إذن كانت الميغ تحلّق، والراجمات تدعم، والحلوى توزَّع ابتهاجًا!

ظهيرة الخميس: ١٩-٩-٢٠١٣

كم تعذّبتُ فيك

«كم تعذّبتُ فيك!

كم أتعذّب من أجلك!

ولكني سأظلّ أحبّك

لأنك وطني...»

من كتابي "آه، يا وطني!"

دمشق، ١٩٩٦

منتصف ليل الجمعة: ٢٠-٩-٢٠١٣

اسمع، أيها المتّهم

لقد اطّلعنا، نحن أعضاء "محكمة الأمن الأيديولوجي"، على كلّ ما كتبتَ، وصرّحت، وأدليت، وخطبت، وعرفنا أفكارك المستقبلية وتطلعاتك الخاصة والعامة، الوطنية والقومية والعالمية.

وقرأنا كلّ ما خطّته يدك في حقّ النظام، من المآخذ والبهادل، وما كِلْت لنا من الشتائم القبيحة، وكلّلت به ناصيتنا من التهم الشنيعة.

وسمعنا كلّ ما تحدّثت به من أننا نسحق كلّ "تنظيم" مناوئ قبل أن يتمكّن من الوقوف على قدميه، وأننا ننتهك حقّ الحياة لخصومنا المعارضين.

فوجدنا أنّ كلّ ما صدر عنك من قول ومن فعل، وكلّ ما يتردّد في رأسك من الخواطر والأفكار.....

وعليه فقد قرّرنا.....

من قصة "الكلام المباح" (مجلة "العربي"، العدد ٥٤٨، يوليو ٢٠٠٤(. وكتابي "تقول الحكاية".

ضحى السبت: ٢١-٩-٢٠١٣

القتل... والحبّ

كلما أمعن النظام

في التقتيل

والتدمير

والتهجير

تفتّقت القرائح

عن أحلى الكلام

في محبّة الوطن

حتى غدا ما يكتبون

ديوانًا في حبّ الأوطان

عجبًا!

ألم يلحظ النظام ذلك؟

منتصف ليل السبت: ٢١-٩-٢٠١٣

وضربَ جبهته بكفّه

يوم وقعتُ في قبضتهم، لسببٍ أدبي صِرف، شَمِت بي واحدٌ ممّن اعتادوا تقبيل الأيدي ومصمصة الأنامل.

ولحظة سمع بإطلاق سراحي، بعد وقتٍ غير بعيد، ضرب جبهته بكفّه، وهو يقول بألم: «بُكرا بقول: ناضلت وناضلت!»، وذلك ما لا يستطيع أن يدّعيه لنفسه.

يتمتّعون بالنِّعَم يسرقونها من عرق الجبين، ثمّ ينفَسون علينا تداعياتِ ما يلحق بنا من أذى أسيادهم! ما أشدّ حسدَهم!

ظهيرة الأحد: ٢٢-٩-٢٠١٣

الاعتيـاد

فأنت ساعة تكون برفقة أصحابك تسمُرون في الأحياء التي تسمّى "الآمنة"، وتسمعون فجأة دويّ القصف يأتيكم من بعيد، فإنّ ما يكون منكم أنكم تتساءلون وقلوبكم تتفطّر من الألم، ما إذا نزلت القذيفة في المعضّميّة، أم في دارَيّا، أم فوق مخيّم اليرموك!

منتصف ليل الثلاثاء: ١-١٠-٢٠١٣

إصغاءٌ... حزين

لم أستأ من صديقي، الذي سهر عندي الليلة، وهو يحدّثني، بقناعة مفرطة وبراءة مطلقة، عن أنّ "المعارضة" هي التي تعمّدت أن تستخدم "الكيماوي" يوم وصول "المفتشين الدوليين" كي تتهم النظام به، وأنّ هذا عندما يرسل "السكود" إلى هنا وهناك، فإنما ذلك دفاعا عن النفس.

أقول: أصغيت، بجوارحي كلها، إلى هذا الرأي "الآخَر" يصدر عن صديق عزيز. ثمّ... ثمّ انتابني حزنٌ عميق.

دمشق الشام: ليل الأربعاء: ٢-١٠-٢٠١٣

شبّيح.. لكن لطيف

لم أكن أعرفه، لكن بدا أنه يعرفني. ألقى نظرة على محتويات الطرد، من كتبٍ أهُمّ بإيداعها لتذهب بالبريد إلى مكان بعيد.

تراءى له أن يسألني (وهو يظنني من حمص بحسب الكنية): «كيف حمص؟»، فتراءى لي أن أجيبه: «حمص، التي دمّرتموها!»، قال: «من نحن!»... ودعاني بلطف إلى مكتبه.

قال محاسِنًا القول: «يعني ما وصلنا إليه، هل هو أحسن حالًا مما كنا عليه؟»، ثمّ أخذ يدور حول هذه المقولة التي حرصت على أن أتفادى الجدل فيها، معرِّجًا على "الحالة الاقتصادية" التي يرزح تحتها المواطنون.

قلت: «تريد أن تقنعني بأنّ شعبي سعيد ببؤسه -لا أقصد هذه الأيام السود لكن ما قبلها- وهو يرى "الكبار" وقد امتلؤوا حتى التخمة، وما فاض نقلوه إلى الخارج؟ لن تراني مجاملاً ولا متردّدًا في التعبير خشية من أن يكون لك "خطّ جميل"! وما دمت تعرفني، فلا أظنّه يخفى عليك أني ما زلت، منذ خمسين سنة، أقارع بقلمي المتواضع الظلم والفساد، بشفافيّة توخّيتها كان من شأنها أن تجنّبني غير قليل من المضايقة والملاحقة».

وأوجزت: «ألقاك، وفي يدي واحد من كتبي!».

هو واحدٌ من "الشبّيحة"... لكن اللطفاء، وليت أمثاله كُثر!

دمشق الشام: مساء الخميس ٣-١٠-٢٠١٣

معلم المدرسة الذي بكى على باب الفرن

كانت صفوفٌ أربعة من الواقفين على باب المخبز الآلي ينتظرون منذ ساعات الصباح الأولى، والجنود يتناوبون الحراسة والتنظيم.

ولكنّ الناس، وبينهم معلم مدرسة الحيّ، لاحظوا أنّ جنديا من الجنود يأتي في كل حين بصبيّة، يصحبها حتى إحدى كُوَى[١] التوزيع، لتعود مثقلةً بربطات كثيرة من الخبز!

كانت ترتفع من الواقفين في الدور أصوات احتجاج خجولة. ولكنّ المعلم تساءل بصوت مرتفع عن أمر هؤلاء الصبايا، اللواتي يعرفهنّ تلميذات في المدرسة التي تركها متقاعدًا منذ قريب؟

تقدّم منه ولد من صبيان الحيّ تحدث بطلاقة وقال: إنّ تلك الخيمة، التي نصبها الحرس وراء الفرن، باتت تتردّد عليها بنات الحيّ، اللواتي اعتدن الوقوف في الدور ثلاث ساعات للحصول على ثلاث ربطات يقمن ببيعها بالسعر الأعلى، لكن الآن يأتي جنودٌ يصحب كلّ واحد منهم صبيّة إلى الكوّة، فتحظى بعشر ربطات، تروح تبيعها بعيدا بأربعة أمثال، عدا ربطة تقدّمها لأهلها مع أرباح اليوم!

حاول معلم المدرسة العجوز أن يرفع صوته ليتكلم، يحتجّ، يصرخ... ولكنّ الكلمات اختنقت في حلقه، والولد ما زال يتابع بأنه رأى أمس صبية تمسح من على ثيابها شيئا لونه... فجاءته صفعة على قفاه جعلت الكلمات تختنق في حلقه، ولكنّ المعلم كان قد سقط على الأرض، وتجمّعت فوقه الوجوه، بعضهم يقول: مات، وبعض: فيه روح!

ملاحظة: الذي روى لي القصة أمس عبر الهاتف من حلب، لم يبيّن لي ما إذا كانت الواقعة

---

(١) جمع كوّة، الفتحة النافذة الصغيرة.

حدثت في منطقة "مسيطَر عليها" أم في منطقة "آمنة"!

دمشق الشام: ليل السبت ٥-١٠-٢٠١٣

في كلّ دقيقة

في كلّ دقيقة أسمع قصفًا

وأتصوّر هدمًا وموتًا

أتساءل: هل هذا وطن؟

أم هو بلد

النظامُ فيه يجهَر بمعاداته!

منتصف ليل السبت: ٥-١٠-٢٠١٣

واللهِ ما فارقتُك، يا وطني

واللهِ

ما فارقتُك، يا وطني

خوفًا من عيونِهِمُ المبثوثة

ولا رَهَبًا من سيوفِهِمُ المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنجبتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد رحل أفرادُها في كلّ اتجاه

حتى لم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّد يده إليّ بكأس ماء!

جَوّاً، فوق المحيط الأطلسي، ظهيرة الإثنين ٧-١٠-٢٠١٣

ليست نيويورك بالجميلة

ليست نيويورك بالجميلة

ولا واشنطن

ولا باريس

ولا كلّ عرائس مدن العالم

أنت الأجمل، يا دمشق

ويا حمص

ويا حلب

والغوطة، ودرعا، وحماة

ودير الزور، وأريحا، والسفيرة...

بالخدود التَّرِبة

وبكلّ الجراح

نيويورك، مساء الإثنين ٧-١٠-٢٠١٣

أيها العالم... "السفيرة" تحترق

مدينة السفيرة، في ريف حلب الشرقي، يستهدفها النظام اليوم بقصف من الجو، بالحاويات والصواريخ الفراغية، فتعمّها سحُبُ النار والغبار!

يصرخ الناس فيها: الموت بالكيماوي أرحم!

يقع هذا في هذه الساعة من منتصف نهار الجمعة... والعالم غافل.

فلوريدا: فجر الجمعة ١١-١٠-٢٠١٣

ويبقى وديع الصافي بيننا

هل نَصِفه بـ"زرياب العصر" لكن دون مضايقة من أستاذه إبراهيم الموصلي ببغداد فيلجئه للرحيل إلى قرطبة!

صوت وديع الصافي كالقادم من القمم العالية، من الأودية العميقة، من السهول، "الجنات ع مدّ النظر"، من الغابات، الحقول، الرياض الغنّاء؟

لم أره أخطأ مرة في الاختيار (اختيار ما غنّى) ولا في اتخاذ القرار (بعلاقته مع العامة والخاصة)، محبوبٌ محترم على طول الخطّ.

تخرّجت على يديه أجيالٌ من الفنانين، وتربّت جحافل من "السمّيعة" في أرجاء الوطن. يفخر به لبنان، والعربُ في كلّ مكان.

هل أقول: إنّ صوته العبقريّ يُثري فينا حبّ الحياة، ويزيدنا شوقًا إلى الحرية والانعتاق؟ سوريّة اليوم، بالخير تذكرك، يا راحلا لكن باقيا في الأسماع والقلوب.

فلوريدا: مساء الجمعة ١١-١٠-٢٠١٣

مُبتدا الوطن...

من رصيف بيتي هناك

وعبر الطريق المُفضي إلى شعاب المدينة

وتحت الصخب، والغبار، والمطر...

ترتسم حدودُ وطني.

فلوريدا، السبت ١٢-١٠-٢٠١٣

شمس الصباح الدامية

أَرِقْتُ

فوقفت أنتظر الشمس

القادمة من بلادي

رأيتُها مقطَّبَةَ الجبين

وفي الوجه حمرةٌ قانية

فأدركتُ أنّ الدماء

التي شرب منها تراب الوطن

أمس

كانت أكثر نزفًا

فلوريدا: فجر الأحد ١٣-١٠-٢٠١٣

«بأيّة حال عدتَ؟»

عبر شبكة التواصل الاجتماعي، وبالرسائل خاصة، أتلقى التهاني بالعيد، والنفس في ألم. فكيف يسوغ لي أن أتقبّل، في وقفة العيد وما قبلها وما بعد البَعد، عبارة «كل عام وأنت بخير»؟

أي خير، والناس في وطني حبيسو بيوتهم ومناطقهم، يتعرّضون للقصف اليومي؟ أو هائمون على وجوههم يتعرّضون للذلّ والمهانة؟ أو راكبون أمواج البحر يتعرّضون للموت غرقًا؟

ما معنى كلمة «وأنتم بألف خير»، وهناك في وطني، البهيّ الوديع العريق، تُشحذ السكاكين لذبح أطفالنا تقرّبًا -من مأفونين مرضى النفوس- إليه تعالى؟

«عيدٌ، بأيّة حال عدتَ، يا عيد!»، أرسلها الآن، ليس كما فعل يومًا ذلك الشاعر، الذي عزّ عليه ابتزاز الأمير، فهجا وولى هاربًا!

أقولها، وأنا بعيدٌ عن الوطن مسافاتٍ في "نفي اختياريّ"... أقولها ليس إلا لأني خائفٌ على وطني وعلى من فيه، مشفقٌ، وباكٍ أيضا... كما يبكي الرجال حين يطفح في الصدر الألم.

فلوريدا، وقفة عيد الأضحى ١٤٣٤، الإثنين ١٤-١٠-٢٠١٣

نظام... ونظام

أعلمني ابني أنه بعد أن عاين هو وزوجته البيت الذي ينويان استئجاره في البلدة هنا، سأله ممثل الشركة مالكة البيت عن عدد أولادهما؟ فلما عرف أنهم أربعة، بيّن لهما أنّ النظام يفرض أن يكون في البيت الذي يسكنون ثلاث غرف نوم، غرفة لكل ولدين وثالثة للزوجين، وليس في هذا البيت إلا غرفتان للنوم!

هنا... عدت بخاطري إلى النائمين في البيوت العشوائية في وطني، الذين يتلقّون قذائف "السكود" يرسلها "النظام" إليهم في منتصف الليالي، وإلى إخوتهم من عابري الحدود، الذين يتعذّر تأمين "الخيام" لهم، فإن وُجدت أغرقتهم أمطارُ الشتاء أو قضى على بعضهم الصقيع!

فلوريدا مساء الجمعة: ١٨-١٠-٢٠١٣

أنين البحر

أمسِ، في الحافلة الصغيرة، التي شاء أطفالنا أن يتجمّعوا في مقاعدها الخلفية، ارتفعت أصواتهم بالغناء بالإنكليزية ذات اللهجة الأمريكية، مَن وُلد منهم هنا ومن جاء ملتجئا في هذا الزمن الصعب.

عند مدخل المنتجع أوقَفَنا الحرس، فقال أحدنا القادم حديثا من الوطن: «حاجز أمني!»، وضحكنا، محاولين أن نخفّف عن نفوسنا شيئا من أوجاع الوطن. ولما طال وقوفنا "ستين ثانية!"، قال آخر: «كأنهم يريدون أن يستأذنوا أمن الولاية»، ومع تحوّل الضحكات إلى قهقهات كان الباب قد فُتح لنا.

في هذا المنتجع، المفتوح للناس مجانًا، المنفتح على المحيط الأطلسي، أماكنُ مظلّلة، تنتظمها طاولاتٌ قد قُدّت أخشابُها الثخينة من أشجار الغابة. وأنت ترى منقلا هنا مرتفعا عن الأرض، لشيّ اللحم الذي أتيتَ به، ومناقل أخرى. وحين قام صغارنا يلعبون بالكرة فوق المرج الأخضر وبعضهم ذهب للسباحة، كان ثلاثة شباب منا قد تجرّدوا للعمل: سكبوا الفحم من أكياسه في المناقل، وأشعلوا، ودون كشّ أخذوا يشوون الأجنحة والكباب والشيش طاووق... وأما أنا، فقد انفصلت عنهم إلى فرجة بين الأشجار هناك، تطلّ على البحر، أستمع إلى حديث الأمواج المتلاطمة، وأرنو بنظري إلى حيث الشرق الذي منه جئت منذ قريب، في

حين كانت طيور النورس تنقضّ على سطح الماء متناولة آخر وجبات اليوم.

عندما أوشكنا أن نفرُغ من عشائنا، رأينا أناسا يدخلون المكان ويَشغلون مرتفعا من الأرض وسط المرج، وينصبون آلاتهم الموسيقية، ويدندنون استعدادا لإقامة حفلتهم. أعداد من طيور البحر اصطفّت بانتظام فوق أحد السطوح القرميدية المنحدرة نحو المكان، ترى وتستمع كالمأخوذة!

وبدأ "الجمهور"، رجالا ونساء، يتواردون، لا تُضاهيهم في أعمارهم المرتفعة إلا أعمار رجال الفرقة الموسيقية الذين بدؤوا بالعزف. فالمنطقة هنا، فلوريدا، بدفئها وجمال طبيعتها، تجذِب غير قليل من المتقاعدين في أنحاء البلاد يقتنون البيوت ليُقضّوا فيها نصف السنة الشاتي مع أنّ البرد ما آن له ان يحُلّ.

استمعت إلى ألحان بدت لي نابعة من قلب الريف الجميل. وحرصت قبل المغادرة على أن أمرّ من أمام الفرقة في منصّتها، وأرفع يدي بتحية سرعان ما جاءني الردّ «ثانك يو» من عازف منهم، حين كان واحد من جماعتي يصوّر!

وفي تلك الفرجة المطلة على البحر، لم أسمع الآن صخب الأمواج في تلاطمها... خُيّل إليّ أنّ ما تتلقّطه أذناي كان أنينًا، قد حملتْه إليّ الأمواج، القادمة من الشرق البعيد، حيث تُسفك الدماء... وحالت عتَمةُ المساء دون أن أرى اللون القاني.

فلوريدا صباح الأحد: ٢٠-١٠-٢٠١٣

أعترف بعجزي عن الشكر

يبدو أني سأظلّ أعتذر لأصدقائي مرة بعد مرة، عن عجزي في مبادلتهم عباراتهم الودية التي يمنحونني إياها تعليقا على كثير من خواطري. وما أشك في أنهم يسامحونني في عجزي

وتقصيري.

وإذا ما اتفق أن علقت على تعليق، فليس مردّ ذلك إلى قرب من القلب أو تغلغل فيه، ولكن لأنّ الموقف اقتضى.

ليل الأحد ٢٠-١٠-٢٠١٣

يوم اقتادوني.. من باب الجامعة.. إلى الاعتقال

في ذلك اليوم، البعيد القريب، حين وقفت في أحد مدرّجات كلية الآداب، أردّ على أسئلة الطلاب العطشى، ثمّ مختتمًا الأمسية بأن قرأت عليهم قصة كانت آخر ما كتبت من وحي العنف الذي يمارس في الوطن... ما كان يخطر في بالي -أو كان يخطر!- أني سأُقتاد إلى السجن حالاً!

ذلك أنّ فلذات أكبادنا ممّن دخلوا الجامعة، وجُنّد بعضهم "عيونًا" علينا بصفتهم منتسبين إلى حزب النظام، قد أَخبَروا تلك الجهةَ الأمنية -الساهرة على حماية الوطن- بأنّ «المُحاضر هنا سبّ السلطة»، فقالوا لهم: «هاتوه موجودًا»!

أعترف بأنّ عميد الكلية، وكان من طلابي القدامى، وكذلك الأساتذة الذين تلطّفوا بأن حضروا الأمسية، أَبَوا أن يدَعوني أمضي وحيدا إلى... هناك، فرافقوني في سيارة للحزب اتّسعت لنا نحن العشرة.

في الطريق أحبّ الطالب "الحزبيّ" الذي يقود السيارة، أن يتودّد إليّ (!)، فأعلمني بأنه ابنٌ لصديق لي قديم (وذكر الاسم: ع.ق.ج)!

لن أطيل. دخلت الاعتقال، ونُقلت من حلب مسقط رأسي إلى العاصمة التي أسكن، ثمّ أُطلق سراحي.

عندما أخذت أروي هذه السالفة لبعض الأصدقاء، كنت في كلّ مرة لا أعدم ظريفًا بينهم

يقول: «أساتذة جامعة ذهبوا بك إلى هناك... في سيارة يقودها ابنٌ لصديق لك قديم! يا له من زمن!».

فلوريدا : الثلاثاء: ٢٢-١٠-٢٠١٣

وعبر الأثير.. يتلاقى السوريون

عند دخولي البيت عائدًا من "رياضتي" اليومية، التي لا تعدو المشي في طرقات البلدة الهاجعة تحت أنداء الصباح، جلست -كما عودنا الزمن الحديث- أتجوّل فيما كُتب على الشاشة من سطور أو ظهر من صور...

ولم تفاجئني "اللايكات"، التي رأيتها تتوالى على بعض "خواطري"، الحديثة متقدّمةً إلى الأحدث، فكأنها عزفٌ ذو إيقاع، ولكنّ المفاجأة كانت في "العازف"، الذي غاب عني سنتين وغبت والآن يظهر لي!

لقد ظل مدة يتردّد عليّ بدمشق قادمًا من بلده في الشمال، وهو يُعِدّ أطروحة الماجستير حول ناحية ما في «أدب فاضل السباعي القصصي»، فلما دهمت الأحداث البلد، افتقدت حضوره، حتى صوته عبر الهاتف غاب عني!

ـ أنا سعيد لأني التقيت بك أخيرا، يا أستاذي!

ـ وأنا أسعد. أين أنت، يا وائل؟

ـ عرفت الآن أنك وصلت حديثًا إلى أمريكا، وأنا في تركيا، مهاجرًا مع الأهل والزوجة والولد.

ولم يَفُت وائل، وهو في حزنه على ما آل إليه الوطن، أن يطمئنني على أنه يوم غادر مدينته العزيزة، كان في متاعه مسودات ما كتب من أطروحته وكل ما استطاع حمله من الكتب

والمراجع... معبّرًا لي عن أسفه من أنه لو كانت ظروف الوطن طبيعية لكانت تمّت مناقشة الأطروحة، ولكان الآن يعمل في أطروحة الدكتوراه!

تؤيّدونني، أيها الأصدقاء، في أن شعبا يتهمّم لاسترداد حريته المسلوبة، ويسهر في الوقت ذاته أبناؤه على تحصيل العلوم والمعارف حتى وهم في ظلام الأيام، لهو شعب لا يقهر!

فلوريدا الأربعاء: ٢٣-١٠-٢٠١٣

لا محلّ لفرح بعيد ميلاد

فاجأني بالأمس صديق عزيز بتهنئته لي بما يسمّى "عيد ميلاد"، كانت قد أنستْني إياه الأحداث حتى غاب عن ذهني غيابًا.

ألتمس من الأصدقاء الكرام، جادًّا كلّ الجِدّ، الاستجابة لرجائي بألا يُجاروا الصديقَ العزيز بهذا التقليد -بالنسبة إليّ- وإن كان تقليدًا جديدًا وجميلاً... فليس لنا اليوم قلوبٌ تفرح بيوم ميلاد، ونحن نرى الوطن معرّضًا للقتل والخنق، والتدمير والتهجير، والتجويع والترويع.

رفع الله يد الظالمين عنّا.

فلوريدا، الجمعة: ٢٥-١٠-٢٠١٣

تنظيم سياسي آخر

لست أدري ما حملني على أن أدخل، ضحى ذلك اليوم، مبنى هذه الوزارة لألتقي صديقًا قديمًا كان قد مضى عليّ وعليه نحو ثلاثين عامًا فراقًا وابتعادًا. وكان أن استأنفنا أحاديثنا تلك، في شجب أنظمة الحكم الشمولي وبيان فسادها، مع علمي بأنّ هذا الصديق ينتمي إلى "تنظيم" موال للنظام وقد اختصّوه بهذه الوزارة، وأنّ صديقي القديم يشغل فيها وظيفة "مدير مكتب الوزير"!

وبصراحتي، التي تبتعد أحيانًا عن المجاملة، أخذت أروي للصديق بعض قصصي "المسيّسة" التي تنتقد ممارسات أنظمة القهر والفساد ممّا تضمّنه كتابي الصادر آنئذ بعنوان "آه، يا وطني!"، وأصواتنا في ذلك تعلو في هرج ومرج!

فجأة دخل علينا شابٌ بهيّ الطلعة أنيق رشيق، صافح، وتعارفنا، وكان، مع غضاضة عمره، هو "المستشار القانوني" في الوزارة.

ومن عجب أني، في متابعتي الحديث إياه، رأيته يشاركنا الضحك والابتهاج، حتى خيّل إليّ أننا، نحن الثلاثة، ننتمي إلى فريق واحد هو الشعب المطالب بحريته!

بعد تناول القهوة، والشاب البهيّ الطلعة يتهيّأ للمغادرة، أحبّ أن يتعرّف على رأيي، وقد رآني أستقي من السياسة أدبًا أكتبه، في شخصية سياسية ما زال يعلو صوتها في المحافل بالخطب الرنّانة من فوق المنابر الفينانة، تأييدًا متناهيًا للنظام وتغنّيًا بإنجازاته ومآثره العظيمة.

لم أنتبه لحظتها إلى أنّ صديقي قد انكمش وتوتّر، تحسّبًا لما توقّع أن أعبّر عنه من رأي. قلت إنّ فلانًا هو بالاختصار «أنموذج للمثقف المنافق الذي يُنمّق الكلام تأييدًا للنظام، وإنه بهذه الصفة سوف يدخل التاريخ من أوسع أبوابه!»... وكلاما من هذا القبيل.

بعد انصرافه، وتأكُّد صديقي من إغلاق الباب، قال لي بصوت خفيض: «أتعرف ما القرابة بين السياسي والمستشار؟»، أجبت: «ومن أين لي أن أعرف!»، قال: «هذا زوج ابنة ذاك!». فقهقهت: «الضرسان[1] يعرف ينتقي لبناته العرسان، ويضعهم في المناصب المرموقة!».

أصدقائي الأعزاء.

---

(١) كلمة ضرسان تعني: المحتال. من العامية، وتستخدم للإعجاب.

وقع هذا اللقاء العفوي قبل خمسة عشر عامًا من يوم الناس هذا. ثمّ إني علمت أنّ المستشار الشاب، بعد أن اشتدّ ساعده، أبدى اعتراضا على حميه العتيد في منهجه في العمل السياسي وانشقّ عنه... ليس لينضمّ إلى صفوفنا، نحن المقهورين المحرومين، مع طربه لما سمع مني من قصص تشكو وتشجب، ولكن ليؤسّس "تنظيمًا" مواليًا آخر.

فلوريدا، منتصف ليل الجمعة ٢٥-١٠-٢٠١٣

مع شيوع شبكات التواصل الاجتماعي

مع شيوع شبكات التواصل الاجتماعي

وانتشار الفضائيات في العالم

فإنّ النظام

يمارس العنف على هذا النطاق!

تُرى

لو أنّ هذه المخترعات ما وُجدت

ماذا كان فعل؟...

فلوريدا، صباح الأحد ٢٧-١٠-٢٠١٣

موت الشاعر "عمّار العمّارين"

في ضيق "الحاشية" بالشاعر "عمّار العمّارين"، المشاغب، كانوا يشبّهونه ساخرين بـ«النبتة الطفيليّة في الروضة الغنّاء»، وهو يعاندهم: «بل أنا... خضراء الدِّمَن!» ويقهقه.

كان يرسل الشعر في أخطاء النظام، ويطلق لسانه عليهم في مجالسه الخاصة، وكان يَمتنع

عليهم لجمُ لسانه وقمع خياله وقطعُ رزقه وأنامله، لأنه جدُّ قريب من "عظام الرقبة"! فتركوه يُغرّد خارج السِّرب، مانحين أنفسهم حقّ الادّعاء أمام الجماهير العريضة: «انظروا كم نحن نحترم حرية الرأي، والخيال... والتنفُّس!».

ذات عام، ذات خريف، مرض الشاعر عمّار العمّارين.

في التشخيص والتحليل والتخطيط تبيّن أنّ مرضه عضال. وعندما لاحظ عنايتهم به، أرسل إلى النظام قصيدة شكر، فزاد النظام من العناية، وزاد هو بأن أخذ ينوّه بالأمجاد والتاريخ العظيم المعاد!

أوفدوه بمهمّة صحية إلى ديار الغرب، فملأت قصائدُه ديوانًا. وحين عجَز الغرب المادي عن مداواته حوّلوه إلى الشرق الروحاني... وهو في ذلك يصنع الدواوين، التي تُنشر أشعارها في الدوريات، وتُسمع كلماتها أغنيات في الفضائيات.

عاتبه محبّوه، فرفع في وجوههم صوته الكليل: «ولا كلمة! إني أموت!».

تقول الحكاية: إنّ جنازة عمّار العمّارين امتدّ موكبُها امتدادًا لم يُعرف مثله في تاريخ الجنازات في البلد!

فلوريدا، مساء الأحد: ٢٧-١٠-٢٠١٣

حدثتْني الشمس

أَرِقْتُ ليلي

فجلست أرقب قدوم الشمس

من بلادي

فحدّثَتْني

بأنّ في صفقة تبادل معتقلين

كان هناك صبية

قد حُبست قبل عامين

فخرجت أمس

وعلى يمينها رضيعٌ لا تعرف أباه!

وتحجّرت في المِحْجرين الدموع

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٨-١٠-٢٠١٣

الطفل.. هنا وهناك

في المطعم، رأينا الأمّ تطلب شيئًا، فجاءها النادل بقطعة من العجين، أجل العجين! يأخذها الطفل -ابن الثالثة- ويَعرِكها بيديه حتى يجعل منها شكلاً راقَ له. يأخذ النادل العجينة المتشكّلة، ليعود بها خُبزة، صَمّونة، ساخنة ناضجة. يشرق وجه الطفل وهو يتأمّل ما صنع. عند انصرافهما ضمّت الأمّ "إبداع" طفلها إلى ما زاد من طعامها... ولم يَفُتها أن تمنحني في نهوضها ابتسامة مشرقة، فقد كانت تلاحظ فضولي واهتمامي بصنيع ابنها!

لدى عودتي إلى البيت فتحتُ، فرأيت طفلة من بلدي قد عَثر عليها وراء الحدود رجلٌ رحيم، فنشر صورتها يسأل عن أهلها!

أقول لكم قولة إنسان متألم حتى تجاوُزِ خطّ البكاء: إنّ نظامًا يقتل الكبار من أبناء وطنه، ويبعثر الصغار في كل مكان في الكرة الأرضية... جديرٌ... حقًّا... بأن يبقى في الحكم إلى الأبد!

فلوريدا، فجر الإثنين: ٢٨-١٠-٢٠١٣

الذي كان يستعير مني مصادر لأطروحته

قبل عقد من السنين كان يتردّد عليّ، يستعير مصادر تُعِينه في إعداده أطروحة الدكتوراه.

ويوم التقيت به وزيرًا، لم أتوقّع منه إجابةً على سؤالي هذا، المحرج: «هل تحدّثني، أيها الصديق، كيف ارتقيتَ إلى هذا المنصب في غضون عشر سنين، وأنا بعد ستين سنةً كتابةً لم يخطر في بال أحد منهم أن يجعل اسمي بين أعضاء هيئة تحرير مجلة من مجلاتهم».

ولكني استشففت في عينيه اتهامًا لي... بالحسد!

فلوريدا: مساء الإثنين ٢٨-١٠-٢٠١٣

عامَ أمّم الوالي الأفران

كان من حظّ مدينتي، في أعقاب "الثورة المظفّرة"، أن ولَّوا عليها رجلاً يخلو عقلُه من الحكمة[١] بمقدار ما يمتلئ قلبه بالخلل.

واتفق أن حدثتْه حاشيته بأنّ "صناعة الرغيف" في البلد رديئة، فسارع إلى "تأميم" الأفران، دون الرجوع في هذا الإجراء الجسيم إلى العاصمة، وعَهِد بإدارة الأفران إلى مَن لم تؤمِّن "الثورة" لهم بعدُ عملاً، فجاؤوا هذا المرفق غير مؤهلين، ليس لهم بالمهنة اهتمام ولا بالإدارة إلمام، يميزهم فقط أنهم ينتمون إلى الحزب الحاكم.

في أول أيام "التأميم" اكتشفوا أنّ هناك خبزًا كاسدًا. كلموا في ذلك الوالي، الذي أسرع يرسل إليهم السيارات، فجمعوا الخبز، وطافوا به في الحارات والأزقة ينادون: «يا ناس، يا

(١) هو هلال رسلان الذي عُيّن محافظاً لحلب، عقب ثورة **١٩٦٣**، وأراد أن يمعن في تطبيق تجارب الاتحاد السوفييتي في التأميم، فكانت مهزلة تأميم الأفران هذه، ثم أُوقِفت.

عالم! بكره ما فيه خبز!»، فأقبل الناس يشترون كلّ ما كسد.

هنا عمدوا إلى الإقلال من كمية الطحين المعجون، فقلّت كميات الخبز المعروض، وكان من شأن ذلك أن تزاحم الناس على الطلب، وأخذوا يقفون صفوفًا على أبواب الأفران، منذ ساعات الصباح الأولى، راضين بأن يتناولوا الخبز رديئا أو أكثر رداءة.

وأما أصحاب الأفران، فقد راجعوا أولاً الوالي، فطردهم الجلاوزةُ من أمام باب السراي شرّ طردة، على أساس أنهم رأسماليون جشعون آكلو قوت الشعب. فتوجّهوا إلى العاصمة يراجعونها، التي بدا أنه لم يكن سهلا عليها أن تأمر الوالي بالتراجع، لأنه مدعوم داخل كواليس الحزب من قبل فئة يُحسب لها حساب. إلى أن حدث يوما أنّ الحافلة، التي كانت تُقلّ المراجعين في عودتهم إلى بلدهم، انقلبت ومات كلّ من فيها، فرفع "أبو عبدو" الهاتف يقول للوالي: «كيف تؤمّم الأفران دون علمنا؟»، وأعيدت الأفران إلى الباقين أحياء من أصحابها، مسروقةً منهوبة.

واليوم، وقد مضت الخمسون على تلك السنة التي عُرفت بـ"عام تأميم الأفران"، أرى، أو ما زلت حتى الأمس القريب أرى، في العاصمة لافتة تحمل اسم ذلك "الوالي" بصفته "صاحب عمل"... ولست أدري ما إذا كان زبائنه يقفون صفوفًا على بابه، ينتظرون أن ينالوا ثمرات عمله، الجيدَ أو الرديء أو الأكثر رداءة، أم أنّ لا أحدَ يقف هناك البتّة!

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ٢٩-١٠-٢٠١٣

مُوالٍ يتّجه نحو المعارضة

بعد أن أدرك النظام أنه وصل إلى طريق مسدود، فلا ما مارسه من التنكيل والتقتيل أفاد، ولا التدمير والتهجير والتجويع والتركيع نفعت، أتراه يعمد اليوم إلى لعبة جديدة: ينتقل ذلك

المسؤول المرموق بينهم، من الموالاة إلى "المعارضة"، تلك النقلة الدراماتيكية!

هل هم يُعدّونه ليُقدَّم في "جنيف ٢" بصفته رجل المرحلة الانتقالية القادمة على نحو ما يأملون!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢٩-١٠-٢٠١٣

الرجل الذي لم يُعرف مصيره

(ق ق ج، خيالية)

خطر لـ"نظام الدولة" يومًا أن يدعو كبيرا منهم ليجاذبه أطراف الحديث رغبةً في استئلافه، فكان بينهما الحوار التالي:

ـ هل يرضيك أن أعيّنك سفيرا في العاصمة التي تختار؟

ـ لا أطيق فراق الناس الذين أحببتُهم.

ـ هل تقبل مني فيلا، تَسكنها مدى العمر وتورّثها لذرّيتك؟

ـ مرتاح في سُكنى البيتِ الذي أَلِفتُه منذ الصغر.

ـ أفي نفسك سيارة من أحدث طراز أقدّمها لك هدية؟

ـ بيني وبين سيارتي صحبة ومودّة.

ـ تريد رجالا يَسْهرون على خدمتك؟

ـ حاجاتي كلُّها مقضيّة والحمد لله.

ـ قل لي قل لي ماذا تريد إذن؟

ـ لا أريد شيئا، يا سيدي. دعوتموني فلبّيت.

ـ طيّب، اطلبْ طلبًا أيّ طلب، أستجبْ لك.

ـ إن كان الأمر كذلك، فلتكن انتخاباتٌ في البلاد يحضرها موفَدون عالميون يشهدون بنزاهتها.

تقول الحكاية: إنّ الرجل لم يُعرف مصيره منذ تلك الساعة.

فلوريدا: منتصف ليل الأربعاء ٣٠-١٠-٢٠١٣

في مطعم "ماكوتوس"

التمست قبل أيام من أصدقائي، في كلّ مكان، أنْ لا... ولكنهم بمودّاتهم غمروني!

وأمسِ أصرّت أسرتي، هنا، على أن نَمضي إلى Makotos كي ننعم بلذّتَين اثنتين، فأضمرتُ مشاعري!

كان جلوسنا حول مائدة مستطيلة، يتوسّطها -يا للعجب- فرنُ صاج، تحته كهرباء موقدة!

ابتدأ الطاهي، والقَلَنسوة البيضاء على رأسه، بأن دلق فوق الصاج نوعا من الخضرة، قضبانًا، وأخذ يُعمل فيها سكينه فرمًا. هي تُشوى، يرشّها في ذلك بسوائل وتوابل، وهو... هو يأتي بحركات رشيقة، كان من شأنها أن بعثت الابتهاج في نفوس أسرتي فضحكوا، وأنا لم أجد مكانا عندي للضحك والابتهاج!

ودلَقَ لحمًا أبيض، مما كان يسبح في الماء أو يمشي على قائمتين، يقطّعه بسكين أمام أبصارنا، يشوي، ويسكب.

وحفيدي "حمّودة"، أو ابن حفيدتي، الذي تقصّدوا أن يجعلوه بجواري، يشرح لي ويفسّر، ويعلّمني أن ألتقط لُقيماتي بالملعقة اليابانية، العودَين، وكم كان ذلك صعبًا عليّ!

كانوا قد أعلموا الطاهي بأنّ هذا هو يوم مولد ربّ الأسرة، الذي هو بالمصادفة يوم مولد ابنتي الكبرى وقد كان لي من العمر اثنان وعشرون. فجاء الطاهي باثنين من رفاق العمل، وغنّوا لناHappy birthday to you... ولكن... أية سعادة والدم يُراق؟

ولحظة نهضنا، قدّم لي الطاهي، الظريف، "عودَين" للذكرى.

كان هذا أمس، في ليلة بهيجة كان الحزن يتسلّل إليها بصمت.

فلوريدا: مساء الجمعة ١-١١-٢٠١٣

خمسون عامًا

رفضوا نَشْرَ كُتبه الجميلة في مؤسساتهم، حين وسّعوا ذلك للرفاق والهتّافة.

منَعوا عنه أن يُمثّل البلد في المؤتمرات الأدبية، وفضّلوا عليه مَن لا تصل قاماتهم إلى كتفه.

ضيّقوا عليه في وظيفته الرسمية فألجؤوه إلى تركها وهو لم يزل في عزّ الشباب.

اعتقلوه لسبب أدبيّ بحت.

خمسون عامًا مظلمة

كان فيها يتّقيهم بيد، وبالأخرى يُعبّد طريقه

وفي مجالسهم يتحدثون بأنه لا يُحسن الكتابة

بينما هو يُقارعهم بأدب يُعَرّي الظلم ويفضح الفساد

أدب تُرجم إلى لغات، ودارت عليه في الغرب أطروحات

رجل... لم ينحن لعصف الريح. فلوريدا: ضحى السبت ٢-١١-٢٠١٣

أيها "الرماديّون"

صمتُكم يقتلنا...

سوف يدينُكم التاريخ

ولن يمرّ بكم سيفُ العدالة

مرورَ الكرام.

فلوريدا ضحى الأحد ٣-١١-٢٠١٣

لو أنّ مُغَنّي الحرية بيننا

لنذكر أنه كان يُغنّي للحرية وهو يَرفُل في نعيم السلطان، موَسَّعًا عليه معزّزًا مكرّمًا. وكانت فرحة النظام بتغريده الجميل تضاهي نشوةَ الجماهير التوّاقة إلى الحرية، فكأنّ النظام كان يقول متباهيًا: انظروا كيف يغنّي شاعرٌ للحرية في ظلالي!

والظنّ أنه لو كان حيًّا بيننا اليوم لما أسرع ينحاز إلى النظام، كما فعل "عبقريّ الرواية السورية" الذي امتشق الحسام مدافعًا، ولكان المغنّي الجميل لبس "الرمادي" صامتًا ينتظر.

فلوريدا: ضحى الإثنين ٤-١١-٢٠١٣

النظام... والانتظام

في أوائل سبعينيات القرن الماضي، شاء الضابط رفعت الأسد أن يزيد في معلوماته الثقافية، فانتسب أوّلًا إلى "كلية الحقوق" بجامعة دمشق.

ومن طريف ما يُروى في ذلك أنه، لدى أدائه أول امتحاناته، جاءته الأسئلة –وهو في مكتب رئيس الجامعة– مع فنجان قهوة وكتب السنة الأولى، فقال يقرّعهم: «العمى بقلبكن!

ابعتوا لي أستاذ يدلّني أين توجد الأجوبة لهذه الأسئلة».

ويروي العماد مصطفى طلاس في مذكراته أنّ رئيس قسم التاريخ بكلية الآداب الدكتور محمد خير فارس (وهو بالمناسبة صديقي، وقد سبق أن درسنا معًا في ثانوية المأمون بحلب)، جاءه يومًا يشكو أن رفعت الأسد، طالب "قسم التاريخ" في الكلية، «يأتي مع مفرزة من الحرس إلى قاعة الامتحان، ولا أحد من المراقبين يجرؤ أن يقول له شيئًا»، وسأل: «فماذا أفعل؟»، يقول العماد طلاس في مذكراته: «قلت له: لا تفعل شيئًا، لأنه لن يعمل لديكم أستاذ تاريخ».

ويمكنني القول هنا إنّ ما لم يذكره العماد ولم يستسغ الدكتور فارس روايته لي، وقد نُمِيَ إليّ وأنا في الجامعة أشغل وظيفة "مدير الشؤون الثقافية"، أنه في مرة وجّه "مراقبٌ" في قاعة الامتحان، غِرٌّ، ملاحظةً إلى الطالب رفعت الأسد أن يلتزم الهدوء وهو لا يعرف شخصه، فكان أن ألقى الحرسُ القبض عليه، وهم لم يضربوه أو يعذبوه، بل ساقوه معصوب العينين إلى... البادية، حيث تركوه هناك في الصحراء، فأخذ يمشي على غير هدى إلى أن وجد نفسه على الحدود الأردنية، فتسلمه الأمن هناك، وتحققوا من صحة كلامه، ومكّنوه من الاتصال الهاتفي مع أهله بدمشق، وودعوه في اليوم التالي عائدًا إلى وطنه!

فلوريدا: الثلاثاء ٥-١١-٢٠١٣

لو نستعير لافروف

يخطر لي أحيانًا، ما بين الجِدّ والمزاح، وأنا ألاحظ مدى اهتمام "لافروف" بقضيتنا المصيرية:

لو أننا نستعيره منهم ليكون رئيسًا للديبلوماسية عندنا، ونعطيهم "المعلّم" بديلاً!

فنحن أجدرُ بذلك الأسمر، بالغ الحماسة كثير التصريحات، ولعلهم هم يستفيدون من

أبيض البشرة، الذي يمكِنه -وإنْ قلّ لفظُه وتهدّى حديثُه- أن يمحو بكلمةٍ منه قارّةً برمّتها من خارطة العالم.

فلوريدا: ٦-١١-٢٠١٣

هل عَمي العالم؟

يوم أُبيد، في ١٩٨٢، ثلاثةٌ وثلاثون ألفا من الأبرياء في حماة، قيل: إنّ العالم كان غافلاً أو كالغافل!

فما الحال، اليوم، وصورُ القتل والدمار تعمّ العالم، فلا يَمَسّ ذلك ذرّةً من وجدانِ مَن ظُنّ أنهم يدافعون عن حرية الإنسان، ويحترمون كرامته، ويصونون حياته؟

فلوريدا: فجر الجمعة ٨-١١-٢٠١٣

محمد الدرّة

في ذلك العام، رآها ضميرُ العالم فظيعةً أن يُقتل طفلٌ وهو في حِضن أبيه، برصاص العدو.

اليوم، بغير رصاص العدو، يُقتل أطفال، وتُغتصب نساء، وتُدمّر مدن، ويُشرّد الملايين... ويرى العالَم ذلك أمرًا عاديًّا، ولا بأس باستمراره!

فلوريدا: ضحى الخميس ٨-١١-٢٠١٣

وتدمع العين

ذات عام بعيد جدًّا، أصغيت إلى ريفيّ عريق يحدّثني، واثقًا، بأنّ مَن في عينه رَمَد، إذا ما أطال النظر إلى رأس النبع شُفِي!

قلت: وإذا تَصَبّح بالشمس عند شروقها شُفيت عيناه.

فما بالي، وأنا في مغتربي، كلما استقبلت الشمس القادمة من جهة الوطن، تدمع عيناي!

فلوريدا: فجر السبت ٩-١١-٢٠١٣

مداد البحر

يومًا قال لي مسؤول النشر في إحدى المؤسسات، الموالي، يبلغني الاعتذار: «إنّ قصص مخطوطتك متشابهةٌ كلّها في المضمون».

قلت له: «إنّ الرحلة إلى الحرية التي تتناولها هذه القصص، لو أنّ مياه البحر تحوّلت إلى مداد، لما اكتفى كتّابُ الدنيا به حديثًا عنها».

وقد استغرقتْ صحوتُه عقودًا من سنين، حتى آنَ له أن يصل إلى حيث ابتدأتُ رحلةً لا تنتهي!

فلوريدا: ظهيرة السبت ٩-١١-٢٠١٣

أعداء

ما زلنا، في الشرق، محاصرين

من غزاة يطمعون بنا

ومن طغاة تنشقّ عنهم أرضُ الوطن

على حين أنهم، هناك

بدَوا متحرِّرين من هذين اللدودَين

فانصرفوا إلى بناء حضارة

وما كان لهم أن يتوقّفوا

ونحن نلهَج بذكر الوطن المستباح

ونتغنّى بالحريّة المسلوبة

ونعود إلى أوراق قديمة

سطّرها تاريخ مجيد.

فلوريدا: الأحد ١٠-١١-٢٠١٣

المجنونان

كان بوش "مجنون حرب"...

واليوم أوباما "مجنون سلم"!

فلوريدا: الإثنين ١١-١١-٢٠١٣

الباذنجان في البلاد الباردة (٢ من ٣)

عندما قال العالم الفِلاحي الشامي "قسطوس بن لوقا البعلبكي" (من أهل القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادي)، في كتابه "الفِلاحة اليونانية" (وهو يقصد الشامية): إن زراعة الباذنجان «قَلّ أن تُفلِح في البلاد الشديدة البرد»... أقول: ربما لم يخطر في باله أنّ هناك بردًا يفوق ما في بلاد الروم (بيزنطة في زمنه، التي هي اليوم تركيا)... وقال مستدركًا: «إلا إذا زُرع بعد تمكُّن الربيع، ليدخل عليه فصلُ الصيف والهواء الحار، فيتمّ حاله».

لست أدري ما إذا كانت يد المستشرق الألماني باول كونيتش P. KUNIZSCH بين الأيدي التي ارتفعت من الباحثين، في "الندوة العالمية السادسة لتاريخ العلوم عند العرب" المنعقدة في "إمارة رأس الخيمة" أواخر العام ١٩٩٦، يرغب أصحابها في إبداء الرأي والتعليق

على بحثي "الباذنجان في التراث العربي، مشروع دراسة مقارنة"!... ولكنّ الذي أعلمه أني رأيتُني -أنا وإيّاه- ننتحي، في أثناء الاستراحة التي أعقبت تلك الجلسة، ركنا في صالون الفندق، لأستمع إليه وهو يحدّثني عن شيوع الباذنجان العربي وغيره من نتاج بلادنا المعتدلة الحرارة وبلاد الجنوب الأوروبي، في ألمانيا.

قالَ، ثمّ كتب لي بخطّ يده التي تتقن الكتابة بالعربية إتقانَه التحدّث بها، إنّ الباذنجان وبعض الخُضَر الأخرى والفواكه الآتية من بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط، كانت نادرة الوجود في ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ولكن لما تحسّنت ظروف الحياة في ألمانيا بعد الحرب، ونشطت السياحة، تعرّف السيّاح الألمان في البلدان الجنوبية على تلك الخضر والفواكه ما أدّى إلى استيرادها بكميات أكبر، فدخلت المطبخ الألماني واتخذت مكانها على الموائد! (من رسالته ٢٠-١٢-١٩٩٦ بتصرف يسير).

وللعلم، إنّ ما نقله العرب إلى الأندلس من النباتات، قد تجاوز الستين عددًا، كما أورد المؤرخ البريطاني "ويل ديورانت" في موسوعته "قصة الحضارة". أكتب من الذاكرة وليس بين يديّ مراجع وأنا في مغتربي غير القسري في بلاد الغرب، ولكني أذكر أنّ ممّا نقله الأجداد إلى الأندلس في عصورهم الزاهرة:

• النخيل، ذاك الذي أنشد فيه عبد الرحمن الداخل شعرا،

• والرمّان، الذي بعثت به إليه من بلاد الشام أُخَيَّتُه "أمُّ الأصبغ"، فاستزرعوا حبَّه وأنتجوا رمّانا شاع في أرجاء الأندلس.

فلوريدا: الثلاثاء ١٢-١١-٢٠١٣

تذكرة سفر (٣ من ٣)

قبل تقديمي بحثي في تلك الندوة المعنيّة بتاريخ العلوم عند العرب (عام ١٩٩٦)، وقبل أن أتبادل ذلك الحديث مع المستشرق الألماني في صالون الفندق في "إمارة رأس الخيمة" حول وصول الباذنجان إلى البلاد الباردة، كان حوار من نوع ما قد جرى بيني وبين رئيس اتحاد كتّابنا بدمشق!

وأصل المسألة أنّ "الباحثين"، الذين يشاركون في الندوات والمؤتمرات، يتمتّعون غالبا بالاستضافة التامّة أو ما هو قريب منها، من قِبل الدولة المضيفة، هذه التي إنْ لم تتكفّل بنفقات السفر، كان ذلك ممّا تتحمّله الوزاراتُ أو المؤسسات العلمية أو الأدبية التي ينتسب إليها الباحث في بلده.

ولما كنت منسحبًا من العمل الرسمي في وقت مبكر من عمري، فقد تراءى لي أن ألجأ إلى اتحاد الكتّاب الذي أنا فيه من المؤسسين الأوائل (١٩٦٩)، فكان أن اعتذر لي رئيسه، الذي مضى عليه عشرون سنة وهو متسنّم الرئاسة، طاف خلالها بلاد الدنيا بما تعادل مسافتُه محيط الكرة الأرضية مضروبًا بثلاث مرات، أو خمس!... أقول: اعتذَر بأن «لا سابقة عنده في ذلك»، فكتبت له: «وليس أسهل من أن تجترحوا هذه السابقة!».

في الندوة، أيها الأصدقاء، وصلت مسألتنا -نحن الذين جئنا نقدّم خلاصة الفكر "على نفقتنا الخاصة!"- إلى عِلم محتضني الندوة، فأوعزوا بتسوية الأمر ولهم الشكر.

أعترف بأنّ إشارتي الآن إلى هذه المسألة تُعدّ شيئًا صغيرًا، ولكني أعرف أنّ المعضلات الكبار تتكوّن من الأمور الصغار! وأعرف أيضًا أني لو كنت من "الموالين" لفتحوا لي خزائن الاتحاد!

فلوريدا: ١٣-١١-٢٠١٣

النصر للإصرار

ممّا اتضّح من ضعف النظام منذ البداية، أنه اندفع إلى العنف المدمّر دون التفكير في العواقب!

ومن ضعفِه، الذي تبدّى أخيرًا، أنه قام يجمع تواقيع "العاملين في الحكومة" على نوع من التأييد يظنّ أنه به يتقوّى أمام العالم... الذي يعرف جيدا أنها تواقيع المقهورين!

هذا إلى ما نُقل اليوم عن المراجع الشيعية في النجف، من أنّ ما يقع في سورية من "الاقتتال الطائفي"، بات يشكّل خطرا يتجاوز سورية إلى دول في المنطقة في مقدمتها العراق ولبنان، ما يستدعي إقامة سياسة ديمقراطية تساعد في تجاوز هذه المحنة!

وما كان هذا ليكون لولا إصرار الشعب على نوال حريته مع كلّ ما تتكبّده الملايين من التدمير والتهجير، ومن الموت بالنار، والغاز، والجوع، والمرض، والبرد، والغرق... دون الخوف، الذي بدّده في الصدور طغيانُ خمسين عجافًا.

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ١٥-١١-٢٠١٣

أحبّكم، يا أبناء حارتي

بُحّ صوتي وأنا أقول لصاحب المكتبة في حارتي بدمشق، ولمروّج الإلكترونيّات، وبائع المكيّفات، حين ألتقي بهم وهم على الرصيف يتشمّسون في الشتاء أو يتنسّمون الهواء الطلق أيام الصيف: إنّ شيخ الضاحية «دجّال دجّال!»، فكنت أراهم يبكون، مجازًا، من ألم يتراءى لي في وجوههم: كيف يصدر هذا القول عن مثقف كاتب في حقّ من يستعدّ لتحرير القدس؟

اليوم، يا أصدقائي، أعني بالأمس القريب، رفع بقّال الحيّ عقيرته صارخًا في عرض

الطريق: «والله ما حدا طلع فهمان بالحارة إلا "الأستاذ"... كان يقول... وكنا نظنّ...».

ويبكون، هذه المرة حقيقة، وهم يرون الشيخ يدير ظهره للعدوّ، ويتوجّه إلى شعبنا، يقتل، ويذبح أطفالنا بسكاكين لم يستطع إغمادها في صدور الأعداء، محتجًّا بالدفاع عن "مقامات شيعية" ظلّ أهل الشام يرعَونها على مدى التاريخ.

قد سامحتكم، يا أبناء حارتي، وأنا في دمشق، وتعانقنا واختلطت الدموع، ولا أضمر لكم غير المحبّة وأنا عنكم بعيد، فكلّنا اليوم واحد، ننشُد الحرية لشعبنا الذي طالت عنده ظلمة الليل.

فلوريدا: فجر السبت ١٦-١١-٢٠١٣

نهفة... من داخل السجن

النهفة التي ما تزال في خاطري عبر "ثلث" قرن من الزمان أني يوم أُودعتُ السجن لدواع أدبية غير سياسية، وألقَوا بي في غَيابة زنزانة منفردة... أنه جاءني يومًا جلاد منهم واقتادني معصوب العينين إلى فِناء السجن (الذي كان يسمّى "كراكول الشيخ حسن")، وهناك رفع العِصابة، فوجدت أمامي شابّاً هاشّاً باشّاً وبين يديه "آلة تصوير". صوّرني وأنا متّجه بوجهي نحوه، ثمّ سألني أن أنظر إلى هناك، والتقَط صورة جانبية.

ولأنّ المصور كان باشّ الوجه، ولأني كنت أظنني خفيف الظلّ، وكنت أعاني من وحدة أورثتني وحشة، فقد تراءى لي أن أسأله ممازحًا: «بالملوّن؟». أجاب: «نعم» واتّسعت بسمته.

قلت: «من فضلك احتفظ لي بنسخة!». وكأنما ضايق مزاحي الجلاد، فزجر: «فزْ، فزْ...» (ومعناها: يلاّ، قوم، بلا حكي!)... فقمت، عائدًا إلى زنزانتي معصوب العينين.

اليوم... أتمنى لو أحظى بتلكما الصورتين، أنشرهما في صفحتي، مستحضرًا بهما حزنًا

طفيفًا مرافقًا بالابتسام، في زمن طغت فيه الأحزان حتى عمّت كلّ مكان.

فلوريدا: مساء الأحد ١٧-١١-٢٠١٣

قدَر سورية أن تُصحِّح حُكم العسكر

لا يقول كلّ الحقيقة مَن يدّعي أنّ سوريّة هي "بلد الانقلابات" ثمّ يلوذ بالصمت! إنها بلد تصحيح الانقلابات العسكرية أيضًا.

• فبعد انقلاب العميد حسني الزعيم في ١٩٤٩، على الرئيس شكري القوتلي، قام العميد سامي الحنّاوي في العام ذاته بتصحيح الوضع وأعاد البلاد إلى الحكم الديمقراطي.

• وبعد انقلاب العقيد أديب الشيشكلي في العام ذاته، على الرئيس هاشم الأتاسي، على مرحلتين (٤٩ و٥١)، تحرّكت للتصحيح يوم ١٤ شباط ١٩٥٤، جماعةٌ من الضباط بحلب على رأسهم العقيد فيصل الأتاسي، ومكّنوا من العودة إلى الحياة الديمقراطية.

• وبعد الوحدة غير المدروسة بين سورية ومصر ١٩٥٨، التي أعَدّ لها أربعة عشر ضابطًا من وراء ظهر رئيس البلاد ومؤسساتها الدستورية، قام العميد عبد الكريم النحلاوي، يوم الثامن والعشرين من أيلول ١٩٦١، بالتصحيح، وتابعت الديمقراطية خطواتها المتعثّرة!

• إلى أن كان انقلاب اللواء زياد الحريري (آمر القطّاع الشمالي في الجبهة مع العدوّ)، صباح الثامن من آذار ١٩٦٣، هذا الذي تمخّضت عنه "تحوّلاتٌ" داخل السلطة الانقلابية، كان فيها "خطفٌ" للحكم من قِبل حِزبٍ واعتقالٌ واغتيال، أبرزُها ما أُطلق عليه "التصحيح الأول"، (فجر الثالث والعشرين من شباط ١٩٦٦، وتمّ فيه -كما أرى- القضاء على حزب البعث مع استعارة اسمه وتنظيمه)، تسلّمت في إثره الحكم فئاتٌ معينة، قبل أن يُعقِبه "تصحيح آخر" (يوم ١٦ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٠) انتهى فيه الأمر إلى الانتقال من ديكتاتورية الجماعة إلى

ديكتاتورية الفرد.

أقول: وإنّ التصحيح الأهمّ لكلّ ما جرى بعد ٦٣، قُدّر له أن يبدأ بانتفاضتين عفويّتين في آذار ٢٠١١:

إحداهما ما خطّته أنامل أطفال على حيطان درعا، وما نجم عن ذلك من إسراف في الفعل والقول، والأخرى هَبّة في "محلّة الحريقة" بدمشق، تعالى فيها هتافٌ واحد، كان مكنونا في الحناجر خلال ثمانية وأربعين من الأعوام: «الشعب السوري ما بينذلّ».

فيا أيها المنظّرون والمؤرّخون

رجاءً، عندما يخطر لكم أن تقولوا: سورية بلد الانقلابات، اذكروا أنها أيضا بلد الانتفاضات التصحيحية الحقيقية... وذلك، فيما يبدو، قدَر هذا الوطن، المستهتَرِ به من قِبل المغامرين من أبنائه، والمطموعِ به من الغرباء.

فلوريدا: فجر الأحد ١٧-١١-٢٠١٣

كلام يثير الابتهاج

كتبتُ في موقعٍ ما، قبيل أيام، أدافع عن سمعة وطني سوريّة تجاه مقولة أنه "بلد الانقلابات"، فقلت: إنه «بلد تصحيح الانقلابات أيضا»، ولم أغفل الإشارة إلى "حيطان درعا" وإلى هتاف "محلة الحريقة بدمشق"، الذي رفعَتْه إلى عَنان السماء حناجر مَن أضناهم الاضطهاد على مدى نصف قرن.

فعلّق فحيحٌ بقوله: «إنّ الديكتاتورية الفردية هي التي جعلَتْك سوريّا بكرامة وأنت في مغتربك، بعد أن كنت بلا هوية»!

وقلت: إنهم في الوطن أساؤوا إلى حريتي في نشر إبداعي حين رفضوا طباعة واحد من

كتبي، فصدر بعدئذ في بيروت بطبعات، وظهر في طبعته الخامسة في باريس مترجمًا إلى الفرنسية.

فصرخ الفحيح الحكيم: «لا تقل: إنك كاتب، وربما عالم وباحث، فتلميذ الروضة يستطيع الكتابة، فليست العبرة باليد الكاتبة بل بالعقل الكاتب»، وتمنى لو أرتقي إلى المرتبة الأولى، «ولكنك -يقول- آثرتَ التقهقر إلى المرتبة السابعة»!

وكنت لاحظت أنه يتخفّى وراء اسم غريب فيه كثير من التسامي، ففسّر: «أنا لم أختر الاسم للسترة، بل للشهرة»! واختتم: «لنا الصدر دون العالمين»!

قبل أن تضحكوا، أيها الأصدقاء، أودّ أن تسمعوا تساؤلي:

أهو غرور أودى بصاحبه إلى هذا الدرك؟

أم هي هَلْوسة أفضت به إلى الجنون؟

ويظلّ ما قاله مبهجًا للنفوس في زمن الحزن العميم!

فلوريدا: الإثنين ١٨-١١-٢٠١٣

رائحة العشب

ألقيتُ بالقلم من يدي

وأرسلت ناظري إلى البستانيّ الكهل

يمرّ بعربته

فوق الحدائق المتواصلة بين البيوت

يجزّ العشب الذي استطال في غيبته

وارتفع بفعل المطر والشمس والهواء العليل

تاركًا ما اجتزّ

حيث سقط

تعبَق منه رائحةُ الربيع

رائحة ربيع متجدّد هنا

ورائحة دمٍ مسفوح

تعُمّ الأرجاء... هناك!

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ١٩-١١-٢٠١٣

موت شاعر

يوم أُوقِفَ في "النَّظَارة"

ضجّ الشِّعرُ في عروقه

فنظم ديوانًا

روّج "الحزبُ" له

وغدت قصائده أناشيد للمناضلين

بعد أن سيطر الحزب على الحكم

وسوّى بالأرض، يومًا، مدينة مأهولة

وأقام في عَرائها فندقا شامخًا

بدا وكأنه يتوعّد: سأكرّرها!

فما نظم الشاعر في هذا بيتًا...

بالأمس

مات الشاعر

مكتئبًا

فلوريدا: منتصف ليل الثلاثاء ١٩-١١-٢٠١٣

نعم.. أجانب في سورية يقاتلون

لماذا يضاعفُ الإعلامُ الغربي اهتمامه بأخبار المقاتلين "الأجانب" في سوريّة، هؤلاء الذين يعاني الناس منهم؟ ويغُضّ الطرف عن جحافل "الأجانب" الذين يتدفّقون علينا من شرق وغرب وشمال، مدرّبين ومدجّجين، ومعبّئين بالأحقاد... حتى إنّ ذلك الطائفي يعلن من وراء حدودنا: إنْ طُلب منا ألف أرسلنا عشرة آلاف؟!

ما ذاك إلا لأنّ الغرب المنافق لا يريد لنا خيرًا.

فلوريدا: ٢١-١١-٢٠١٣

وقتٌ للتنظيف

عبْر عشرات السنين والأنظمةُ الديكتاتورية تعمل على تخريب مجتمعاتها حتى تجعلها مستنقعًا يعُجّ بالطفيليات والآفات المميتة.

وعندما يأتي الأحرار ليُصلحوا، ويطول بهم التنظيفُ والتكرير والفلترة، فإنّا نسمع أصواتا تأتي من هناك: أهذه هي الحرية التي كنتم تطلبون؟

يا أعداء الوطن والإنسانية! هل تركتم فاحشةً إلا ارتكبتموها في أيامكم السود!

أرى الآن رئيس وزراء ليبيا يعلن: سوف نعمل على نزع السلاح من الجميع، وبالقوة...

قولُ رجل تاريخي. يحيّيه كلُّ المحبّين لأوطانهم، الطامحون إلى العيش الجميل،

فلوريدا: ضحى الخميس ٢١-١١-٢٠١٣

الحبّ في زمن الكوليرا

ورد إليّ الساعة عبر الخاص من أحد الأصدقاء الأكاديميين بحلب، ما يلي:

في الامتحان المعياري للطلاب المتقدمين إلى مفاضلة الماجستير في جامعة حلب يوم أمس الخميس ورد هذا السؤال:

«الحب في زمن الكوليرا» رواية من تأليف:

١. حنا مينه

٢. عبد الرحمن منيف

٣. فاضل السباعي

٤. مارون عبود

ويضيف الصديق بأنّ الرواية من الروايات المشهورة جداً لغابرييل غارسيا ماركيز.. وقد تحوّلت لفيلم أيضاً (ا هـ)

فلوريدا: قبيل م ل الخميس ٢١-١١-٢٠١٣

وللحيطان آذان

ساعة كنت أحدّث الأكاديميّ العربي، الذي زارني في بيتي بدمشق قبل بضع سنوات، عن الأوضاع في بلدي، ابتداءً من التضييق على الحريات، ومرورًا بتولية المناصب العامة لمن ليسوا بأفضلنا، وليس انتهاءً بالفساد وما يتفرّع عنه من آفات لا حصر لها... أقول: كنت ألحَظه، وأنا

أستفيض في حديثي، يجول بناظريه في أرجاء الغرفة المكسوّةِ جدرانُها بالمكتبات، تضمّ الكتب والمصادر، وهو الأكاديمي المشهود له بالبحث والتقصّي بأعلى المستويات.

ويوم قُدّر لنا أن نتلاقى في مؤتمر علمي في إحدى المدن العربية، رأيته يختلي بي ليُسِرّ إليّ بأنه قد انتابه -وهو يصغي إليّ في ذلك المساء- خوفٌ عليّ من أن يكون "للحيطان آذان"، بقدر خوفه على نفسه بصفته مستمعًا إلى ما يَعُدّه النظام تشهيرًا وتحريضًا... وإذن، فلم يكن تجوُّل عينيه في المكان إعجابًا بما حَوَته مكتبتي من الكتب والمصادر ممّا يشتهيه قلبُ كلّ باحث!

ومع ذلك تظلّ كلمة "الحرية" صامدة في الشعار الذي يستقبل الداخلين إلى الوطن عند الحدود، والمرفوع في كل مكان.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٢-١١-٢٠١٣

الذين تقّطعت بهم السبل

يخرج السوريون من الوطن مكرهين. "السعداء" منهم يَعْبرون الحدود إلى دول الجوار ومنها يمتطون الجوّ منتشرين في كلّ بقاع الأرض.

وإذا كانت كلمةٌ وردت إليّ من صديقة في "التواصل الاجتماعي" فعلت في نفسي فعلها: «أنا لم أفتح حقيبة السفر من يوم حللت عند أبنائي، فكأنني جاهزة للعودة إلى الوطن»، فإني أوجعتُ -دون أن أدري- قلب صديقة أخرى بكلمات مني كتبتها وأنا فوق المحيط باتجاه أبنائي، فعبّرتْ لي عن أنها بكت مرارًا وهي تقرأ لي مبرّر مغادرتي الوطن: «...لم يبقَ لي في دمشق مَن إذا انتابني وجعٌ، يَمُدّ إليّ يده بكأس ماء».

أقول: ولكن أي دموع نذرِفها على السوريين الذين تقطّعت بهم السبل، فهم يجتازون الحدود تحت وابل من الرصاص، ليلتحفوا عند الوصول خِيَمًا، ويطؤوا رمالا، وتغوص

أقدامهم في الوحول، ويعانون الجوع والمرض والمخاوف التي لا تنتهي... على حين تتلقّى سوريين آخرين أرصفةُ الطرقات بكلّ ما تحمله لهم من الذلّ والمهانة وتَصِم الآخرين بالعار والشنار والسفالة والنذالة!

فلوريدا: ظهيرة السبت ٢٣-١١-٢٠١٣

أسرة محظوظة

سيطر الجيش الحرّ على الحيّ الذي تقع فيه عيادة "الدكتور سعد"، فأصبح في حكم الموت أن يجتاز "معبرَ الموت" ليصل إلى حيث يعالج أسنان الفقراء.

ولأنّ الحيّ خرج من سيطرة النظام، فقد أخذت الطائرات تقصفه فدُمّرت صيدلية شقيقه "سعيد"، وأصبحت أثرًا بعد عين.

وكانت الشقيقة "سعدية"، بعد إحالتها على التقاعد، قد غادرت مع ابنتها المهندسة "رَفاه" خوفًا إلى "الرياض"، حيث يعمل ابنها الوحيد "محمد علي" في مجال الإلكترونيات.

وبقيت الشقيقة "سَعادت"، التي لم ترزق ذرية، مع زوجها المتقاعد، في البلد، يعانيان ارتفاع الأسعار.

امتدّت أيديهم تنال من مدّخراتهم حتى قاربت النفاد. وعَلم، في الوقت المناسب، أخوهم "الدكتور مسعود"، الذي كان قد ذهب للتخصص في مدينة "ليون" الفرنسية، وتزوج وأقام. وتخلّت سعدية عن معاشاتها التقاعدية لأهلها. ووصلت الأخبار إلى ابن عمّتهم "عماد الدين" في "ميتشيغن" بأمريكا، فأرسل. وتسقّط ابنُ خالتهم "ضياء الدين" في برشلونة بإسبانيا، فبعَث.

كانوا يجتمعون في بيت أحدهم، ويجري توزيع "المستحقّات" على إيقاع قصف الطائرات،

ويكون الإنفاق في الأسواق على سماع أزيز الرصاص.

مع كلّ هذا... فهي أسرة محظوظة.

أفرادها هم غير أولئك الذين ينامون تحت الخيام ويموتون تحت إيقاع البرد والمطر، وغير الذين يقهرهم الذلّ فيموتون على أرصفة الطرقات في العواصم وفي المدن المنسيّة.

إنها... سورية الحديثة، الشرق أوسط الجديد، التي وَعَد بها الغرب والشرق، و... ما بينهما.

فلوريدا: فجر السبت ٢٣-١١-٢٠١٣

مصري... ومِصريّة...

تلك الساعة، كانت في زيارتها، في "الشقة" التي تستأجرها بالقاهرة، صديقةٌ مصرية سبق أن تعرّفتْ عليها في أحد المحافل الثقافية. وكان وعاء من بلور يجثم على الطاولة وفيه تراب قد جاءت به من وطنها المنكوب.

فجأة قُرِع الباب. وكيل صاحب الشقة جاء يطالب بالأجرة المستحقة، المتأخِّر دفعها، لتعذّر وصول العون من أهلها في سورية. وأغلظ القول: «نحن هنا مش وكالة غوث!».

في استنكار السيدة المصرية المرهفة لما سمعت، أخذت نمرة هاتف مالك سلسلة العمارات في الحي تكلمه، فصرخَ، وزمجرَ، وشتم الـ.....

لم تدمع عينا السيدة السورية، فقد جفّت الدموع في المآقي، ولكنّ دموع السيدة المصرية بلّلت وجه السورية... ثمّ هاتف منها إلى أسرتها الكبيرة بأن يتجمّعوا سكنيّا ويفرغوا بيتا لشقيقتها السورية.

سمعت بهذه الحكاية قبل أربع وعشرين ساعة، فقبض الألم على القلم، وما قدرت على

رسم حروفها لكم، أيها الأصدقاء، إلا الساعة!

فلوريدا: منتصف ليل الإثنين ٢٥-١١-٢٠١٣

ومن عبث التاريخ

ومن عبث التاريخ

أن يتّفق على أهل الشام

الغربُ

والشرق

وأحفاد مهزومي "ذي قار"

فلوريدا فجر الأربعاء ٢٧-١١-٢٠١٣

... وأُطلِقوا عند اشتعال الثورة

ليَذكُر أنصارُ النظام، الذين ما زالوا يتشكَّون ممّن يُسمَّون "التكفيريّين"، أنّ هؤلاء قد أَطلَق النظامُ سراحهم عند اشتعال الثورة، وكانوا قد لبثوا سنين في عتَمة السجون!

فلوريدا: منتصف ليل الأربعاء ٢٧-١١-٢٠١٣

سكود إلى الرقّة...

هل هناك

في العالم بأسره

مَن يتجاوز أبجديّات الإنسانيّة

فيُسمّيه "وطنيًّا"

ذلك النظام

الذي يرسل "السكود"

من مسافات بعيدة

ليقتل المواطنين

بعد منتصف الليل

وهم نيام في بيوتهم العشوائيّة!

فلوريدا فجر الخميس ٢٨-١١-٢٠١٣

تقبيل يد بوتين

قالوا: بوتين اجتو السكتة لما تقدّم منّو رئيس اتحاد الطلبة تَبَعنا وقبّل يده... لأنه مو متعوّد على هالدلال كله!

تشاهدونها في فيديو أمس الأول.

وسيدة عربية همّت بأن تقبّل بوتين من صفحة خدّه... فما مكّنها!

يا إلهي! كم هو واسعٌ البون بيننا وبين هؤلاء!

فلوريدا: ضحى الخميس ٢٨-١١-٢٠١٣

لعنة الظلام

استيقظ الطفل على إيقاع جهاز الإنذار، فوجد غرفته تسبح في العتمة. انتابه الخوف واستعصى عليه النوم، فتناول الجوّال يستنجد بأمّه.

لم تستطع الأمّ أن تبثّ الطمأنينة في نفس طفلها، الذي ولَدَته بعيدًا عن الوطن، فذهبت

إليه بشمعة، شمعة ما كان لضوئها الشاحب أن يعيد النوم إلى جفونه، فسعى إلى غرفة والديه.

فكرت الأمّ بأهلها وبمواطني بلدها هناك، وكيف يقضون الأيام المتتالية تحت الظلام، فلعنت النظام ألف مرة قبل أن تنام، ولم تستطع أن تنام.

فلوريدا: ليل الخميس ٢٨-١١-٢٠١٣

حقًّا.. إنها "مؤامرة كونيّة"

هل بات واضحًا أنّ أمريكا والغرب متّجهون إلى تسوية "نووي إيران" على حساب الشعب السوري و... لمصلحة إسرائيل؟

ولا بأس في أن ينزح السوريون

ويُشرّدون

ويُدمّر وطنهم

وتُدكّ صروحه والآثار

وتُقسّم بلادهم

وتزول دولتهم!

حقًّا... إنها "مؤامرة كونيّة"!

فلوريدا مساء السبت ٣٠-١١-٢٠١٣

العَلَم السوري... المفترى عليه

ما زال أناسٌ بيننا يندّدون بالعَلم السوري، الذي ظلّ يخفِق في سماء الوطن حقبة. والمفارقة أنّ العارفين يسمّونه "علم الاستقلال" وبعضَ مَن غابت عنهم المعرفة يسمّونه "علم

الاستعمار"!

وإذا قلّبنا صفحات التاريخ في هذا الخصوص، نجد أنّ هناك فِعلاً عَلَمًا جديرًا بأن يُنعت بهذه الصفة البغيضة، هو ذاك الذي فرضه المفوَّض السامي الفرنسي الجنرال هنري غورو بعد "معركة ميسلون" (٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٠)، علمٌ مؤلف من اللون الأزرق، يتوسّطه هلال، ويعلو زاويتَه اليسرى علمُ فرنسا!

ومعلوم أنّ الدولة المنتدبة بادرت، في هذا العام ذاته، إلى تقسيم البلاد لأربعة دويلات: دمشق وحلب وجبل العلويين وجبل الدروز. ومع الاحتجاجات الشعبية التي عمّت البلاد (وكنت أسمع وأنا طفل صغير هتاف الجماهير: «بدنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحية»)، فإنّ الوحدة عادت بين حلب ودمشق أوّلًا، وقامت جمعية تأسيسية بوضع دستور للبلاد، وفي ظلّ ذلك شُكلت لجنة برلمانية برئاسة الزعيم إبراهيم هنانو، عُهِد إليها باقتراح شكلٍ لعلم الوطن. وكان أن نصّت إحدى مواد الدستور على صفاته: أقسامه الثلاثة المتوازية، وألوانها، ووصف النجوم الحُمر الثلاثة (وقد سُمّيت "كواكب") خماسية الأشعة... وبعدئذ أفاضت الأدبيات السياسية في الحديث عن معاني هذه الأوصاف. ثمّ إنه تأتّى، لهذا العلم الوطني دمًا وروحًا، أن يخفق في سماء حلب في أول أيام العام ١٩٣٢، ورُفع بعدئذ في سماء دمشق في الحادي عشر من تموز من العام ذاته، ثمّ أصبح علم البلاد كلها بعد أن عادت في العام ١٩٣٦ دويلتا جبل العلويين وجبل الدروز إلى حضن الوطن.

وقد استمرّ المواطنون يستظلّون هذا العلم حتى يوم الوحدة بين سورية ومصر عام ١٩٥٨، حين اقتضى أن يكون للدولة الجديدة علم واحد فتمّ اعتماده. وبعد أن انفصمت عرى هذه الوحدة أعيد العلم إلى "الجمهورية العربية السورية"... إلى أن أتى الثامن من آذار ١٩٦٣، الذي ردّ علم الوحدة ولم يستردّها هي نفسها.

ألا ليتهم يعلمون ويكفّون عن إهانة العلم الذي كان يرفرف على رؤوس الجماهير يوم جلاء آخر جندي عن الوطن... واستمرّ بعد ذلك يخفق في سماء البلاد زمنًا.

فلوريدا: منتصف ليل الإثنين ٢-١٢-٢٠١٣

زهرة فلّ

لم تكن "نزهة" لي، أيها الأصدقاء، في تلك "المجموعة" الأكاديمية، عندما أودعتُ فيها أمس، خاطرتي "العَلم السوري.. المفترى عليه!"... بل كانت شيئًا آخر مختلفًا!

قلت في الخاطرة: إنّ العَلم ذاك قد وضعته بدمشق لجنةٌ برلمانية وطنية ترأسها الزعيم إبراهيم هنانو. وقد رُفع العلم أول مرة بحلب في أول أيام العام ١٩٣٢. فبادر أناسٌ في تلك المجموعة يعترضون على ما قدّمت من معلومة تاريخية، ووصموا العَلم بأنه "علم الاستعمار الفرنسي"، ثمّ لم يتراجعوا عندما ذكرت أنّ الجماهير، المحتفلة بجلاء الفرنسيين يوم السابع من نيسان ١٩٤٦، كانت تستظلّه. وقد ظلّ يرفرف في سماء البلاد إلى يوم الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨، حين استُبدل به علمٌ آخر وذلك من مقتضيات المرحلة.

وتمادى آخر فيهم يقول: حاج تحرّض هالمساكين وأنت قاعد تنظّر بعيدًا عن الوطن! ولم يتراجع عندما بيّنت أني ما زلت، منذ ستينيات القرن الماضي، أنقد في أدبي العَسْف والفساد، وأني، وأنا في مغتربي اليوم، لست إلا ضيفا زائرا عند بعض أبنائي في فلوريدا. وقد مضى عليّ هنا شهران لا أكثر!

فقالوا: لو سلّموك منصب وزير ما كنت طلعت من البلد! هنا احتفظت لنفسي بالقول بأنّ قلمًا في يد أديب نزيه يَكتب بالحبر الأسود خير من قلم يوقّع بالحبر الأخضر على معاملات ملتبسة!

وأسرف في القول أحدُهم -ومن المؤسف أنه أنثى!- حين كتب بأنّ "صرماية"[١] أي مواطن داخل الوطن أشرف من الذين يتركون البلد!

فأبديت عجبي من هذا الإسفاف، قلت: «يريدون أن يبنوا الوطن بالبذاءة... حتى الأنثى فيهم!». فلم يستحيوا، بل قال أحدهم بإسفاف أشدّ: «الأنثى فينا منارة للعلم والنور، وليست مجرد كائن للنكاح»!

قلت لكم، أيها الأصدقاء: إنها لم تكن "نزهة"، كانت اكتشافَ "طحالب" في مستنقع الوطن! وقد انتابني خوفٌ على الوطن من أن يكون هؤلاء السفهاء الثلاثة "معيدين" في تلك الكلية، أو مدرّسين، أو أساتذة! والطريف أنهم حمّلوا "الأدمن" (المشرف على المجموعة) مسؤولية أنه يتيح لي مجال القول!

وإذا الأدمن، الحرّ، يكتب في نهاية اليوم، بالحرف:

«أعتذر بشدة من حضرتكم، أستاذنا الكريم فاضل السباعي. تمّ حذف الأعضاء المزعجين وتصفية "المجموعة" من سفاهتهم. دمتَ بمقامك الرفيع في قلوبنا أيّها القدير الفاضل..».

فكتبتُ:

«عندما تكون الإدارة في كلّ مَرفِقٍ واعية ونزيهة، فإنها تستطيع أن تخفّف من الوطأة، وأن تنظّف المكان، وتعطّره أيضا. شكرا لمن لم أتشرف بمعرفته، "روان إدلبي"، على جميل حكمته. كلّ يؤدي للوطن ما يستطيع. أحيّيك».

في هذه الجولة اكتشفت، يا أصدقائي، "زهرة فلّ"، تعيد الأمل، وصل إليّ عبقها وأنا في

---

(١) حذاء.

مغتربي البعيد.

عدت من جولتي غانما.

فلوريدا: منتصف ليل الثلاثاء ٣-١٢-٢٠١٣

أيّ شقاء يحُلّ بشعب

أيّ شقاء يحُلّ بشعب

بعضُ البشر يَعُدّونه من الكافرين

وبعضٌ آخر يرونه من المرتدّين

ويُثخِن الطرفان فيه تقتيلاً وتدميرًا

متقرّبين بذلك إلى ربّ العالمين...

والعالم المنافق

يُخفي ضحكة كريهة!

فلوريدا منتصف ليل الجمعة ٦-١٢-٢٠١٣

في عهد الطفولة

في عهد الطفولة

كنت، إذا ما أصابني رَمَد

أستقبِلُ بنظري الشمسَ

وهي تتهادى في باكر الصباح

فاستردّ العافية

اليوم

وأنا في الغربة

أرنو ببصرٍ مُعافَى

إلى الشمس القادمة من بلادي

فترمَد عيناي!

فلوريدا: صباح السبت ٧-١٢-٢٠١٣

الذين بالأمس تركوا الحدود مع العدوّ

إنّ الذين بالأمس تركوا الحدود مع العدوّ

وأتَوا إلينا يذبحون أطفالنا بالسكاكين

مستعدّون لأن يذبحوا مواطنيهم عمّا قريب

فلوريدا منتصف ليل السبت ٧-١٢-٢٠١٣

اللون والكلمة.. ألم وأمل

مساء أمس، سألت ابنتي سهير كيف يتأتّى لها أن تمارس الرسم وتعطي المزيد من اللوحات تشارك بها في معارض هنا وهناك؟ وأن تتواصل، في الوقت ذاته، مع عالم "الفيس بوك"، هذا الذي يلتهم من الوقت كثيرًا وكثيرًا جدًّا؟

قالت: ساعة أشعر، وأنا في مَرسَمي، بأنّ الريشة بدأت "تتريّث" في العطاء، فإني أذهب إلى "الفيس"، أقرأ وأتأثّر وأعبّر، ثمّ أعود إلى الرسم وأنا أكثر امتلاءً!

يتعيّن عليّ أن أبيّن هنا أنّ سهير ما زالت، منذ بدء الأحداث في الوطن، تقدّم اللوحات

المعبّرة عن نبض الشارع، ألمًا وأملاً.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٩-١٢-٢٠١٣

عيد ميلاد

قالوا له: اليوم عيد ميلاد حفيدتك، هيّا!

قال لهم: ما معنى أن تحتفل أسرةٌ سوريّة بمولد طفلها، وعلى أرض الوطن هناك أطفالٌ، وأمهات... يموتون من الجوع، والبرد، والمرض، والتشرُّد، والتعذيب، والذلّ، و.....

وخَفَت صوته... حتى إنهم لم يعودوا يسمعون.

فلوريدا مساء الأحد ٨-١٢-٢٠١٣

الأطباء في حلب

جاءني من حلب أنّ المدينة وريفها قد هجرها الآلاف من الأطباء، فلم يبق منهم إلا المئات والعشرات!

مريضٌ حدّثوني عنه مضطرٌ لإجراء جراحة، فكانت ندرة الأطباء المتخصصين لا يشبهها إلا فقر كلّ ذي يد!

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٠-١٢-٢٠١٣

بعد أربع ساعات

أعترف بأني نزّلت خاطرتي المعنونة "بعد أربعين سنة" في صفحة السيدة السورية المعنيّة، التي رأيت أن أغفل اسمها تحفّظًا... وإذا هي تذيّل الخاطرة هناك بأسطر من عندها، شاءت لها أريحيّتُها أن تُغدق عليّ فيها من الصفات ما لا أستحقّ إلا بعضه القليل.

هذا إلى أنّ صديقة أخرى، هي ممّن غادروا الوطن أيضا تحت وطأة المستجدّ من الأحداث (وأتحفّظ في ذكر اسمها كذلك!)، اتفق أن كانت أول من وضع (اللايك) على الخاطرة عندي، ثمّ، بحوار بيني وبينها، حزرت من تكون السيدة المعنيّة، وزادتني معرفة بأنها كانت قد غادرت الوطن قبل نحو عشرين سنة برفقة زوجها والأبناء، واستقرّوا في كندا... فانظروا ما فعل النظام بحق أبناء الوطن!

وإلى الأصدقاء الأعزّاءِ الأسطرَ اللطيفة التي بادرت السيدة السورية «مريم نجمة» إلى كتابتها بعد سويعات من نشر الخاطرة، أنقلها إليكم على استحياء: لا أستطيع أن أجاريك، أستاذنا الجليل! فمن ذا الذي لم يقرأ أدبك ويغتني بقلمك، يا بن سورية الحبيبة؟

حقاً، يا صديقنا فاضل السباعي، حياة السوريين أفلام وقصص خيالية! يسرّني أنّ حضورك الوارف زاد صفحتي غنى وثراءً، والفضل لثورتنا البطلة اليتيمة.

مع التحية والتقدير. [الثلاثاء، الساعة الثانية ظهرًا، بتوقيت فلوريدا]

فلوريدا: ليل الثلاثاء ١٠-١٢-٢٠١٣

هل استطاع النظام

هل استطاع النظام

أن يجعل من سوريّة

البلدَ الأكثر دمارًا في العالم

في مطالع القرن الحادي والعشرين؟

فلوريدا: مساء الأربعاء ١١-١٢-١٣

مسؤول محترم

دخلت يوما إحدى الوزارات لأقابل فيها مسؤولًا لأمر ما. هتفت له "السكرتيرة" الشابة، ثمّ التمست مني الانتظار إلى أن ينصرف الضيف عنده.

فجأة دخلت "رتبةٌ عسكرية" عالية يطلب صاحبُها المقابلة، فهتفت البُنيّة ثم طلبت منه الانتظار، ولكنه ظلّ واقفا يروح ويجيء وعينه على باب المسؤول، الذي لم يكد ينفرج عن الزائر حتى أسرع متسلّلاً، فنظرتُ إلى السكرتيرة وبادلتني النظرة!

وما هي إلا هنيهة حتى عاد إلينا الضابط -وهو برتبة "عميد"- متجهّما، فدخلت السكرتيرة وعادت لتقول لي بلطف: «تفضّل!».

استقبلني المسؤول، وهو معاون وزير، بترحاب... وما ملك لسانَه من أن يخبرني بأنه فوجئ بالرجل يتوسّط الحجرة، فبيّن له أنّ المقابلة اللحظة من حق الذي ينتظر هناك، وهو "كاتب كبير" [عفوًا، هكذا شاء أن يصفني]... لذلك كانت عودة الضابط وهو متجهّم!

لم يُفرحني أنّ هذا المسؤول حافظ على حقّ لي وإن كان صغيرا، بقدر ما أثلج صدري أنّ بين أصحاب المناصب من هم على غِراره الجميل!

أعلمُ أنّ له اليوم صفحةً في "التواصل الاجتماعي"، وأنه يقرؤني... من منفاي الاختياري أقول له، وهو منذ حين يحاضر في الجامعات الجزائرية: لو أنّ أمثالك كثرٌ في البلد لما احتاج الشعب إلى ثورة تصلح الأوضاع، ولما سفكت دماء وأُهدر وطن، لأنها، الأوضاع، عندئذ تكون صالحة! وأبعث إليه بتحية.

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٤-١٢-٢٠١٣

الطفولة.. وأبجديّة الإلهام

لماذا فاض الحزنُ في القلب حتى ذرفتُ الدمع سخينًا يوم وفاة أمي، ولم يَفِضْ كذلك يوم وفاة أبي؟

ذلك أني رأيت أمي تعاني في الأسرة ظلمًا، ولم يظلمها أبي إلّا في أنه تزوج بأخرى وله من أمي ستة أطفال، ثمّ قُدّر للزوجتين أن يُظلّهما بيتٌ تحكمه حماةٌ غير عادلة... ومضى أبي في الإنجاب حتى... تسعة عشر من البنين والبنات!

هل خطَّ ذلك الماضي الطفولي الحرفَ الأول في أبجديّة الإلهام عندي، فكتبتُ -منتصرًا للمرأة- روايتي "ثمّ أزهر الحزن"، كان جلّ أبطالها نساءً متفوّقات، تلك التي دارت عليها أطروحتا ماجستير في كلّ من موسكو ووارسو، وأُعدّت مسلسلاً تلفزيونيًّا (أخطؤوا في حقه حين غيّروا اسمه إلى "البيوت أسرار")؟!

وهل كان الحرف الآخر في أبجديّتي الخاصة أن أنتصِر للعدالة، فأمضي -ولا أكفّ- في كتابة قصص أقارع فيها الظلم والظَلام، ما أثار الغضب فهمّشوني وعتّموا عليّ طَوال نصف قرن، على حين تُرجم إلى لغات بعض هذه القصص، منها "بدر الزمان"، التي نال عليها مترجمُها مؤهِّلَ الدكتوراه في مدريد ونشرها هناك كتابا بالإسبانية والعربية؟!

فلوريدا: فجر السبت ١٤-١٢-٢٠١٣

وليمـــة

ليلة أمس حضرتُ وليمة عشاء في مطعم ياباني دُعي إليها عديد من النساء والرجال، ابتدأت الوليمة ونحن على الموائد بصيحات ابتهاجٍ ترتفع كلما قام الطبّاخ برشّ سائلٍ يُلهِب ما كان رماه على سطحِ فرن يتحلّق حوله عشرة من الطاعمين، فهو يقوم بتحضير الطعام تحت

أبصارهم، وانتهت بصيحات استحسان أصدرتها النساء خاصة ساعة توزيع الهدايا.

هذا الذي حضرتُه ليلة أمس بدعوة من مؤسسة تربوية، في هذه البلدة الصغيرة التي أقيم فيها Palm Bay بفلوريدا... ذكّرني بما أعرف من أمر ولائم كانت تقام في المدينة العريقة التي اكتحلت فيها عيناي بالنور، حلب الشهباء، حيث كان الطيبون من الصناعيين يدعون عمّالهم إلى ولائم لم يكن فيها طبّاخٌ ياباني يُشعل النار في الطعام ولا صيحاتُ استحسان عند توزيع الهدايا!

كان الصناعيّ، الذي يعترف بفضل عمّاله في ازدهار صناعته، يهتمّ بأحوالهم الخاصة، عند الزواج والولادة والتهمُّم لشراء دار، يقيم لهم الولائم في الأعياد والمناسبات، فيتحلّقون حول "صدْر" (صينية كبيرة)، قد ارتفع فيه الرزّ المطبوخ بالسمن العربي، وغطّته "كراديش[١]" لحم الضان، وغشّته "القلوبات" من جوز ولوز وفستق محمّص، يأكلون حتى "يعرق السقف"، ثم يتناولون البقلاوة والقطايف التي "عليها السمن طايف"!

غاب أولئك، وحلّ محلّهم موظفو حكومة يأكلون ولا يُطعمون، إلى أن تراءت أمامي هذه العادة، هذا العُرف، يتّبعه بعضهم في هذه البلدة التي تستلقي فوق المروج السندسية وتترامى بيوتُها في ثنايا الغابات الكثيفة.

هنا... يتفنّن أصحاب الأعمال في إقامة ولائمهم قبيل أعياد الميلاد، ما بين الاكتفاء بهدايا توزّع داخل المؤسسة، أو وليمة تقام في رحابها... وأما وليمة أمس، فقد تجاوزت ذلك إلى أن أقيمت في مطعم متميّز، وُزّعت فيها الهدايا، وتلقى كلٌّ مظروفًا فيه مكافأة يتناسب مقدارها مع سنوات الخدمة.

أقامت الوليمةَ دارُ حضانة، للأطفال الرُّضّع وما فوق هذا العمر، صاحباها سوريان من

---

(١) كراديش تعني قطع اللحم أكبرها وألذها خصوصاً ما أحاط منها فقرات الظهر.

حلب: "فِرناس" وزوجته "ديمة".

هل ارتقاؤهما في الاحتفاء بمن يعملون في مؤسستهما التربوية، يعود إلى "مورّثات" حلبية، وأنا هنا أمازح قرّائي؟

هل أعرّف بهذين الشابين، أم أن شهادتي فيهما مجروحة؟

"ديمة سعود"، خريجة جامعة دمشق، أفتخر بأنها حفيدةٌ لي، من أسباطي السابقين في القدوم إلى المهجر، هي وزوجها "فِرناس" ابن صديق العمر "محمد شاهين طَلَس". وتُعدّ دار الحضانة التي أسساها قبيل عشرة أعوام، نموذجيةً بما نالت من شهادات تقدير.

السوريون والسوريات يُبدعون في كلّ مكان.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٥-١٢-٢٠١٣

ما تبقّى له

يوم دخل الوظيفة شابّا عَرف، مثلما يعرف جميع الموظفين، أنّ تلك "السكرتيرة" الجميلة هي عشيقة للسيد الوزير... وكم تمنى لو تُلقي عليه نظرة!

ثمّ دارت الأيام، وتقلّب في الوظائف العالية... إلى أن أمسى وزيرا، فما نسي أن يهتف إليها، فجاءته خائفةً ترتعد.

ولكن خاب رجاؤه حين رأى أنّ ذلك الوزير... لم يُبقِ له منها شيئًا!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٦-١٢-٢٠١٣

ووقّعتُ أني "إرهابي"

[رسالةٌ... تواصَلَ إليّ مضمونُها على دفعات، من مواطن سوري معذّب، يحدّثني فيها عن

معاناته منذ كان فتى على مقاعد الدراسة... كلّ ما لي فيها أني اختصرتُ، ووصلت الأجزاء، وقوّمت العبارة أحيانا!]

- - - - - - - - - - - - - - -

بعد المجزرة الكبرى التي وقعت في مدينة حماة عام ١٩٨٢، قمت، أنا وثلاثة من رفاق المدرسة في بلدتنا، فكتبنا بالبويا السوداء على حائط مدرستنا عبارات تُندّد بالظلم وتطالب بالحرية، ولم يكن صعبًا على السلطة أن تتعرف علينا من بقايا اللون الأسود تحت الأظافر!

عذّبَنا "الأمن" في البلدة، ثمّ ساقونا إلى "الأمن السياسي" في المدينة التي نتبعها، وانتزعوا في التعذيب أظافري أنا، لا لتنظيف ما تحتها من السواد ولكن لأنهم عرفوا أني المحرّض، ثمّ أطلقوا سراح زملائي وتأخّروا في إطلاقي خمسة أشهر.

بعد عودتي إلى المدرسة بدأت معاناة أخرى، من الملاحقة الأمنية، ومن نظرة مجتمع "يخاف حتى من خياله!". حصلتُ متأخّرا على "الثانوية"، ولم أستطع الانتساب إلى الجامعة، وذهبت إلى "خدمة العلم"، وهناك كانت المعاناة أصعب، لأنه أصبح لي عندهم "فيشة" بأني "معتقل سياسي سابق"!

بعد الخدمة هربت إلى لبنان، وعملت في مدينة "جونيه" مدة تسع سنوات متواصلة، إلى أن توفي الرئيس حافظ الأسد، فعدت في ظلّ عفو عام، وعملت في التجارة، وشعرت بالاستقرار، وتزوجت من شقيقة أحد أصدقائي ولي من العمر ٣٧ سنة.

لما بدأ "الربيع العربي" في البلاد، آذار ٢٠١١، تذكّرني "الأمن"، فاعتقلوني مرة ومرات، يجرجرونني ما بين "الأمن العسكري" و"المخابرات الجوية"، وآخرها أنهم أخذوا توقيعي على أني "إرهابي" وممّول للإرهاب أيضًا!

كان قد أصبح عندي طفلان، واشتدّ خوفي عليهما إذا ما تجدّد اعتقالي. في هذه الأثناء

عرّفني صديق على موظف في الهجرة والجوازات في إمكانه تأمين جوازات سفر للناس مهما كان وضعهم صعبا وذلك لقاء مبلغ من المال. وهكذا أصبح في يدي جواز سفر لي ولأسرتي الصغيرة، فهربت بها إلى لبنان، حيث بقيت أربعة أشهر، وبسبب الغلاء سافرت إلى مصر بوعد من أحد أصدقائي الثلاثة هناك بأن يؤمن سفري وأسرتي إلى إحدى الدول الإسكندنافية، ولكني لم ألتق به لأنه كان قد دخل السويد بطريقة مأمونة.

أنا في القاهرة منذ ثمانية أشهر، وقد نفِد رصيدي، وأعيش على المساعدات. قدمت أوراقي للجوء إلى ألمانيا، وإني أنتظر الموافقة وهي غير مضمونة.

كلّ ذلك لم يغيّر من إيماني بالحرية والديمقراطية اللتين آمنت بهما منذ الصغر.

شكرا، أستاذي الفاضل، لاهتمامك بي. وإنّ ما جعلني أكتب لك أنك صديق في "الفيس بوك" لأحد أصدقائي، وتمكنتُ من الاطلاع على ما تكتب في صفحتك من الدفاع عن حرية الإنسان، فأحببت أن أتواصل معك.

شكرا مرة ثانية لتواضعك في الإصغاء إليّ. تحيتي ومودتي وتقديري لك. ["......." القاهرة: ديسمبر/ كانون الأول ٢٠١٣]

\- - - - - - - - - - - - - - -

فلوريدا: مساء الإثنين ١٦-١٢-٢٠١٣

لا تحمل بطاقتك الشخصية

عقب وصولي إلى هذه البلاد، ويوم خرجت أنا وصهري، لأول مرة، للتريُّض سيرًا على الأقدام فوق المروج الخُضر وعلى تَخْم الغابة، تراءى لي أن أقول كالمستدرك لحظة غدونا أمام الباب: «نسيت "جواز سفري" في البيت!».

فكان جوابه وهو يبتسم: «أنت لست في بلدك، يا عمّي!».

وما كان هذا ليغيب عني... وإنما وددتُ أن أقول وأن أستمع، كي أستمتع بأني في بلد لا يأبه الأمنيّون فيه بأن يحمل كلّ مَن يمشي على أرضه بطاقته الشخصية!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٧-١٢-٢٠١٣

وكان الجاحظ مولعًا بالاسترسال

قديمًا عُرف عن أديب العربية الأكبر "الجاحظ" استرسالُه في سرديّاته الأدبية والعلمية، تلك التي استساغها العرب على طول أزمانهم، فهو إمام الناثرين!

ولكن ما بال بعض الأصدقاء، يومَ أمس، يسترسلون ويستطردون في تعليقاتهم، حول "خاطرة" (بوست) أوجزتُ فيها محنة مواطن كانت قد بدأت بانتزاع أظافره وهو في سنّ اليفاع، وما كانت المحنة لتنتهي وقد تجاوز اليوم الأربعين، أبًا لطفلين، طفلتين، مقيمين والزوجة حيث يتمنّون العيش في دولة آمنين؟

لقد انبرى بعضهم يندّد بـ"الديمقراطية" المعمول بها في بلده، مشيرًا أيضًا إلى كارثة فلسطين منذ ٦٥ سنة، وذاكرًا العراق ومصر وليبيا... ويتابعه في التنديد والشكوى آخرون، يَصِمون الديمقراطية بأنها "كذبة" اخترعها الغرب الماكر... ونسوا، خلال ذلك كله، الإشارة إلى ذلك التعس -بل رفضت واحدة منهم وضع "لايك"- المنتظرِ تحقيق الأمنية الكبيرة لأسرته الصغيرة في أن يلجؤوا إلى دولة في الغرب يستظلّون سماءها وينعمون فيها بطعم الحياة!

قد يكون ما طرحه الأصدقاء أمس صحيحًا «موضوعُه» كلّه، ولكن ليس هنا «موضعُه»، فتكون تلك التعليقات، باستفاضتها، جديرةً بأن يشكّل كلّ منها خاطرة قائمة بذاتها، تنزل في صفحاتهم، ثمّ يدور حولها حوار...

أم أنّ نشرهم في صفحتي أمرٌ يطيب لهم؟

فإن كان هذا فأهلاً بهم، مع قليل من الاسترسال... فلسنا في عصر "عمرو بن بحر الجاحظ"!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٧-١٢-٢٠١٣

مائـدة موازيـة

اعتادت الأسرة الكبيرة عند إقامتها الولائم في الدار، أن تقوم النسوة، من أمهات وبنات وكنائن، بإعداد المائدة الكبيرة، يتحلّق حولها المدعوّون، يأكلون من المناسف حتى الشِّبَع، وبعدئذ يأتي دور النساء لتناول الطعام!

الكَنّة الجديدة، عروس ابنهم الذي تخصّص في طبّ الأبدان، رفضت أن تأكل سيداتُ الدار ما يتبقّى من طعام الرجال، وإن كان كثيراً وكثيراً جدًّا، وأصرّت على ان يكون لهنّ مائدةٌ موازية!

بعض النساء استغربنَ وبعضهنّ تشوَّفنَ، وغيرُ قليل من الرجال استنكروا أن تفرض عليهم هذه الشابة "الغريبة" تغيير ما نشؤوا عليه... ولكنهم، لاعتزازهم بابنهم العائد حديثًا من ديار الغرب بتخصصه العالي، تساهلوا، لمرة!

ثمّ تكرّر الأمر، بما في ذلك أن تُفتتَح المائدتان في آن واحد.

وتملّك نسوةَ الأسرة إحساسٌ بردّ الاعتبار، والصبايا سمّينَ زوجة العمّ الجديدة "الرائدة"!

فلوريدا: ليل الأربعاء ١٨-١٢-٢٠١٣

هل بلغ الدمار... أوراقي

صديقي وتلميذي[١] الذي أودعت لديه بيتي هناك ومكتبتي يرعاهما، رأى عند الصباح أشجار النارَنْج والليمون في الحديقة منحنيةً لما تراكم فوق أغصانها من الثلج!

خرج إلى الشارع، فرأى الأشجار على الرصيفين، بعضها انحنى حتى لامست جبهتُه الأرض وبعضها انقصف.

ولـمّا عاد إلى البيت، وبينما هو وسط الحديقة، طرقت سمعَه جَلَبَةٌ غريبة، ظنّها -في زمن "السكود"- شظيّةً أتت إليه من بعيد، فوجد نفسه يرتمي على الثلج اتّقاءً. ثمّ تبيّن أنّ جانبًا من الجدار الذي يفصل عن الجيران قد انهار، لسبب قد يكون الصقيع!

ساعة تلقيت منه التوصيف والتصوير، خُيّل إليّ أنّ الدمار قد وصل إلى "وطني الصغير"، وأوشك أن يبلغ أوراقي، تلك التي سفحتُ عليها عِطر خواطري عبر عقود من السنين.

فلوريدا: منتصف ليل الخميس ١٩-١٢-٢٠١٣

سيدة سوريّة... أمام باب الفرن

نصّ كتبته إعلامية سورية، كانت قد استطاعت أن تنجو بنفسها وبأولادها الأربعة من الاقتتال بحلب، لاجئةً إلى السويد.

النصّ، وهو بالعاميّة، يفيض شعورًا بالمرارة تجاه بائع الخبز في حارتها بحلب، تتذكّره اليوم وهي هنالك، الذي لم يكن يراعي حرمةً للنساء المنتظرات على باب فرنه!

ولأنه لفَحَني ما في النصّ من رهافة في التعبير، و"تطرُّف" في التصوّر والتصوير، وسخونة

---

(١) هو الدكتور أحمد عمر، أحد محققي هذا الكتاب.

في الخواطر تشابه سخونة الرغيف المشتهى الطالع من الفرن... فقد زيَّن لي هذا أن أنقل النصّ من "العاميّة" السورية الجميلة إلى فصحى لم أتخلّ فيها عن مفردات سورية وتعابير حميمة، رغبةً مني في أن يتفهّم معاني النصّ المتصفّحون في أقطارهم.

تحيتي إلى الأديبة السورية من أصول كردية، "أمينة بريمكو"، وأنا أعلم أنها تَجِدّ في تأليف رواية حول النزيف والغربة، حيث تقيم، تتعلّم اللغة وتعمل في مدينة قريبة من... القطب الشمالي!

أيتها السوريات، أيها السوريون... ما أروعكم... سواء أكنتم تستظلّون دفء السلم، أم تعانون ويلات الحرب، فالانتماء إلى الوطن هو دائمًا سقفُكم العالي.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٢٠-١٢-٢٠١٣

- - - - - - - - - - - - - - - -

في الزيادة الديمغرافية

أذكر أني قرأت، قبل سنين بعيدة، أنّ عالمًا أمريكيا من أنصار حقوق الإنسان، زار الصين مرة ليُلقي محاضرة حول مخاطر انتشار القنابل "الذرّيّة"، وضرب مثلا بأنّ قنبلة واحدة في مقدورها أن تُبيد مدينة يقطنها مليون نسمة!

تقول الحكاية: إنّ المحاضر رأى، بعد عبارته هذه، القاعة وقد ضجّت كلّها بالضحك العريض، وكان عجبه شديدا عندما عرف أنّ مردّ الابتهاج إلى أنّ الناس هناك يرَونها أشبه بـ"نكتة" أن يموت مليون إنسان في لحظة واحدة، فذلك يخفّف من وتيرة التزايد الديمغرافي الذي منه يعانون!

أسأل اليوم: أتراه ارتفع، إلى هذه الدرجة، تنامي أعداد السكان في وطني الحبيب؟

فلوريدا: منتصف ليل السبت ٢١-١٢-٢٠١٣

في مثل هذا اليوم.. قبل ثلث قرن

كانت كلية الآداب بجامعة حلب، قد رأت أن تعقد "لقاءات" بين طلابها وبين من تختارهم من أدباء البلد. وهكذا دُعيت لأن أقف، في يوم من أيام العام ١٩٨٠ (في مدرّج المتنبي بمبنى الكلية القديم بالجامعة)، أتلقّى أسئلة الطلاب وأجيب عنها. ويقتضيني الواقع أن أشير إلى أني، قُبيل دخولي المدرّج، سألت وكيل الكلية المَعنيّ (صديقي الدكتور م.أ) إن كان ثمة مجالٌ لأن أقرأ، في ختام اللقاء، قصة كنت كتبتها حديثًا بعنوان "الأشباح". والذي أذكره أنه أكَبّ عليها قارئًا وأنا في مكتبه، ثمّ رفع رأسه يقول كالمتبرّئ: «إن أحببتَ فاقرأها... ولكن أنا لم أطّلع عليها!».

كان مثقفو البلد، في تلك الآونة، وأخصّ أعضاء النقابات العلمية (المحامين، الأطباء، المهندسين...) قد بدؤوا يرفعون أصواتهم مطالبين بإطلاق الحريات العامة، وكان "النظام" قد باشر بقمع كل المطالبين، ونظّم ما يسمّى "عملية تمشيط" في حلب خاصة، أذلَّ فيها النفوس وأهدر الكرامات حين دخل البيوت يفتّشها زاوية زاوية!

وأعترف بأن قصة "الأشباح" كانت من وحي ذاك المُناخ، وهي امتدادٌ لكثير ممّا كنت بدأت بكتابته من قصص منذ استأثر "آذار ١٩٦٣" بالسلطة، سائرًا بالبلاد نحو المجهول.

وأستطيع الزعم بأنّ إلقائي القصة على مسامع الطلاب الذين ملؤوا المدرج الكبير، بدا مؤثرًا، بدليل أنهم نهضوا واقفين عند انتهائي من قراءتها، وهم يصفقون ويطول بهم التصفيق.

ويتعيّن عليّ والحالة هذه، أن أوجز القصة، فأقول إنّ مواطنا "مثقفا" يؤخذ من بيته سويعة الفجر، وتحت التعذيب يموت! وفي "الفانتازيا" التي اتخذت منها أسلوبا لمعالجة مثل هذه

المواضيع، جَعلت روحه التي صعدت تعود شبحًا وفي اليد "هراوة" ينهال بها على الجلاوزة ضربًا وهم أمام جثمانه، هذا الذي حمله بين ذراعيه ومضى به إلى البيت، فسجّاه أمام الزوجة والأطفال، الذين بات يراهم ويسمعهم ولكنهم لا يرونه ولا يسمعون! وتقول القصة في الأخير: إنّ الشبح الذي أخذ يتردّد على السجن التقى أشباحًا آخرين، فتنظّموا وتوزعوا العمل، وجعلوا يجوبون السجون، فكلما بدأ الجلادون بتعذيب الأبرياء انهالوا هم عليهم بهراواتهم... وبعدئذ يكتب الأب لأولاده بأنّ الأشباح يفعلون هذا... «أليس على الأحياء أن يتحرّكوا؟!».

حضر اللقاء نحو عشرة من أساتذة الكلية، بينهم العميد الجديد (الدكتور أ.ر.هـ، الذي كان يومًا من طلابي في "ثانوية سيف الدولة" قبل خمسة وعشرين عامًا)[١]، ولكن كان أيضا بين الطلاب الذين حضروا "اللقاء" مَن هم عيون للحزب والنظام، فذهبوا يقولون «المحاضر سبّ السلطة!»، وعندئذ وجب القبض على "المحاضر" الى أن يثبت العكس... وهكذا بدلًا من أن أتوجه والأساتذة الذين حضروا، إلى "وليمة عشاء" أُعِدّت بإشارة من رئيس الجامعة المعين حديثا (الدكتور م.ع.ح) أُخذت إلى جهة أمنية تتبع لحسن الحظ وزارة الداخلية (وليس المخابرات العسكرية)، ولم يتخلّ عني الأساتذة بل رافقوني لعلهم "يشهدون لي" فيمتنع الاعتقال! (فيما بعد قال لي بعض "المازحين": «قد سلّموك بأيديهم الى معتقِليك!»)، والذي كان أنّ الوليمة أُلغيت وأوراق القصة صادروها!

في الاعتقال أُجري معي تحقيق يدعو للابتسام: سألني المحقق (وهو برتبة نقيب، اسمه ر.ب): «قل لي ما العلاقة بين قصتك وبين المنشور الذي وزّعه الإخوان بالجامعة ساعة إلقائك إياها؟!»، ثمّ: ما العلاقة... «مع منشور وزّعه الشيوعيون؟!»، ذلك ما جعلني أقول له: «أنت

(١) الدكتور أحمد ارحيّم هبّو. وتوفّي بعد كتابة هذه الخاطرة بستة أشهر.

تريد أن تتّهمني بأني إخواني أم شيوعي!!»... لما رويت ذلك علنًا في المؤتمر السنوي لأعضاء اتحاد الكتّاب العرب، تعالى الضحك بقدر التعجّب الذي ملأ الصدور من "جرأة" ظنّوها عندي في التعبير!

أيها الاصدقاء! من حلب إلى دمشق اقتادوني مخفورًا، وأَوْدَعوني في زنزانة منفردة في معتقل يسمى "كركول الشيخ حسن"، ودون تحقيق، وبتوسّط من نائب رئيس مجلس الشعب آنذاك صديقي (ع.ج) عند وزير الداخلية (ن.د.ن) الذي كانت لي به سابق معرفة، أطلق سراحي ولم ألبث في المعتقل غير أسبوع، ويعرف الأصدقاء أنّ «الداخل يومئذ مفقود والخارج مولود!»، كما هي الحال اليوم وفي كلّ الأيام.

وكان "دخولي" مساء يوم الإثنين (في مثل تاريخ اليوم) الثاني والعشرين من شهر كانون الأول ١٩٨٠.

فلوريدا: الأحد ٢٢-١٢-٢٠١٣

سؤال... إلى مَن يَعلم

مما قرأت في شبكة التواصل الاجتماعي أمس، مشكلة يعرضها مواطن سوري يقيم بالقاهرة، حول شقيقه في الوطن: أخي معتقل بسبب كلام قاله عن النظام وجد في جوال صديقه، ونحن منذ ثمانية أشهر لا نعرف عنه شيئًا.

قيل لنا إذا "شغلة حكي بالجوال بدّها سنة ليطالعوه"، هل صحيح هذا الكلام؟

أرجو ممن يعرف أن يعلمني.

فلوريدا: الإثنين ٢٣-١٢-٢٠١٣

في «سوق المدينة» بحلب...

ما من مرة جئت من دمشق إلى حلب مسقط الرأس إلّا تمسّحَت خطواتي بعتبات "سوق المدينة" الأثري (ثمانية أكيال طول أسواقها المتوازية والمتقاطعة)... أدخل إليه من غربيّه "باب أنطاكية"، مُصَعِّدًا حتى "سوق الخضرة"، فـ"السَّقَطيّة"، مطاعم زمنٍ غَبَر، فـ"سوق العطّارين"، تملأ أنفي رائحة التوابل، وأمرّ ببائع "الملبّس"، في دكانته التي لا تكاد تتّسع إلّا لجسده... كنت أنقُده، وأنا طفل صغير، "الفرنك" (خمسة قروش)، وآخذ منه ما أظلّ ألقَمُه طول الطريق.

ثمّ أنعطف يسارًا، نحو "الجامع الأموي"، أجوس صحنَه وأروقته، وأنا أصلّي على النبي... وكم ذا صلّيت هنا، برفقة جدّي، صلاة التراويح!

البرابرة الجُدد أحرقوا هذه الأماكن كلّها... ولكنهم عاجزون عن أن يغتالوا الذكريات الفوّاحةَ في صدور الناس!

سوف يعود البناء أعظم مما كان.

وسوف ينزل القِصاص بالقتلة والهدّامين.

فلوريدا: ليل الإثنين ٢٣-١٢-٢٠١٣

نمور... وحِمْلانٌ وديعة

في ربيع ١٩٦٨، وأنا في بيروت أتابع طباعة عمل أدبي لي، حدّثني صديق سوريّ مقيم هناك يمارس الرسم والفن التشكيلي... قال:

إنه ما زال يلتقي بعضَ "النمور" ممّن كان زئيرهم، بُعيد يوم آذار، يملأ الأسماع، وهم يخوّنون، ويصادرون الحريات، ويقبِضون الأرواح. فلما اختلفوا مع "الرفاق"، وكُتبت لهم

النجاة ملتجئين إلى لبنان الديمقراطي، رآهم -يا للعجب!- قد "تغيّروا" تغيُّرًا، حتى بدَوا أشبه بحِمْلان وديعة رضيعة، يتحدّثون بلطافة ويتودّدون بكياسة، فأوشك صديقي الطيب أن يصدّقهم ويرثي لأحوالهم، وكأنهم ما أعدموا أصحاب "١٨ تموز ١٩٦٣" في محاكمات سريعة في سجن المزّة، ولا لاحقوا المتظاهرين السلميين مطلع ١٩٦٥، ساعة احتمائهم بالجامع الأموي، بأن اقتحَموا بابَه بدبّابة وقتلوا فيه عشرات الأبرياء!

تُرى. هل يكون، في الغد القريب، مَن يستمع إلى نمور اليوم، الذين يُدحرجون "البراميل" مِن متن طائرات، قد استُخلص ثمنها من عرق أبناء الشعب، لتسقط عشوائيّا فتريق دماء أبناء الشعب الهاجعين في بيوتهم؟!

فلوريدا: الثلاثاء ٢٤-١٢-٢٠١٣

لؤي كيالي... عاشقًا

خمسة وثلاثون عاما تقّضت على رحيله، وذِكرُ لؤي كيالي لا ينقطع، والحديث عن أسلوبه المتميّز في الفنّ التشكيلي، وعمّا تأتّى له من أن يجعل "الذين يملكون" يتوجّهون إلى اللوحة الفنية الأصيلة يقتنونها لتتصدّر صالوناتهم، التي ظلت تستأثر بها سجادةٌ كاشانية أو آنية فاخرة من شغل الصين.

لم يُقدّر لـ لؤي كيالي أن يتزوج، مع أنّ الحسناوات، شاباتٍ وناضجات، كنّ يتّجهنَ إليه ويلتففنَ حوله في كلّ مكان. ويوم كان يدرس في "أكاديمية الفنون الجميلة" في روما، إذا صادفته في الطريق امرأة، تلبَس مُسُوح الراهبات أو متزيّنةً متبرّجة، صلّبتْ، يُذكّرها هذا الرجل المارّ أمامها بالمسيح، دون أن تدري أنّ هذه القامة السمهريّة قادمة من موطن بلاد الشام، مهد السيد المسيح!

هل كان انجذابهنّ إليه يبعث الزهد في نفسه؟ ولكن ما بال هذه الشابة تسترعي انتباهه وتستهويه؟

لم تكن الفتاة، القادمة من باريس، والتي كانت قد أدّت للتوّ امتحانًا لها بجامعة القاهرة، قد سمعت بالفنان لؤي كيالي (ذلك في ربيع ١٩٦٣)، وهو الذي علا صيته في بلدها وغدا نجما.

زارت معرضا له مع صويحباتها. قدّموها له: ابنة سفيرنا في باريس! رأت الجميع معجبين به، وخاصة من سمّتهم "الحريم"! تقول في مذكّراتها: «لأنه جذّاب وفنان»! وردًّا على سؤال منه أجابت بأنّ هناك "امرأة واحدة" تراها في لوحاته، «هي أمٌّ أكثر من أن تكون حبيبة أو عشيقة!». فرشقها بنظرة، وابتعد!

وبعد "ضياع" بين المعجبين والمعجبات -تقول- استوقفها عند الانصراف ليدعوها مع آخرين إلى تناول العشاء في أحد المطاعم الليلية. تقول: «ولاحظت أنه كريم، حسّاس، ضائع، يتحسّس من أي كلمة تقال، ثمّ ينساها ليعود إلى "أبعاده الغريبة والمهذّبة"».

كان ذلك هو اللقاء الأول بين ابنة السفير "الدكتور علي أسعد خانجي" وبين الفنان التشكيلي المتألق لؤي كيالي. وتعدّدت اللقاءات، يُبدي لها فيها اهتماما يختلف عما يُظهر نحو الأخريات...

بالأنوثة الفيّاضة، ووسامة الشباب، والأحاديث عن الفنّ الجميل، والصراحة الأنيقة... أثّر كلّ منهما في الآخر. تغيب عن دمشق، ثمّ تعود. ولكنها، في يوم استثنائي (الأحد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦)، يتصل بها ويدعوها لسماع فيروز.

تقول فيها عواطفُ المرأة... تكتب:

«وصلنا إلى مسرح المعرض، وأنا لابسة "تايّور غيبور" أبيض، ورأيت معظم رفيقاتي

والغَيْرة تُطلّ من أعينهنّ. ولقد بهرني تهذيبُه الرفيع، وبهرتْه -كما تصورت- عفويّتي وصراحتي. طربنا لغناء فيروز التي نحبّها كثيرا، ولكني رأيت لؤي يحبّ فيروز أكثر مما يحب صوتها، يحب حركاتها، يحب -كما قال لي- "حزنها العميق النبيل"، يحب شعرها الأسود وغطاء رأسها الأبيض، يحبها كما يحب طفلٌ أمَّه... هذا ما لاحظته ولم أستطع أن أبوح له به.

«خرجنا من المسرح، وأَقلّني بسيارة حتى البيت، وقال لي: "لا تحسبي أني لا أعرف بماذا تفكرين!"، وأشار بيده بحدّة: "لن أقول لك شيئا الآن، ولكن عمّا قريب، في هذين اليومين!"، ومضى».

لا يخفى على دارس لؤي كيالي أمران:

• أنه رسَم نفسه مرةً شبيهًا بالسيد المسيح، وإنّ الشبه -كما بيّنّا- ملحوظ على نحو ما تخيّل فنانو عصر النهضة يسوع، الطالعَ في بلادنا المقدسة.

• وأنه كثيرا ما تجلّت في لوحاته صورة الأمّ، وما يستتبعها من عطاءات الطفولة: من أطفال يرضعون الثدي، وأولاد مشرّدين يبيعون أوراق اليانصيب على قارعة الطريق أو يمتهنون مسح الأحذية.

في التعليق على الأمر الأول، أنّ ذلك كان من فناننا المبدع حدسًا وإلهامًا، وقد انتهت حياته باحتراق الجسد بدلًا من الصلب. وفي كلتا الحالتين عذابٌ أليم.

وفي تفسير الثانية أنه حُرم من أمّه طفلاً، بالانفصال بين الوالدين ومسارعة الأمّ إلى الزواج ما جعل العودة مستحيلة، فتجلّى حنين الابن إلى الأمّ في فنّه، وبَعُد في مضماره فشخّص الطفولة تَرضَع و"الوَلدنة" تتشرّد.

هل أقول في حقّ خريجة الفلسفة، "أمل خانجي" (التي تسنّى لها أن تلتحق بالسلك الديبلوماسي): إنها، وهي في مقرّ وزارة الخارجية بدمشق، قد استطاعت، خلال تداولها

الحديث مع لؤي كيالي عن هذين المعنيين، أن تَنْشدّ إلى الفنان الشاب وأن تشدّه إليها، فتَلوي عُزوفه عن الزواج، ويشرعا في تبادل الحبّ -كما الفن التشكيلي- الجميل؟

استطرادٌ صغير آخر، حول ثقافة لؤي كيالي السياسية:

كان "حزب البعث" قد سيطر منذ ١٩٦٣ على سورية، منتزِعًا الحكم من منجِز الانقلاب اللواء زياد الحريري (قائد القطّاع الشمالي للجبهة مع العدو الإسرائيلي)، وقبيل ذلك مشتّتًا جماعات الناصريين "الطيبين" (وغير المنظمين آنذاك)، الذين ما انفكّوا -منذ صباح الثامن من آذار يتوقّعون هبوط الزعيم الأسمر في مطار المزّة معلنًا عودة الحلم الجميل، هذا الذي صرخ، عند تبدّده، من هناك: «دولْ سرقوا الثورة!»!

أعترف بأنه لم يكن للفنان المبدع لؤي كيالي في السياسة بصرٌ نافذ. ولقد كان، في تردّده على المنتديات الليلية، يلتقي أؤلئك الضباطَ الشباب، الذين اعتقدوا في أيامهم الذهبية أنّ القدر قد بعثهم ليُنقذوا الأمة، فقَلَبوا، قبل أن يطيح بهم "انقلابٌ" تلا (أو "تصحيحٌ" كما سمّوه تخفيفًا)، فكان منهم مَن تشرّد، ومنهم مَن اعتُقل، ومنهم مَن صُفّي جسديًا. بعض هؤلاء أحبّوا لؤي المبدع، لأنهم رأوا في لوحاته نزولًا إلى القاع.

لم يكن لؤي بعثيًا، بل إنّ الحزب -قالوا- رفض طلب انتسابه بحجة أنه "ذو منبت برجوازي"! وقد بادَلهم الودّ حتى قيل، أيضًا: إنهم لمّحوا له إلى إمكان أن يكون يومًا "وزيرًا للثقافة"... وذلك ما أثار الحفيظة وحسد مَن هم في منزلة الأنداد -وقليلٌ ما هم- وأخذوا يكيدون له كيدًا!

ولعلني لا أبعُد عن الحقيقة إذا زعمت أنهم استطاعوا أن يؤثّروا في قلبه الطفولي وإبداعه الباذخ ومكانته العالية، فكسَروه، واقعًا فريسةً لذلك المرض الذي يصيب "النفس" فيَصدَعُها كما تفعل الصدمة في آنية الكريستال... أعني الفُصام (شيزوفرينيا).

أقول: كنت قد التحقت بوظيفتي الرسمية بدمشق (منتقلاً من مدينتي حلب، التي هي مدينة لؤي) في شهر شباط ١٩٦٦، ونزلت في بيته، بيت نسيبي عمّي "حسين إسحاق الكيالي، أبو لؤي". بدأت ألحظ في تصرفات لؤي ما ينُمّ... ولكني، بعد أن سكنت في صيف ذلك العام وبالمصادفة في بيت قريب جدًّا من بيته في "حي العفيف"، بدأت تلوح لي عوارض متزامنة مع نمو عواطف الحبّ بينه وبين الديبلوماسية الشابة "أمل خانجي".

في مذكّراتها، التي قدّمت إليّ نسختها الخطيّة الفريدة (بعد عشرين عامًا، وعلى وجه التحديد في ١٩٨٦)، روت أمل حكاية هذا الحبّ يومًا بيوم، بدقة أنثى محبّة وبشاعريةٍ رفيعة المستوى (وهي تكتب الشعر المنثور، وأصدرت في ذلك قبل سنوات ديوانًا)... كشفت في هذه الأوراق عن تفاصيل مرهفة لما كان بينها وبين لؤي من لقاءات، في بيت أسرتها (غربيَّ المالكي) وفي المنتديات الليلية.

لقد تبيّن للفتاة، مثلما اكتشف والداها، غرابةٌ في التصرفات. من ذلك أنه جاءها يومًا يقول: «هناك أمر ربما لا تعرفينه عني، إني إنسان "متقلِّب"، وأخشى أَلّا أُسعدك! [.....] أنت امرأة غيور، وأنا متقلّب.. لذا علينا أن نتزوج غدًا، بشكل سريع، نذهب "خْطِيفة"».

في البدء -تقول أمل- «ظننتُه يمزح، ولكنه أخذ يتكلم بحدّة: "أريد منك أن تفعلي هذا من أجلي"، قلت: "لماذا خْطيفة إذا كان والدي لا يمانع؟"، قال: "كي أرى إلى أي مدى أنت مستعدّة للتضحية!"... ورجعتُ إلى البيت أبكي!».

ودعوني أذكر هنا، ما كنت أوردته في محاضرتي "لؤي كيالي - المأساة" ("النادي العربي بدمشق"، مساء ٢٤-٤-١٩٧٩)، من أني تلقيت، فجر يوم من تلك الأيام العصيبة، مكالمة هاتفية من عمّي، أبيه، يلتمس مني أن آتي إليهم فورًا فإنّ ابنه يريد لقائي. وهناك رأيته متكوّمًا في سرير، في غرفة داخلية (غير مرسمه الرحيب المطلّ على رصيف الشارع، الذي اعتاد المبيت

فيه)، قال وكأنه يُفضي إليّ بسرّ: «إنهم يريدون أن يقتلوني!»... فأدركت أنّ الصَّدْعَ قد بلغ الأعماق!

تحت وطأة هذه الخواطر والأحاسيس أنجَزَ لؤي لوحات لمعرض موعود، رسمها بالفحم، وعلى ورق، كبيرة، تمثّل مشاهد قتل واحتراب، وسمّى المعرض "في سبيل القضية"، افتُتح في المركز الثقافي بأبو رمانة يوم الرابع والعشرين من نيسان ١٩٦٧ (قبل نكسة حزيران، وليس صحيحًا ما أشيع من أنّ النكسة هي التي صَدَعته). فانتهزها الشانئون المغرضون فرصة وشنّوا على فنّه الجديد حملة ندّدوا فيها بالمعرض، وفي نَدْوة أقيمت في ظلّه بالمركز، هاجموه لأنه... لم يُحسن توصيف "الاشتراكية" المجيدة، وكتبوا في صحفهم مقالات كان مما ورد فيها: «رسّام كِلاب السِّفارات يدعونا للدفاع عن القضية»، «أنا رفعتُ لؤي وأنا سأسقطه»، «لؤي البهلوان»... وغير ذلك مما أملى عليّ التشكيليُّ غازي الخالدي، الذي كان ناصَبَه العداء ثم غيّر بعد الرحيل.

بعد ذلك اليوم دخلتُ مرسمه على حين غِرّة، فرأيته يمزّق لوحات معرضه "في سبيل القضية" ومجموعة لوحات "الإنسان في الساح"! اعترضت، هجمت، أمسكت يديه... وهو يتابع التمزيق (وليس الحرق، كما أشاعوا!)... ومنحني بعد إلحاح لوحة، غير ممهورة بتوقيعه، هي إحدى مسوّدات "الإنسان في الساح" المنفّذة بالحبر الصيني!

ثم توالت الحوادث والأحداثُ. صحبناه مرتين إلى "مستشفى رأس بيروت" للمعالجة بعناية الدكتور المتخصص علاء الدين الدروبي (صديق العم الدكتور طه إسحاق الكيالي بحلب)، فكان يتماثل ثمّ ينتكس: إنها آنية الكريستال المصدوعة! وعولج بعد اليأس في حلب. استأنف الرسم، وتوقف، ثمّ عاود، وأبدع إبداعًا عاليا... إلى أن توقف فيه نبضُ الفنّ ونبض الحياة معا، محترقًا في فراشه، منتقلاً إلى جوار ربّه ضحى الثلاثاء السادس والعشرين من شهر

كانون الأول ١٩٧٨، في مستشفى حرستا العسكري القريب من دمشق... (وإنّ عندي ما يستحقّ الكتابة والقراءة في ظروف احتراقه، مختلفًا عن كلّ ما هو شائع!).

وأما الحبيبة المفجوعة، فقد اختتمت مذكراتها... تقول في يوم ١٣ حزيران ١٩٦٧:

«ذهبت أنا وأمي إلى بيته لزيارة شقيقته المريضة، ولكن في الحقيقة كان هو المريض.

«لأول مرة أراه، وهو شاحب الوجه، مرهقًا، وكان مهذّبًا كعادته، باردَ التهذيب، صامتًا لا يتكلم، حتى كأنه غير موجود! [.....] وعندما أوشكنا أن نذهب، طلب من أخته أن تُقدِّم لنا "عصير البرتقال".

«وساعة الوداع قال لي: "أنت، يا أمل، لست كباقي النساء، أنت فوق البشر!".

«لدى سماعي هذا الكلام أحسست أني أُودِّعه، أتركه لعالمه.. إنه ليس هنا.. حتى جسده بدأ يتبدّد، نَحِلَ، فكأنّ جسده ليس ملكه.. وكأنّ صوته لم يعد له.. أو كأنّ هذا الرجل نزل بالغلط إلى هذا العالم.. هو منّا وليس منّا.. له التهذيب، والكرم، والحساسيّة، والشفافيّة...».

ثمّ تقول: «ومرّت الأيام..... رأيته في حلب جالساً في مقهى صغير، مررت من أمامه، لم يرني، لم يكن يرى أحدا. خرج من المقهى، نظر إليّ طويلاً، ثم مضى».

وتقول أخيرًا:

«أحببتُ لؤي كيالي كإنسان، ولم أحبّه كرجل.. لا أدري لماذا؟ ليس لأنه ليس رجلاً، فكلّه رجولة وكرم ونبل.. ولكن لأنّ صفة الإنسانية تُعمينا عن رؤية شيء آخر فيه غير إنسانيته.

«أحببتُه كإنسان، ربما لأنّ الحبّ هو أيضًا جسد.. ومع لؤي كلّ شيء يصبح روحًا، روحًا خالصة.. شيئًا غير ملموس، متناثرًا، صعبَ المنال، غريبَ الأبعاد!

«لؤي أيضا أحبّني كإنسانة أكثر ممّا أحبّني كأُنثى.. لذا لم نستطع أن نتزوج!

«كان بيننا شيءٌ مشترك، شفافيّةٌ وروحانيّة قتَلَتا الشهوانيّة المستحكِمة في الإنسان.. كان يشدّني إلى أفكاره وليس إلى ذراعيه.. كانت عيوننا هي التي تتلاقى وليست أيدينا! لذلك لم أحس غَيرةً عليه وأنا الغَيور.. كان يُشعرني وأنا معه بأنْ ليس في الدنيا امرأةٌ غيري.

«أُعجبت به كما لم أُعجب بأحد.. أُعجبت بفنّه وألوانه.. أحببت الصمت في ألوانه، أُصغي إلى همسها في اللوحة، وأفهم لغتها.

«لم يستطع لؤي أن يرسِمني أبدًا.. حاول.. قال لي: "من الصعب وضعُك في لوحة.. أنت تخرجين منها.. من الصعب حصرك في لوحة!".

وتختتم: «في بُعدِك، يا لؤي، زدتَ لؤلؤةً في بحر أحزاني. أذكرك دائمًا، وأبكي عليك».

وقد تزوجت أمل، ولم أعلم أنها سعدت في زواجها. وانتقل الزوج إلى رحمته تعالى، ولها منه بنت متألقة، "لمى"، ديبلوماسية تدير، في أيامنا هذه، البعثة الديبلوماسية السورية في برلين بصفة قائمة بالأعمال بالنيابة.

دمشق الشام: الثلاثاء ١٤-٥-٢٠١٣

- -

بعد أن نُشرت المقالة بجريدة "السفير" اللبنانية (عدد الجمعة ٣١ أيار/ مايو ٢٠١٣ – الملحق الثقافي)، جرى اتصال هاتفي بيني وبين الابنة الديبلوماسية لمى الخاني في مكان إقامتها في برلين، فوجئت فيه بأن أمل الخانجي، العاشقة المعشوقة، قد وافتها المنية في برلين يوم ٢٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٢٠١٢، وأنها وُوريت الثرى هناك. يرحمها الله.

فلوريدا: فجر الخميس ٢٦-١٢-٢٠١٣

موت على الأرض... موت في المنام

صديقة في شبكة التواصل الاجتماعي، قصّت عليّ أمس، في الخاص، "رؤيا" ما تزال تعتادُها، بصور وأشكال... وهذا آخر ما تراءى لها:

رأيت كما يرى النائم أني في سيارة برفقة زوجي.

فجأة انهمرت علينا القذائف. أصابتني شظيّة. فشعرت أني غبت عن الوعي، أسمع ما يدور حولي ولا أقوى على الكلام. وخيط دافئ، من دم، أحسسته يسيل على عنقي. ناداني زوجي، لم أستطع الردّ. أدركت أني أموت، ونطقتُ بالشهادة في قلبي.

واستيقظت، أتحسّس عنقي.

لما قرأتُ هذا ارتفعتْ يدي تتحسّس موضع القلب، الذي انهمرت فيه خيوطٌ مثل زخّ المطر.

لماذا تعتادنا، نحن السوريين، هذه الأحلام؟

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٧-١٢-٢٠١٣

البراميل.. براميلهم

واحد منهم نطق اليوم:

«البراميل براميلنا، والأرض أرضنا، منكبّن وين ما بدنا، ومنفجّرُن إيمت ما بدنا... واللي ما بيعجبو لا يعجبو»!

أسأل ذوي العقول: بربّكم، هل هذا كلام يصدر عمّن يملك ذرة من إنسانية، أو قَتْرة من وطنية؟! أم أنّ القائل مختلّ العقل، مأفون مجنون؟!

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ٢٧-١٢-٢٠١٣

بالحرف العربي

ما زالت، منذ حلّت مع أهلها في هذه المدينة البعيدة، ترافق أمّها عند ذهابها للتسوّق من المخازن الكبيرة، يبهرها ما تراه من المعروضات الزاهية والكثيرة.

ويوم صحبتْها أمُّها إلى ذلك المحلّ الصغير، وقرأت عن بُعد اللافتة المكتوبة بالحرف العربي، أحسّت أنها تتنفّس الصُّعداء... ثمّ راحت تقرأ بمتعة كبيرة ما كُتب على العُبوات من كلمات مثل: زيتون، مخلّل، طحينة، يَبرَق[١]، مَكْدوس...

على الرصيف، وهي تشارك أمّها في حمل الأكياس الصغيرة، قالت بصوت يقطر عذوبة: كم أنا سعيدة اليوم، يا أمي!

فلوريدا: فجر السبت ٢٨-١٢-٢٠١٣

في الغابة.. تحت المطر

ذهب الصغار إلى المرج يلعبون الريشة، وبعضهم توجّه إلى حيث الرمل يبنون به البيوت، وأشجارُ الغابة تشهد وتترنّح من ابتهاج.

فجأة قصف الرعد، ونزل المطر. لم يأبه به الصغار، فمطر الغابات يمرّ أحيانًا سحاباتٍ عابرة. فلما تحوّل إلى وابل، جمعوا أشياءهم الصغيرة وعادوا إلى أهليهم، مبلّلين وهم يضحكون ويقهقهون.... فلما كفّ عادوا.

والكبار... يتحلّقون تحت سقف المنتجع، يلعبون الورق، ويُؤرْكِلون، وبعض النسوة

---

(١) اليبرق هو محشي ورق العنب بالأرز واللحم المفروم والمطيبات والبهارات.

يرمينَ الوَدَعَ في لعبة "البَرْجيس".

وهو في ركنه يفكر: هنا المطر يُثير فرح الأولاد، وهناك تعوم فُرُشُهم فوق مياه الأمطار... والثلج يهدِم الخيام.

فلوريدا: ليل السبت ٢٨-١٢-٢٠١٣

سماء الوطن

كتبتْ لي على الخاص، تقول: بدي أحكيلك حكاية...

عندما كنت صغيرة، كنت أحلم بأن أحظى بغرفة لها نافذة في سقفها... نعم، في سقفها فتحة سماوية أرقب منها النجوم وأنا مستلقية في سريري.

كَبِرْتُ وكَبُر الحلم داخلي، لكنه لم يتحقّق.

حاولت أن أعوّض عن ذلك بأن اشتريت بعض النجمات التي تضيء قليلاً عندما نطفئ ضوء المصباح بحيث تحتفظ ببعض الطاقة داخلها. علّقتها في سقف غرفتي، وكنت أرقُبها كلّ ليلة قبل النوم، أكلّمها مثل صديقة.

اليوم، وأنا في الغربة، لا أملك سقفا فيه فتحة أرعى فيها النجوم، ولا نجمات صغيرة أعلّقها في سقف غرفتي، لا ولا أحدّث أحدًا في لياليّ الطويلة...

وحدي في سريري، في غرفتي المعتمة... أتأمل اللاشيء... أفكر في كلّ شيء...

وأشتاق لسقف منزلي...

أشتاق لكِ، يا سماء وطني! [".....". دبي: صباح الأحد ٢٩-١٢-٢٠١٣].

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٩-١٢-٢٠١٣

"تكفيريّة"... تكفّرنا

ليس يدري أحدٌ ما ينفع أن يرفع مسلمٌ أو مسلمة، الصوت عشية عيد ميلاد السيد المسيح، معلنًا أنّ «كلّ مسلم يقول: إنّ اليوم هو ميلاد المسيح عليه السلام قد كفر...»، وينادي الصوت، وهو لامرأة مسلمة: «أيها المسلمون عن وراثة، قبّحَ الله سعيكم وأنتم تروّجون أنه عيد ميلاد نبيّ، وأبشّركم بالعذاب القادم بما أنتم فاعلون»!

قبل مدة كانت هذه السيدة قد تمنّت لي «أن أكون بخير وسط الأوضاع التي تعيشها سورية»، فعمدت إلى أن أنشر في صفحتها "خاطرة" لي كنت كتبتها "وأنا فوق المحيط الأطلسي باتجاه الغرب"، فعرفت مقر إقامتي، مستحسنةً ما في كلمتي من معنى، وأضافت معتدّة: «ولا أجاملك، [خضت] واقعًا لا يراه الجميع»!

ثمّ إني نشرت بالأمس كلمة -أعتقد أنها إنسانية وحضارية- أنّ «التاريخ كَتَب لنا، والجغرافيا، أن نعيش معا. لا نملك تجاهكم، أيها المسيحيون، سوى المحبّة».

وإذا السيدة تندّد بالدين المسيحي تنديدًا، وتُسرف في التهجّم على المسيحيين في كلّ مكان في العالم! فالتمست منها أن تُفرّق بين "مسيحيّي بلدنا" وبين "الغرب المسيحي"، هذا الذي -أقول الآن- نعرف مقدار انحيازه إلى اليهود، بأن سعى إلى إقامة دولة إسرائيل، ثمّ أعقبها بالأمس القريب بمحاولته تقسيم "بابل" بلد السَّبْي تاريخيّا (العراق اليوم) إلى دويلات، متوقّعين -أعني "المحافظين الجدد" في الولايات المتحدة الأمريكية الذين تتعزّز مواقعهم- أن تقع في فلسطين "حرب مجدو" (حسب رؤيا يوحنا!)، فتُسفر عن موت مئة مليون إنسان (هم من العرب المسلمين فيما يبدو)، وبعدئذ ينزل المسيح ويتنصّر اليهود في إسرائيل، ويسود العالمَ السلام!

نعرف هذا كلّه... ولكنّا نفرّق بين "سياسات الغرب المراوغة" وبين "مناخ العدل الاجتماعي"، البعيد بطبيعة الحال عن الكمال، هذا الذي يتمنّى "الآخرُ" العيشَ في ظلّهم، مهاجرًا إليهم بالطرق القانونية، أو سابحًا البحر في اتجاههم، معتليًا الأمواج فاقدًا روحه أحيانا، للوصول إلى ما يعتقد أنه بلد الرزق الوفير والحرية المرجوّة!

ولقد رأيت السيدة تشتطّ في القول، موزّعةً الاتهامات، ولم تنفع مناشدتي لها بالتحلّي بالموضوعية والإنصاف، محاسنًا لها القول: «كفّي من فضلك، ولن أحذفك احترامًا»، وتمادت حتى تعرّضت للسوريات الحرائر، غير مفرّقة بين "الضحايا" منهنّ وبين "نساء المسؤولين" اللواتي كنّ أقمن منذ قريب احتفالا حسَبتْه السيدة على الضحايا، قائلةً: «ورأيناهنّ يحتفلنَ ويفرحنَ لموت أطفال مشرّدين»، وتدعو علينا نحن معاشر السوريين المرزّئين: «خرّب الله أماكنكم حتى لا ترحمكم الأرض والسماء»!!

وقد رأيناها تتباهى، في مواجهة من يجاورها من الأصدقاء، بما تملكه هي وأضرابُها من "العقل النيّر والفكر الحصيف"... تقول لأحدهم: «يلزمك آلاف السنين الضوئية لتصل لما نحن فيه»، فأصبح لزامًا عليّ أن أحذفها مرتاحًا ومُريحًا.

إنه لمن مفارقات الزمان: أن يرانا النظامُ "تكفيريّين"، وأن ترى فينا هذه السيدة "كفّارًا" لا يستحقون رحمةً من الأرض والسماء!

وإنما أقدّم لكم، أيها الأصدقاء، هنا مثالًا صارخًا على ما يكشف عنه الفيس بوك من "جنون عظمة"... قِوامه النَّزَقُ والحُمق والخَرَق.

وكلّ عيد ميلاد وأنتم بخير.

فلوريدا: مساء الإثنين ٣٠-١٢-٢٠١٣

الجزء الثالث

٢٠١٤

ستة أعوام قبل الرحيل...

ويرحل عامٌ آخر

وأمضي بعيدًا

ليس نجاةً بالنفس

ولكنْ لافتقادي الأهل حولي

حاملاً على كتفي

حقيبة أحزاني

وأقلامًا لا يجِفّ مدادُها

وبقايا عُمُر

وأحلامًا في الحريّة...

ما زلت أرعاها

منذ خمسين من الأعوام!

فلوريدا: ليل ٣١-١٢-٢٠١٣

في حفلة رأس السنة

لم يسبق أن وطئت قدماها هذا المكان، ونديف الثلج في الخارج، وفيروز تعلن: «تلج، تلج... عمّ تشتّي الدنيا تلج»، وذراعه تعانق خصرها. كانت قد كتبت أمس له: «لو تعلم كم ذا يقودني حبُّك إلى برّ الأمان»

لبست له الفستان الأسود السابغ، وأسدلت من شعرها العاتم، خُصَلاً على الصدر، وألقت ما سواها إلى ظهرها.

لمحت في عيون المجتمع المخمليّ، الذي يقودها إليه، إعجابًا تَشوبه الغَيرة... أهي "سندريلا" في هذا الوقت، لكن دون أن تفقد شيئًا ممّا تلبس؟

قالت له، كتبتْ له: «كنت أحلم قبل أن أعرفك، لو أني طير من الجوارح يحلّق عاليًا، فلمّا عرفتك تحوّل الحلم إلى أن أكون يمامة تنعم بدفء حنانك». وبعثت إليه بالرسالة. كانت فيها جريئة، كانت مرهفة!

دعاها إلى الرقص، يطوي به آخر صفحةٍ، آخر ساعة، من العام الذي يتأهّب للرحيل، ثمّ أخذها من ساعدها إلى تلك الشرفة المزجّجة. استجاب لجرأتها: «أعتذر، أنا الجامعية الصغيرة، منك أنت الذي توشك أن تصبح في الجامعة أستاذًا. لم أعد أقوى على الصمت. ينطفئ صوتي لحظة أراك، وتتوهّج الحروف حين أمسك القلم بأناملي.

أعترف لك، يا سيدي، بأني أحببتك من أعماق أعماقي! »... سعيدة هي بأن أدّت الرسالةُ رسالتها!

في الشرفة أخذ كفَّها، فنامت في كفّه.

قال.....

قالت.....

وفيروز ما زالت تعلن "الشتويّة"!

***

فجأة... عمَّ غرفتَها نور الشمس الوضّاء، يعانق وجهَها. لا ثلج ممّا تدعو له الأغنية!

نهضت. فتحت النافذة، استنشقت هواء عليلاً باردًا.

ثمّ... مرّت بنظرها على القلم الذي رمته فوق الأوراق. لم تكتمل الرسالة. قرأت آخر ما

خطّته: «امنحْني، يا سيدي، شرف ألّا تعارض حبّي، وليس يَضيرني أنك لست لي».

وبتصميم حدّثت نفسها: سوف أجدّد الرسالة، وأُغْنيها بالمعاني، وأبعث بها إليه حتى إن كان في آخر الدنيا!

فلوريدا: صباح الأربعاء أول أيام عام ٢٠١٤

قصص.. سيّئة السمعة!

يوم اقتادوني، في مساء بارد، إلى الاعتقال، ثمّ حملوني إلى مكتب رئيسهم فيما كان يسمّى "كراكول[١] الشيخ حسن" بدمشق، حيث قاموا بتجريدي من كلّ ما اعتقدوا أنه مجلبة للانتحار(!)، كان ممّا صادروه مني كتابٌ من تأليفي يتضمّن قصصا "سيّئة السمعة" بشدّتها على النظام، فجعلت أحدّث النفس- وأنا في الزنزانة المنفردة- فأقول: غدًا يَعُدّون الكتاب دليل إدانة آخر!

الذي وقع أنّ اعتقالي لم يطل، فلم يكن الباعث سياسيًّا بل أدبيّا. وما نسيت، يوم إطلاق سراحي، أن أطلب الكتاب، فرأيت المسؤول يتلكّأ قبل أن يفتح الدرج ويناولني إيّاه. ومن عجبٍ أنه أخذ يُبدي إعجابه بالأسلوب الفني الذي اتّخذتُه في صَوْغ تلك القصص الخمس عشرة، وكلّها تَدين الاعتقال وتعذيب سجناء الرأي حتى الموت!... كان طالبًا بكلية الآداب، لم تفسده "المهنة" حتى ذلك اليوم!

عنوان الكتاب «حزن حتى الموت»، وهو ما كان "عبقريّ القصة السورية! "، المسؤولُ عن النشر في اتحاد الكتّاب العرب يومذاك، حرص على أن يَحُول دون صدوره ضمن منشورات

---

(١) كلمة تركية تعني مخفر الشرطة.

الاتحاد... هذا الكاتب (ز. ت)، الذي يضع نفسه اليوم في صفوف المعارضة!

وأما الكتاب فقد صدر بعدئذ بثلاث طبعات في بيروت، والرابعة في الدار التي أسّستُها بدمشق لنشر أعمالي، وكان إصداره الخامس في باريس مترجمًا إلى اللغة الفرنسية.

فلوريدا: مساء الخميس ٢-١-٢٠١٤

ويسألونه أين تعلّمت الرماية!

مواطن في سنّ الكهولة، تُراوده الذكريات وهو خارج الوطن. فيتحدّث:

عندما كنا طلابًا في الجامعة كان بين المقررات المفروضة علينا "التدريب العسكري الجامعي"، وفيه نتدرّب على حمل السلاح. وكان الطالب، الذي يأتي في الرماية بنتائج جيدة، يختفي في مساء ذلك اليوم، يسألونه: أين تعلمت الرمي؟!

فأصبحنا نرمي عشوائيّا تجنّبًا للمساءلة والتحقيق، حتى إنّ بعضنا كان يُصوّب إلى "دريئة" زميل له يكون بينهما ثارات!

نظام يجعل مواطنيه يتصنّعون الغباء!

"خ. ض. د. "، سويسرا، صباح الجمعة ٣-١-٢٠١٤

فلوريدا: مساء الجمعة ٣-١-٢٠١٤

يوم تغيّر الحال!

ذات يوم جاءني بعض أصدقائي يلتمسون مني أن أكلّم مدير ثانوية الحيّ، هذا الذي يعرفون أنه صديق لي قديم، وأنّ لي عليه دالّة. والذي دفعهم إلى التماس هذه الوساطة أنّ مدرسين عند الرجل جرَوا على أن يعاملوا بالجَور وقلة الإنصاف بعضَ الطلاب ممّن يعرفون

أنّ آباءهم غيرُ موالين، فهم يُكسِّرون درجاتهم العلمية، ويَكسِرون خواطرهم ومعنوياتهم بالبهدلة أمام زملائهم الطلاب والإداريين والأَذَنة!

ومع ضعف حيلتي في التوسّط بهذه الأمور، وفي ألمي لما وصل إليه الحال، فإني تناولت سماعة الهاتف أكلّم مَن قد ظنّوه صديق العمر.

الذي فاجأني أنّ الصديق يخبرني، هكذا، أنّ "تعليماً" قد صدر ليلة أمس وتبلّغوه الساعة، يمنع كلّ ألوان التحيّز والتعسّف والإهانة والتحقير، وأنّ الحقّ والعدل سيأخذان منذ اليوم مسارهما الصحيح، فالجميع أبناء لهذا الوطن الحبيب!

هنا سألت أبناء حارتي: منذ متى، أيها الأصدقاء، كان آخر ما تعرّض له أبناؤكم من هذه الإساءات؟ فمنهم من أجاب: قد دأبوا على هذا منذ زمن! ومنهم من أسبوع، أو أيام... ولم يقل أحد: اليوم!

قلت لهم وأنا على غير يقين من شيء: اذهبوا، يقول: إنه قد تغيّر الحال!

ثمّ... وجدتني في سريري... أحلُم!

فلوريدا: ليل الأحد ٥-١-٢٠١٤

الإحساس بالزمن

ساعة آخذُ كأس قهوتي صباحًا، يتراءى لي أني تناولت كأس أمس قبيل ساعة من الزمن ليس إلّا!

تُرى كيف يُحسّ بالزمن أبناء وطني، المهجّرون إلى أصقاع الأرض يقتلهم الشوق والحنين، وساكنو الخيام يتحمّلون شظف العيش وهم يخشون ثلج الأشتية القادمة، والباقون في الوطن يتلقّون الهدايا النازلة عليهم من فوق، وتلك التي تمرّ على أعناقهم فوق سطح

الأرض!

فلوريدا: صباح الإثنين ٦-١-٢٠١٤

وأنت تقرأ كتابًا..

عندما تقرأ كتابًا لمؤلف أنت تعرفه، فإنك تسمع صوته بأذنيك وكأنه يقرأ عليك ما خطّه يراعه!

فإن لم تكن على معرفة وكنت ممن يمنحونه الإعجاب، فأنت تخترع له صوتا تسمعه يحدّثك ويناقشك، منتهيًا بك إلى حالة من الإقناع!

فلوريدا: مساء الإثنين ٦-١-٢٠١٤

تداعيات حول قصة "الأول"..

هل كانت إشارة الصديق "أمجد ديليزه يي" من كردستان العراق، في رسالته أمس إلى قصتي "الأول"، مثارًا للتعليق عليها؟ هذا إلى أنها كانت قد أثارت قبل اليوم الخواطر بما طرحته من قضية شدّ ما يعاني منها الذين يعيشون تحت وطأة الحكومات الشمولية، تلك التي تفضّل أصحاب الولاءات على ذوي الكفاءات وإن كانت عالية!

وإنما توسّلت في هذه القصة -وفي كثير ممّا كتبته من قبيلها انتقادًا للشمولية في الحكم- بأسلوب "الفانتازيا" الذي يجعلك تقول في نفسك وأنت تقرأ هذا اللون من القصص: إنها حُلُم! ثمّ تعود للقول: بل هي واقع! وتظلّ تتردّد بين هذين الظنّين إلى أن تعلن أمام نفسك بالأخير: لقد كان الكاتب يحلُم، ولكنه قال الحقيقة كلّها!

ولقد كان اتّخاذي أسلوب الفانتازيا في هذه المقاربات القصصية، عن دراية ودراسة، وذلك تجنّبًا للمساءلة أمام أمنيّين يُخلِصون للسلطان أكثر من إخلاصهم للحقيقة الفنية

وللوطن.

والحديث عن هذه القصة ومثيلاتها يبدأ من محاولتي التفلُّتَ من مساءلة النظام لي... إلى الوقوع بين براثنه، هذا الذي ينظر دائما إلى الكلمة الأدبية المبدعة باستخفاف، حين يُرهف السمع إن كان شابها شيء من السياسة.

ما أذكره بشأن هذه القصة أنّ مجلةً ما في وطني ما رضيت أن تنشرها، فإنّ الذين سُلّمت إليهم مقاليد الأدب والثقافة ظلّوا يغلقون في وجهي الأبواب على نحو يفوق ما يريده النظام منهم!

وهكذا خطر لي في العام الذي تلا، أن أتوجّه بالقصة إلى مجلة "العربي". ومن عجبٍ إنهم بادروا إلى نشرها في عدد ديسمبر ٨٣، ذلك أنهم رأوها، بما ازدانت به من وشاح الفنّ، تبتعد عن أن تقصد نظامًا بعينه، فهي شيء من الفنّ قد مرّ بالسياسة وتجاوزها إلى المطلق.

عندما ظهرت "الأول" في هذه المجلة، التي يقرؤها الملايين في الأقطار العربية وفي العالم، تأتّى لبعض المظلومين من أبناء أمتنا أن يروا أنفسهم فيها! أذكر أنّ أحد الآباء في وطني رآها وكأنها تروي ما كان وقع حديثًا لابنه خريج الطبّ أيضًا، فجعل يدور بالمجلة على أصدقائه ويقول: «انظروا! إنه ابني! ». حدّث الابنُ المقهور، وكأنه ينتصف لنفسه، بذلك صديقًا له كان بالمصادفة قريبًا لي، وكان قريبي من المنتسبين إلى الحزب نجاةً بالنفس من الأذى والإقصاء، ويعرف من "الأسرار الأمنية" ما جعله يُهيب بصديقه فيقول: «قل لأبيك أن يكفّ، وإلّا فتّح العيون على ابن خالتي (يعنيني أنا) فيعودوا به إلى السجن! »، وكنت قد نجوت منذ قريب من حادثة أدبية قصصية مماثلة!

كلمة أخيرة، ولن تجدوا "الأول" منشورة ههنا: إني كنت ممّن دُعوا إلى الكويت الشقيق

عامَ سُمّي "عاصمةً للثقافة العربية ٢٠٠١"، وهناك التقيت بالدكتور محمد الرميحي، الذي كانت القصة نشرت في المجلة أيام كان رئيسًا لتحريرها، وقد أطريت -على سبيل الدعابة- أنهم نشروا قصةً مسيّسة لم توافق صحافة بلدي على نشرها، فأجابني بمثل دعابتي أو أكثر: «نحن سقف الحرية عندنا عال! ».

أيها الأصدقاء!

سألت بعض أصدقاء الثقافة والأدب في الوطن أن يأتوني بقصة "الأول" مُنضَّدةً ضوئيًّا. بحثوا في أرشيف "العربي" في الإنترنت، فكانت ممّا نُشر قبل دخول المجلة عالم الشبكة العنكبوتية ممّا لا يتيح الاستنساخ، وكنت قد نشرتها في كتابي "اعترافات ناس طيّبين" (في طبعتيه ١٩٩٠ و٢٠٠٢)، وجاء التنضيد بنظام آخر هو "العربي للنشر- لندن" غيرِ المتطابق مع "ويندوز" الشائع، فتطلّب الأمر إعادة التنضيد، ورأيت بعضهم يعتذر لافتقاده المجلة والكتاب، ولكنّ أكثرهم تعلّلوا وهم صادقون بانقطاع الكهرباء!

على أنّ القصة وصلت إليّ أخيرًا منضدةّ، وإني أدقّقها طباعيًّا، وسوف تكون تحت أنظاركم فجر الخميس غدًا، أيها الأصدقاء الكرام.

وكونوا بألف خير.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٨-١-٢٠١٤

لما بكبَر، يا أمي!

ورافقت أمَّها إلى عملها الذي تغيب فيه طول النهار. وجدته صعبا، فسألتها لماذا تُتعب نفسها في هذا العمل؟ أجابتها: «حتى نجيب مصاري يا بنتي، ونصرف ع البيت!». ولم تهنأ الطفلة بأكل الحلوى التي قدّمتها لها أمّها.

عند المساء اقتربت منها تقول بحنان: «بكره لمّا بكبَر، وبشتغل، وبجيب مصاري... ما راح أخليك تشتغلي، يا أمي».

فلوريدا: صباح الأربعاء ٧-١-٢٠١٤

قصة «الأول»

إضاءة:

في قصصي "المسيّسة"، تلك التي أتصدّى فيها لممارسات القهر والفساد و"الشموليّة" – وهي تأخذ حيِّزًا في مجموع نِتاجي القصصي عبر ستين عامًا من الكتابة والتأليف– توسّلتُ غالبًا بـ"فنّ الفانتازيا" (الخيال الغرائبي) أسلوبًا للمعالجة القصصية، فيه أُجرّد الحوادث من مكانٍ تقع فيه وزمانٍ تسري في فضائه، ولا أسمّي أبطالها بسوى حرف من الحروف الهجائية، إمعانًا مني في الابتعاد عن الواقع المعيش، يَحدوني في ذا ظنٌّ بأني أُمتِع قرائي، وأمنَع عن نفسي أن تمتدّ إليّ يد الأنظمة الشموليّة بالأذيّة. وبدا لي أني كثيرًا ما أفلحتُ!

اسم بطل هذه القصة حرفٌ هو "س"، ويبقى المكان والزمان مجهولين هنا، وربما معروفين عند بعض العارفين!

فلوريدا: فجر الخميس ٩-١-٢٠١٤

الأول

وقف (س) بين الواقفين في البهو، عاقدًا ذراعيه على صدره في صبرٍ غير ملول.

كان يتأمّل بعضَهم وهم يراجعون باستغراق كتبًا مفتوحةً بين أيديهم. ومنهم من يرفع

عينيه إلى السقف متمتمًا بشفتيه استظهارًا لما قرأ. وآخرون يتذاكرون في "أسئلة" يتوقّعون أن تُطرح عليهم في الامتحان. حتى إذا لاحظوا أنّ الباب قد انفرج عن وجه زميلٍ لهم، تركوا ما هم فيه، وأقبلوا عليه مستفسرين عمّا وجّه إليه الممتحِن من أسئلة "الثقافة العامّة". وكان منهم من يخرج ثملاً من نشوة الفرح ومَحْضَرُ نجاحه في يمينه، ومنهم من يكون عابسَ الوجه مكفهرّا، فلا يزيدهم ذلك إلّا توجّسًا.

***

أشار الممتحنُ إلى كرسيٍّ أمام المكتب:

ـ اجلس. بطاقتك الشخصية؟

قدّمها (س) إليه. ثمّ أخذ يتفحّص الوجه العريض... الذي سرعان ما طفت عليه الصّرامة.

ـ همْ مْ مْ... فأنت صاحب المعدل ٩٩,٩٩٪!!!

أجاب (س) بأدبٍ جمّ

ـ نعم، يا سيدي.

ـ ولم يتخرّج في كلية الطبّ، ولا في الكليّات الأخرى بجامعات الوطن، ماضيًا وحاضرًا، والظنّ ألّا يتخرّج مستقبلاً من حصل، أو يمكن أن يحصُل، على مثل هذا المعدّل العالي!

اعتصم (س) بالصمت تواضعًا.

ـ وترغب في أن تُعيّن مُعيدًا في إحدى كليّات الطبّ!

ـ إذا رأيتموني جديرًا بهذا الشرف، يا سيدي.

ـ طيّب، طيّب... قلْ لي: من هو "تشي غيفارا"؟

- هو أحد ثوّار كوبا الاشتراكية، لم يَسمح لنفسه، بعد نجاح الثورة، بأن يشارك في الحكم، وآثر أن يناضل في أقطار أخرى في سبيل المبادئ التي آمن بها.

- ماذا تعرف عن ميول أبي العلاء المعرّي المذهبيّة؟

- في السنوات الأخيرة، بدأنا نسمع أنّ له ميولًا شيعيّة!

- و"إخناتون"؟

- إخناتون؟ هو أحد الفراعنة المصريين. قضى صباه منفيًّا في البلاد السورية، قبل أن يعود إلى وطنه ليتولّى عرش آبائه، معلنًا ديانةً جديدة تنادي بوحدة الإله.

- طيِّب، و"ياروزِلْسكي"؟

- إنه رجلُ موسكو القويّ في بولونيا، الذي قمع حركة نقابة التضامن... هل أعرِّف لكم بخصمه "ليخ فاونسا؟

- قل: من هو "لوركا"؟

- شاعر إسبانيّ، عُدَّ من الثوار في الحرب الأهلية التي قامت في بلاده عام ١٩٣٦، فقتله نفرٌ من خصومه السياسيين، بعد أن حملوه على أن يحفر قبره بيديه!

- إخوان الصفا؟

- إنها جمعيةٌ ذات طابع سياسي ديني، ظهرت في القرن الرابع الهجري، واتّخذت مقرًا لها مدينة البَصْ...

- فانيسيا ردغريف؟

- هذه ممثلة بريطانية، عُرفت بمناصرتها للعرب وللقضية الفلسطينيّ...

- عبد القادر الجزائري؟

ـ الأمير عبد القادر، زعيم جزائريّ إسلاميّ كبير، كان من المتصوفة، حارب الـ...

ـ الألوية الحمراء؟

ـ منظمة سريّة في إيطاليا، قامت بـ...

ـ ابن الرّاوَنْدي؟

ـ أحد كبار الملاحدة في الفكر الـ...

ـ غابرييل غارسيا ماركيز؟

ـ غابرييل غارثية ماركيز روائيّ عالميّ من كولومبـ...

ـ أوديب؟

ـ مسرحية إغريقية بطلها...

ـ المعتزلة؟

ـ حركة إسلاميّـ...

ـ بشير الجميّل؟

ـ الرئيس المُنْتَخَـ...

ـ جيانغ تشنغ؟

ـ أرملة الـ...

ـ السيّاب؟

ـ شاعـ...

ـ عدنان المالكي؟

ـ ضا...

تابع الممتحن، بصوتٍ نَزِقٍ، وهو يقرأُ في لائحةٍ طويلةٍ: أَجبْ بسرعةٍ فائقة:

ـ سوموزا؟ حمدان قِرْمط؟

ـ آ...

ـ بابْراك كارمال؟ عُروَة بن الوَرد؟ خْميرْ روج؟

ـ وو

ـ عبد الرحمن بن مُلجِم؟ إيمْري ناج؟ بادِن ماينْهوف؟ أكْسْيون ديرِكْت؟

ـ ي ي ي

لم يعجز (س) عن الإجابة، ولكنه أحسّ بالعَياء. كان ما يكاد يفكّر في السؤال، مستجمِعًا في ذهنه عناصر الإجابة، حتى يكون قد رُمِيَ بسؤالٍ جديد. ولحظةَ وصلت أنفاسه إلى حدِّ الانبهار، لاح له أن ممتَحِنهُ قد أدركه العَياء هو الآخر. رآه فجأة يُهوي بقبضتيه الغليظتين، على المكتب الخشبي المُفرَغ، صارخًا بملء صوته:

ـ قف!

فانتصب واقفًا.

صرخ به:

ـ أنا لم أطلب منك أن تُريني قوامَك الفتّان، قصدتُ أن تتوقّف عن تدفّقك! اجلس. عشرة على عشرة!!

بدا (س) أشبه بملاكم قد استَنفَدت المباراةُ خلاصة قُواه. غامت الدنيا في عينيه، وانهار رأسه على المكتب. فلما آن له أن يفتح عينيه، بعد وقتٍ ليس يدري مداه، تبيّن أنه في فحص (المقابلة) ما يزال. وأخذ يرفع رأسه، شيئًا فشيئًا، عن المكتب. ومن عجبٍ أنه رأى الممتحن

أمامه منهارًا، هو أيضًا! لقد أعيا كلٌّ منهما الآخر!

الوجهُ، الذي يرشح صرامةً، يرتفع عن سطح المكتب. تلاقت الأعين. حدّق كلٌّ منهما في عينَي الآخر. سمح (س) لنفسه أن يبتسم. فابتسمت الصرامة. تشجّعَ: مدَّ يده نحوه، يطلب المصافحة!

- لماذا؟

- كي تُهَنِّئني!

- لم ينتهِ الامتحانُ بعد. أمامك جولةٌ ثانية. ما اللغة الأجنبية التي درستَ بها بعضَ مقررات الطبّ؟

- الانكليزية. ولكن، يا سيّدي، أنتم تمتحنون المرشّحين، في الثقافة العامة وحدها!

- دونَكَ هذا النصَّ، فانقله إلى العربية، خلال الدقائق العشر القادمة!

- عشر دقائق فقط؟

- بدأ الوقت!

رأى (س) ممتحنَه، وهو يُعمِل يده في جهازٍ على المكتب، فتنبعث، من ساعةٍ فيه، دقاتُ الثواني، بصوتٍ أخذ يُشوِّش عليه!

كان النصُّ، الذي يتحدّث في شأنٍ طبيٍّ خالص، حافلاً بالمصطلحات العلمية التي يعرفها حقَّ المعرفة. انكفأ يُعرِّبه. ليس ثمّة من صعوبةٍ تواجهه إلّا ضيق الوقت، وإلّا دقات الثواني: تك، تك، تك، التي تزداد ارتفاعًا كلما تقدّم الوقت. ولحظة ألقى بالقلم من يده، متنفّسًا الصُّعداء، كانت الساعةُ المَخْفيّة تطلق رنينًا موصولا.

- هاتِ لأرى.

ـ تفضّل.

حَسِبَ (س) أنّ ممتحنه سيشرع في قراءة النصّ العربي معارضًا إيّاه بأصله في الإنكليزيّة. ولكنه رآه يدسّ الورقة في جانبٍ من ذلك الجهاز العجيب، وما هي إلّا لحظةٌ حتى أضاءت في أعلاه لوحة، ألمَّت بها عيناه، ثمّ صرخ، وهو يُهوي بقبضتَيه على المكتب:

ـ عشرة على عشرة!

لم يَجْفُل (س) هذه المرة، ولا غامت الدنيا في عينيه، تبيّن له أنه قد اكتسب مناعةً من نوع ما. ابتسم وهو يمدُّ يده لممتحنه.

ـ لماذا؟

ـ كي تُهَنِّئني!

ـ لم ينتهِ الامتحان بعد.

ـ إني على أتّم الاستعداد، يا سيّدي.

ـ امتحانك، الآن، في اللغة الـ... فرنسيّة!

ـ الفرنسيّة؟! ولكنّ طالب الطبّ في بلادنا يدرس، بعض مقرّراته، بالإنكليزية أو بالفرنسيّة، وليس بكلتيهما.

ـ سأمتحنك بالفرنسيّة!

ـ من حسن حظّي، يا سيّدي، أني أخذت، من تلقاء نفسي، في دراسة هذه اللغة العذبة، من يوم أن اختارتها، لغةً أجنبيّةً لها، شقيقتي الصغرى لدى دخولها (الإعدادي). وقد زاد اهتمامي بها منذ انتسبت الشقيقة إلى الجامعة لدراسة آداب اللغة الفرنسية!

غمغم الممتحن:

ـ أفراد أسرتك يُعْنَون بالفرنسية وآدابها، فأنتم برجوازيون حقيقيّون!

ـ ولكننا نتعلّمها في مدارس الحكومة وجامعاتها، وليس في "اللاييك" أو "الفرنسيسكان"، يا سيّدي.

ـ أُحَذّرك من التمادي في المماحكة! دونك هذا النصّ الفرنسي، فانقله إلى العربية خلال عشر دقائق.

الساعة ترسل دقاتها. و(س) يُتابع تعريب النصّ، الطبيّ، غيرَ متعثّر.

ولحظة آن للساعة أن تطلق رنينها إيذانًا بالانتهاء، كان يضع الإجابة تحت نظر الممتحن.

دسّ الرجل الورقة في الجهاز. وما إنْ ألمَّت عيناه بما تسجَّل في اللوحة المضاءة، حتى أهوى بقبضتيه على المكتب:

ـ عشرة على عشرة.

لم يخطر على بال (س) هذه المرة، أن يمدّ يده طلبًا للتهنئة.

ـ هل من امتحان رابع، يا سيدي؟

ـ اللغة الألمانيّة.

ـ الألمانيّة؟! ما أنا على يقين منه أنّ اللغة الألمانية غير مطلوبة في مدارس الوطن على الإطلاق.

ـ وأنا سأمتحنك باللغة الألمانيّة!

ـ ومن حسن حظي أني أعرفها!

ـ إيه! هل رضعتَها مع حليب السيدة الوالدة؟

ـ أمي عربيّة الأُرومة مثل أبي، يا سيدي. ولكني... قبل عامين، وضعتُ نصب عيني أن

أسافر إلى ألمانيا، للعمل والتخصّص في جراحة القلب، فشرعت في دراسة لغة البلد، اختصارًا للوقت. وجدتها بادئ الأمر صعبة، ولكني بالمثابرة طوّعتها.

ـ دونك هذا النص، فانقله إلى العربية.

ـ ألا تزيد لي في الدقائق العشر، بسبب الصعوبة، يا سيدي؟

ـ أمنحك دقيقتين إضافيّتين، لترى كم نحن عادلون!

وفي ظلّ دقات الساعة، التي أَلِفَت أذنُه سماعها، أخذ "س" ينقل عن هذه اللغة، التي لم يتعلّمها بسوى أشرطة "الكاسيت". كان النصّ، أيضًا، حافلاً بالمصطلحات الطبية.

وحين دنت عقارب الساعة من نهاية الدقيقة الثانية عشرة، كانت اليد، القاسية، تمتدّ إلى الورقة لتمسك بطرفها، ومع انطلاق الرنين انتزعَتْها... ولكنّ القلم كان قد سطّر فيها آخر الكلمات.

وهوت القبضتان:

ـ عشرة على عشرة!

انفرجت الأسارير المرهقة:

ـ لا أعتقد أن ثمة امتحانًا خامسًا!

ـ بل هناك امتحان أخير، بلغتك القوميّة، أيها الناجح في الوطن!

ـ العربية! ما أحبَّ هذه اللغة إلى النفس! ولكن... هل من المعقول أن تمتحنوا خريجي الجامعات بلغتهم القوميّة؟!

ـ «هل من المعقول؟!»... لسوف تقفون، أنتم المعيدون، عمّا قريب، على منابر الجامعات محاضرين! إن رَطَنَ أحدكم في لغته العربيّة، غدا أضحوكة لطلابه! فإن نصبت المرفوع، أنت يا

من حصلت على ٩٩,٩٩٪، في كتابك الذي ستؤلفه لطلابك، ورفعت المجرور، أمسيت أضحوكةً لهم. هل تعلم أنّ بينكم من لم يعد يذكر شيئًا عن "كان وأخواتها"؟!

ـ هؤلاء أولى بهم أن... يُستبعدوا من التدريس في الجامعات، يا سيدي!

ـ عدد لي "إنّ وأخواتها"!

ـ إنّ، كأنّ، لكنّ، ليت، لعلّ، لا.

ـ ما عملها "هذه الأسرة السعيدة"؟

ـ يدخل كلٌّ منها على الجملة الاسميّة، فينصب الأول ويُسمّى اسمها ويرفع الثاني ويُسمّى خبرها.

ـ ما زلت تحفظها عن ظهر قلب!

ـ سيّدي! لقد كنت "الأول" في الشهادة الثانوية في القطر، ونلت في المقررات كلّها الدرجات التامّة.

ـ طيب، طيب. أعربْ لي: «رأيتُ المنايا خَبْطَ عشواء».

ـ «من تُصِبْ تُمِتْهُ، ومن تُخطئ يُعَمَّر ف... ».

ـ لم أطلب منك أن تُسمعني بقية البيت!

ـ «رأيتُ»، رأى: فعل ماض مبني على...

ـ اختصر "فعل وفاعل" يكفي.. المنايا؟

ـ «المنايا»: مفعول به أول، منصوب بالفتحة المقدرة على...

ـ «خبط»؟

ـ "خبط"! إنها... (بصوت خفيض) ليست مفعولًا به ثانيًا، لا، ولا هي "حال"...

ـ فكّرْ بصمت!

ـ حتى يستقيم الإعراب، يا سيدي، أرى أنّ هناك فعلاً محذوفًا تقديره: رأيت المنايا «تخبط خبطَ عشواء»... فـ«خبط»: مفعول مطلق لذلك الفعل المحذوف!

ـ كيف حالك في العروض!

ـ العروض؟ لقد نظمتُ شعرًا موزونًا ومقفّى، منذ كنت على مقاعد الدرس!

ـ من قائلُ «إني وإن كنت الأخيرَ زمانُه»؟

ـ فيلسوف المعرة "أبو العلاء".

ـ قطّع لي هذا الشطر وسمِّ بَحْرَه.

ـ إني وإنْ/ مستفعلن/ كنتل أخي/ مستفعلن/ رَ زمانهو/ متفاعلن... إنه من «البحر الكامل»، يا سيدي.

ـ ما الشطر الآخر؟

ـ «لآتٍ بما لم تستطعْه الأوائلُ».

ـ قَطّعْه.

ـ لآتن/ فعولن! / بما لم تسـ/ مفاعيلن! / تَطِعهل/ فعولن! / أوائلو/ مفاعلن!!!... عجبًا: شطره الثاني من «البحر الطويل»!

صرخت الصرامة:

ـ أجبْني: كيف يمكن أن يكون بيتٌ من الشعر، شطرُه الأول من بحر وشطره الآخر من بحر سواه!!

ـ حقًّا، هذا محيّر، يا سيدي! ولكنّ تقطيعي لهما كان صحيحا. إني/.... / وإن كنتل/

مفاعيلن/ أخير/ فعولُ/ زمانهو/ مفاعلن... إنّ الشطر الأول من "الطويل"، لقد رويتَه لي منقوصًا "حركة" هي "الواو" في أوله، يا سيدي! الصحيح: وإني/ فعولن، بإضافة الواو في أوله!!

هوت القبضتان على المكتب:

ـ عشرة على عشرة!

تنفّس)س(الصّعداء، وعيناه لا تفارقان شفتَي الممتحن، الذي أخذ يقول:

ـ ألَا فلتعلم، أيها الناجح الأول في الوطن، أنّ فيك عيبًا خطيرا!

ـ فيّ عيبٌ خطير؟! ما هو، يا سيدي؟

ـ "الولاء"!

ـ الولاء! الولاء!... ما به "الولاء"؟!

ـ الولاء هو ما ينقصك!

ـ ولكن، الولاء لمن؟

ـ الولاء للـ... وطن!

ـ ولكني محبٌّ لوطني، الذي أمشي على أرضه وأستظلّ بسمائه!! ومن ذا الذي لا يحبّ وطنه، يا سيدي؟!

– إنّ "تقارير الأمن الطلاّبي"، التي وردت إلينا من جامعتك، تؤكّد كلّها أنك لم تشاهَد يومًا وأنت تسير في "مسيرة".

ـ لأني كنت، على الدوام، منصرفًا إلى تحصيل العلم والمعرفة. ألم تر كيف أني حزت الدرجات التامّة في الامتحانات الخمسة التي أجريتَها لي؟

ـ أنت تعترف!... ولا شوهدتَ وأنت تهتف مع الهاتفين، أو تصفّق مع المصفّقين!!

ـ هذا أمر مختلف. ولكن هل قالت لكم، تلك التقارير، أني لا أحبّ وطني؟

ـ إنّ المواطن، الذي لا يُعبّر بصورة علنية عن تأييده للنظام، نصنّفه في عداد المشكوك في وطنيّتهم.

ـ اسمح لي، يا سيدي، أن أسألك عما إذا كنتم تريدون "رجالًا"... أم "أتباعا"؟!

ـ نريدهم موالين مخلصين.

ـ حسنٌ. ردّوا إليّ "أوراقي" وأنا أطوف، بمؤهِّلي ولغاتي، بلادَ العالم، أعمل وأتخصّص، قبل أن أعود إلى وطني، بمحبّتي... التي ما أشكّ في أنها سوق تتضاعف...

ـ أوراقك؟! (ضحكت الصرامة) أوراقك لم يعد لها من قيمة. لقد فَقَدْتَ، الآن، مؤهِّلك الجامعي!

ـ إني الأول في الوطن، يا سيدي! يا سيدي!

ـ كان معدّلك العام "يتآكل"، في أثناء امتحاناتك، الساعة!!

ـ ولكنك كنت تصرخ بي، بعد كلّ امتحان من امتحاناتك الخمسة، وأنت تُهوي بقبضتيك: «عشرة على عشرة»!!

ـ كنت تفقد، في كلّ امتحان منها، درجاتٍ عشرا!

ـ بالمقلوب!! ماذا يجري في هذا الكون؟!

ـ حتى أصبح معدلك العام ٤٩,٩٩٪... فقدت بذلك مؤهّلك الجامعي، وامّحى اسمُك من قائمة المرشّحين لشغل وظيفة معيد في جامعات الوطن!

***

خرج "س" من قاعة الامتحان، عابس الوجه مكفهرّا، حتى إنّ أحدًا من المرشحين، في البهو، لم يجرؤ على الاقتراب منه لاستفساره عما سُئل.

أسرع إلى الجامعة، ليتأكد من حقيقة مصير مؤهّله الجامعي.

ـ لقد هبط، في هذه الساعة، معدّلُك العام إلى ٩٩ , ٤٩٪!

ـ بهذه السرعة، وصلت إليكم خسارتي! يا لها من تقنية استطعتم أن توظّفوها لحسابكم! هل يمكنني أن أدخل امتحانات السنة النهائية مجدّدًا، لأستردّ نجاحي المفقود؟

ـ ولكنك خسرت نجاحك في السنوات السبع كلها!!

ـ وإني على استعداد لأن أقدّم امتحاناتها دفعةً واحدة، محقّقًا فيها كلِّها نجاحي الأول نفسه.

ـ في "اللوائح" عندنا، إنّ من يجتاز امتحانه بنجاح يمتنع عليه إعادته.

ـ أنتسب طالبًا مستجدًّا إلى كلية أخرى.

ـ ليس من العدل أن تشغل، مرة ثانية، مقعدًا في الجامعة أولى به طالبٌ لم يجرّب حظّه بعد!

ـ عجيبة هذه السدود، التي تقيمونها في طريق من حصل على معدّلي العالي!

ـ ٩٩ , ٩٩٪! كان عليك أن تفطن، منذ البداية، إلى أنّ هذه "النسبة" السامية، لا يحقّ لمواطن أن يحظى بها، سوى....

ـ ولكنكم أنتم الذين كنتم تمنحونني إيّاها، سنةً بعد أخرى.

ـ لأنك كنت تستحقّها على الدوام.

ـ وماذا كان في وسعي أن أفعل؟

ـ ألّا تستحقّها!

ـ إنّ ما كان يدفعني إلى الإكباب على الدراسة وتحصيل العلوم والمعارف، هو حبّي لوطني،

ورغبتي في أن أخدم المواطنين.

ضجّت أصواتهم بالضحك:

ـ تخدمهم... في الجنة... بعد عمر طويل...

* * *

وظلّت قهقهاتهم تتردّد أصداؤها في سمعه... وهو يمضي، بعيدًا بعيدًا، في دروب الحياة.

فاضل السباعي صيف ١٩٨٢

نُشرت في مجلة "العربي"، الكويت، العدد (٣٠١) ديسمبر ١٩٨٣

ضمّتها مجموعتي القصصية "اعترافات ناس طيبين" (طبعة أولى ١٩٩٠، ظ ثانية ٢٠٠٢)

بلد تُنتهك فيه الحقوق!

في حفل توزيع شهادات التخرّج، الذي جرت "الجامعة السورية" في أيامها على إقامته نهايةَ كلّ عام دراسي، رفع طالبٌ صوته أمام المحتفلين وهو على المنصّة يتسلّم شهادته: «أنا آسف لحصولي على إجازة في الحقوق في بلد تُنتَهك فيه الحريات!».

ما هو جدير بالذكر أنّ هذا الطالب لم يتعرّض للاعتقال، لا ولا مُزِّق جسده تحت سياط التعذيب، ثمّ إنه مارس المحاماة في مدينته حمص إلى أن توفي حتف أنفه في الصيف الماضي (٢٠١٣). إنه "راغب السباعي" ابن السياسي المخضرم "هاني السباعي".

وقع ذلك في ظلّ "ديكتاتورية" أديب الشيشكلي (المنتهية يوم ١٤ شباط/ فبراير ١٩٥٤).

فلوريدا: فجر الجمعة ١٠-١-٢٠١٤

وألقوا القبض عليّ!

رأيت فيما يرى النائم، أني وبعضَ أفراد أسرتي، عدنا توّا من سفر (أو مُنعنا منه لأسباب!)، ونحن الآن في مدينة حلب، في "السُّويْقة"، المحلّة المتاخمة للبيت الذي اكتَحَلت فيه عيناي بالنور، "زقاق الزهراوي"، هذا الذي يقع إلى الشمال من "الجامع الأموي" الذي أُحرق أخيرًا وقُصفت مئذنته التاريخية وأُنزِلت إلى الأرض.

يُفضي إلى "ساحة السويقة" هذه، التي يبتاع منها الناس ما يحتاجون إليه في حياتهم اليومية، سوقٌ صغير آخر، يتوسّطه بابٌ كبير لما كان سجنًا رهيبا زمنَ الانتداب الفرنسي، حيث يُحتجَز الوطنيون وتُطلق عليهم الكلاب الجائعة، يُسمّى "خان إسطنبول"!

والواقع أنه ليس من هذا السجن أتاني الأذى، ولكن من إجراء دعاني إلى أن أترك أفراد أسرتي وأتوجّه إلى بيتنا القديم، أحمل أشياء (أو آتي بأشياء)، ونحن نتواصى بالحذر من أن يُلقي "الشبّيحة" القبض على أحد منّا!

وأنا عائد رأيت أحدهم يمشي بمحاذاتي، وبصوت خفيض يعلمني بأني منذ هذه اللحظة معتقل! تابعت السير متظاهرًا بعدم الاكتراث، وهو إلى يساري أسمعه يقول لي: «انظر إليّ! ألا تعرفني؟ اسمي "حاتم طَيْ"! »، قلت له: «هذا ليس اسمًا عصريًا، إنه اسم من أيام الجاهلية! »، ثمّ رأيته يأخذ ساعدي الأيسر ويَلويه على طريقة رجال الأمن!

وعلى مقربة دانية من أسرتي استُوقِفت، وأحسست برَجُل آخر من خلفي يُفرِّج ما بين قدميّ على الأرض ليدسّ رأسه بين ساقيّ وينهض بي، فأكون على كتفيه كما يرفع المتظاهرون في المسيرات الوطنية زعيمًا لهم... ثمّ يستدير ويمضي بي في اتجاهٍ مغاير!

أردت أن أُعلِم أهلي هناك. رفعت صوتي أناديهم، بصرخات لا أتبيّن الآن – وأنا أُدوّن الحلم – ما هي، ولكنهم سمعوني فهُرعوا إليّ يمشون خلفنا، والرجلان يمضيان بي باتجاه

"السجن المركزي" الذي عرفتْه حلب في أيامها شرقيَّ المكان الذي نحن فيه، وتطرق سمعي أصوات صراخ وعويل تأتي إليّ من نساء أسرتي ومن الأطفال!

واستيقظت.

حلمٌ راودني هذا الصباح، وكثيرًا ما حلَمتُ بمثله، وهو ما يعتاد المواطنين في لياليهم، ويتراءى لهم أيضًا في النهار أحلامَ يقظة!

رأيت المنام عند الساعة السابعة من صباح هذا اليوم الجمعة (بتوقيت فلوريدا، الثانية بعد الظهر بتوقيت دمشق)، ودوّنته عُقَيب استيقاظي.

فلوريدا: صباح الجمعة ١٠-١-٢٠١٤

ضيف على أبنائي!

أودّ أن أبيّن لأصدقائي الكرام أني – في إقامتي في الولايات المتحدة التي وصلتُ إليها منذ ثلاثة أشهر-لست "لاجئًا سياسيّا" لا ولا أتمتّع بلجوء إنساني، ولكني ضيفٌ على أسرتي، ذريّتي، الذين ما زال أفرادها يتواردون إلى هذا المكان في العالم منذ ثلاثين عاما ويزيد، ولا أُخفي أنهم هم الذين يتحمّلون تكاليف إقامتي وترحّلي، وكلّ ما يترتّب عليّ من أعباء بدمشق، أولها رعاية بيتي المستأجَر هناك.

وللعلم، أيها الأصدقاء الذين أكنّ لهم كلّ الاحترام، إنّ ما أتقاضاه من معاش تقاعدي في الوطن -وقد كانت آخر وظائفي هناك مديرًا في وزارة التعليم العالي- هو من الضآلة على نحو يحمل الشامتين على التبسّم! هذا إلى أنه تعذّر التواصل مع المجلات العربية التي جريت على الكتابة فيها، وقد توقّفتْ عن الورود إلى سورية، مثلما كفّ القراء عن مطالعة الكتب، بسبب ما يعصف بالوطن من أحداث.

وقد كانت مواردي هذه توفّر لي مستوى من العيش الكريم، على حين نرى أولئك الذين لا يملكون من المواهب إلا ابتزاز الوطن والتواطؤ عليه، يسكنون القصور ويرفلون بالنعيم المغتصب ويمتلكون الأرصدة وراء الحدود.

وجدتني مضطرًّا إلى بيان هذا وقد قرأت اليوم لمن كان من قبل صديقًا حميا (وكان ممّا زاد في إعزازي له انتماؤه إلى بلد المليون شهيد) يغمز من جانبي، مشيرًا -وهو يعرف جانب الحقيقة- إلى أني ممّن تركوا الوطن إلى «المهاجر الوثيرة الناعمة»، وهي إن كانت كذلك، فهي أحضانُ أبنائي العاملين المجدّين هنا في مجال الفن التشكيلي، وفي الحضانة والتربية!

وتَعسًا للمكابرين!

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ١٠-١-٢٠١٤

هديل.. والإبداع!

صرخ بها في نَزَق:

ـ لماذا تكرّرين الخطأ؟ لم لا تتقيّدين بملاحظاتي؟ هل تتعمّدين هذا، يا هديل، يا هديل، يا هدي...؟

كان يحزنها أن تراه غاضبًا، بقدر ما يلذّ لها ألّا تتعلّم!

مرة خَبَط بقبضته الطاولة الخشبيّة فسُمع لذلك صدًى أجشّ.

هديل تعرف جيدا أنها إنْ أتقنت... رَحَل!

وذات يوم ألجأتْه إلى أن ينتزع القلم من يدها، ويُمسك به كسكين، ويهُوي بسنّه على الورق ويتركه مغروزًا هناك!

ـ أنت تُتعبينني، أنت تُعذبينني. بدأت أفقد الأمل.

ذرّفت هديل دموعًا غزيرة. رقّ لها: آسف. أنت أخرجتِني عن طوري.

وخرج... خرج ولم يعد.

كانت تلك آخر مرة تجلس فيها هديل أمامه "تلميذةً" تتلقّى "فنّ الكتابة"!

حزنت لرحيله كثيرا. ومن خلال أحزانها كتبت... عبّرت... وكان أن أشرق إبداعها.

لسوف تذهب بأوراقها إليه... غدًا.

فلوريدا: ليل السبت ١١-١-٢٠١٤

جزّ الأعشاب...

أستيقِظُ، في بعض الأصباح، على رائحة العشب مقصوصًا من قبل "المستر روجر"، الذي يروح ويجيء بعربته ذات الجلبة الصغيرة، فوق حدائق البيوت التي لا يفصل بينها حاجزٌ أو عائق، يجزّ ما طال من العشب. هذا المتقاعد، ذو اللحية البيضاء، الذي حلا لي أن أسمّيه منذ عرفتُ مهمّته: "جزّاز الأعشاب الطيّب"!.

لكني استيقظت، هذا الصباح، على صوت "صاحب الدار" وقد بدا أنه يَعمل في حديقة البيت وهو يحاور آخر!

نهضت، وأقبلت، فرأيت صهري العزيز "أبا مازن" وواحدًا من أحفاد الأسرة، يتعاونان في تقليم شجرة بعينها، بأن يقطعا بالمنشار ما نبا من أغصانٍ واطئة قد تؤذي الصغار عند اقترابهم منها، والحفيد "محمد" ينقل ما قُطع إلى حيث تمرّ سيارةٌ في الحيّ، كلّ ثلاثاء، تجمع ما تخلّف عن البيوت من فضلات.

عرضت عليهما المساعدة، فأتاني منهما صوتٌ واحد وكأنهما فيه على اتفاق: أنت، يا عمّي،

رح اكتب! وقالها الفتى: يا جدّي!

وفي وطني هناك، تُقطع الأشجار الخُضْر للاستدفاء من برد الشتاء، ولا تُجزّ الأعشاب، لكن الأعناق، بسكاكين يحملها أعداء البشرية!

فلوريدا: صباح الأحد ١٢-١-٢٠١٤

إلى أصدقائي الأعزاء

هل أقول: إنّ هموم الوطن وأوجاعه الدامية، والكتابةَ اليومية فيها، قد استغرقتْني وصرفتني؟ يزيد في هذا سعيي إلى بثّ خواطري في عدد من القنوات والنوافذ!

ذلك جعلني واضح التقصير، أيها الأصدقاء، في الاستجابة لآرائكم والردّ على تحياتكم، التي أتلقّاها عبر تعليقات تنتثر هنا وهناك، أراها مثل أزاهير الياسمين الشامي تُجلّل هامات الشجر، فتجعل عاشقها المتيّم يحار ما يشمّ وما يلمّ، فيكتفي بالفرجة وشكر الخالق على إبداعه!

أيها السيدات والسادة، فاقبلوا اعتذاري وأنتم الكرماء!

فلوريدا: منتصف ليل الأحد ١٢-١-٢٠١٤

ولم ينتشر الإسلام بحدّ السيف

صحيح أنّ "الفتح الإسلامي" قد تمّ بِحدّ السيف -الذي لا يكون فتحٌ إلّا به- إلّا أنّ انتشار الإسلام بين الشعوب المفتوحة جاء طواعِيَة.

فالسُّريان في بلاد الشام لم يعتنقوا الإسلام زمنَ الفتح وحسب، لكن عبر عقود من السنين. وأما في مصر فقد لبث الأقباط يدخلون الإسلام عبر القرون الأربعة الهجرية الأولى، وكأنه بلغ الحدَّ في ذلك نحو القرن الخامس للهجرة. وفي الأندلس تُرك النصارى على دينهم فهم يدخلون الإسلام تدريجيّا، ثمّ كان هؤلاء هم الأكثر تمسُّكًا به. ولا أُدلّل على ذلك بأنّ فقيه

الأندلس وأديبها الأكبر "ابن حزم" كان من أصول نصرانيّة، لكن أشير أيضًا إلى أنّ القلّة من العرب الذين جاؤوا الأندلس فاتحين، يرافقهم جيشٌ من المغاربة (أسلاف "الأمازيغ" اليوم، الذين أطلق التاريخ عليهم لقب "البربر"!)، يضاف إلى هذين العنصرين، أهل إسبانيا أنفسهم الذين دخلوا الإسلام وشكّلوا الأغلبية الساحقة.

أقول: إنّ هذه العناصر الثلاثة في الأندلس، دون أن نُغفل عنصرًا رابعًا هم "الصقالبة" (من الأسرى والرقيق الذين تأسلموا وتبوّؤا المناصب ومارسوا المهن)، كان هؤلاء جميعًا لُحْمة الأندلس وسَدَاها، يجمعهم ما يمكننا تسميته بمنطق اليوم "القوميّة الأندلسية".

هؤلاء الأندلسيون هم الذين ظلّوا يتصَدَّون للحروب التي شنّتها الممالك المسيحية في الشمال عبر قرون متطاولة، إلى أن وقع المقدور بسقوط "غرناطة" (عام ١٤٩٢م/ ٩٩٧هـ) في يد المَلِكَين الكاثوليكيَّين "فرناندو" و"إيزابيلاّ"، وكان قسوة بالغة ارتكباها، بتحريضٍ من مطران قرطبة المتعصّب "خيمينيس دي سيسنيروس"، بأن قهروا الأندلسيين بـ"محاكم التفتيش" (والأصح "دواوين التحقيق")، وبالتنصير القسري، وبالتهجير إلى أنحاء في إسبانيا، وبالتغريب إلى الضفة الأخرى من البحر المتوسط، المغرب، هذا الذي حمل إليه المهاجرون الغرناطيون ما تبقّى من إرث الأندلس. وهم ما زالوا فيها معروفين بانتسابهم. واستطرادًا أذكر أني، في زيارتي لـ"بلاد الريف" شماليّ المغرب، رأيت السكان هناك ثلاثًا، أمازيغ وعربًا وأندلسيّين، ويعرف كلٌّ انتماءه! أقول: كان الأندلسيون، وهم الأرقى حضاريًّا، أسهموا في بناء حضارة تكون أقلّ "عسكرةً" ممّا أنجز الإسبان والبرتغاليون المتغلّبون، وأكثر رهافة، على نحو ما كان الأندلسيون خلال القرون الثمانية التي لبث فيها الإسلام بالأندلس.

أقدّم هذه الفذلكة التاريخيّة، وأنا في منفاي الاختياري، يوم مولد النبي العربي الكريم، الذي قُدِّر لقومه المسلمين أن يفتحوا كلّ العالم المتمدّن المعروف في زمنهم، خلال خمسين سنة

من عمر الزمان، وما تراجعت فيها راية الإسلام إلّا في الأندلس، ولكنها ارتفعت دون "فتح بالسيف" في أواسط إفريقية، وهناك في الشرق الأقصى، تلك البلاد التي ظهر فيها أمس سياسيٌّ فذّ ومنظّر إسلاميّ، هو مَهَاتير محمد (والاسم تحريف لكلمة "مُحاضِر")، الذي نتمنّى لو أَطلعت شمسُ العرب نظيرًا يرقى إلى مستواه، ومثلَه جارنا التركي الطيّب رجب أردوغان.

فلوريدا: الإثنين ١٣-١-٢٠١٤

متمرّسون!

تلّ الزعتر... مخيّم اليرموك... بينهما بضع وثلاثون سنة...

وبين البين: حمص، المعضميّة، الغوطة، داريّا، حلب،..... الخ.

إنهم... المتمرّسون في "المقاومة والممانعة".

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٤-١-٢٠١٤

المـوت صـبرًا!

قال:

وأيّ جواب! أيّ كلام تريد أن يجري على لساني، وأنت القويّ بمركزك، تنوي أن تقتلني، أنا المواطن الضعيف أمامك، القويّ باستعدادي للموت في سبيل رأيي.

قال متبسّمًا:

سوف أجعلك، أيها المتحذلق، تموت ميتةً تليق بكلماتك المنمّقة! هل تتحمّل ثلاثين يومًا لتموت جوعًا؟ خذوه!.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٤-١-٢٠١٤

جامعة حلب

في مثل هذا اليوم قبل عام

سمع الطلاّب أزيز طائرة تقترب، وهم منصرفون من أول أيام الامتحانات. وغيرَ مصدّقين تلقّوا قذيفةً هنا تلتْها قذيفةٌ هناك.

تناثرت الجثث في كلّ مكان، وبُدئ بتجميع الأشلاء. وربّ أمّ جاءت ترافق ابنتها في أول أيام امتحاناتها، بحثت، بحثوا، فلم يعثروا إلّا على فردة حذاء مجرّدة من القدم!

أي ضمير يثوي في صدر ذلك الطيّار، الذي ربّاه الوطن بدمع العين ومهجة الفؤاد، يُبيح له أن يقصف قطعةً من أرض الوطن، جامعة خميلة جميلة، يتخرّج فيها بناةُ المستقبل، يتنافسون، يتنافسنَ، طموحًا وجمالًا وكمالا!

أيها الطيّار الرجيم، الذي عاد إلى صحبه مختالًا!

أنت عاقّ لمجتمعك،

أنت خائنٌ لوطنك،

أنت مجرّدٌ من الإنسانيّة،

أنت... أنت مهترئ الضمير، فردة الحذاء في يد الأمّ المفجوعة بصبيّتها الوحيدة، أطهرُ من قلبك ولسانك!

ليس بعيدًا اليومُ الذي تقف فيه مرتعدًا أمام العدالة النبيلة!

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٥-١-٢٠١٤

ويموت السوريون.. بصَمْت الأنثى!

قال:

عنترة قتله الحبّ، وقيس قتله الجنون، وروميو قتله العشق.

كلّهم رجال...

أهناك أنثى ماتت عشقا!

قلت:

يموت العاشق بضجيج، وتموت العاشقة الأنثى بصمت

تمامًا كما يموت السوريون اليوم، ولا يدري بهم العالم، المتواطئ!

فلوريدا: ظهيرة الخميس ١٦-١-٢٠١٤

ويحدّث الرئيس الأسمر نفسه:

ولماذا نُعاديها؟

لنمكّنْها من أن تبسط ظلّها على ما حولها، حتى الاغتسال بمياه البحر الشامي

فتُؤمّن جريانَ النفط لنا

ولا بأس في كسر نفوذ أصدقائنا القدامى

و... ترفُل (إسرائيل) بنعيم السلام!

فلوريدا: مساء الخميس ١٦-١-٢٠١٤

يا للي زرعتوا البرتقان...!

البرتقال، تلك الثمرة الشهيّة مذاقًا، اللطيفة منظرًا، والغنيّة بفيتامين C غذاءً، ويلفظها

السوريون وكثير من العرب بالنون برتقان، وبعضهم بدمشق يبدّلون بالتاء دالًا بردقان، وأما في الساحل فهو الليمون!

وقد تعرّفت في مصر، وأنا طالب بجامعة القاهرة منتصف القرن الماضي، على صنف من البرتقال زكيّ الطعم يسمونه أبو صرّة (لأنّ في قمّته ما يُشبه سرّة البني آدم!). وكان ممّا يشيع في بلاد الشام آنئذ ما نسمّيه بحلب يافاوي (كان يأتينا من يافا الفلسطينية) وتغيّر الاسم إلى شموطي، ثمّ لم يمض إلا يسير وقت حتى انتشر أبو صرّة في سورية، ورأينا أنّ بعض المطروح منه كبير الجِرم، قد تضاءلت زكاوته لإسرافهم في استعمال الأسمدة.

وعرف العرب من أنواع الحمضيّات الليمون والنارِنْج والأُتْرُجّ (الذي يُعرف في الشام باسم الكبّاد). ثمّ تأتّى لهم وللعالم أن يعرفوا صنفًا آخر من الحمضيات... وذلك أنّ الدولتين في شبه الجزيرة الإيبيريّة، إسبانيا والبرتغال، بعد أن تحوّلتا في مطالع القرن السادس عشر إلى دولتين استعماريتين، واتجهتا في التفاف حول القارة الإفريقية نحو المشرق والشرق الأقصى، كان أن تعرّف البرتغاليون في أطراف بلاد الصين على هذه الشجرة، وزرعوها في بلادهم، ومنها انتشرت في سائر أنحاء العالم، وكلّ سمّاها بما تراءى له، ولم يتأخّر العرب في أن يطلقوا عليها اسم الدولة التي منها جاءتهم، البرتغال: «البرتقال»، ملفوظًا حرف القاف محنّكًا G، أو قُرَشِيّا قاف، أو على نحو ما يلفظه سكان بعض المدن في بلاد الشام ومصر همزةً: برتآن!

ويكون طريفًا إذا ذكرنا أنّ في حلب ما يسمّى باب أنطاكية (الذي منه كان يخرج المسافرون إلى مدينة أنطاكية غربًا) وأيضًا باب قِنِّسْرين (المسافرون جنوبًا إلى مدينة قنسرين البائدة)... أقول: إنّ مثل ذلك كان في مدينة في البرتغال من ذلك الباب يخرج المسافرون إلى بلاد الغال (أي فرنسا)، واسمه عندهم Porto–Gal، فنحن نأكل الفاكهة التي سمّيناها باسم ذلك

الباب! وللعلم إنّ أكثر البلاد إنتاجًا للبرتقال هي البرازيل، تليها الولايات المتحدة الأمريكية. ومن الدول المنتجة أيضًا مصر.

ويطيب لنا أن نذكر أيضًا أنّ هناك أغنية مطلعها «يا للي زرعتوا البرتقان، يا الله اجمعوه، آن الأوان، يا الله يا الله»، تُغنّى بصوت مطربة اسمها رئيسة عفيفي، ويشاركها في الغناء الفنان الخالد محمد عبد الوهاب في فيلم ممنوع الحب (عام ١٩٤٢).

وفي سورية نشرب عصيرا من البرتقال ورديّ اللون، يسمّى الدَّمَوي، ولكنّا بتنا في أيامنا هذه... نرى كلّ أنواع البرتقال بلون الدم وبطعمه!

فلوريدا: مساء الجمعة ١٧-١-٢٠١٤

تعالوا نُسمّيه البحر الشامي!

في سوريّة نسمّي حدودنا الشمالية: الحدود التركيّة، لأنها متاخمة لتركية. وقديمًا سمّى العرب ذلك الخليج المطلّ على بلاد فارس الخليج الفارسي، فظنّ الفرس أنّ الخليج لهم، وأخذوا يقضمون بلادنا مبتدئين بجُزر موسى الإماراتية.

وكان مؤرّخونا القدامى يسمّون ما هو معروف اليوم بالبحر الأبيض المتوسط بحرَ الروم لإطلاله على بلاد الروم، أي اليونان، على حين سمّاه الأندلسيون من هناك البحر الشامي، لأنه يُفضي إلى بلاد الشام التي أحبّوها.

أقول: تعالوا نسمّي هذا البحر في كتبنا ومدوّناتنا منذ اليوم البحر الشامي!

فلوريدا: صباح السبت ١٨-١-٢٠١٤

ويظلّ أطباء الأسنان.. أطباء

كان طيّبًا ما قام به أطباء الأسنان من هبّة في وجه ذلك الوزير، الذي همّ بأن يحجب عنهم

صفة الطِّبابة، فيما تُعِدّه وزارته من مشروع مرسوم يتعلق بعمل المهن الطبية، فتعالت أصواتهم منّدّدةً، وما فاتهم أن يشيروا إلى ما سوف يلحق من ضرر بزملائهم الخمسة عشر ألفا الذين يعملون خارج حدود الوطن، إذ كيف يعترفون هناك بكونهم أطباء إذا كانت دولتهم ممثلةً بوزارة الصحة تحجُب عنهم هذا الاعتراف؟

وممّا استرعى الانتباه في هذه الهبّة المباركة، أن بادر هؤلاء الأطباء إلى إنشاء صفحة في الشابكة، سمّوها «لا لسحب كلمة طبيب من أطباء الأسنان»، معبّرين فيها عن منتهى سخطهم وبالغ غضبهم على الطعن في مهنتهم التي هي مورد رزقهم وموئل اعتزازهم.

وكان طيّبًا أيضًا أن أسرع الوزير الهُمام يعتذر عمّا تناهى إليهم من خبر، ويتبرّأ، على الهاتف، بقوله: «وهل يقبل عاقل مثل هذا الطرح؟ وكيف يمكننا أن نفكر بمثل هذا الأمر في وقت نحاول فيه جاهدين دعم الأطباء على جميع الصُّعُد؟ »، مؤكّدًا «أننا ننفي بشكل قاطع هذا الأمر! ».

أقول: إنّ هذه السرعة في الاحتجاج، والسرعة المماثلة في التراجع، لو أنّ مثلهما تجلّى في محنتنا الوطنية، أعني التضامن في صفوف الشعب المطالب بحريته، فلا يكون بينهم متردّدون ومتذبذبون، ولو أنّ النظام عرف مواطن الخطأ في تصرفه ومواطئ القدم في سيره، فجنح إلى الاعتراف وباشر بالإصلاح والتغيير والقضاء على الفساد، إذن لما حلّ بالأمة ما نرى من تدمير وتهجير.

ولكن الله سبحانه شاء أن ينعم الأطباء، الذين يُطبّبون الأسنان ويُطيّبون الأنفاس، بتحقيق المراد خلال ساعات أظنّها دون الثماني والأربعين ساعة!

فلوريدا: منتصف ليل السبت ١٨-١-٢٠١٤

سحب لقب طبيب.. هل كان نكتة؟

بمناسبة ما أشيع أمس عن محاولة تجريد أطباء الأسنان ممّا يتمتّعون به من لقب طبيب، يمكنني القول، استطرادًا: إنّ لقب دكتور، الذي يحمله الطبيب البشري، ليس صحيحًا ابتداءً، فخريج كلية الطبّ مثله مثل خريجي الحقوق والآداب والعلوم، يحملون جميعا إجازة مرحلة الدراسة الجامعية الأولى، وأما لقب الدكتوراه فهي لمن اتّبع الدراسات العليا، في الطبّ أو في الآداب والعلوم وسوى ذلك، ولكن جرى الأمر، مصادفةً أو اتفاقًا، على أن يسمّى الطبيب دكتورا، في بلدنا وفي كثير من بلدان العالم.

وأذكر أيضًا أني حين سكنت مصر طالبًا في جامعتها قبل عقود من السنين، كنت أقرأ على واجهات الصيدليات مثل هذا: أجزخانة[1] الـ...... لصاحبها الدكتور.....، فقد استطاع الصيادلة هناك أن يتساوَوا مع الأطباء البشريين في حمل هذا اللقب. وعلى ذلك فليس في وسع وزير الصحة ولا وزير التعليم العالي، أن يسحبا أو يُجرّدا أو يلغيا مثل هذه الحقوق المكتسبة التي كفلتها القوانين.

وأرجّح أنّ الوزير المعنيّ في محاولة أمس، لم يعمد، ولم يعمل، لا ولا فكّر في سحبٍ أو تجريد. ولعلها كلمةٌ غير مسؤولة، أو هي همسة قام بنشرها خصوم الوزير قصد أن تُفتح عليه النار، وأفلحوا. وهل هذا أوان ذلك، في زمن تسيل فيه الدماء حتى الركب وتُهجَّر الأجساد والعقول، فلم يبقَ إلّا تعديل مادة في مشروعِ مرسوم يبيّن حدود المهن الطبية؟!

كأني بها نكتة أطلقها خبيث في هذا الزمن الرديء!

فلوريدا: ليل الأحد ١٩-١-٢٠١٤

---

(١) صيدلية.

الوطن.. والمواطن

كتبتْ له:

ساعة دخلت المطار، وبينما أنا أمام البساط الدائر أنتظر مرور حقيبتي، سمعت هذا النداء: «على ركاب الرحلة المتوجّهة إلى دمشق، التوجّه إلى البوابة... »، لم أستطع إمساك دموعي!

إنها عاصمة بلادي، التي أصبح ممتنعًا عليّ أن أطأ أرضها، تؤكد لي النداءات في المطارات أني أفتقد حتى بلاطة واحدة، ثابتة، أقف عليها في هذا العالم المترامي الأطراف!

كتب لها:

عدت، مساء أمس الأحد، من المنتجع الذي ذهبنا إليه أنا وأفراد أسرتي، حيث شَوينا اللحم في الهواء الطلْق، وشربنا الماء الزلال، وتزحلق الصغار في الملاعب، وتَمَرجحوا، وحملوا المضارب إلى حلبات التنس مَن يُحسِن منهم اللعب ومَن يبتدئ.

لم تدمع عيناي، وأصواتهم تترامى إليّ أشكالا وألوانا. كنت أستحضر في ذاكرتي هدير الطائرات وهي تقصف بيوت أهلي في الوطن، وأتخيّل السكاكين تمرّ على أعناق الرُّضّع، وأسمع هتاف الغرباء المبتهجين: «يا...! »، وأشهد الجوع في مخيّم اليرموك، وأتابع التشرّد في الزعتري.

كان القلب هو الذي يبكي، يا غالية!

فلوريدا: ضحى الإثنين ٢٠-١-٢٠١٤

وجاءني صوت عربي.. من بعيد!

بنبرة عالية من النصح الطيّب، كتب في صفحتي: أيها السوريون! ماذا دهاكم! أليس فيكم رجل رشيد؟ ما الذي تجنون من هذا التناحر؟

فكتبتُ: أحقًّا تراه تناحرًا ما يقع في بلدنا، أيها الصديق؟ أي أنّ بعضنا ينحر بعضًا! لو تتخيّر مفرداتك بعناية، أيها العربي المقيم بعيدا!

كتب: إنما أريد لمطالبتكم بالإصلاح أن تكون سلميّة.

كتبت: إنها سلميّة، سلميّة، سلميّة! ولكنّ النظام أراد تحويلها إلى دامية مُدمّاة يُثْخِن فينا بحرب استباقيّة! للعلم، كنا توقّعنا الإصلاح في ربيع دمشق قبل بضع عشرة من السنين، أتاحوا لنا مجال التعبير ليتعرّفوا على أفكارنا وأشخاصنا، ثمّ زجّوا بنا في غَيابات السجون... وأنت لا تعرف من هذا شيئًا أيّ شيء، أيها الصديق الذي لم تكتحل برؤيته عيناي.

تابع: إنها مؤامرة صهيو-غربيّة، لتدمير وطنكم وشعبكم، لو تعلمون!

قلت: أجل! ما يدمّرنا هو القصف الآتي إلينا في وضَح النهار، والغاز يرُشّوننا به مع الفجر الوليد. ثمّ... ثمّ نحن لم نعد نقبل من إخوتنا الكرام، في العروبة والإسلام، أن يضخّونا نصحًا، وهم مجرَّدون من معرفة الحقيقة والواقع! اقرأ من فضلك، اقرأ ما ترعَف به الأقلام، المقتولُ آباؤهم وأبناؤهم، المغتصبةُ نساؤهم، المحزوزةُ أعناق أطفالهم من الوريد إلى الوريد... اقرأ، اقرأ، اقرأ، إن كان عندك متّسع من وقت!

بعد ساعات... جاءني منه:

أستاذي الكريم، لقد قرأت اليوم كثيرا، وعلمت ما لم أكن أعلم. وأعترف لك أيضًا بأني تأثّرت كثيرا بآخر خواطرك وشاركتُ بها في صفحتي.

أقول لك: بارك الله بك، وبعملك، وبعقلك. أعتزّ بصداقتك وبمعرفتك. ودونك أرقام هواتفي، وعنوان بريدي الإلكتروني! تحيتي لك».

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ٢١-١-٢٠١٤

ما بعد الرحيل

لا تظنّوا أنّ البراميل التي تُسقط حمولتها فوق الرؤوس، وأنّ السكاكين التي تمرّ على الرقاب، تقصد قتلَ من تصيبهم فحسب، إنها تريد أن تبثّ الذعر في النفوس، فيهجرَ الناس بيوتهم، وتَفرَغَ البلادُ من سكانها،

تمامًا كما وقع لإخوتهم الفلسطينيين، الذين هجروا أعشاشهم، وناموا تحت الخيام في غير أوطانهم زمنًا، قبل أن يبنوا بيوتًا من حجر!

فلوريدا: ضحى الأربعاء ٢٢-١-٢٠١٤

طالبة ماجستير

اسمها عهد. ربّة بيت. تزوّجت صبيّة. تابعت التحصيل العلمي مع أبنائها. استهوتْها، وهي تدرُس في كلية الآداب، قصصُ كاتب رأته يتصدّى للطغيان في الوطن وللفساد في المجتمع، فعاهدت النفس على أن تُدير أطروحة الماجستير على أدبه. لم يَرُق الموضوع لمتولّي الأمور في جامعات البلد، فتوجّهت بموضوعها، تحت الضرب والقصف، إلى العاصمة المجاورة. وبعد عودتها مظفّرة، صادفتها معضلة في تأمين مراجع البحث!

كتبت إلى الأستاذ، حيث يقيم بعيدًا، تشكو من أنّ المركز الثقافي أغلق أبوابه وانتقل العاملون فيه بأوراقهم وسجلاّتهم إلى مبنى مؤقت في منطقة تنعم بالأمان.

ودار الكتب الوطنية تقع على خطوط التماسّ بين الجيش الحرّ والجيش النظامي.

وأما المكتبة الوقفية، المستحدثة، التي ضمّت كامل أعماله، المتاخمة للجامع الكبير فالحريق، الذي أتى على هذا الجامع نتيجة القصف، قد امتدّت ألسنة اللهب منه إلى المكتبة

الثاوية تحت جداره الشمالي، فالتهمت موجوداتها كلّها.

وتعذّرت عليها العودة إلى الإنترنت، ذلك أنّ الكهرباء كلما جاءت مصحوبةً بالماء هُرعت الأسرة إلى المطبخ يغسلون الصحون، وإلى الغسّالة يعالجون الملابس، وإلى الحمّام يغسلون الأبدان!

فكيف، بالله، يمكنها أن تُنجز الأطروحة، التي نذرت نفسها للاشتغال فيها، منذ كانت في مرحلة الدراسة الجامعية الأولى!

لما اطّلع الأستاذ على شكواها، كتب لها -وهو المولع بالمزاح في الأفراح وفي الأتراح- قال:

يا عهد العهود!

قرأت، وتأثرت كثيرا بما يُحلّ بالوطن، الذي غادرتُه منذ قريب مُكرها.

أُقرّ لك بعجزي عن أن أفعل من أجلك، إلّا شيئًا واحدا، هو أن تطلبي من زوجك الغالي إجازة لبضعة أشهر، تنزلين فيها ضيفةً على الأسرة هنا، وقد حَمَلتُ معي كلّ ما يخطر في بالك من مصادر ومراجع وأوراق ووثائق، وتتركي لزوجك هموم الماء والكهرباء، ومهمة تحميم الأبناء!

فلوريدا: مساء الخميس ٢٣-١-٢٠١٤

بس، تقبرني، ليش؟

في خمسينيّات القرن الماضي، عمدت الحكومة - تشجيعًا للنسل - إلى أن تقدّم للأمهات والآباء الذين يُنجبون أولادًا أكثر بطاقات تمنحهم ميزات.

ومع بَسْط حكومات الستينيّات قبضتها على المجتمع، وإصدارها قرارات وقوانين

متعسّفة أصبحت جزءًا من حياتنا اليومية، تراءى يومًا للموظف الذي يُعِدّ هذه البطاقات، أن يُمازح إحدى الأمهات الطيّبات، وهو يأخذ بَصمتها على تسلّمها البطاقة، قال جادًّا: «اسمعي، يا خالتي خديجة... أنت من اليوم صار اسمك علي! »، فصدّقت المرأة وقالت مستسلمة: «اي متل ما بدكن... بس، تقبرني، ليش؟! ».

اليوم، وقد لاحظت الحكومة زيادةً في النموّ الديمغرافي في البلاد، نراها تعمد إلى تحجيم أعداد السكان، بالقصف بالبراميل، وبالسارين، وبالتهجير في كل مكان.

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٤-١-٢٠١٤

الشباب.. ما المصير!

الآن عندي الليلُ في أوله.

وعنده الفجر قد سبق.

ما الذي حمل هذا الشابّ السوري من أبناء حلب الشهباء، الذي كنت استضفتُه يومًا بدمشق، الجامعيَّ المتخرّج حديثًا، على محادثتي في هذه الساعة من الفجر الوليد، غيرُ الأرق، والقلق، والحنق!

يُعلمني، وهو حفيدٌ لصديقي المترجم الأديب، أنّ لبنان، الذي تنتمي إليه والدتُه، قد رفضه لاجئًا، وأنّ الخليج، الذي وُلد فيه وعاش وترعرع، وما زال والده فيه يعمل، يرفضه أمس عاملا شغّيلا!

ويسألني إلى أي وطن يلتجئ؟

بعضهم يمصّون الدماء، ثمّ... يسفحونها!

وشبابٌ تَحفى أقدامهم في التنقّل بين الدول، بحثًا عن عمل، ويتساءلون: أين المصير!

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ٢٤-١-٢٠١٤

ومضى كسير الخاطر

قرأ، الساعةَ، كلمتي: الشباب.. ما المصير!، فطلب الصداقة، ثمّ جعل يحدّثني عن أنه غادر الوطن، وترك الزوجة والطفل في المخيم، وأخذ يبحث في تركيا عن عمل... ثمّ يسألني، في خجل، عمّا إذا كان لي في تركيا معارف؟ ورأيته بعين الخيال يمضي عني كسير الخاطر!

أيّ حال من العدم دفع النظام إليها أبناءنا؟

فلوريدا: منتصف ليل الجمعة ٢٤-١-٢٠١٤

حديث صباحي... في الدين والأدب

باكرًا نهضتُ، لأستقبل طلوع الشمس.

وكأنه، هو، كان يترصّدني، والنهارُ في بلده قد تنصّف.

فما إنْ فتحتُ، حتى ارتسم سؤالٌ منه لهيف: «هل لي بدقائق من وقتك، يا سيدي؟».

وأخذ يروي:

هو، في بلده -يقول- شخصية معروفة وله تأثير. يتوجّه إليه بعضهم، من دعاةٍ دينيين وملحدين، يحاول كلٌّ أن يقنعه بتغيير دينه، مقدّمين له من الأدلّة والبراهين ما أوشكوا به أن يؤثّروا في نفسيته المرهفة، خاصة ما يتعلّق بالتقمّص والتناسخ، وبالجنة والنار، وبالثواب والعقاب... ويقول: إنه لا قِبل له بمناقشتهم لقصوره في هذا المجال.

من ناحيتي أعترف، أيضًا، بأني لست طويلَ باع في هذه المسائل، إلّا من بالغ اعتزازي

بمنجزات الحضارة العربية الإسلامية، التي عمّت المعروف من الأقطار والأمصار زمنَ الفتوحات العظيمة، وقبل أن تنبهر الأنفاس... ثمّ تتوالى المحاولات لاستردادها!

ومع حرصي، هنا، على ألّا أشير إلى الدين الذي ينتمي إليه منذ الولادة هذا الصديق، الذي جاء يحدّثني قبل طلوع الشمس، فقد وجدتني أعبّر -بعفوية المثقف (إنْ عُددتُ كذلك!)- عن أنه طيّبٌ أن يكون للإنسان معتقدٌ يمنحه سكينة النفس، مثلما يكون لكلّ من الآخرين معتقده الذي يجلب له الطمأنينة، وأعني الإيمان بالمصير الذي يؤول إليه الإنسان بعد الممات.

وقد سألته، قبل مغادرتي، عمّا إذا كان يريد أن يضيف شيئًا؟ فأعلمني أنّ له في الأدب والكتابة عناية! والطريف أنه سألني عن القواعد والأسس التي يحسن اطلاعه عليها حتى يستطيع أن يكتب قصة حياته!

ثم استأذنتُه... لأذهب إلى حيث أرقب طلوع الشمس، القادمة من وطني المدمّى!

فلوريدا: ضحى السبت ٢٥-١-٢٠١٤

يا ثورة المليون شهيد...

أهو الخوفُ منّا، أم الانتقام؟

الإجراءات التصعيديّة الأخيرة، التي اتّخذها النظام هناك، ضدّ اللاجئين السوريين الهاربين من جحيم القصف، فأعادهم من المطار إلى حيث أتوا، هل مردّها إلى خوفه من أن توقظ حالتُهم الشعبَ الذي أُعمِلت فيه يدُ القتل والتنكيل الوحشية في تسعينيّات القرن الماضي؟ أم هي رغبته في الانتقام ممّن يراهم فلولًا لثورة قامت ضدّ نظام يُشابهه مثل وقْع الحافر على الحافر!

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٦-١-٢٠١٤

وبالجهل يرفع صوته!

يتساءل المرء: كيف يتأتى لفاقد المعرفة أن يُجهّل العارفين، ويأمر: قبل أن تتكلموا افهموا الموضوع، ثم أطلقوا لسانكم الساخر!

في تعميم فاسد –حسب قول المناطقة– ودون وازع من ضمير، يقول بالحرف الواحد: «إن كلّ أبواب مساجد الجزائر، وغيرها من البلدان العربية، أصبحت تعجّ بالإخوة السوريين طالبين التسوّل، عائلات بأكملها تتسوّل في البلدان العربية، بل أحياء، وفي بعض المناطق قرى كلّها من السوريين المساكين! »

هذا الكذوب –لو صحّ ما يقول– فمن المسؤول عن هذه الكارثة الإنسانية؟ أحقًّا هو الشعب الذي يُستهدَف بالصواريخ بعيدة المدى، ويتلقّى من الطائرات البراميل المتفجرة، ويُرَشّ عند الفجر بغاز السارين، فيضطرّ الأبرياء إلى النزوح والالتجاء في كل مكان؟

ويتباهى بأنّ الجزائر احتضنت اللاجئين من فلسطينيين وصحراويين، ذلك –يقول– أنّ هناك «ثورة ضد الاحتلال». لن أدخل في التفاصيل لأقول موافقًا: إنّ إسرائيل عدوّ محتلّ، لكن لأسأل: هل المملكة المغربية محتلّة للصحراء؟ أيها الكاتب المتماهي مع نظامه، مؤيّدًا حكم العسكر، الذين تراءى لهم أن يضيفوا إلى الدول العربية الـ٢٢، المتهالكِ بعضُها من ضعف، دولة هزيلة أخرى يكون لهم فيها على المحيط مطلّ! وقد خاب مسعاهم، فأقرّوا المنشقّين في خيام نصبوها لهم منذ ١٩٧٥ في صحراء قاحلة، بما تتحمّله خزانة الدولة من باهظ التكاليف.

لن أفصّل، ولكني أزعم أنّ من السوريين القادمين إلى الجزائر من يملك مؤونة حياته، كأولئك الذين رُدّوا على أعقابهم قبل تطأ أقدامهم التراب الجزائري وأُرغموا على العودة إلى مطار الإقلاع، وأغلب الظنّ، أيهذا العزيز! أنهم ما جاؤوا لينضمّوا إلى قوافل المتسوّلين السوريين! (وا خجلةَ الحروف!)

وأما القليل منهم، الذين لا يملكون قوت يومهم، الواصلون بطرق شتى، إلى ما ظنّوه وطنًا ثانيًا، بعد أن فقدوا في وطنهم الأول الملاذ الآمن، والمال، والعِرض، أليس على الدولة الحاضنة أن تستقبل، وترحّب، وتؤمّن السكن والغذاء، بعون من المؤسسات الدولية، فلا تتركهم أمام أبواب المساجد، يملؤون الأحياء والقرى، حسب القول الكذوب!

أليس من نظرة الى حاكم تركيا، الشهم، الذي كان قد تغلّب -بالديموقراطية المنسوجة من خيوط الاقتصاد المتألّق- على منافسيه عبر صناديق الاقتراع السليم، استقبل، ورحّب، وآمنَ من خوف وجوع وظمأ وبرد، ووفّر كذلك التعليم والصحة، وشرّع فوق ذلك كله أنّ مَن يؤذِ سوريّا يُحكمْ عليه بتعويض يعادل ألوفًا من الدولارات؟

لو أنّ صرخة «وا معتصماه! »، ممّا تطلقه الفتيات السوريات اللواتي يُغتصبنَ، كلٌّ منهنّ على مرأى من أبيها وأخيها وزوجها وبنيها، بلغت الأسماع في بلد المليون ونصف المليون شهيد، لما صرّح المتنصّل: «لا تريد الجزائر أن تكون من المؤلّبين على الفتن في بلاد الشام»، ذلك أنه يرفض العلم بأنّ حاملي السكاكين، لحظة يمررونها على الأعناق، يهتفون فرحًا، لاعتقادهم بأنهم يثأرون من أعقاب بني أمية، أولئك الذين في عهدهم فُتحت الجزائر وما وراءها وصولًا إلى الأندلس الغنّاء!

وفي إمعانه، السفيه، يختتم شاتمًا: «عيب عليكم! هذه الشام، بلد الحضارة، لماذا فعلتم بالشام هكذا؟ ».

[قد أكتب عن استقبال سورية منذ مطالع الخمسينيات لشبّان وفتيان تعلموا بيننا في المدارس والجامعات، ومنهم من أصبح الأمين العام لجبهة التحرير الجزائرية، أو كاتبًا روائيًّا يشار إليه بالبنان!]

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٧-١-٢٠١٤

أرقب شمس الصباح

ما بالُها تأخّر وصولها!

غيمةٌ حطّت

فغطّت أشجار الغابة

حتى الضباب

أراه بلون الأرجوان!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٨-١-٢٠١٤

بعض المتقاعسين عن التماس الحقيقة

بعض المتقاعسين عن التماس الحقيقة أو العاجزين عن إدراكها، يعتبون على السوريين أنهم -بانتفاضتهم ضدّ وليّ الأمر- هم مَن استدعى القتل وجلب الدمار.

وعندما نراهم يُسرفون في هذا الاتجاه، يجرحون به أفئدتنا ويمزّقون قلوبنا، فنتوسّل إليهم أن يكفّوا. فإننا نسمعهم يقولون بملء أفواههم: «عجبًا! ألستم من أنصار الحرية والديمقراطية»!.

وينسون أنهم من أتباع الظلم والظلام.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٨-١-٢٠١٤

في خطواتي الوئيدة

بين الشجر

في غيبة القمر

امتلأ صدري فجأة

بعبير عطر الليل

فتذكّرتُه، ينتشر هناك

من حديقة بيتي

يملأ به المارّون صدورهم

وأسمع زفرات قلوبهم:

«اللهم صلّ على النبي!»

في غربتي هنا

من يشمّ هذا العطر...

غيري؟

فلوريدا: ليل الثلاثاء ٢٨-١-٢٠١٤

يومًا...

حدّثني فلاحٌ من الغوطة قال:

مداومة النظر

إلى الماء ينبع من العين

يَشفي العين من الرمد...

في غربتي...

ظننت أنّ الناظر إلى الفجر

الطالع من ناحية الوطن

يشفي...

فإذا هو، لشدّة الآلام هناك

يزيد النظر كلالًا!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٩-١-٢١٤

شقيق الروح

رأيت أنّ أوجاع الناس، في زمن الحرب والقتال اليوم في وطني، تُقرّب بين النفوس وتوحّد القلوب، في دنيا الفقراء ومتوسّطي الحال خاصّةً، هؤلاء الذين يعرفون الحاجة وذلّ الوصول إليها.

ولكني لاحظت أنّ كثيرا ممّن يملكون يختلسون النظر بطرف العين ثمّ ينأون بأنفسهم بعيدًا... فالمال عندهم شقيق الروح.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ٣٠-١-٢٠١٤

نعم.. نحن شعب مرتّب!

في ثلاثينيّات القرن الماضي، ولمّا تكن الكهرباء قد عمّت، كنت أرى وأنا طفل صغير، قبل غروب الشمس من كلّ يوم، رجلاً يَؤُمّ الزقاق، حاملاً على كتفه سُلّمًا خفيفًا، يسنده على الحائط هنا تحت هذا المصباح المُثبت في الأعلى، يصعد، ينظّف زُجاجةَ المصباح، يُعمّره بقدر من زيت الكاز، يُشعله... ثمّ يمضي إلى المصباح الذي يليه.

كنّا نتفرّج، نحن صبيان الحارة، بفضول، على هذا الرجل (ويُطلَق عليه الدومري)، يمرّ بزقاقنا، المتاخم للجامع الأموي العظيم بحلب (الذي أحرقوه أخيرًا!)، لا يغيب عن مهمّته يومًا واحدًا، تتعهّده البلدية. واستقرّ ذلك في ذاكرتنا الجَمَعيّة، إلى أن آن لي أن أدرك أننا شعب يتحلّى بالتدبير، والترتيب، والأناقة، والنظافة، والنزاهة... ذلك كلّه بُعَيد خروج العثمانيين ونحن تحت الانتداب الفرنسي.

لن أتكلم الآن عن انقطاع التيار الكهربائي في مدينتي الحبيبة الجميلة حلب الشهباء، ولا عن البراميل المتفجرة التي ما زالت تتقاطر على رؤوس الأهالي وهم وادعون في بيوتهم.

ولكني أودّ أن أشير إلى أنّ الحكومة لاحظت، في تسعينيات القرن الماضي، الشوارع تغطّي جدرانَها إعلاناتُ المرشحين للمجالس، ففرضت -بالحقّ- أن يؤدّي كلّ مرشّح مبلغا يُصرف على إزالة هذه الملصقات في أعقاب الانتخابات.

الذي كان أنّ الحكومة جعلت تجمع تلك الأموال، وهي غير قليلة، ثمّ تتركنا نتمتّع بالفرجة على وجوه... تحترف التصفيق المتقن... بأيادٍ يقوم أصحابها في اليوم التالي بإنجاز معاملات ملتبسة! ونحن نتصبّح ونتمسّى برؤية هذه الوجوه، على مدى أربعة أعوام كوامل، قبل أن تُلصق عليها وجوهٌ أخرى!

أجل، نحن شعبٌ مرتّب... تنقصه حكوماتٌ تزيده ترتيبا.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٣١-١-٢٠١

المسيحيون في بلادنا.. إخوة وأهل

هل يحقّ للنظام أن يتّهم المطالبين بحريتهم المسلوبة، بأنهم ينوون إيقاع الأذى، أيّ أذى، بالأقليّات الدينية والطائفية والعرقية، وأن يدّعي أنه يريد أن يحمي هذه الأقليات؟! ولماذا إيقاع

الأذى؟ وكيف تكون الحماية؟

أتذكّر، وأنا عن الوطن بعيد، شيئًا ممّا كنت قرأته للمؤرّخ البريطاني الكبير ويل ديورانت في موسوعته قصة الحضارة، أنّ أزهى ما عاشه اليهود في القرون الوسطى في أوربّا من أيام كان في إسبانيا الإسلامية (الأندلس)

وأستشهد من ناحيتي بواقعتين علميّتين بارزتين في الأندلس:

أولاهما أنّ العالم اليهودي، الأندلسي-المغربي ابن جناح، وُفّق في أن يضع قواعد للغته العبرية (ولم يكن لها قبل قواعد)، مستمدًّا أسسها من قواعد النحو العربي، وما زال ما صنع معمولًا به إلى اليوم.

والواقعة الثانية أنّ يهود الأندلس في ازدهار أيامهم، كانوا يترجمون بعض أمهات الكتب العربية إلى العبرية، ومنها الكتاب الطبي الذي اشتغلتُ عليه كثيرًا: التيسير في المداواة والتدبير، للطبيب عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي، وقد سبقوا إلى ترجمته للغتهم كي يستفيدوا منه. وبعد ذلك تمّت ترجمته إلى اللغة اللاتينية ودُرّس في جامعة مونبلييه الفرنسية.

ومحطة أخرى أستحضرها من كتاب تاريخ كنيسة أنطاكيا، لمؤلفه الأكاديمي خريستموس بابادوبولوس، وقد أفرد فيه فصولًا طِوالًا، مؤرّخًا لأيام المسيحيين في الديار الإسلامية. وتوقّف عند أيام كانت فيها تعلو منزلة المسيحيين، إذا ما كان الوالي أو الأمير ابنًا من أمّ مسيحية أو كان زوجًا، فتزيد الحُظوة إلى حدّ أن تستثير غضب الرعية وغَيرتهم!

وفي العصر الحديث نقرأ، عند مؤرّخ حلب الكبير الشيخ كامل الغزي، في كتابه الشهير نهر الذهب في تاريخ حلب، فصولًا عن استقبال أهالي حلب للأرمن القادمين من تركيا أيام المذابح عام ١٩١٥، حيث هيّؤوا لهم الإقامة في الملاجئ والمدارس، وقَدّموا المأكل والملبس. والمؤلف عاصر ذلك كلّه. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ سكان حلب كان عددهم عامئذ لا يتجاوز

مئة ألف نسمة، تماثلها أعداد اللاجئين، الذين ظلّت قوافلهم تتدفّق قادمة من الجانب التركي، في حين يغادرها آخرون لينتشروا في أنحاء العالم. وقد بقي منهم في حلب -حسب معرفتي في أربعينيّات القرن الماضي- ما يعادل ربع سكانها، عُرفوا باعتراف الجميل، وبالإخلاص في العمل والمهارة.

فكيف يُسمَع القول من ناطق في وفد النظام السوري في مؤتمر جنيف ٢، وهو يقول أول أمس موجّهًا خطابه إلى الغرب، ضاربًا على وتر المذهبية الدينية: «نحن ندافع عن المسيحيين! »، ويظنّ أنه يستميلهم: «أليس الغرب مسيحيًّا؟. «

لا، يا زميلتي في اتحاد الكتّاب العرب، الدكتورة بثينة شعبان، التي وقفنا يومًا معًا في حفل تكريم الكاتبة الكبيرة وداد سكاكيني في ربيع ١٩٨٨! ولكني أعرف أنّ السياسة كثيرًا ما تُملي قولَ ما لا يعتقد القائل.

فلوريدا: فجر السبت ١-٢-٢٠١٤

وبالحوار، هادئًا وساخنًا، نتعلّم!

بعد أن أودعت خاطرة أمس عندهم، لم أجد سؤاله بريئًا: «أنت معارض للنظام ككلّ، أم أنك تعترض على جزئيّة فيه؟ ».

الحقّ أني لم أكن راغبًا في الحوار وقد بلغت الساعة عندي الثالثة بعد منتصف الليل، وهو هناك يتمتّع بضحى يومه. فأوجزت: «سؤالك مثير للقول. إنه نظام ظالم، متحيّز، مراوغ! ».

تملّكه الغضب: «يؤسفني أن أسمع هذا الكلام من سوريّ مثقف يشغل مكانة عالية في عالم الكتاب. أشكّك في سوريّتك [هنا تخوين، تلاه توعُّد] ستُبدي لك الأيام ما كنت تعمل على تجاهله... » [أي أنه يتوقّع أنّ النظام سوف يقمعني وأمثالي!].

فتأكّد لي أنّ الرجل يتحلّى بقليل من أدب الحوار مع كثير من المقدرة على الاستفزاز. فأوجزت ثانية: «أنت منهم بامتياز! ولا وقت عندي!». ومضيت إلى نومي.

عند الصباح، تبيّن لي أنّ أحدهم -ربما زميلاً له في المجموعة- قد تدخّل، مؤاخذًا منتقدي، ومبيّنًا له أنه إن لم يعجبه مضمون الخاطرة فليتجاهلها «دون تخوين وتشكيك في الوطنية»، مبديًا هو إعجابه بها!

وقد طال حوارهما، ساخنًا، إلى أن تدخّل كبيرٌ فيهم، مقدَّر، يلفت الانتباه إلى أن لا داعي للتشكيك في وطنية مَن نختلف وإياهم في الرأي، وأي بأس في أن يكون صاحب الخاطرة معارضًا للنظام الحاكم في بلده، فإنّ كثيرا من السوريين غير راضين عن النظام وعن الفصائل المسلحة أيضًا... فتوجّه مناصري بالشكر إلى هذا الحصيف، والآخر صَمَت.

وبذا انتهى الحوار الذي استمرّ ساعتين غير منقوصتين.

هل أقول: إنّ من حسنات الشّابكة أنها فتحت لنا ساحات للتعارف ومنحتنا ساعات للحوار. بعضنا يخطئ. بعضنا يصيب. وكلّنا يتعلّم أدب الحوار، والديمقراطية، هذه التي لم يتوصّل إلى معانقتها ذاك الشعب، الذي أنجز أول ثورات الحرية في التاريخ، إلّا بعد قرن من الزمان سالت فيه أنهار من دماء، فكان أن أسّس في العام ١٨٧٨ ما سمّاه الجمهورية الأولى.

وأحيّي الأصدقاء الثلاثة، وهم من الأشقاء الفلسطينيين.

فلوريدا: فجر الأحد ٢-٢-٢٠١٤

وأصبحت الطفلة.. جدّة!

في ذلك العام البعيد، يوم دخل بيت أهله عائدًا إلى الوطن بعد انتهاء دراسته في دولة عربية عزيزة، وطفلتُه على ساعد أمّها، تجمّعَ إخوته الصغار ملتفّين حول أخيهم الأكبر، فرحين

بالطفلة التي ترعرعت بعيدًا عن عيونهم، واليوم يرونها تحكي وتُجيد الكلام.

سألت الطفلة وهي تنقّل نظرها بين هذا الجمع من الأطفال، قالت باللهجة التي نشأت عليها: «دول بقولوا ايه، يا ماما؟ »، فازداد الأطفال التفافًا حول ابنة أخيهم وضجّوا فرحًا، وامتدّت أيديهم إلى قدميها الصغيرتين المدلّاتين تلمسهما، فنَبَرت بهم: «سيبوني، سيبوني بقا! ».

و... درجت هذه الطفلة في ملاعب الطفولة في مدينتها حلب. وهي ذي صورتها وهي في العاشرة من العمر. ثمّ كان أن اختارت آداب اللغة العربية تدرُسها في الجامعة، انسجامًا مع هواية أبيها في تعاطي الكتابة. ولما تزوجت، وغادرت برفقة الزوج إلى فرنسا للتخصّص، عادت لتتحوّل إلى دراسة الأدب الفرنسي، وغدت بعدئذ أستاذة للفرنسية في المعاهد الجامعية. وأنجب الزوجان ثلاثة: مازن وديمة ورامي. ثمّ، بعد كفاح أربعين عاما، قررا أن يلتحقا بابنتهما، التي سبقت إلى أمريكا، حيث افتتحت وزوجها مؤسسة لحضانة الأطفال، بدأت بقلّة منهم ثمّ اتسعت للمزيد.

إنها ابنتي البكر سوزان، وإنه زوجها الدكتور عبد الجواد سعود، اللذين افتتحا صفحة جديدة في الحياة والعمل، هنا في فلوريدا، وقد أنعم الله عليهما من أولادهما الثلاثة، وممّن اقترنوا بهم - الكنّتَين الجميلتين دارين وعَفْيَت والصهر العزيز فرناس طَلَس - بالأحفاد والأسباط، موزعين بين أمريكا والخليج.

من منزلها في مدينة بالم باي Palm Bay أكتب لكم، أيها الأصدقاء.

فلوريدا: فجر الإثنين ٣-٢-٢٠١٤

كيف نَهْنأ بلقمة؟ بشُربة ماء؟

كيف نضحك؟ نبتسم؟

كيف تَغمَض لنا عين؟

كيف نَنْبِس بكلمة؟ نَخُطّ حرفا؟

ودمُ شعبنا يُهدر!

وبيوت الوطن تُدمّر!

ومن تحت الأنقاض يَخرج من بقي حيًّا!

وإذا، خطَأً، ضَحِكْنا لحظةً

اعترانا الندم... إلى حدّ البكاء!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٣-٢-٢٠١٤

مختطف أبو رمّانة!

عصر يوم، وفي أثناء سيره في أحد الشوارع المتفرعة من شارع أبو رمانة لقضاء حاجة، ألقوا القبض عليه. شابّ تبدو عليه سيماء الرصانة والوجاهة، يعمل في إحدى الهيئات الأجنبية بدمشق. دقّ الأهل الأبواب، ما خلّوا بابًا، ليَعلَموا فقط ما إذا كان ابنهم حيًّا أم هو في عداد الأموات! إلى أن تلقّوا مكالمة هاتفية من مجهول بأنه في خير، وهو في الفرع الأمني رقم كذا، ويطلبون فدية كان مقدارها ممّا تعجز الأسرة عن تأمينه!

بعد أيام تلقّوا مكالمة، ألجؤوهم فيها إلى أن يسمعوا، فردًا فردًا، صوتَ ابنهم وهو يتلقّى التعذيب... وبعد أيام أخرى قالوا: إنه مات، وبإمكانهم أن يأخذوا جثته مساءً من حاوية

القمامة القريبة من البيت، فتولّى البحث الأبُ المرزّأ، ومضى في ذلك حتى الحارات المتاخمة!

بعد حين تقرّب من الأسرة واحد منهم، وأكّد لهم أنّ ابنهم حيّ، وعرض عليهم التوسّط لإطلاق سراحه، وطلب، واستجابوا، حتى استنفدوا مدّخرات الأسرة، وأخذوا يستدينون، والوعد في كلّ مرة أنه سيدخل عليهم ساعة العصر ويكون ابنهم برفقته. فكانت الأم، الحزينة، تطبخ في النهار من المآكل ما تعرف أنّ ابنها يفضّله... وفي الليل تبكي!

ثمّ كفّ الوسيط، المبتزّ، عن زياراته. وكفّت الأم عن أن تُعدّ المآكل المشتهاة، ولكنها ما كفّت عن بكاء الليل... إلّا أنه أصبح بلا دموع، لأنه انتقل إلى القلب.

أكتب إليكم، أيها القراء الأعزاء، هذه الحكاية، التي عرفتُها في منتصف الليل الذي مضى من إحدى صديقات التواصل الاجتماعي، لعلّ الحكاية تصل إلى تلك الإعلامية المهووسة، التي قرأتُ لها ضحى اليوم شتمَها الشنيع لأمتنا العربية، من ذلك أنهم يسرحون مثل البهائم بلا هدف، وأنهم جبناء رعاديد، متناسيةً، الغبيّة، شباب الربيع... ثمّ... ثمّ تكيل المديح جزافًا لذلك الذي يبعث ميليشياته إلينا، فيمرّرون سكاكينهم على الأعناق وهم يرفعون الصوت بشعاراتهم المتخلّفة... وتختم كلمتها: «أتشرّف بتقبيل قدميك، يا بطل العرب!»، فأكّدت لنا، المهووسةُ، أن تقبيل الأقدام يليق بمن خلت شرايينه من أيّ ذرة من الدم العربي، وتجرّد قلبه من كلّ القيم الإنسانية السامية.

فلوريدا: فجر الثلاثاء: ٤-٢-٢٠١٤

مَن تشتمون: الشعب.. أم الحكومات؟

أعزائي! ليس هناك شعبٌ سيّئ... هناك حكومات سيّئة!

مَن الذي سطّر الهزائم والنكسات في زمننا الحديث؟ أهو الشعب، الممتنع عليه القول

والتعبير؟ أم هم حكامه الذين وثبوا في غفلة، وتشبّثوا، واستبدّوا في الحكم والرأي وفي كلّ شيء؟ ترى، لو أنّ الشعوب هي التي تحكم، هل كنا نقع في هذا الكمّ من الفجائع والخيبات، هنا وهناك وهنالك؟

ذاك الذي ظلّ يَعِد الأمة بأن يرمي العدوّ في البحر، فذا هو يرتمي في نيران العدو؟ ويتورّط في حرب مجانية يُبعِد فيها جيشه إلى هناك، تاركًا "هنا"؟

وحزب ليس يدري أحد كيف تخلّى عن الأرض، ثمّ لم يبذل جهدًا جادّا لاستردادها، متعلّلاً: «نحتفظ بحقّ الردّ في الوقت المناسب!»

ثمّ يأتي من يشتم الشعب، ويكون هو في تَماهٍ تامّ مع السلطان!

النُّخَب العربية، ما تزال ترحل قوافُلها، وجحافلها، إلى حيث يتاح لها العمل والبناء، على حين أُجهضت مطامحها في أوطانها وفق المبدأ المذلّ: «الولاء قبل الكفاءة»! وكيف نفسّر قدرة هذا الشعب المعطاء على النجاح هناك إلى درجة باهرة، وقصوره هنا إلى حدّ الدمار؟

أجل، أصدقائي... ليس هنا شعبٌ سيّئ! انظروا إلى دولة جنوب إفريقية. من الاستعمار العنصري إلى التعايش النموذجي. والزعيم الذي حقّق، لم يستأثر، تخلّى، ومضى خالدا مخلّدا! والهند، أمّ الثلاثمئة لغة ودين وطائفة!

أيها المواطن!

لا تشتم شعبك! فإن فعلت، فإما أنت خبيثٌ، منافق -العفو منك! - مغرِّر (بالكسر)، وإما طيبٌ، ساذج، مغرَّر بك! وكثيرًا ما رأيت سذّجًا يحلو لهم أن يشتموا الشعب بكذا وكذا... تدفعهم إلى ذلك نزعةٌ تطهُّريّة، فكأنهم، إنْ نقدوا أو شتموا، كانوا في منزلة أسمى وأرفع!

أيها الشاتمون، الشامتون... ما أنتم إلّا أذيالٌ لطغمة قائمة، أو لطغمة قادمة على الطريق.

عار عليكم.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٤-٢-٢٠١٤

هل تتنزّل راحةٌ على قلب النظام

هل تتنزّل راحةٌ على قلب النظام، ويشعر بالتشفّي، عندما يقتل بالتعذيب مواطنًا كلّ ذنبه أنّ أباه ناشطٌ ينادي بالحرية؟ [مثال وسام سارة ابن الإعلامي فايز سارة!]

فلوريدا: صباح الأربعاء ٥-٢-٢٠١٤

كما لا يقع في حرب

كما لا يقع في حرب، ولا في سلم، حتى ولا في الخيال...

إنّ الذين يُسقِطون البراميل المتفجرة على حلب وغيرها، نراهم يبتهجون وكأنهم في نزهة، تشهد على ذلك الصورُ التي يتبادلون التقاطها للذكرى وهو يرمون!

فليُسجّل التاريخ أننا في عصر انحطّت فيه القيم الإنسانية إلى درك يفوق التصوّر.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٥-٢-٢٠١٤

فسيفساء الشام البديعة!

لعلّ من أجمل ما تمتاز به بلاد الشام أنّ المجتمع فيها يتشكّل من أعراق وأديان وطوائف شتّى، كانت تنضاف إليها في كلّ حين جماعاتٌ، ليس آخرَها جندُ إبراهيم باشا المصري، الذين فضّلوا البقاء بجوار زوجاتهم الشاميات وأولادهم عند انسحاب الجيش وعودته إلى مصر (وما زال كثير منهم يحملون اسم عائلة المصري)، والأرمن النازحون من تركيا عام ١٩١٥، وأشقاؤنا القادمون من فلسطين قبل ستين سنة أو سبعين.

ولقد تأتّى لهذه الجماعات البشرية، أن تتعايش وتتآلف، وتشكّل - في الأقطار الشامية الأربعة - فسيفساء بديعة في نسيج المجتمع، كان من شأن ذلك أن تجلّت شخصية الإنسان الشامي المعاصر المتميّزة.

وكان عجيبًا ونابيًا أن يعمد النظام، منذ اندلاع انتفاضة الحرية، إلى الادّعاء بأنّ بعض هؤلاء ينوي القضاء على بعض، وأنّ النظام معنيّ بالحماية!

فأيّ افتراء على الحقيقة والتاريخ!

فلوريدا: مساء الأربعاء ٥-٢-٢٠١٤

نبكي... ويفرحون!

قبل سنوات، في ذلك الشتاء الأليم...

عندما أخذ العدّو يرمي إخوتنا، هناك، بقنابله العنقودية، ويرشّهم بنيرانه الفوسفورية، ويشطُر أحياء المدينة بدباباته ليزيدها دمارًا...

كنّا نشاهد، من هنا، بأمّ أعيننا ونتألم إلى حدّ البكاء، على حين أنهم، هناك، يرقصون ويغنّون... فنتساءل: أين ضاعت القيم الإنسانية!

اليوم...

صواريخُ تُرسَل من مسافات، براميل تُلقى من عل، أطفالٌ يموتون اختناقًا... وتُزهق - على مدى سنوات- أرواحٌ وأرواح، ويتشرّد الناس هائمين من جوع ومن برد... فيفوق هذا ما وقع في ذلك الشتاء الأليم...

نحن، هنا، نتألم حتى الموت... وهنا، هنا أيضًا، منّا من ينتابه الفرحُ حتى الجنون!

أيمكن أن يكون هذا الفعل قد استطاع أن يُصدِّع النفوس، ويُحجِّر العقول، ويُبلّد

المشاعر، فيَحُطّ بالبشر إلى هذا الدرَك الأسفل؟!

ماذا يجري في هذا الكون؟!

فلوريدا: صباح الخميس ٦-٢-٢٠١٤

يا هذا الذي يقصف

يُعذّب حتى الموت

يغتصب

ينهب

يُشرّد

يُذلّ...

نعرفك!

سوف نحاسبك على ما جنيت!

فلوريدا: ضحى الخميس ٦-٢-٢٠١٤

كيف تحبّ السوريّة وطنها!

أشرقت الشمس عندها، وما زلت، في منتصف الليل هنا، أنتظر طلّتها.

طلبت مني نصوصًا ممّا أكتب، ثمّ موجزًا لسيرتي الذاتية. سألتها أن تعرّفني بشخصها بسطرين؟ فكتبت لي، قبيل ساعة، بإيجاز رأيته بليغًا:

«سيدة أربعينيّة. معلمة لغة إنكليزية في الإمارات، والشهادة هندسة. أمّ لشابّين وصبيّة.

بحبّ سورية قدّ ما بحبّ ولادي وأكتر. سورية أمي وأبي وكلّ ناسي. ويؤسفني أن ليس عندي ما أقدّمه للوطن غير الكلمة».

فلوريدا: فجر الجمعة ٧-٢-٢٠١٤

وَجَـعًا.. نضحك!

قلت:

كيف نَهْنأ بلقمةٍ؟ بشُربة ماء؟

كيف نضحك؟ نبتسم؟

كيف تَغمَض لنا عين؟

كيف نَنْبِس بكلمة؟ نَخُطّ حرفًا؟

ودمُ شعبنا يُراق!

وبيوتُ الوطن تُدمّر!

ومِن تحت الأنقاض

يُخرِجون مَن بقي حيًّا!

وإذا، خَطَأً، ضَحِكنا لحظة

اعترانا الندم... إلى حدّ البكاء!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٣-٢-٢٠١٤

* * *

قالت:

فِي كلّ الأحوالِ، يا سيّدي؛

نحن نضحك وجعاً،

نبتسم بالمشقّة أحياناً..

سيّدي..

إنّ الإنسان جُبِل على فِطْرة،

فنحن نكسِر كثيراً

ونُكسَر مرّاتٍ!

فواللهِ، ثمّ واللهِ

إِنّ الدماء سَتبتسم؛

وتُورِق؛ وتُزهِر..

وسَتَغَصّ الأَرضُ بمَن كان يُريقها..

بسمة بهيّان

حضرموت، اليمن: ٤ فبراير ٢٠١٤

- -

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٧-٢-٢٠١٤

أحزان... للزمن الآتي!

عندما كنت تلميذًا في الإعدادي، في أربعينيّات القرن الماضي، كان زميلي وصديقي الحميم معاوية يحدّثني بما تردّده أمّه على مسامع أبنائها من أنه كان لها أخٌ شابّ وسيم، أخذوه

مجنّدًا في حرب السفر برلك (١٩١٥)، ثمّ لم يعد... فكانت أحزان أسرة صديقي تسري إليّ وهو لا يدري!

غدًا...

كم من أمّ، من أب، قد فقدوا الأخ، والابن، والأب، وأُبيدت حولهم أسرٌ بأكملها! وكم ذا من الأحزان تعشّش في الصدور، ويجري الحديث عنها، والمتحدث والسامع مُرَزّأ[1] مكلوم!

فلوريدا: مساء الجمعة ٧-٢-٢٠١٤

الدكتورة المهندسة نجوى عثمان

اسم يعرفه أهل العلم وذوو التخصّص في التراث العلمي العربي، الهندسة المعمارية على وجه الخصوص. عرفتها قبل ثلاثين عاما وهي تشدو في مضمارها، تحضّر أطروحة الماجستير بجامعة حلب، ثمّ تنال مؤهِّل الدكتوراه، وتقدّم بحوثها المعمّقة في المؤتمرات السنوية التي يقيمها معهد التراث العلمي العربي. وما هو إلّا يسير وقت حتى اتسع نشاطها، فخرجت إلى تركية (أيام شهر العسل مع الجارة!)، وإلى بعض دول الشمال الإفريقي، وصولًا إلى الأندلس، إشبيلية وقرطبة اللتين هما من حواضر إسبانيا اليوم.

وذات عام تحتاج جامعة حلب إلى من يُدرّس موادّ تمُتّ بصلة ما إلى تخصّصها، فعهدوا إليها بتدريس إحداها، ثمّ بثانية وثالثة، وهي من المقررات الصغيرة البالغة التخصّص وتستدعي الغوص في البحث والتقصّي لتصيّد لآلئ المعرفة، فقبلت أن تكون أستاذة محاضرة تتقاضى مكافآت على ساعات العمل، فمرفوض من قبل أجهزة الأمن أن تكون عضوا في الهيئة التدريسية، مردّ ذلك إلى حجابها السابغ وانتمائها إلى أسرة متديّنة. وكان يضايقها -تحدّثني على

---

(١) مصابٌ بفقد عزيز.

الهاتف إلى دمشق- السؤال عنها والتحرّي كل مدة، يسألون المعارف، والشانئين، مبتدئين بها: اسم الأب والأم والميول!

وذات يوم يُبْلغها عميد الكلية أنها موقوفة من ساعتها عن العمل. أمر من الأمن غامض! بعد ذلك تعجز الكلية، والجامعة، ووزارة التعليم العالي، عن التعرّف على من يتولّى تدريس هذه المواد!

لم يمهل القدر الدكتورة المهندسة نجوى عثمان. استُشهدت في حادث سير، وهي عائدة من رحلة سفر علمية، تصحبها طالبتان كانتا قد قَدِمتا من الجزائر للتخصّص في التراث الهندسي، فقضى الثلاث، وكلّ من كانوا يستقلّون الميكروباص! وقع هذا الحادث الأليم يوم الإثنين التاسع من شهر شباط/ فبراير سنة ٢٠٠٩، ونجوى من مواليد مدينة الباب (شرقي حلب) عام ١٩٥٤.

من أعمال نجوى عثمان المنشورة:

• الهندسة الإنشائية في مساجد حلب (أطروحة الماجستير)، حلب ١٩٩٢.

• دراسة مقارنة بين المساجد القديمة في حلب ومدينة القيروان (أطروحة الدكتوراه)، دمشق ٢٠٠٠.

• حلب في مئة عام، ١٨٥٠-١٩٥٠، ثلاثة أجزاء، بالاشتراك مع محمد فؤاد عنتابي، جامعة حلب، ١٩٩٣.

وغدًا، في الذكرى الخامسة لرحيلها، يأذن لي أصدقائي أن أنشر في صفحتي الكلمة التي قلتها في تأبينها، والتي اعتَذر عن نشرها الإعلام في وطني، بحجة أنّ نجوى عثمان ليست شخصية معروفة!

فلوريدا: مساء السبت ٨-٢-٢٠١٤

لماذا قالت ميسون ذلك!

قبل بضعة وأربعين عامًا، رصدتُ في قصة كتبتها، رجلاً، أبًا، يَذرع أرض داره في هزيع من الليل مُصغيًا إلى أصوات الطَّلْق تصدر عن زوجته وهي في المخاض.

لنستمعْ إليه، وهو يُعبّر عن مشاعره بضمير المتكلم:

وسمعتُ صوت القابلة يصل إليّ عبر النافذة: هذه آخر طَلْقة... اضغطي بكلّ قوتك... يا مهَوّن! يا معين!.

ومزّقت الصرخة سكون الليل، حتى خالها بلغت سمع القمر، الذي آن له أن يغيب.

وساد صمت... ثوانٍ خمس... عشر... دهرٌ طويل... وانفجر بكاء الوليد! وارتفع، في هذه اللحظة، اسمُ الله، تردّده المآذن القريبة: الله أكبر... الله أكبر....

«وانهمرت دموعي، سعيدًا بأنّ الولادة قد تمّت! حمدًا لك، يا رب، يا من يتردّد اسمه في هدأة الفجر».

كتبتُ القصة، وسمّيتها «وقفة على باب الغيب»، في عام ١٩٦٩، ونُشرت في العام الذي يليه بمجلة العربي. ثمّ إني جمعت بعض ما كتبت من اقاصيص عن الأطفال (وليس لهم)، في مجموعة سمّيتها «رحلة حنان»، قصدت بذلك أني والقارئ نقوم معًا برحلة حنونة في عالم الصغار، وقدّمتها مجموعةً قصصية تربوية إلى وزارة الثقافة في وطني الحبيب، فكان أن رفضَتْها مسؤولة النشر لعدم الجدارة! ثمّ ظهرت في كتاب بالقاهرة (عن دار المعارف بمصر، سلسلة اقرأ، سبتمبر١٩٧٦ في عشرين ألف نسخة)،

بعدها طبعة ثانية عن الدار التي أسّستُها بدمشق دار إشبيلية عام ٢٠٠٢.

أقول: لما قرأتْ هذه القصة صديقتي الأديبة ميسون بحلب (اسم مستعار، للتمويه!) عام ١٩٧٥، وكانت تعرف حكاية الرفض والاعتذار وتأسف له، قامت تهتف لي وأنا بدمشق، لتقول، مشيرةً إلى المقطع الوارد أعلاه، ممازحةً وملامسة الجرح في آنٍ معًا: «من أجل هذا رفضوا نشر كتابك!» (العبارة قيلت!).

السؤال: لماذا خطر في بال صديقتي ميسون أن تقول لي هذا؟!

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٩-٢-٢٠١٤

قال إذلال المجندة الأمريكية

قال إذلال المجندة الأمريكية للمعتقلين في سجن أبو غريب العراقي...

تعالوا شوفوا!!!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١٠-٢-٢٠١٤

في ردّ من فيصل المقداد

في ردّ من فيصل المقداد على استخدام البراميل المتفجّرة، قال بالحرف الواحد: «نحن ندافع عن المدنيين، والمواثيقُ الدولية تسمح بذلك!!».

أسأل: هل هناك أضلّ من هذا القول، وأكثر تجرّدًا من المشاعر الوطنية والإنسانية!

إنه يُباري معلّمه المعلّم[1]، ويطمح لأن يكون محلّه!

فلوريدا: صباح الثلاثاء ١١-٢-٢٠١٤

(١) يقصد وليد المعلم، الذي كان وقتها نائب رئيس الوزراء ووزير خارجية النظام.

حديث عابر.. عن رواية: ثمّ أزهر الحزن

هل لي أن أحدّثكم، أيها الأصدقاء، عن روايتي ثمّ أزهر الحزن، التي بدأتُ في تأليفها في مطلع تشرين الثاني ١٩٦١ ولمدة خمسة أشهر متواصلة، ثمّ صدرت في بيروت في آذار ١٩٦٣، في أربعمئة صفحة ونحو تسعين ألف كلمة!

لعلني أستطيع الزعم أنّ القراء استقبلوها استقبالًا حسنًا، وقالوا فيها قولًا جميلاً، وأتخلى عن تواضع الكتّاب لحظة وأوجز الرأي فيها بما قالته لي زميلة موظفة في الإدارة المركزية بجامعة دمشق من أنها «رواية تأخذ بمجامع القلوب!».

وأتجاوز القول إلى أنّ أطروحة ماجستير قدّمت عنها في معهد الدراسات الاستشراقية بموسكو، وأطروحة أخرى بجامعة في بولونيا، وتحدثت عنها المستعربة الإسبانية ماريّا خيسوس فيغيرا في كتابها الذي تدرّسه في جامعتها عن الرواية العربية، وتناولها بدراسة بالإنكليزية المستشرق المجري جوليوس جرمانوس (الذي تسمّى بعد إسلامه عبد الكريم جرمانوس). ثمّ كان أن أعدّت مسلسلة تلفزيونية بدمشق، غضب للرواية بعض الناس، ولكنهم لم يغضبوا كثيرا يوم قدّمتها إذاعة صوت العرب من القاهرة في سباعية (سبع حلقات(، إلا أني أنا من غضب جدًّا يوم سرقها أحدهم وقدّمها في ثلاثين حلقة بالإذاعة الأردنية لاقت استحسانا، مغفلاً اسمي ومغيّرًا العنوان إلى الغد المجهول!

تأذنون لي، أصدقائي، أن أقدّم لكم في الغد، الصفحة الأولى منها أو صفحتين!

فلوريدا: منتصف ليل الثلاثاء ١١-٢-٢٠١٤

ثمّ أزهر الحزن

أربعمئة كلمة من بدايتها...

اسمي هالة.

عشت وأخواتي طفولة زاخرة بالأسى لم نذق فيها طعم السعادة إلّا لِماما، ذلك أنّ أبي كان قد قضى نحبه قبل أحد عشر عاما ونحن بعد بُنيّاتٌ خمس صغيرات ولم يخلّف لنا سوى أمّنا كنزنا الرائع الحبيب، ولكنه ما نسي قبل أن يمضي إلى غايته أن يودِع في أحشائها أملاً بتنا نُهَدهده على حذر وإشفاق، انتظارًا لأخ يخلُف الراحل العزيز ويكون لنا معينًا وحاميا.

كان أبي يقول لأمي كلما وضعت له بنتًا بعد بنت:

ـ علاء الدين، هذا المشاكس العنيد، ألا يريد أن يأتي!

ويستضحك، وما كانت الضحكة لتصدر إلّا عن القلب المعنّى، وتنكّس أمي رأسها حزينة هي الأخرى، وتطبع على خدّ الرضيعة الجديدة بين يديها قبلة الحنان وكأنها خائفة عليها من شرّ خفيّ! أعطته خمس بنات على التوالي، بين الواحدة والأخرى سنتان في أغلب المرات. كانت أمّه تسمّى نوريّة فسمّى أختي الكبرى نورة، ثمّ أنشأ يقول عندما سمّى الثانية سليمى باسم جدتي لأمّي:

ـ الآن استنفدنا أسماء الجدات، أعني الجدتين الاثنتين، لا بدّ أنه آتٍ إذن بعد أختيه، هذا العنيد! قلت سأسمّيه علاء الدين باسم أبي. الاسم يروق لك، أما قلتِ لي ذلك، يا كوثر؟

ولكني جئت أنا بعد البنتين. فقال أبي محزونًا:

ـ لا باس، يا كوثر، أصبحنَ اليوم ثلاثاً، أليس كذلك؟ حسنٌ، ليبعث الله برزقهنّ، إنهنّ من عطاء الله!

ثمّ لما جاءت الرابعة، لم يُظهر حزنًا أو أسى. كان، هذه المرة، قد استسلم لمشيئة الله، وأصرّ على أن يسمّيها رابعة. وكأننا بأمي قد استشعرت تلك السنة خجلاً من نفسها مضافًا إلى الحزن

الذي لامس قرارتها، فقد كانت الثرثرات من نسوة الحي أطلقن عليها أمّ الـ..

فلما وُلدت أختي عالية هتف أبي وكأنه وقع على السرّ:

ـ عرفتُ، يا كوثر، المنظوم لا يريد أن يأتي إلى الدنيا الآن! لقد عرفتُ أخيرًا. خير خير، ليبقَ في ظهر الغيب إذن، لن أسال عنه بعد اليوم، فإني أفضّل عليه حمائمي الصغيرات.

ثمّ نهض إلى حديقة الدار.

خمس بنات متتابعات، وأبي لم يُخْلف عادة ائتلفها مع ولادة أختي نورة.

كان أبي محبًّا لزوجه وبناته. وما كانت أشواقه للصبيّ العاصي إلّا لتزيد في محبته لهنّ وبرّه بهنّ. وكان مولعًا بتنظيم شؤون بيته. ففي دارنا العربية صحنٌ وسيع وبِرْكةٌ وليوان. وفي صحن الدار حوض مزهر...

كان أبي، يوم وُلدت له أختنا البِكر، قد قام إلى هذا الحوض وغرس فيه عودًا من الكرمة. ثمّ انثنى يقول لأمي، وهو ينفض التراب عن يديه:

ـ هذه الدالية لصغيرتنا نورة..................

حلب: الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦١

ـــــــــــــــــــــــــــــــــ

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٢-٢-٢٠١٤

الموت المسموح به.. دوليّا!

بدا واضحًا أنّ ما يشغَل بال الغرب اليوم هو تسلُّمُ مخزون الكيماوي من يد النظام في وطني المعذّب.

وأما موت المئات والألوف وعشرات الألوف من الأطفال والناس بالبراميل المتفجرة،

فليس هذا ممّا يَعنيهم في شيء. والناطق باسم بلدي الحبيب يردّد: نحن ندافع عن المدنيين، والمواثيق الدولية تسمح بذلك!

قد سبقْنا أيام هولاكو وتيمورلنك... وبغطاء دولي صفيق.

فلوريدا: ضحى الأربعاء ١٢-٢-٢٠١٤

«ثمّ أزهر الحزن» (٢)

الصفحات الخمسون الأولى!

كنت قد عكفت، طَوال السنوات الماضية وأنا بدمشق، على إعداد بعض كتبي للطباعة في الدار التي أسّستُها لنشر أعمالي، الجديد منها مثل: قمر لا يغيب، من أدب الرحلات؛ وإعادة نشر قديمها النافد، ومن ذلك رواية ثمّ أزهر الحزن... ثمّ كان أن فاجأتنا الانتفاضة، فإذا المطابع يُصاب بعضها بالدمار، وما سَلم يتعذّر الوصول إليه، فضلاً عن جفاف مصادر الإمداد، إلى أن كان الرحيل في أواخر العام الماضي إلى البعيد، فتوقّف حتى الإعداد.

وأعترف بأني لاحظت، بعد إشارات مني إلى أعمالي الأدبية في ما أكتب من الخواطر، أنّ بعض الأصدقاء لم يكتموا رغبة عندهم في القراءة والاطلاع، فدخلوا الشابكة، التي ما كان لها أن تنجدهم لأني أنا نفسي كنت مقصّرًا في حقها، لنقص في الخبرة، ولندرة المعاونين لي، ولن تنسوا التقدّم في العمر، أيها الأصدقاء.

إلّا أنّ ما لفحني، أخيرًا، من أشواق المحبّين للاطّلاع على رواية ثمّ أزهر الحزن، جعلني أسأل هذا الشاب النابه، الذي بالأمس حضر من الوطن لداعي التخصّص في علمه وقد رأيته بارعًا في فنون الشابكة، عمّا يمكنه من إسعافي في هذه المسألة، فأبدى الاستعداد لأن يصوّر الصفحات الخمسين الأولى من الرواية -التي كان قرأها وهو طالب طبّ- وينزّلها في حسابي

بطريقة الـ PDF فيقرؤها المتشوّقون.

ولست أدري ما إذا كانت هذه الصفحات، الكثيرة القليلة، ستروي الظمأ أم أنها تزيده، على نحو ما كان أمس من أمر الكلمات الأربعمئة!

وسوف ندرس ما يستجدّ!

فلوريدا: فجر الخميس ١٣-٢-٢٠١٤

ثمّ أزهر الحزن (٣)

مقالة صحفية بقلم الأديب الروائي الجزائري المعروف مرزاق بقطاش (من مواليد العاصمة الجزائرية ١٩٤٥)، كان قد نشرها في جريدة المساء الجزائرية في ٢٥-٢-٢٠٠٩، معبّرا بها عن عواطف حميمة نحو المجتمع السوري ونحو القيم العربية الأصيلة:

- -

قبل أكثر من أربعة عقود، قرأت رواية الأديب السوري فاضل السباعي "ثم أزهر الحزن"، فأعجبت بها، وأنا منذ ذلك الحين أتمنى أن أراها وقد أخرجت في فيلم مطول، أو في مسلسل تلفزيوني على غرار ما نشهده هذه الأيام في التلفزات العربية مشرقًا ومغربًا، لكن أمنيتي خابت في خضم الإبداع السينمائي العربي، إذ أن المخرجين وكتاب السيناريوهات لا يلتفتون إلى كبريات الأعمال الروائية في زمننا هذا، فهم يفضلون تصوير أفلام تاريخية في معظم الأحيان لكي لا يقضّوا مضاجعهم ولا مضاجع السياسيين العرب، إذ من المعلوم أن التاريخ العربي الإسلامي يزخر بمواضيع تمجد هذا البطل أو ذاك، وهذه الدولة أو تلك. وذلك ما يعني أن هذا التاريخ نفسه لا انعكاسات له على واقعنا السياسي والاجتماعي، ولا يقلق أهل الحُكم، حيثما كانوا في هذه الدارة العربية الواسعة.

وأنا أقرأ رواية فاضل السباعي في ذلكم الزمن البعيد، فاجأني صحفي يدبج مقالاته ومواضيعه باللغة الفرنسية، فقال لي وهو يستعرض صفحة الغلاف: «أنتم المعربون رومانسيون في المقام الأول! لا تتحدثون إلا عن الحزن وما يجاوره! ».

قلت له بتلقائية: «فعلا، نحن رومانسيون، ولنا رومانسيتنا، وأدباؤنا وشعراؤنا على مدى خمسة عشر قرنا من الزمان، فما الذي تمتلكونه أنتم، أيها المفرنسون؟ (فيكتور هيغو) ليس لكم، لا ولا (لامارتين) أو (ألفرد دوفينيي) أو (موسيه) ومن جاء في إثر كوكبة الرومانسيين الفرنسيين في النصف الأول من القرن التاسع عشر».

ومضت الأيام، وإذا بي أفاجأ بمقالة وضعها الروائي فاضل السباعي في صحيفة عربية يتحدث فيها عن الأدب في الجزائر، ويذكرني فيها باسمي الخاص، ذلك لأنني ذكرته بالخير، وذكرت العديد من أدباء سوريا، في حديث أدبي مطول مع صحيفة عربية، وقال بالحرف الواحد: إنه يعتز بالتعرف عليّ بالرغم من أنه لم يقرأ لي شيئًا، ذلك أن الكتاب العربي الجزائري مغبون، أو هو موسوم بالرومانسية السلبية، ولذلك يتعين عليه أن يبقى حبيس داره، وألا ينتقل لا شرقا ولا غربا.

مازالت رواية فاضل السباعي في مكتبتي بعد أربعة وأربعين عاما من اقتنائها، وما زلت أذكر أحداثها وأبطالها، وكفاح بطلاتها بوجه خاص، من أجل العزة والكرامة العائلية أولا، ثم الكرامة الوطنية، وما زلت معجبا بأجواء الطبيعة فيها، وبتساقط الثلوج على مدينة دمشق [الصواب: مدينة حلب]... وغيرها من الصور الجميلة الأخرى.

وما زلت في الوقت نفسه أتمنى من صميم قلبي أن تعرف هذه الرواية طريقها إلى السينما أو التلفزيون لأنها جزء من الوجدان العربي الحديث، ذلك الذي تربّينا عليه في القصص

والروايات وفي قصائد أحمد شوقي وجميل صدقي الزهاوي ومعروف الرصافي وحافظ ابراهيم وكتابات محمد كرد علي وقسطاكي الحمصي وفؤاد الشايب، وشعراء المهجر، جزاهم الله عن العربية خير الجزاء في هذا الشق من الدارة العربية الجميلة رغم أفاعيل السياسة فيها، ورغم الهوان الذي تعيشه في زمن المتأمركين من العرب وبقايا المتَسَفْيِتين من العرب أيضًا.

بقلم: مرزاق بقطاش – الجزائر ٢٠٠٩

- - - - - - - - - - - - - - - - - -

أشكر جزيل الشكر الروائي الجزائري، الصديق بغير معرفة شخصية، على جميل رأيه في الرواية التي لم تغب أحداثها عن خاطره مع مرور عقود من السنين، وعلى نبيل عواطفه القومية الصادقة والهادئة كأنسام الربيع، وأُعلمه أنّ الرواية قد ظهرت في مسلسل تلفزيوني عام ٢٠٠١ من إنتاج التلفزيون السوري، ما يزال يتجدّد عرضه في الفضائيات كل حين، ولكنهم غيّروا عنوان العمل إلى آخر هو البيوت أسرار، ربما كيلا تشيع الرواية بين القراء العرب!

فلوريدا: مساء الخميس ١٣-٢-٢٠١٤

ثمّ أزهر الحزن (٤)

الفصل الأول وما قبله

استجابة لرغبات القراء الأعزاء، فقد تولّى صديقي محمد، طالب الدراسات العليا في فلوريدا، تصوير هذه الصفحات على جناح السرعة، أرسلها إليكم بطريقة PDF.

أغلب الظنّ، أعزّائي، أنّ بعضكم، ممن يتحلّى برهافة إحساس زائدة، سوف تدمع عيناه عند وصوله إلى آخر كلمة في هذا الفصل!... ووالله ما كنت في ذا قاسيًا، ولكنه هدفُ الرواية الذي أملى عليّ ذلك: أن أرصد، عبر أربعمئة صفحة، كفاح أمّ في غيبة رجل العائلة عند افتقاد

المجتمع لنظام التكافل الاجتماعي. فاغفروا لي ما لا أراه زلّة!

والأمل أن تلحق هذا صفحاتُ الفصول الثلاثة التالية.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٤-٢-٢٠١٤

ثمّ أزهر الحزن (٥)

والعلميّون.. يقرؤون الروايات

قبل عشرين عامًا، ظهرت في حلب جماعةٌ من الأكاديميين، العلميين خاصة، رجالًا ونساء، يتداعون للاجتماع مرة في الشهر، في بيت أحدهم دوريّا، وفي سَمَرهم يتناقشون في موضوع كتاب يكونون قد رشّحوه للقراءة، يبحث في شأن من شؤون العلم أو يطلّ على حقبة من حقب التاريخ، فإن كان مؤلف الكتاب متاحًا حضورُه احتفَوا به واستمعوا إليه. وللحقيقة ما اقترحوا مرة عملاً روائيا يقرؤونه، فقد لاح أنّ الرواية في ظنّهم تدغدغ العواطف أكثر مما تُنير العقول.

إلى أن خالف هذا التوجّه مرة أحدهم، الدكتور فيصل...، عندما اقترح للقراءة رواية، كان يُكبّ على تأليفها، قبل ثلاثين سنة من ذلك العام، جارٌ لهم يعرفه وهو فتى، يسكن في البناية المقابلة، في ذلك الشارع المتفرع من أول الطلعة إلى حيّ سيف الدولة، يساهر الليل وهو يكتب فصولها، إلى أن ظهرت بعنوان ثمّ أزهر الحزن!

وقد سافرت إليهم، في شتاء ٩٦-١٩٩٧

وأعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأني سمعت منهم ما طيّب خاطري، أديبًا بين علميّين، من أنهم ما كانوا يتوقّعون أن يكون لقراءة الروايات مثل هذا الوقع في النفوس... وكلاما كثيرا صادرا من القلب، وقفتُ أمس على ما يُماثله، في تعليق من قارئ علميّ، جعلتْه الرواية ذاتها

يحسّ بمسيس الحاجة إلى المزاوجة ما بين الكتاب العلميّ والكتاب الأدبي.

التعليق يقرؤه أصدقائي أدناه، وقد اندرج أولًا تحت خاطرة «٣ - ثمّ أزهر الحزن» أمس الخميس!

- - - - - - - - - - - - - - - -

الأستاذ... فاضل السباعي

تحية لك من القلب.

أنا ممن يقرؤون الكتب العلمية، كتب التوعية والفكر الناضج، كتب بناء الأمم والإنسان. وكنت بعيدا كل البعد عن الروايات، ففي ظني أنها أداة لتحريض القلب على الانفعال لا أكثر. ولكني بعدما قرأت "ثم أزهر الحزن" لمست الحاجة الماسة للدمج بين تلكم الكتب العلمية بهذا اللون وكتب الأدب.

وجدت في ثم أزهر الحزن ذكاء! فقد استطعت أن تلامس بها نفس كل من يقرأ الروايات، الحزين من الناس، والعاشق، والكادح، والمزارع.. وزّعت الأدوار فيها بحيث تلامس المجتمع بنسبة ٩٠٪ من مكوّناته، فحتما كل من يقرؤها سيجد نفسه يتقمّص إحدى تلك الشخصيات أو يتأثر بها.

قرأت الرواية مرتين، وفي كل مرة كنت أجد فيها الجديد.

الجدير بالذكر أنّ روايتكم قادرة على التجسّد بحالة كل شخص وزمانه. ولكن الدهاء... كان في رواية الأحداث بلسان البنت الوسطى هالة.. فاتبعتَ في وصفها أسلوبا لا بد للقراء أن يختلفوا في آرائهم حول تلك الشخصية. كان بإمكانك وضع رأيك الخاص وفرضه على القراء بأسلوبك الأدبي الرائع، ولديك القدرة على فرض الأفكار التي تريد بطريقة خفية، ولكنك تركت للقارئ مساحة واسعة للتفكير.

فالذكاء، يا سيدي، أن ترى اختلاف وجهات نظر الناس بهذه الشخصية، فهي بالنسبة لك التغذية الراجعة لنجاح الرواية أو فشلها.

أمدّ الله بعمرك وحماك من كل سوء. خالص مودتي.

لؤي صوان (في المجلة الإلكترونية، دمشق)

فلوريدا: ضحى الجمعة ١٤-٢-٢٠١٣

وهل تتوقّعون إلّا أن يتذرّع بـالمواثيق الدولية

وهل تتوقّعون إلّا أن يتذرّع بالمواثيق الدولية لإلقاء البراميل على الآمنين في بيوتهم من أبناء شعبه الأعزل، هذا الذي كان قد صرّح يومًا في نيويورك لإحدى الصحف، عقب اغتيال أحد رجالات لبنان: يعني كل ما فطس كلب بتتهمونا فيه؟!

ثمّ، لشدّة القول، نفاه.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ١٤-٢-٢٠١٤

في ليلة عيد الحبّ

ارتأى الجميع أن يتناولوا عشاءً مشتركًا في بيت الأكبر منهم، إلّا زوجين، لم يمض وقت طويل على زواجهما، شاءا أن ينفردا في مطعم معًا، يأكلان، يشربان... ويتذكّران أيام الوطن الجميل... والجميلة!

في البيت الكبير، التأم شمل الأسرة الكبيرة، التي غرّبتها الأيام والأحداث، من أشقّاء وشقيقات، وأصهار وكنائن، أبناء، أحفاد، فتيان وصبايا، حضّروا، أعدّوا، هيّؤوا كلّ أصناف المآكل الوطنية، من المحاشي إلى الكُبَب، وصليل الضحكات يتردّد في الأرجاء، من ساعات

الضحى حتى سُوَيعة العشاء. التمّوا، تبعثروا، وهم يثرثرون بالأصوات العالية، وفي يد كلٍّ صحنٌ كرتوني، يرميه متى فرغ ليملأ آخر.

فجأةً، زغردت الصبايا، مَرَحًا، لطلّة العروسين، وعمّ الفرح والعناق. وطفلهما بدا مشتاقًا، فاحتضناه بشوق، وكأنهما عائدان من سفر.

وقع نظرهما على المائدة، التي لم تُرفع بعد، فأقبلا عليها، يأكلان بنهم وكأنهما ما كانا في مطعم!

فلوريدا: ليل الجمعة ١٤-٢-٢١٤

ساعة.. وسوار

كان يعرف أمنيتها في أن يلفّ معصمَها ذلك السوارُ، المطعّم بالماس، فاشتراه لها. وكانت تعرف تطلُّعَه إلى تلك الساعة، التي تُبيّن ما لا يَبين في الساعات الجديدة، فاشترتها له.

وعند المساء، كانت المفاجأتان في يوم عيد الحب: لبَّس كلٌّ منهما، الساعة والسوار، في معصم الآخر. غمرتهما السعادة. تبادلا القُبل. تداولا الذكريات البهيجة... مع أمواج من الحنين إلى الوطن.

في الليل استبدّ به الأرق: هذه الساعة، التي تلقّاها من زوجته، ألم تستنفد رصيدها المدّخر؟ على مائدة الصباح سألها، فسألته هي: ورصيدك أنت، يا حبيبي؟

وضحكا طويلاً.

وذهبا معًا إلى المتجر الكبير، الذي كان من خصاله الجميلة أنه لا يمانع في ردّ المشتريات من زبائنه المدلّلين.

وكانا، وهما في طريق العودة، سعيدين بأنهما أضافا إلى سجلّ ذكرياتهما، التي ما زالا

يكتبانها في هذا البلد البعيد، ذكرى حلوة من نوع جديد.

فلوريدا: فجر السبت ١٥-٢-٢٠١٤

ثمّ أزهر الحزن.. بقلم كاتبة شابة مهاجرة (٦)

هل غابت عن عينيها رواية ثمّ أزهر الحزن في مكتبة أبيها العامرة، فلما رأتهم بالأمس يتجاذبون أطراف الحديث عنها، تناولتها، وقرأتها، وأفسحت لها أن تفعل فعلها، في النفس وفي القلم، وهي ذي تستعرض التأثير، نستأثر في النشر بشطره الأول؟

الاسم غرناطة. وإنّ للقراء أن يعلموا كم ذا عندي للأندلس من هوًى عميق! كتبتْ غرناطة، وأودعت ما كتبت في يومياتي المخفية، وليس للذي أودعت أن يبقى مخفيًا!

إنها غرناطة الطنطاوي، ابنة الصديق الأديب عبد الله الطنطاوي، المهاجرة من مسقط رأسها حلب، وليست تعرف جديدا عن الوطن إلّا ما يقدّمه الإعلام، وما يتحدّث به القادمون إليهم في اغترابهم الذي طال!

- - - - - - - - - - - - - - - -

عكفتُ على قراءة رواية ثم أزهر الحزن للكاتب الكبير فاضل السباعي، كتاب من القطع الكبير، يضمّ بين دَفّتيه أربعمئة صفحة. وقد استغرقتُ في قراءة الرواية لما شدّني إليها من أحداث متتالية حزينة واقعية، تَكْلِم الفؤاد، وتنكأ جراحات كثير من القرّاء، فأبكتني أكثر من مرة.

"كوثر " أرملة صغيرة مع بُنيّات كزغب القطا، وجنين في بطنها. وكان إبداع ريشة الكاتب في وصف النوازل، وهي تنزل تترى على هذه الأسرة المنكوبة في زمن عصيب، لا يأبه فيه أحد بأحد إلا إذا لاحت في الأفق مصلحة ما.. بأسلوب انسيابي وتجسيد للواقع باقتدار، فيه توظيف

لظاهرة عيد الأم والأم المثالية، التي ظهرت على مسرح الحياة منذ زمن قريب، توظيفاً جميلاً، وأضافت بعداً آخر ونهاية سعيدة للرواية.

كم تمنى الأب أن يكون له ولد، يحمل اسمه، ويعين أمه وأخواته على نوائب الدهر، إذا غيّبه الثرى.. فهو يخشى على زوجته وبناته من بعده، وهنّ المَهيضات الجناح، المكسورات الخاطر، كأنه كان يقرأ في سِفر الغيب: «لن يأتي علاء إلى الدنيا.. وأنا فيها!». ويا لها من ساعة رهيبة عندما علمت الأسرة الصغيرة بالمرض الخبيث المستعصي على الأطباء يغزو عاهلها، ويتركه قاعاً صفصفاً بعد أشهر قليلة.

ويأتي علاء إلى الدنيا بعد أن رحل أبوه عنها.. وينشر الفرح والسرور في القلوب الحزينة.. فهنّ في حاجة لرجل بعد أن رحل رجلها – وليس الذكر كالأنثى- إذ كيف تسير مركبة هذه الأسرة الأنثوية دون رُبّان يوجّهها؟

كانت الأم كوثر أماً مثالية في حبها وتفانيها من أجل أسرتها، فقد قامت بخياطة الملابس للجيران. وكانت بناتها يساعدنها ليلاً بعد أن يذاكرن دروسهن. وبهذا استطاعت أن تبيع دارها وتضمّ إليه ما وفّرت لتشتري داراً في حي آخر، بعيداً عن جيرانها الذين ما فتئوا يتغامزون عليها: «كوثر وبناتها يأكلن رؤوس الرجال! ». وذلك بعد أن مات عمر خطيب ابنتها البكر نورة على الحدود برصاص الأعداء، ثم بعد هذه الحادثة المشؤومة، فتك المرض الخبيث بابنتها نورة وماتت وهي في ريعان الشباب، فهذه الدار دار أحزان.

وسارت المركبة الهوينى حتى وصلت إلى برّ الأمان، فالبنات درسن وتزوج بعضهنّ.

كانت "ثم أزهر الحزن" رواية ممتعة، أحداثها واقعية في قالب فني، تشدّ القارئ أحياناً بحيوية أحداثها وانفعالات شخوصها، وأحياناً تتهادى بطيئة مستروحة.

يؤكد لنا الكاتب في روايته نظرته المتفائلة للحياة، وقدرته على سبر أغوار النفوس

وخباياها، وخاصة النفس الأنثوية، بما تحمله من حبّ للكفاح، إلى حبّ الذات والغيرة والأنانية، وما يعتمل في نفوس البنات من انفعالات يخفينها بعيداً في قرارة أنفسهن.

المهجر... الخميس ١٣-٢-٢٠١٤

فلوريدا: مساء السبت ١٥-٢-٢٠١٤

أوراقي!

في نفسي

لو أجتاز المحيطات عائدًا إليك

أقرؤك

أكتبك

أشمّ روائحك

التي عطّرها الفكر

وعتّقها توالي الأفراح والأحزان

أوراقي، أقلامي، دفاتري!

أنتنّ لي وطنٌ آخر!

فلوريدا: مساء الأحد ١٦-٢-٢٠١٤

«قديش بتدفعي؟!»

ظلّت عمرَها تعمل، من منزلها، في الصحافة الأدبية. من ذلك أنها كانت تُجري مقابلات مع مَن تقدّرهم من الأدباء والشعراء، وتنشرها في الدوريّات وراء الحدود غالبًا. إلى أن تخرّج أبناؤها في الجامعات، وتوجّهوا واحدًا بعد الآخر إلى العالم الجديد سعيًا وراء الرزق، فكان أن لحقت بهم، مهاجرةً، وعيناها إلى الوطن.

هناك... زّيّن لها حبُّ الوطن والأدب، أن تجمع تلك المقابلات -وهي عشرون، ثلاثون- في كتاب يكون مرجعًا لدارسي الأدب اليوم وغدًا، وأملى عليها الإتقانُ الذي اعتادته أن تستدرك ما جَدّ من شؤون مَن حاورتهم، وأن تستوفي الإشارة إلى ما صدر من جديد أعمالهم، فسألتني على الهاتف من بعيد، أرقامَ هواتف من يهمّها الاتصال بهم.

بعد زيارتها للوطن، مثقلةً بالأشواق، قامت تتصل بالكاتب الذي رَوّج نفسه دائمًا بأنه نصير الكادحين، محتضَنًا من قبل النظام، معزّزًا مكرّما. العجيب -كما حدّثتني فيما بعد- أنها لم تكد تنطق بمرادها: كتاب... يجمع مقابلات... مرجع للدراسين... حتى جاءها منه صوتٌ كليل يسأل: «قديش بتدفعي؟ »، حاولت أن تستأنف، فعاد الصوت، الذي تَعْتَعه العمرُ والبطر: «قدّيش بتدفعي؟!. »

فأغلقت، وهتفت إليّ تشكو بصوت كأنه البكاء!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١٧-٢-٢٠١٤

عندما تتشابه الأبواب!

اعتاد الببغاء، الذي سمّوه تندُّرًا علي بابا، أن يتجوّل في أرجاء البيت بحرية طَوال النهار، ليَبيت عند المساء على غصن في شجرة تغطّيها شِبَاكٌ منخُليّة من كل جانب.

واتفق للببغاء أن انفسحت أمامه، في سويعة أصيل، المسافات، فانطلق إلى حديقة البيت... ومنها إلى حدائق الجيران، ثمّ توغّل في الغابة المتاخمة.

عندما عاد صهري إلى بيته، وعرف أمر هذا الرحيل المفاجئ لطيره الأثير، أسرع إلى الجيران يستعين بهم في البحث عن علي بابا، في أشجار حدائقهم، مستخدمًا المصابيح الباهرة، خائفًا عليه من أن يصيبه مكروه، وهو الذي فقد اللياقة في الطيران، والقدرة على تحصيل قوته اليومي، بعد أن تعايشا مدة تناهز السنوات العشر!

ليلتها نام صهري بشار مؤرّقًا، وهو يتصوّر ما قد يحُلّ بصديقه علي بابا من الأذى، يتغذّى به طيرٌ جارح، أو يموت هو من الجوع!

بعد يومين اثنين، هتفت إليه جارة تُعلمه أنها ترى الآن طيره أمام باب بيتها، هادئا وحزينا، فأدرك بشار مقدار ما انتاب ببّغاءه من خوف وتعب وجوع، فسارع إليه.

بعد أن فرغ صهري من روايته، فسّر لي السبب في أن يحطّ الببغاء هناك وليس أمام باب بيته: أنّ البابين متشابهان تماما.

وأما أنا، فقد انصرف ذهني إلى أمر آخر. قلت بغُصّة:

«لقد اشتبهت على ببغائك الأبواب... ولكنها لن تشتبه على النازحين العائدين إلى ديارهم غدًا، لأنّ كلّ الأبواب ستكون قد ذهبت بذهاب البيوت! ».

فلوريدا: منتصف ليل الإثنين ١٧-٢-٢٠١٤

لكِ اللهُ، يا شام!

روسيا، الليبيراليون فيها والشيوعيون، متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين، على يد رئيس مخابراتها ولاحقًا بصفته رئيسًا للبلاد... الشيشان أنموذجًا!

شيعة فارس لم يهدأ حقدهم، في أي حقبة من حقب التاريخ، على العرب منذ وقعة ذي قار (٦٠٩م/ عام ١٣ قبل الهجرة)، ثمّ على الإسلام الذي سيطر على دولتهم. وما انتماؤهم لسيد الشهداء إلّا ذريعة!

هؤلاء جميعا تآمروا على بلد الأمويين، الذين فتحوا الدنيا في زمنهم وما انقهروا، يدمّروننا اليوم، تحت غَضّ طَرْفٍ من العالم، وعلى إيقاع قهقهات التنّين، الذي يضرب المسلمين بالعصا كلما اختلجت أجسادهم هناك!

لكِ الله، يا شام!

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٨-٢-٢١٤

يوم يُقدَّر للسوريين أن ينالوا حرّيتهم

فإنّ على التاريخ ألّا ينسى أن يسجّل أنهم كانوا الأكثر شجاعةً وتضحية بين الأمم في ظلّ عالم فقدَ القدرة على التمييز بين الخير والشرّ!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٨-٢-٢٠١٤

يُلقونها.. جُزافًا

بصفتي شرقيًّا ما زال يحتفظ في صدره ببقايا فُضُول، كان منّي، وأنا أتمشّى قبل لحظات قريبًا من بيتي على تخْم الغابة، أن التفتُّ فجأةً نحو رجل نزل من سيارته على حافة الرصيف... فتلقّيتُ منه كلمة: هاي!

إنهم هنا يُلقون التحايا على المارّين جزافًا... تمامًا كما يُلقي النظام في وطني الحبيب الهدايا على المواطنين الآمنين في بيوتهم، في منتصف الليل وفي وضَح النهار!

ما وقع لي أني -للبَغْتة- لم أردّ على التحية... تماما كما يقع لـ مواطنيّ هناك أنهم لا يردّون!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٨-٢-٢٠١٤

واللعبة.. مستمرّة!

نظامٌ مارس الظلم وأدمن.

استفزّ الناس، فدفعهم إلى الخروج.

جرّحهم، حتى جرّهم إلى حمل السلاح.

أطلق مَن تعهّدهم في سجونه، ثمّ أخذ يصرخ: تكفيريون!

يُبيد، يدمّر، بعون من الأجنبي، ويدّعي: مؤامرة كونيّة!

وأولئك المتحذلقون، يدخّنون السيكار الكوبي في مقاهيهم البعيدة، ثمّ يثرثرون على جدران الشابكة: يا ناس! دولة المقاومة الوحيدة الباقية، يريد المتآمرون الإجهاز عليها. يا عالم، يا هو!

ثلث الشعب مهجّر، واللعبة مستمرّة...

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٩-٢-٢٠١٤

كلالة.. حتى العمى!

قلت: روسيا، الليبيراليون فيها والشيوعيون، متفقون على كراهية الإسلام والمسلمين، على يد رئيس مخابراتها ولاحقًا بصفته رئيسًا للبلاد... الشيشان أنموذجًا!

علَّقَ، متعجّبًا، متباهيًا: روسيا صديقة، تبيعنا السلاح!

وغَفِل، هذا المصاب بكلالة البصر، عمّن يُصوَّب إليه هذا السلاح: إلى رؤوس الأعداء،

أم إلى صدور المواطنين!

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٩-٢-٢٠١٤

«ألستَ محاميًا؟»

في مقامي غير الطويل في باريس قبل نحو أربعين عامًا، كنت أتردّد على بيت صديقة فرنسية قريبًا من محطة شاتليه، أتحدث وإياها بالعربية الفصحى قصد إحكام نطقها بها وهي تدرُسها بجامعة السوربون. وكان زوجها يعمل في بيته خبيرًا expert بالخطوط لدى المحاكم، وكان الزوجان محبّين للعرب، وللجزائريين المنتشرين في بلدهم.

روت لي تلميذتي مارتين، بحضور زوجها، حكاية طريفة كانت قد وقعت للزوج في وقت سابق، من أنّ اثنين من العمال الجزائريين، لا يكتبان الفرنسية ولا العربية، جاءا إليه يسألانه: «ألست خبيرًا بالخطوط، يا مسيو فيدو! فاكتب لنا من فضلك رسالة إلى أهلنا بالجزائر! »، فأجابهم الرجل باسما: «أكتبها لكما لأنكما أصحابي، ولكن هذا ليس من اختصاص خبير بالخطوط بل هو من عمل العرضحالجي[1]!. »

تذكّرت اليوم هذه السالفة (التي كنت أوردتها في قصة لي كتبتها يومئذ وأنا في باريس عام ١٩٧٨)... تذكّرتُها، وقد حدثت لي واقعة مشابهة اليوم على الخاص من الشابكة. وذلك أنّ ممّن يسألني الصداقة أحيانا، من أهل المغرب الشقيق، أفرادًا يحملون اسم أسرة السباعي، منهم مَن أحبّ اليوم أن يستشيرني، بصفتي خريج حقوق، فكتب إلي فجر هذا اليوم يقول:

«أنت كاتب كبير، وكنت محامياً. عندي مشكل بسيط وهو كالتالي: كان لأبي، الله يرحمه، خال اسمه علال بن أبيه، وكان جنرالا في العسكر الفرنسي أيام الاستعمار الفرنسي للمغرب

---

(١) كاتب العريضة والشكاية المقدمة إلى الحكومة.

سنوات الحرب العالمية الثانية، وتوفي سنة ١٩٥٤ تقريبا، وترك أملاكا في فرنسا. لكن المشكل هو أنه عندما أراد الدخول أول مرة للمخزن الفرنسي كانت له مشكلة في قريته فبدّل اسمه من علال بن أبيه لعلال بن محمد، فصعب علينا الاستفادة من ممتلكاته، فما هو الحل في نظرك؟ وشكرًا»

فكتبت له: «مسألتك، يا ابن العم، تحتاج إلى محام يكون مقيما في فرنسا ويحمل جنسيتها، وأنا سوري مهاجر من بلدي إلى الولايات المتحدة. كنت أتمنى لو أستطيع أن أفيدك».

وكان من لطفه أن قال: «أشكرك ابن عمي، والله سررت بمعرفتك».

فقط أحببت أن أشارك الأصدقاء في هذا الحديث الصباحي، اليوم.

فلوريدا: صباح الخميس ٢٠-٢-٢٠١٤

«بدّك حريّة!»

من الممارسات المبتدعة في وطني الحبيب، تجاه من يطالب بالحرية من أبناء الشعب، أنهم إذا ما ألقَوا القبض على متظاهر فإنهم ينهالون عليه بالضرب المبرّح، مستمتعين في ذلك بترديد كلمةٍ باتت تُعرف عنهم: «بدّكْ حريّة! إي خود حريّة!! »، ضربًا قد يُفضي بالمقبوض عليه إلى الموت!

إنها ثقافة الرّعاع، من أنّ الضرب والتعذيب والموت هي المعادل المفترض للمطالبة بالحرية المغيّبة!

فلوريدا: ظهيرة الخميس٢٠-٢-٢٠١٤

اعتقال كاتب

صديق[١]، يحضّر الدكتوراه في الوطن، شَرَد إلى تركيا منذ قريب، كي يستقبل أهله المهاجرين من حلب، ويعطي هناك دروسًا في الأدب العربي للبنات في جامعة تركية.

أمس خطر له أن يقدّم لهنّ نصًّا ممّا كتبت. وفي الشرح ورد أنّ صاحب النصّ اعتُقل مرة لأنه «معارض»! فكان أن أبدت إحدى الطالبات استغرابها من أن «يُعتقل معارض» بسبب رأيه!

نشر صديقي هذه السالفة في مجموعة اعتاد أن يشارك فيها، فعلّقت صديقة تخاطب الأستاذ: «لو كنت مكانك لضحكتُ كثيرا وبكيت كثيرا! ».

أقول: تُرى ما حال الطالبة التركية، والطالبة السورية، لو أنّ صديقي حدّث طالباته بأنّ الكاتب قد ألقي به، في البرد القارس، في غَيابة زنزانة منفردة، ينام على مصطبة، لِحافٌ واحد تحته ولِحاف فوقه، وكانا في غاية القذارة. وقد صرّح، بعد إطلاق سراحه، في إحدى الإذاعات العالمية الناطقة بالعربية، بأنّ النظام يبدو وكأنه «يريد لسجين الرأي أن يموت من القهر والبرد والجراثيم! »؟

فلوريدا: مساء الخميس ٢٠-٢-٢٠١٤

إجازة في الحقوق.. وإجازة في التاريخ

في إحدى مراحل عملي الوظيفي، بجامعة دمشق، كان رجل مهمّ في النظام قد تفتّحت فجأة مواهبه للتحصيل الجامعي. وممّا تُنوقل من أخباره، في ذلك العام ١٩٧٢، أنه كان يدخل قاعة الامتحان، ويجلس حيث يحيط به طلابٌ من المقرّبين الفالحين في الدراسة، فيأتي للجلوس

(١) وكان يقصد بهذا الخاطرة، الدكتور أحمد عمر.

قدّامه واحدٌ منهم يأنس في نفسه معرفة الإجابة عن السؤال، فيكتب، وهو ينقل عته كلمة كلمة، ويتعاقب الفالحون. والمراقبون في ذلك يشهدون ولا يملكون إلا غضّ البصر!

مرة صادف أنّ مراقبًا، شابًا، كان يجهل هذا الواقع، فسوّلت له نفسه أن يُنبّه -وشهدوا أنّ تنبيهه كان لطيفًا- هذا الطالب أن يعتدل، فما كان من الطالب إلّا أن سحب مسدسه، من خلفه، ووضعه على الطاولة. فحلّ بالمراقب رعبٌ رماه أرضًا. وهم، حملوه ساعة الانصراف، إلى سيارة ومضوا به، معصوب العينين، ليس إلى سجن، بل... إلى صحراء رموه فيها، قبل أن تدور السيارة حوله دورة، خيّل إليه معها أنه سيكون دريئة... ولكنهم ما فعلوها، غادروه حيًّا وذهبوا.

اتّخذ الشاب سَمْتًا، وأمعن في سيره في وهج الظهيرة... إلى أن وجد نفسه بين أيدي أمنيين، يتحدثون بلهجة مختلفة. واقتيد إلى عاصمتهم. وبدا أنه لم يكن صعبًا عليهم أن يتبيّنوا الحقيقة، فأتاحوا له الاتصال الهاتفي بأهله، وحمّلوه هدايا، وودّعوه.

التكملة أنّ هذا الموظف ترك الوظيفة لمرض ألمّ بعقله.

وأما ذاك فقد نال إجازة في الحقوق، وأخرى في التاريخ. وممّا افتُري عليه أنه كان يتلقّى الأسئلة عَشِيّة الامتحان. ومؤهّل الدكتوراه وصل إليه دون أن يسافر إلى تلك الدولة التي تنتمي إلى ما كان يسمّى أوروبا الشرقية.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٢١-٢-٢٠١٤

لمن نشكو أحزاننا!

أهو الحوذيّ في قصة تشيخوف الشهيرة! أتُراه لم يلقَ مَن يبثّه أوجاعَه إلّاي! أمستودع أحزان أنا!

قُتِل ابن عمي أحمد اليوم، وقبله قُتل من أبناء العمومة محمد ومحمود وحامد وحمدان، ومن أبناء الخُؤولة حسن وحسين وحسّان ومحسن! يذهبون تباعًا إلى السماء!

أعرف، يا سيدي، أني أزيد في أحزانك. ولكني ألتجئ إليك لأنني أُشبِهك في أمرين: أني كاتب مثلك، وأني في الشتات أهيم.

أعترف لك بأني قرأت تاريخ الإنسانية من الألف إلى الياء، وطالعت كثيرا من قصص الحروب والكوارث، وتغلغلت في أعماق النفس البشرية، وكانت لي وقفة طويلة عند الأعرج تيمورلنك. فو الله والله، ما عرفت ظلمًا يعمّ، وطغيانا يستشري كالحال عندنا!

ابن عمي أحمد، الذي جاءني خبر استشهاده اليوم، شابٌ ملء إهابه الطيبة والبراءة، وأبوه أطيب منه، وجدّه، جدي -رحمه الله- أطيب مَن وَلَدَتهم أمهات البلدة. أكثر من عشرة من الأقارب استُشهدوا، وما هم إلّا قافلة في مواكب شهداء الوطن.

هذا ما كتبه لي، عند منتصف الليل هنا وسويعة الفجر هناك، صديقي المفجوع. ولم يكتم لوعة عنده: «أهي عقوبة ينزلها بنا النظام، وقد كان قرّبنا إليه واحدٌ من أعمدتهم من أعيان البلد، قبل أن ينشقّ عنهم ونلحق به عن إيمان!».

تساءلت: لماذا يبثّني هذا الملتاع، في هذا الهزيع من الليل، حزنه؟

وتذكرتُ أيونا، حوذيّ تشيخوف، الذي فقد ولده، وتمنى في يومه ذاك، أن يجد من يصغي إليه قليلاً في التعبير عن حزنه، فدخل الإصطبل آخر النهار، يناجي فرسه، يقول لها: «ابني كوزما مات. أخطأ الموتُ العنوان. بدلًا من أن يطرق بابي ذهب إلى كوزما أيونيتش! تصوّري، يا أُخَيّتي الفرس، لو أنّ لك مهرًا صغيرًا، وهذا المهر مات، أليس هذا موجعًا لك! »، والفرس تقضم الشعير، وتصغي، وتزفر على يديه. ثمّ أخذ يروي لها كيف مرض ولده كوزما، وكم ذا تعذّب في مرضه، وما الكلمات التي فاه بها في النزع الأخير، وذهابه إلى المستشفى ليتسلّم

ملابسه، ووصْف الجنازة...

وختم صديقي رسالته، التي خطّها ساعة الفجر في مكان لا أعرف أين يكون، بأمله في أن نلتقي... في ساحة الأمويين بالعاصمة، في ظلّ السيف الدمشقيّ، في يوم لا يبعد عن يومنا هذا كثيرًا.

أرحّب، وما أشكّ في أنّ كلاًّ منّا يرحّب في أن يكون مثل فرَس تشيخوف في قصته الإنسانية كآبة، ونحن نملك أن ننطق فنعزّي، وأن نقول: إنه الحقد الدفين، الذي ترعاه وتتعهّده دولٌ في العالم، على حين التزمت دولٌ أخرى صمتًا يبلغ درجة التواطؤ!

فلوريدا: ضحى السبت ٢٢-٢-٢٠١٤

سير المرأة ليلًا!

يتباهى النظام بأنّ من مظاهر استتباب الأمن في البلاد أنّ المرأة تستطيع السير ليلاً بمفردها دون أن يتعرّض لها أحد.

ومع نسيانه أنّ مردّ ذلك إلى نزعة حضاريّة متأصّلة في نفوس الناس ببلاد الشام، فإنه ينسى، أيضًا، أنّ إزهاق أرواحِهم البريئة بالبراميل المتفجّرة وبغيرها، يعود إلى نزعة مغايرة، لم يسجّلها التاريخ لحاكم يقتل مواطنيه جزافًا، لا لشيء سوى أنهم قاموا يطالبون بحقّهم في الحرية، وبمساءلة الذين عاثوا في البلاد فسادًا.

فلوريدا: ليل الأحد ٢٣-٢-٢٠١٤

خايفة أنسى العربي، يا أمي!

ظلّت الطفلة الصغيرة، القادمة حديثًا من الوطن، تفكر قلقةً طول الليل، فيما قالته لها

أمّها: «لا تكلّميني كلمتين إنكليزي وكلمة عربي، أنت بتعرفي إني ما بعرف أحكي إنكليزي!
».

عند الصباح اقتربت من أمّها تقول متوسّلةً: «ماما! بليز! أنا خايفة أنسى بُكرة العربي، شلون بدّي أحكي معك؟ تعلّمي إنكليزي، الله يخلّيك يا أمي، أنا بعلّمك!».

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٤-٢-٢٠١٤

يوم كان الكواكبي ينصر الحقّ

والذي كان من أمر عبد الرحمن الكواكبي، في حياته القصيرة بحلب، أنه كان يرصد تجاوزات الولاة العثمانيين، محرّرًا العرائض ضدّهم يرفعها إلى الباب العالي. وقد أفلح مرة في عزل أحد الولاة، وما كفّ عنه بل لحق به إلى إسطنبول حيث أقام، ورفع عليه الدعاوى أمام القضاء، وما عاد إلى بلده إلا حين وافى الوالي الأجلُ المحتوم، ليتابع تأليف كتابه: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

تُرى، لو أنّ أحد المواطنين اليوم، بادر وقدّم شكوى من ذلك إلى قصر السلطان، ماذا يمكن أن يُحَلّ به، وبأسرته، وبذرّيته إلى أبد الآبدين!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٤-٢-٢٠١٤

في موسم الرعد

لحظة طرقَ سمعَه صوتُ القصف، ترك ما بين يديه من ألعاب، وركض يختبئ تحت الطاولة.

ولم يُبدِ اهتمامًا بما أخذ إخوته يشرحون له، متبسّمين، من أنّ هذا قصفُ رعد. ذلك أنه لم يعرف قصفًا سوى ذاك الذي ظلّ يسمعه هناك، وبسببه جاء أهله إلى هنا!

فلوريدا: مساء الإثنين ٢٤-٢-٢٠١٤

رأس سورية.. المطلوب

لولا أنّ التواطؤ على تدمير سوريّة حاصل، ضالعةً فيه أمريكا والغرب بعد روسيا والصين، لما تمادى فيها القتل والتدمير والتهجير، تحت سمع العالم وبصره، منذ ثلاث سنوات والبقية تأتي...

الجميع... يطلب رأس سوريّة

والأسباب شتّى!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٢٥-٢-٢٠١٤

عشية تنفيذ حكم الإعدام

أول مهرجان للشعر أقيم في سورية كان في صيف ١٩٥٩. وقد شكّل هذا المهرجان ظاهرة جديدة في الحركة الإبداعية في سورية منقولًا من مصر زمن الوحدة، أقيم في صالة مسرح معرض دمشق الدولي في الهواء الطلق، واعتلى منصته شعراء سوريون ومصريون وعرب.

ما أحبّ أن أتوقف عنده، وقد حضرت إحدى أمسيات هذا المهرجان، هو الشاعر الشابّ الموهوب هاشم الرفاعي، الطالب في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة، (وهي كلية منقولة من الأزهر بميزاتها الأدبية والدينية)، وقد ألقى الشاعر قصيدة واعدة بالنسبة إلى عمره، عنوانها رسالة في ليلة التنفيذ (من سبعين بيتًا، بحر الكامل)، يخاطب فيها المحكومُ والدَه، استهلّها:

أبتاه! ماذا قد يخطّ بناني ... والحبل والجلّاد ينتظراني

هذا الكتاب إليك من زِنزانة ... مقرورة صخرية الجدران

لم تبقَ إلّا ليلةٌ أحيا بها وأحسّ أن ظلالها أكفاني
الليل من حولي هدوءٌ قاتل والذكريات تمور في وجداني

ويسترسل الشاعر، في مخاطبته أباه، فيتذكّر أحاديث الصبا التي تلقّى فيها حبّ الوطن من أبيه، ويطلب من أمّه الغفران، مرورًا بنافذة الزنزانة، وصليل السلاسل، وسياط الجلاّدين، والحبل الذي ينتظره، متمنّيًا أو متوقعًا السيل يجرف الطغاة، ولا ينسى أن يناجي:

أبتاه! إن طلع الصباح على الدنى وأضاء نور الشمس كلّ مكان
واستقبل العصفور بين غصونه يومًا جديدًا مشرق الألوان
وسمعت أنغام التفاؤل ثرّةً تجري على فم بائع الألبان
وأتى يدقّ كما تعوّد بابنا سيدقّ بابَ السجن جلّادان
وأكون بعد هنيهة متأرجحًا في الحبل مشدودًا إلى العيدان

ويا له من تصفيق انبعث من صفوف الجمهور، الذي لا سقف لقاعته، فوصل عَنانَ السماء. هل كانت القصيدة، البسيطة الممتنعة، التي ترشح شجوًا وألمًا، تعبّر إلى هذا الحدّ عن معاناة مكبوتة عند الجمهور، أو أنه تَوق الإنسان إلى آفاق من حرية يحلم بها؟

من المؤلم، أيها الأصدقاء، أنّ الحياة لم تَطل بالشاعر الذي يمور موهبة وشبابًا، فقد قضى عليه التحاسد في بلدته "أنشاص" (من محافظة الشرقية) طعنًا، فمات شهيدًا بُعيد أسابيع من سماعنا إيّاه في مهرجان الشعر ذاك.

وما زالت في الخاطر تلك الكلمة التي سمعتها من أستاذه علي الجندي عميد الكلية، وأنا في زيارة له في بيته بمصر الجديدة (شباط/ فبراير ١٩٦١) من أنه كان يمكن لهاشم الرفاعي أن يكون متنبي زمنه!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٦-٢-٢٠١٤

أكان الأمر يتطلّب من البعثيّ المخضرم

أن يظلّ سائرًا في الرِّكاب

عقودًا من السنين

يَدعم

يستفيد

يتنفّذ

قبل أن يستفيق على قرع أجراس الحرية

ولا يُبدي اعتذارًا أو تعبير ندم!

فلوريدا: مساء الأربعاء ٢٦-٢-٢٠١٤

أقول لكم.. لماذا أنا.. لا؟

لماذا ينشرون لهم مخطوطاتهم في المؤسّسات الثقافية... وأنا لا!

لماذا يتصدّرون وسائلَ الإعلام، المكتوبةَ والمسموعة والمرئيّة... وأنا لا!

لماذا يندبونهم إلى المؤتمرات، في الداخل والخارج... وأنا لا!

لماذا يعهدون إليهم بمناصب في الأدب والإعلام... وأنا لا!

لماذا يعيّنونهم ملحقين وسفراء ووزراء... وأنا لا!

أقول لكم؟

لأني لست منتميًا ولا منتسبًا

بكلمة؟

إنهم لا يحبّون الصادقين!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٧-٢-٢٠١٤

المقامـة البَبْغـاويّة

جاءني من صديقي عميد كلية (الـ.....) الأسبق بجامعة دمشق الفيحاء، نزيل واشنطن السمحاء، النصّ اللطيف التالي:

عطفًا على ما قدّمتموه لنا من حكاية الببغاءْ(١)، الذي ظُنّ أنه رحل إلى دار البقاءْ؛ والذي سمّيتموه تندُّرًا علي بابا، مع أنه لم يطرق للسرقة بابا؛ لحظة فُتِح أمامه باب الفيلاّ، فصفّق بجناحيه وطار وولّى؛ غيرَ مكترثٍ بصحبةٍ وصداقة، ولا بودّ يتّسم بالعراقة!

حين عاد في المساء صهرُكم المكرّم، وعَلم بما لم يكن يدري ويعلم، ساءه الأمرُ وبدا عليه الزّعَل، وفورًا بادر إلى البحث والعمل؛ فتجهّز بالمصابيح الوهّاجة، وبكلِّ ما له إليه حاجة؛ وتوغّل مع بعض أصحابه في الغابة، لا لسماع شَدْوٍ ولا عزفِ ربابة(٢)؛ ولكنْ ليعود بطيره الأثير، الذي كان نسي الطيرانَ والمسير، المغادرِ دون الأربعين حرامي، فليس ثمّة من يقاوم ويُحامي. وهو إنْ طار - من فرط الرفاه - وقع، وإذا نودي من بعيدٍ ما سمع؛ وألقَوا الأنوار على الأغصان، ونادَوه بأعذب الأقوال والألحان، قبل أن يعودوا بخُفّي حنين، وقلوبُهم يَعْمرها الشوق والحنين.

لن أقدّم لكم، يا أستاذي، طويلَ نصّ، وأنتم الجِهْبِذ في الرواية والقصّ، فقد حدّثتمونا عن عودة الببغاء، حديثًا مضمّخًا بالحبّ والرجاء، أقعى حزينًا أمام باب دارْ، لم يكن هو الذي منه طارْ؛ فتوجّهوا إليه وكَمَشوه، وفي البيت شرّبوه وعَشّوه، لكنْ لأذكّرك بقصة لك مخطوطة،

كنت أطلعتنا عليها قصيرةً غيرَ ممطوطة؛ سمّيتَها الشحرور القادم من الغابة، وصَمْتَ فيها الطيرَ بالغرور والمعابة؛ حين عرّض نفسه للاعتداء من القطّ عنتر، ربيب الحاويات المشرّدِ المعَتّر، لولا أنْ نجا من الافتراس بأعجوبة، أصبحت روايتُها مطلوبةً مرغوبة.

والسؤال الذي يَرِد على الخواطر، كيف نجا علي بابا من المهالك والمخاطر، فلم يعترضه طيرٌ ذو مخلبٍ ومنقار، ولا افترسه وحشٌ ذو سطوةٍ واقتدار، والذي أنساكم المصاب الأليم، أنه عاد إليكم صاغْ سليم، فألف تحيّة لصهركم بشار المهذّب، الذي كم تألّم لغياب طيره وتعذّب، وليُحْكِم بعد اليوم إغلاق بابِه، لئلاّ يتسرّب الببغاءُ في غيابِه. وإنّ البيت -على ما عَلمنا- أشبهُ بجنّة، يُغْني عن شمّ الورود والتمر حِنّة.

والسلام على مَن اتّبع الهدى، وجعل دارته للأمان منتدى، وللضالّين مهتدى!

واشنطن: الدكتور ع. ر. م.

هوامش:

(١) إشارة إلى خاطرتكم عندما تتشابه الأبواب، المنشورة على جداركم منتصف ليل الإثنين ١٧-٢-٢٠١٤.

(٢) عزف ربابه هنا مجاز، والمقصود أنهم لم يدخلوا الغابة الغنّاء للنزهة والفرجة والاستماع إلى تغريد البلابل!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٨-٢-٢٠١٤

الذين أدمنوا...

آذتْنا واشنطن، فكرهنا صنيعها من يوم أن غرزت في قلب الوطن العربي خِنجرَها المسموم!

وظلّت موسكو السوفياتية تصادق هناك، وتُظهر لنا ودًّا ملتبسًا، ما قدرنا على رفضه لحاجة ضعفِنا إليه. وتبدو لنا -بعد أن تخلّصت من الشيوعية- الأشدّ وطأةً من كلّ ما سبق!

ولكن ما بال الصين... التي لم تكن في ذلك كلّه لا في العير ولا في النفير!

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٨-٢-٢٠١٤

القصيدة.. التي لم يقلها الشاعر!

بزغ نجمه شاعرًا يُنشِد... والقومية في كبد السماء.

طاف في العواصم يرسل أغاريده، فينقشونها في كتبهم وعلى رخام التماثيل.

أُودِع، أيام الديكتاتورية العابرة، بين أربعة جدران وكوّة مقضّبه، فخرج بديوان شعر يتغنّى فيه بعذابات السجون.

أحبَّ الأطفال، فقام يقطف لهم الأنجم، وينثرها في كتبهم، وفي دفاترهم المعطّرة. ولكنْ هذا ما كان ليُغيّب عن إحساسهم رائحةَ الدم المسفوح، المنبعثة من الأزقة، يخرجون إليها في الصباحات الباكرة، ليتعرّفوا على أيّ الجثث هي: للأب، أو للأخ، أو للجار!

أسأل ببراءة الأطفال: كيف تأتّى لشاعر الأمّة، أن يسلو، فلا يكتب عن الثلاثة والثلاثين ألفًا من شهداء تلك المدينة، التي احتضنته يومًا تلميذًا وافدا؟

وأكتم في صدري سؤالًا آخر عن التزامه الصمت، بعد أن عمّ البلاءُ البلاد، فأنا أعرف أنّ العلل قد اصطلحت عليه والأمراض.

هل مَن يسأل حافظي إرثه ما إذا كانوا وجدوا بين أوراقه قصيدةً في هذا المعنى، أو بعض قصيدة؟ هل في المصلّى أو المحراب مروانُ؟

فلوريدا: ضحى السبت الأول من آذار/ مارس ٢٠١٤

مواهب منبوذة

هل يتصوّر امرؤ

مقدار ما يرتكب نظامٌ في حقّ شعبه

حين يَقصُر رعايتَه على المنتمين إليه

والمهرولين إلى طاعته

نافيًا في ذلك أصحابَ المواهب

مفقرًا المجتمع من مبدعيه

ومجرّدًا الدولة من قادة المستقبل!

واليوم...

يرمي الأبرياءَ من أبناء شعبه

بالبراميل المتفجّرة

فيقتّلهم جزافًا!

فلوريدا: فجر الأحد ٢-٣-٢٠١٤

ولكنْ

ولكنْ،

ولكنْ

ما السرُّ في أنّ العالم مصابٌ بالخرس

إزاء أنهار الدماء؟

وقوافل الهائمين على وجوههم في كل اتجاه؟!!!

فلوريدا: ضحى الأحد ٢-٣-٢٠١٤

الحزب.. علّمهم

أنْ لا حزب إلّا الحزب

وأنْ لا سياسة إلّا ما يقرّره الحزب

وأنْ لا مكان مرموقًا إلّا ما يرتئيه الحزب...

فتوجّه الطامحون إلى الحزب على أمل

ونأى بالنفس عنه سائرُ الناس

والإبداع... في خبر كان

و...

ما شئتَ، لا ما شاءت الأقدارُ فاحكمْ، فأنت الواحدُ القهّارُ

فلوريدا: مساء الأحد ٢-٣-٢٠١٤

ضجيج الحياة.. وصمت الموت

قبيل مغادرتي باريس، صيف ١٩٧٨، خطر لي أن أتجوّل في آخر ما لم أزره من أحيائها في شمالها الشرقي، ما سمعتهم يقولون: إنه من الحارات الشعبية. واتفق لي أن مررت من أمام حديقة عامة صغيرة، فدخلتها، وكان الجالسون فيها فرادى تقريبا، يستغرقهم صمت المستمتع بالأزهار والورود، عدا جماعة كانوا قد تجمّعوا حول مقعد ثلاثي، نحو عشرة أفراد رجالًا ونساء، سمعتهم يتحدثون بأصوات مرتفعة تتردّد أصداؤها في جنبات الحديقة، بلغة هي خليط من فرنسية وعرة وعربية لم أفهم منها إلّا أنّ متكلّميها ينتمون إلى إحدى دول المغرب العربي. أعترف لكم، أيها الأصدقاء، بأنّ خجلي من حالتهم تلك لم يكن يضاهيه إلّا صمتُ الجالسين بهدوء، وقد بدوا لي راضين بسماع ما لا يعنيهم، مستسلمين!

وَرَدَ على خاطري هذا، أمس، وأنا في المنتجع الذي ذهبنا إليه، أسرتي كبارًا وصغارًا، لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ومع تهيُّؤ الأولاد لأن يمارسوا السباحة، رغبت في أن أرافقهم لأستمتع برؤية فلذات الأكباد، من أحفاد وأسباط، وهم يسبحون، وعددهم -دقّوا على الخشب! - سبعة.

ما أحبّ أن أتوقّف عنده أنّ مرتادي المسبح -والمنتجع خاصّ بأهل التجمّع السكني المتاخم- كان الكبار فيهم جالسين يرقبون أطفالهم، الذين يمارسون السباحة بقليل من الضجيج. إلّا ذرّيتي الغالية، فقد كانت أصواتهم تملأ فضاء المسبح، ما بين تَناديهم وهم يستعرضون أفانينهم وبين تحدّثهم وهم يطْفون على سطح الماء. أعترف بأني شعرت بخجل يوازي صمت الجالسين بهدوء!

ثمّ لست أدري، أيها الأصدقاء، كيف سرقني ممّا أنا فيه، تذكّري ما حلّ في الغوطة، صيف

العام الماضي، في إحدى المآسي المهلكة. وتساءلت: تُرى هل ارتفعت هناك، من الصغار والكبار، الأصوات ساعة تلقّوا غاز السارين يقذفهم به من ماتت فيهم الضمائر؟ أم أنهم استقبلوا الموت مختنقين في صمت؟

فلوريدا: فجر الإثنين ٣-٣-٢٠١٤

العزيز باراك أوباما، أبا حسين المحترم

ما دام "بوتن" عارفًا أنك تتهيّب الحرب وتتجنّبها، فلتكن على يقين من أنه لن يكتفي بالشدّ على يد النظام السوري للإمعان فيما هو ماض فيه.

وكذلك لن يتأخّر في اجتياح جارته أوكرانيا البعيدة جدًّا عن قارّتك الأمريكية. وما قولك، أمس، بأنّ دخوله إليها سيكون له ثمن، إلّا كفقاعة في فضاء حمّام شرقي يؤمّه العامة.

ولكنّ الدبّ الروسي سوف يتمادى، لاحقًا، فيُعيد إلى جارتك القريبة منك جدا، كوبا، تلك الصواريخ السوفياتية القديمة، التي كان نيكيتا خروشوف قد سحبها، عام ١٩٦٢، تحت تلويح جون ف. كيندي باستعمال النووي!

وسلام على هيبتك، يا أبا حسين!

فلوريدا: صباح الإثنين ٣-٣-٢٠١٤

الإرهاب والإرهابيون

يوم دعا العالم أمريكا، التي روّجت للمصطلح، أن تحضُر ندوة دولية لوضع تعريف لمعنى الإرهاب والإرهابيين، تهرّبت، فهي تحرص على خلط الأوراق بين معنى الدفاع عن الأوطان في مواجهة العدوان الخارجي وبين مناهضة الأحرار لأمريكا في هيمنتها على العالم.

وبدا لنا النظام مستفيدًا من هذا الأسلوب في التهرّب وفي خلط الأوراق. فالمطالبون

بالحرية هم -في نظره- إرهابيون، وليس إرهابًا قطّ رميُ البراميل المتفجّرة على رؤوس الآمنين في بيوتهم، وليسوا بإرهابيين خريجو السجون وشذّاذُ الآفاق، الذين يقطّعون الأيادي والأعناق!

فلوريدا: ضحى الأربعاء ٥-٣-٢٠١٤

الأستاذ فاضل السباعي

تحية طيبة.

أخاطبك على غير معرفة، سوى من إعجابي بما أقرأ لك في صفحتك من مقالات تنافح فيها بعقلانية عن حرية الشعب، فتلامس أفكارك شغاف قلبي، وتجعلني أبحر عميقا في عالم الأحزان.

أستاذي الكريم، أحب أن أروي لك هذه القصة المؤثرة التي شاهدتها بنفسي: اعتقل الأمن في أول أيام الانتفاضة أحد أصدقائنا الناشطين في مجال حقوق الإنسان بسبب تزعّمه حركة اعتصام في النقابة.

بعد إطلاق سراحه، ذهبنا لزيارته في بيته، نحن عدد من أصدقائه، لنفاجأ بالحال التي هو عليها، فبغضّ النظر عن آثار التعذيب البادية على جسمه، فإنه كان لا يقوى على النطق، وعندما يحاول الكلام فإن صوته يخرج من بين شفتيه بلا حروف!

أخذنا نحن أصدقاؤه نعانقه ونبكي من هول الموضوع. وتبين لنا أنهم أجبروه وهو بين أيديهم على أن يُخرج لسانه من فمه بالقوة والعنف الشديد، ثم أمسكوا اللسان بالكماشات وقاموا بحرقه بحديد حامي، إلى أن تعطلت عضلة اللسان بنسبة كبيرة عن القدرة على الكلام. هذا حدث بالواقع لا الخيال!

أذكر أني قرأت يوم سقوط ديكتاتور رومانيا شاوشيسكو في عام ١٩٨٩، أنهم وجدوا هناك ضباطا من ليبية وسورية كانوا في دورة تدريبية على فنون التعذيب، فهل هم جاؤوا بهذا اللون من التعذيب من هناك؟ كما أني قرأت في صفحتك أن لك صديقا جزائريا يعمل أستاذا بالجامعة، وهو مؤيّد للنظام عندنا، يا ترى ماذا يكون شعوره عندما يقرأ هذه القصة؟

أخيرا ماذا يختلف الذين يعطلون اللسان عن الكلام بلذعه بالنار عن الذين يعطلون اليد عن العمل بقطعها بالسكين!

(مواطن سوري شاهد عيان(

- - - - - - - - - - - - - -

أقول لك، أيها الصديق: إن الجزائري (الذي كان صديقا) سوف يسرع إلى القول بأن هذه القصة مختلقة، وهو يثابر على قراءه جريدة الديار اللبنانية الممولة من النظام ويأخذ منها مقاطع من افتتاحيات صاحبها وينزلّها عنده، ويظنّ أنه بذلك يدافع عن الحقيقة!! إنه ممن عميت أبصارهم وانغلقت قلوبهم وافتقدوا المشاعر الإنسانية.

فلوريدا: ليل الأربعاء ٥-٣-٢٠١٤

أشقاء.. ثلاثة شهداء، واثنان مصابان

قرأت أمس الأربعاء، في إحدى الصفحات، نبأ استشهاد الشاب: • ماهر عبد المولي الحمد الفاعوري، استُشهد في أقبية الأمن. وكان سبقه إلى الشهادة شقيقاه:

• سامر عبد المولي الحمد الفاعوري، • وعامر عبد المولي الحمد الفاعوري.

وقبل الثلاثة، أو معهم، أصيب شقيقاهم وهما يتعافيان:

• صالح عبد المولي الحمد الفاعوري، • وعلي عبد المولي الحمد الفاعوري.

أقول من قلب ينزف ألمًا: ماذا يجري في بلدي؟ أي ثارات تسجّلها يد الزمن!

فلوريدا: فجر الخميس ٦-٣-٢٠١٤

عودة المثقف الآبق

من يوم أن أخذ شهادة الثانوية بحلب وعيناه ترنوان للسفر إلى ديار الغرب، وهكذا حمل حقيبته، شبه الفارغة، وتوجّه، في يوم مشرق أواخر الستينيّات، إلى المملكة المغربية، ومكث في إسبانيا مدّة، قبل أن يستقرّ في مرسيليا حيث درس الأدب العربي على المستشرقين الفرنسيين، معوِّلًا أيضًا على ما كان اختزنه في الصدر، وهو في بيت أبيه عطاء الله، من حبّ للمطالعة وولع بالأدب. ثمّ لم يكتفِ بعد الليسانس بمؤهِّل الدكتوراه من هناك، بل نال دكتوراه أخرى من كلية دار العلوم بالقاهرة.

مما أسجّله لابن عمتي منذر مقدرتُه في أن يُجدّد الحالة الزوجية بالتكرار لا بالتعدّد. تزوج من فرنسية، التقيت بها على مائدته بمرسيليا في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٧، وتزوج ثانية من فتاة سوريّة، وأنجب من الثالث- الجزائرية المتفرنسة- هذه التي اعتذرت عن مرافقته إلى الوطن، إذ يؤدّي إلى حرمانها من الضمان المعيشي في عملها هناك عند مجيئها إلى موطن الزوج الذي لا يَبين ما إذا كان يجد عملاً في جامعات لا تنظر إليه بعين الرضا لخروجه عن مجال الطاعة!

في حلب رأيته يتلقّى التقريع من أمه، عمّتي، التي وجدت في ابنها -وقد رحل الأب- عاطلاً عن العمل. تدخّلتُ يومًا مُشيدًا بمؤهِّلَي الدكتوراه، من فرنسا ومن مصر، على أمل التخفيف، فهبّت في وجهي: «إن شالله مية دكتوراه، ولسّه بياخد مني حقّ باكيت السيكارة وما بيشرب إلّا حمرا! ».

وفي عزوف جامعات الوطن عن قبوله في هيئاتها التدريسية، أخذ الدكتور منذر يتطلّع إلى العمل في الجامعات العربية المستحدثة هنا وهناك، سيّما أنه يحمل جنسية تمكّنه من أن يحظى براتب مضاعف. ثمّ إنه وُفّق في تجديد الحالة الزوجية، وبينما كان يتخرّج على يديه طلابٌ بمؤهِّل الدكتوراه في الخليج، وهو ماض في التأليف وفي ترجمة أمهات الكتب، كان يُنجب... ما أقدره من إنسان!

أعَزّ أمَّه وبالغ في إكرامها قبل رحيلها، وكانا يأتيان على ذكر شفاعتي له يومًا في التلطّف بالتقريع، و... باكيت الحمرا، ويتضاحكان!

أعترف بأني كنت وعدته بأن ألملم ملامحه الشخصية، الآبقة، المصرّة على النجاح والتفوّق، لأُضْفيها على بطل رواية أحلُم بكتابتها. ويؤسفني أني لم أفعل بعد، وأنا أغِذّ السير نحو ضفة العمر الأخرى.

إنه ابن عمتي الدكتور منذر عياشي، أستاذ الدراسات العليا بجامعة البحرين، المثقف الذي أَبَقَ يومًا وعاد وهو في أحسن حال... أحيّيه.

فلوريدا: فجر الجمعة ٧-٣-٢٠١٤

لا تختلف معهم في الرأي، يا ولدي!

في يوم الثامن من آذار

كان الأب تاجرا، وثريّا، ولأنه لم يتلقّ تحصيلاً في المدارس، فقد أراد لابنه الأوحد أن يتعلم، ومن المدارس الأجنبية في البلد إلى بلاد الغرب، وعاد بمؤهّلات لا يستوعب الأب أسماءها.

وقع انقلابٌ عسكري، سُمّي ثورة. فرح الابن بذلك فرحًا لا حدّ له. كان ممّن شاركوا في

التدبير للانقلاب والأب لا يدري، وكان كثيرا ما سمع ابنه وهو يتحدّث عن القومية، والوحدة، والعمال والكادحين.

فجأة... ألقي القبض على الناشط الثوري... والراديو أذاع أنه خائن!

صُعق الأب: «هاي آخرة العلم! ابني خان! ». صدّق، وهل يكذِب الراديو! وحلف أمام أصحابه أنه لن يدفع في سبيل خلاص ابنه لأنه خان «ولا مَتْليك». والمتليك، أيها الأصدقاء، أهون عملة زمن العثمانيين، سُكّت من النحاس الخالص حين قلّ الذهب والفضة، والاسم من الكلمة الإنكليزية metallic

وفي فجيعة الأب، أطلِق سراح الابن، الذي أخذ يحدّث أباه مطَمْئنًا، فهل من المعقول أن يخون وهو تربيته؟ إنما هو اختلاف في الرأي!!

وفي عَجَب الأب، عُيّن ابنه وزيرا! وأسرع يغادر إلى العاصمة، قبل أن يستمع إلى نصح أبيه: «لا تختلف معهم في الرأي، يا ولدي! ».

فلوريدا: فجر السبت ٨-٣-٢٠١٤

للأزواج والزوجات

في يوم المرأة العالمي

كأني رأيت العلاقة بين الأزواج لا تسودها الحكمة والعدل، فهي «إمّا غالب أو مغلوب! ». فإنْ رضي المغلوب... أو يقاوم فتكون الحياة صعبة. وقد ينتهي الشقاق إلى الافتراق.

فلوريدا: ضحى السبت ٨-٣-٢٠١٤

يوم كنت أغنّي لجدّتي

تغريدة للثامن من آذار:

يوم المرأة العالمي

ويوم الانقلاب في سوريّة

في طفولتي المبكّرة كنت شديد التعلّق بجدّتي لأمي (واسمها بهيجة) التي أراها تُغدق عليّ من الحنان ما أفتقد نظيره عند جدّتي لأبي، وكنت في كلتا الأسرتين الصبيّ الأول، سبقتني إلى الدنيا شقيقتي سعاد.

ما زلت أذكر احتفاء جدّتي الصغيرة بهيجة بي، حين أدخل وإخوتي بيتها برفقة أمي، نصل إليهم عبر سوق النحّاسين، يملأ أسماعنا ضجيجُ طَرْقهم صفائحَ النحاس الأحمر مُحيلينها إلى طناجر وصوان. قلت الصغيرة، ذلك أنها تزوجت من جدّي وهي بنت أربعة عشر ربيعا، وجاءت أمي البِكْر لها، لتتزوج أبي وهي في تلك السنّ عينها.

في بيتنا في زقاق الزهراوي بحلب، وراء الجامع الأموي الذي أحرق ثمّ أتت المدافع على مئذنته الأثرية، اكتشفتْ عمّتي (التي كُنِيَتْ فيما بعد بـأمّ منذر، وهي تتقن العزف على العود)، أنّ ابن أخيها، ابن العاشرة أو ما حولها، يملك صوتًا يصلح للغناء. وكان قد دخل بيتنا الراديو مع ما لاح من نُذُر الحرب العالمية الثانية. فعلمتني أغنية فريد الأطرش التي شاعت في ذلك الحين: «يا ريتني طير لأطير حواليك، مطرح ما تروح عيوني عليك.. »، وحفّظتني كلماتها من ورقة مطبوعة أُدرجت فيها الأغنية كاملة.

فكانوا يطلبون مني أن أغنّيها. وأذكر أنّ ما ألاحظه من الطرب في زقاق الزهراوي لا يعادل ما ألقاه عند جدّتي بهيجة، حيث يبادرون، من لحظة دخولي، إلى طلب السماع! وكعادة

المطربين كنت أتعزّز حتى يبلغ التماسُهم لي حدّ التوسّل! ثمّ تعسّفت، فأمليت عليهم أن أغنّي وأنا غائب عن أنظارهم. كان لغرفة المعيشة عندهم سقيفة تتّصل بها وتعلوها بدرجات فأصعد إليها، وهناك أغنّي، غيرَ جالس، بل مستلقيًا على فراش حتى لا تَطالني الأعين. مرة لمحت رأسًا يشرئبّ متشوّفًا أن يرى الطفل متلبّسًا بالغناء، فتوقّفت محتجّا، فتظاهروا بتقريع المشرئبّ، فتابعت!

كان ذلك في أواخر ثلاثينيّات القرن الماضي، أيام حكم الفرنسيين لسوريّة، أولئك المستعمرين الذين لم تذكر كتب التاريخ أنهم قتلوا -في كلّ ثوراتنا خلال حكمهم الذي امتدّ ربع قرن- ما يُبيده النظام في أيامنا، في شهر أو أسبوع، أو في يوم واحد، بالصواريخ والبراميل وغاز السارين!

عاجَلَ الموتُ جدّتي بهيجة عام ١٩٤٢، شابّة في الاثنتين والأربعين، فكان حزني عليها شديدا، ورحلت جدّتي لأبي عام ١٩٥٨ وقد تجاوزت السبعين. رحم الله الجدّتين.

فلوريدا: مساء السبت ٨-٣-٢٠١٤

طالبات الصداقة

في إقبال المتصفّحين على طلب الصداقات، سألتُ -هنا في فلوريدا- ابنتيّ سوزان وسهير، ولم أسأل ابني فراس لكن زوجتَه قمر، عن السبب في أنّ عدد بنات الجنس اللطيف فيمن يلتمسن الصداقة في صفحتي يفوق مثيلَه من أبناء الجنس النشيط؟ فكان أن أبدينَ الرأي في أنها السنّ، فإنّ الفتاة أو المرأة التي تنشد الثقافة والمعرفة، ترى أنّ الرجل، الذي جلّل البياضُ هامته، يمكن أن يتحقّق لها عنده شيء من ذلك، تحت سقف الشفافيّة الموشّحة بالأمان، ما قد يغيب عند سواه!

أقول: طيّب، فما بال فئة من النساء، الأجنبيات، يكتبنَ بإنكليزية ركيكة، إلى الرجال، معبّرات عن إعجاب مكذوب، وهنّ لم يقرأن له، لا ولا يعرفنَ من العربية شيئًا؟

فعلمت أنّ هناك مَن يقوم بإعداد قوائم بأسماء، ثمّ يكون تبادلٌ بها، أو بيع، فتعمد تلك الهاويات الغاويات، إلى أن تبعث الواحدة منهنّ برسالة، مكرّرٍ نصُّها، إلى هنا وهناك، مصحوبة بصور فوتوغرافية لها بأوضاع، وتقعد تنتظر... فإنْ علقت السِّنّارة بدأت بالابتزاز!

أسأل، أيها الأصدقاء: هل يتلقّى بعضكم، أو كثيرٌ منكم، طلبات صداقة من أجنبيات سمراوات؟

فلوريدا: منتصف ليل الأحد ٩-٣-٢٠١٤

رائحة العشب

استيقظت اليوم على رائحة العشب، يجزّه العجوز روجر الذي يأتي حيّنا كل ثلاثاء، وقد تسلّلت إلى غرفتي عبر الشباك المطلّ على الحديقة. حدائق هنا ممتدّة ومتواصلة حتى لا فاصل بينها، فالبيوت مزروعة فيها لا الحدائق تحيط بالبيوت، هذه التي أقاموها من خشب الغابات الحنون.

خرجت، وفي اليد فنجان قهوتي. كان روجر قد ولّى مع ضجيج عربته. فرشت البساط، وآثرت القعود على العشب، أتلمّسه بكفّي فكأنه المخمل نُسِج بلون الزُّمرّد، وأنا أستمع إلى ترتيل الطيور، وأرقب السناجب تسري على أغصان أشجار القيقب والمانوليا.

وتذكّرت.

تذكّرت إخوة لي، هنالك، يقتعدون الرمال، ويأوون إلى خيام لا تحمي من حرّ وقرّ، يرقبون جوارح الطير تحوّم في الفضاء. وإعلام الوطن المنكوب يُبشّر بميلاد نظام غريب في

أرض الشام.

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ١١-٣-٢٠١٤

وتلك كلّ المسألة

ألَا اسألوا عن فرحة الأسمر

الساكن في البيت الأبيض

ضِحكتُه اليوم شِبران

قد اشترى الملوِّحَ بالنووي

وباع كلّ العرب

وتلك كلّ المسألة!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١١-٣-٢٠١٤

لأنهنّ مسيحيّات بحقّ

استشاط الإعلام غضبًا للصدق الذي تبدّى في أقوال الراهبات اللواتي أطلق سراحهنّ بعد ارتهانٍ استمرّ نحو أشهر أربعة.

كان الإعلام الرسمي يريدهنّ أن يدّعين ما اعتاد هو أن يَسقي حرائرَ الوطن من كأس العذاب، وذلّ الاغتصاب، وحَمْل الرضيع على الزند إمّا قُدّر لبعضهنّ أن يُطلق سراحهنّ.

ليس مبالغةً القولُ بأنّ ما تتمتّع به هؤلاء الراهبات الثلاث عشرة، من التديّن الخالص الذي يُفضي إلى قول الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة، لو أنه يوزّع على المسيحيّين المصطفّين خلف النظام، لمنافع أو لوهم حماية، لكانوا جميعا أتقياء أنقياء.

ولسوف تظلّ المناظر التي تعرضها الفضائيات، من اقتياد الحرائر من قِبل الشبيحة، سحبًا ودفعًا وركلاً، شاهدًا على التوحّش لن تمحوه الأيام من ذاكرة الناس... إلّا من زاغ بصره وعميت بصيرته.

نعم، كانت الراهبات صادقات لأنهنّ مسيحيّات بحقّ.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٢-٣-٢٠١٤

وتنبّأ لها الخال بأن تكون مبدعة!

لاحظ الأهل، مذ كانت في سنّ الطفولة، ما عندها من القوة والحزم، مع ما اتّسمت به من حبّ للهدوء والعزلة يصل بها إلى حدّ الخجل! ولاحظوا أيضًا -وهي في سنّ الصبا- امتشاقًا في القامة يفوق ما تتمتّع به صويحباتُها. ثمّ كان أن استرعت هيئتُها -وهي في ثانوية ساطع الحصري المدرسة الأكثر تميُّزًا في ذلك العهد- وكذلك انضباطُها في نظام الفتوّة، انتباه المدرّبة، فسمّتها الأسبوعيةَ التي تقود تحية العلم.

لم يَخْفَ عن الأهل، منذ طفولتها الباكرة، ميلُها للرسم. لوحظ تفتّح موهبتها عند زياراتها لبيت خالها الفنان المرموق في طلعة العفيف. وكثيرا ما أتيح لها أن ترى سيدة تجلس أمامه في محترفه لا تُبدي حراكا، وهو يلتقط بريشته المرهَفة ملامحها الملهِمة، فتعلمّت الصبر مرسومةً والفنّ رسّامة، وبدأت تغمس ريشتها بالألوان، وتنبّأ لها الخال بأن تكون في غدها فنانة مبدعة.

انتسبت إلى كلية الفنون الجميلة، مجتازةً امتحان سبر المواهب بتفوّق. إلّا أنه قدّر لها أن تحزم، في أول صيف تلا، حقيبتها، ضامّة الريشة والألوان، لتسافر زوجةً إلى المغترب الأمريكي. ولكنّ الحياة، مع الأسف، لم تَطِب لها، فكان فراق، خلّف الطفلة زينة، زينة الأطفال.

ونزلت إلى معترك الحياة. عملت في مؤسسة لتصميم الأزياء، فكانت تمتزج في ألبومها السنوي حداثةُ الغرب بالتجلّيات المشرقيّة. وتابعت الدراسة في كلية الفنون الجميلة بجامعة كاليفورنيا، وهيأ لها تفوّقُها الاستفادةَ من مِنَح غير محدودة، من إعفاء من تكاليف الدراسة إلى تزويدها بمستلزمات الفنان من المواد والأجهزة المستحدثة.

هل كان زواجها الجديد معينًا لها في دنيا الإبداع؟ شاركت في معارض، وأقامت معارض فردية، في الوطن الأمّ، وفي بعض العواصم العربية والأوروبية وفي الولايات المتحدة. واليوم يستعير بعضهم لوحاتٍ لها أغلفةً متميّزة لكتبٍ ولألبوماتِ أغنيات نابعة من القلب.

هي مثل خالها الفنان الراحل لؤي كيالي، صاحبِ العيون التي يستغرقها الحزن، والمنحازِ إلى المعذّبين في الأرض. ويوم اندلعت الانتفاضة في الوطن أخذت تودِع أحزانَها في عيون السوريات التوّاقات إلى الحرية.

إنها الفنانة التشكيلية السورية سهير السباعي، ابنتي، أمّ الشابة زينة الخالدي، وجدّة الطفل آدم الميداني، وزوجة رجل الأعمال بشار الصباغ، الذي تقف وإياه جنبًا إلى جنب في مواجهة أعاصير الحياة.

إن رأيتم الأبوّة تجرح شهادتي، فخذوا من عناصرها ما تشاؤون، ودعوا ما يتبقّى للتاريخ.

فلوريدا: فجر الخميس١٣-٣-٢٠١٤

مركز العالم

عندما كنت في المدرسة صغيرا، ارتسم في خاطري أنّ بلاد الشام هي مركز العالم، مركزه حلب، زقاق الزهراوي الذي بين جدرانه الدافئة اكتحلت عيناي بالنور. وتعلّمت أنّ تركية في الشمال، وأنّ مكّة في الجنوب، وأنّ في الغرب تقع بلاد الأندلس التي فتحها طارق بن زياد.

ومن عجبٍ أني ما أزال أرى -وأنا في أيامي مقيمٌ في أقصى الغرب- أنّ بلاد الشام هي مركز العالم، فكلما ذُكرت أمامي أوروبا مثلاً، أسرع خاطري يرسمها في الغرب، مع أنها باتت شرقيَّ ما أقيم، وأكثر من ذلك أتصوّرني ما أزال في زقاق الزهراوي، الذي دمّرته المدافع حتى لم تُبْقِ فيه حجرًا فوق حجر!

فلوريدا: فجر الجمعة ١٤-٣-٢٠١٤

الباحثة.. عن النجمات اللامعات

وإني أرسل، أيها الأصدقاء، إعجابي مضفورًا بالشكر ومضمّخًا بالعطر، إلى الأستاذة التي مارست التدريس في جامعات الوطن شطرًا من حياتها الأكاديمية، قبل أن تُؤثِر التنحّي واستئنافَ العمل في أقرب العواصم إلى دمشق.

تراءى لها قبل أيام، أن تكتب على جداري لتحدَثني، بمودّة صافية، عن أنها زارتني بدمشق، قبل ثلاثين عاما أو أربعين، بمناسبة عقد قران في بيتي. ومنذ ذلك الحين وهي تبحث عن مؤلفاتي في المكتبات والمعارض وتقرأ لي في الدوريات، معبّرةً في ذلك عن جميل رأيها بما يُطلقه مثقفو بلدها الجريح من صرخات، تسعى هي إلى لملمتها «كالباحثة عن النجمات اللامعات في عتمة الدجى»، ومؤكدة لكاتب السطور أنها تقدّره «أديبًا ومفكّرًا، وأبًا، وزوجًا، ورجلاً أحبّ وطنه.»

للسيدة، وهي شقيقةٌ لوزير ولمحافظ ولضابط رفيع، أحِبّ أن أشير إلى ما أظنّها تعرفه، من أنّ ابنتي سهير، التي كانت قد حضرت مناسبتها في صيف ١٩٧٧، هي اليوم الفنانة التشكيلية الي اغتربت، فما زادها الاغتراب، والاحترابُ في الوطن، إلّا حبًّا به. وإنها اليوم تغمس بألوانه القانية ريشتها، كما ظلّ أبوها يُغمّس بدم القلب قلمه، تعبيرًا، منها ومنه، عن

أقسى ما تمرّ به بلاد الشام من أيام.

مع سروري، يا دكتورة سها قولي، بكلماتك المرهفة، أعبّر لك عن منتهى إعجابي باستجابتك لما اعتادك من الخواطر والمشاعر، في ذلك الهزيع من الليل، فأخذتِ القلم، تُبحرين به في عالم الذكريات، وتَنظِمين عِقدًا من لآلئ تُطوّقين به جيد المودّة النبيلة.

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ١٤-٣-٢٠١٤

لا أرى أنّ خطف الراهبات الثلاث عشرة يُبرّره حُسنُ النتيجة التي آل إليها.

ولكن... حبّذا لو يَنظر الثرثارون إلى ما يفعله الطرفُ الآخر، مِن قتل الأبرياء بالبراميل المتفجّرة، وخنق الأطفال بغاز السارين، وسَوق حرائر الوطن إلى الاعتقال والاغتصاب!

ثمّ... لماذا لا يُسمعوننا آراء المحرّرات جرّاء الصفقة؟ ألسنَ مواطنات؟ أم أنهنّ لسن من بني البشر؟

ولكنه السرطان الذي استوطن في القلوب!

فلوريدا: فجر السبت ١٥-٣-٢٠١٤

تقارير هنا.. وتقارير هناك

عندما كان طالبًا بكلية الطب التي دخلها باستثناء، أرهق زملاءه الطلاّب بكتابة التقارير بحقّهم، بأنهم سبّوا النظام، أو يُشيعون عنه ما يوهن العزائم ويضعف روح المقاومة ضدّ العدو، فيودي بهم إلى الفروع الأمنية.

فلما آن له أن يتخرّج طبيبًا بشريًا، وجدوه في المستشفيات فاقد الأهلية للمعالجة السريرية، فجعلوه من أطباء المعتقلات، الذين يكتبون التقارير بأن هذا المعتقل، الذي قضى تحت

التعذيب، قد فارق الحياة نتيجة جلطة بالدماغ أو احتشاء في القلب، ثمّ يمنعون أهله من أن يكشفوا على الجثّة، ويُدفن تحت الحراسة المشدّدة.

فلوريدا: ظهيرة السبت ١٥-٣-٢٠١٤

ويتبادلون الابتسام

كانا يقتربان مني. هما في مثل سنّي أو أصغر قليلا. يلبسان الشورت، للتريّض في سويعة الأصيل. وأنا متدثّرٌ اتّقاءَ ريحٍ قد تلفحني.

لمّا آن لنا أن نلتقي، في نقطة من هذا الرصيف الضيّق الممتدّ على طرف الغابة، رأيتهما يتنحّيان لي، ومع التنحّي يمنحاني ابتسامة ودوداً.

إنهم هنا يوزّعون الابتسامات... وهناك؟

ألقيت نظرة إلى البيوت الملتصقة بالأرض، من طابق واحد لا يزيد، المتباعدِ بعضُها عن بعض، تصل ما بينها المروجُ الخُضر، وترتفع أشجار الكاردينيا وكلُّ ما يليق بالبيئة الاستوائية.

وفكّرت...

أيّ خاطر غريب مر في خاطري! لو أنّ برميلاً، من تلك التي ما تزال تُرمى هناك، أسقطوه بين هذه الفيلات، لما أحدث دمارًا هائلا، فليس هنا كثافةٌ في الجماد والعباد!

أعترف لكم، أيها الأصدقاء، أني خجلت أمام نفسي، وأدركت كم ذا حملتُ، في قدومي من الوطن، من فيروسات نفسيّة!

فلوريدا: أصيل السبت ١٥-٣-٢٠١٤

عبد الحكيم قطيفان

أيها الفنان الأصيل، الحرّ، المواسي

نحيّيك.

ونقدّم لأطفالنا أبلغ الاعتذار

لأننا قصّرنا كثيرا في حمايتهم.

أحدنا يقبل يد الطفل، وآخر يبتر رجله!!

فلوريدا: منتصف ليل السبت ١٥-٣-١٤

حضاريون.. في هذا الزمن!

وأسقَط النعاسُ تلقاء عينيه غِلالة. أزاحتْها يداه. وبالجهد تقرّت العينان ما في السطور، والأذنان تسمّعتا إلى وقائع لا تكون إلّا في الأحلام.

هل كان ذاك الأكاديميّ العالم يتوقّع النجاح، الذي حقّقته أكاديميّتُه العلمية العصامية الخاصة، التي تَشارك في إنشائها، منذ بدء الانفتاح، مع أصدقاء يماثلونه علمًا وثقافة وأدبا؟

ذات يوم جاءه من أتباع النظام مَن يرغب في تملّكها. وكيف يتخلّون عنها وقد بذلوا فيها نور العين ودم القلب!

لم يكرّروا الطلب. جاؤوه في وضح النهار غير ملثّمين. اقتحموا مكتبه. جرجروه إلى أرض الحرم. وعلى مرأى ومسمع، والتصوير شغّال، أخذوا يصرخون به: «وتتمادى على أسيادك، يا كلب! ».

وإلى الفرع مكبّلاً ساقوه. وفي الغَيابة ألقوه. ورتّبوا له تهمة التخابر مع العدوّ. نعرف عنك

كلّ شيء، منذ كنت في ديار الغرب تتلقّى التخصّص!

في ظلام السجن، الطويل، وقّع. ويوم إطلاقهم سراحه، كانت قد عَشِيت عيناه!

... وسقطت، أيها الأصدقاء، الغِلالة أمام العينين آخر الليل من جديد، فما عاد يعرف: أكان ما رأى وَقَع في بلاد الواق واق، أم أنه لا يعدو أن يكون من أضغاث الأحلام!

فلوريدا: فجر الأحد ١٦-٣-٢٠١٤

حنين إلى الوطن

غادرت بيتها بحلب مع من غادر ونزح. ولما استقرّ بها المقام في عاصمة عربية مجاورة - أو ظنّت أنها استقرّت- أحسّت بوجع الحنين إلى الوطن وإلى البيت، فتناولت القلم وأخذت تعبّر.

وما كانت أديبتنا الشابة الموهوبة لتدّعي أنّ ما تكتبه هو الشعر، ولا هو الزجل (العامي)، وإنْ اتخذت بعضُ أسطره، أو أشطره، القافية والرَّوِيّ أحيانا دون اهتمام بالوزن، ولكنك تتأثّر، وأنت تقرأ عن البيت، الذي كان ظنُّها أنه من حيطان وحجر، فإذا هو شيء آخر مختلف: كان يلمّ العيلة... وهي ذي تخاطبه:

فيك أول مرة حبّيتْ

وضحكاتْ رفقاتي خبّيتْ

وفيك رقصتْ، وفيك بَكيتْ

فتنقل إليك بهذه العفوية عدوى الحنين إلى بيتك الذي فقدتَ، فإنْ لم يكن بيتك مفقودًا، فأنت تشاركها وجدانيّا حنينَها إلى بيتها المتروك!

ويقتضيني التعريف أن أبيّن أنّ أجداد كاتبتنا، واسمها Areny Dikranian، كانوا ممّن

قَدِموا، قبل مئة عام، من تركيا، واستضافتهم حلب، وأضافوا هم إلى الفسيفساء في بلاد الشام لوناً وأَلْقاً. أعرّفكم بها الليلة، خريجة الجامعة الخاصة للعلوم والفنون بحلب، وهي اليوم مقيمة في بيروت، وقد تلقّيتُ أمس من أقرباء لها في لوس انجلوس، مقطوعتها التي آمل أن تقرؤوها فجر غد الإثنين، والعنوان يا بيتْنا اللي في المدينة.

فلوريدا: منتصف ليل الأحد ١٦-٣-٢٠١٤

قد يكون الإنسان لطيفًا في تسع حالات

وفي العاشرة يُبدي فجاجة

فيُضيّع ما حقّق من اللطف!

فلوريدا: صباح الإثنين ١٧-٣-١٤

كثيرًا ما تستطيع المرأة بذكائها الفطري

أن تجعل الرجل يقول ما تريد

ويتصرّف على نحو ما تريد

وهو يعتقد أنه يفعل هذا من وحي ذاته...

وقلّما يمتلك الرجال مثل هذه المقدرة.

فلوريدا: مساء الإثنين ١٧-٣-٢٠١٤

كلمتي عن لطف الإنسان في الحالات التسع وعن خطئه في العاشرة...

وردت إليّ في الخاص رسائل من أصدقاء في الوطن يعتذرون لي عمّا ظنّوه من أني قصدتُهم،

وأني أغمز بذلك من جانبهم. وهذا لم يدر في بالي قط! وسيدة منهم قالت بعدئذ كالمتنهّدة: «الحمد لله! »، فمازحتها: «طلعتِ براءة! ».

ما أطيب الناس وأرقَّ شعورهم!

فلوريدا: ليل الإثنين ١٧-٣-٢٠١٤

هل تعتذر لنا مارسيل الحلبية؟

أمس الإثنين، في أثناء قيام عدد من الناشطين بأعمال في منطقة جسر الحج بحلب، وبينهم الناشطة مارسيل شحوارو، تعرّض لها جماعة من جيش المجاهدين، وطلبوا منها أن تتحجّب، ولما امتنعت بكبرياء نقدّرها فيها، اصطحبوها إلى أحد مقرّاتهم، وبعد ساعات أطلقوا سراحها وقد ألجؤوها إلى التعهّد بأن تلبس الحجاب وهي المسيحية، ذلك ما كتبته في صفحتها عن الحادثة فور خروجها... وقد صرّحت في فورة غضبها ما لا نرضاه لها.

قالت (بالعامية، وأنا أنقله إلى الفصحى): «لا يمكن للمسيحيين أن يعيشوا مع هذه المعارضة المسلحة التي تفرض الحجاب على المسيحيات، المعارضة لا تريد بقاءهم في البلد أساسًا». ثمّ مخاطبة المسيحيين: «كنت غلطانة، وكانت مخاوفكم محقة. هاجِروا. هالبلد ما عادت لنا! ».

أقول لهذه الناشطة الحرة: ما هكذا تكون ردّات الفعل على فعل صغير يقوم به من لا يملك من الأمر إلا هذه الأحكام المرتجلة. وماذا يمكن أن نفعل، إذن، تُجاه اختطاف المطرانين الجليلين؟ وإزاء سَوق الحرائر إلى الاعتقال والاغتصاب؟ وإلى خنق الأطفال بالسارين؟ وموت عشرات الألوف تحت التعذيب؟ وهَدْم البيوت وتهجير الملايين؟

أعذرك، يا مارسيل، وأنت مِن أوائل مَن خرج في المظاهرات المطالبة بالحرية. إنها فورة

غضب. ولأنك من النشطاء، أشجعهم وأنبلهم، فإني أتوقع منك سحب عباراتك تلك، والاعتذار لمحبّيك والمعجبين بك، الحريصين على أن تظلّي في صفوفهم... وما أشكّ في أنّ كلماتك الملتهبة قد مسّت مشاعرهم - وأنا واحد منهم - فالذين ينشدون الحرية لا يتخلّون عنها أمام مثل هذا التصرف الصغير.

وكوني على ثقة من أننا، نحن وأنت وسائر المسحيين، لن نرضى بأن يحكمنا من لم نر على شاكلتهم في كرسي الحكم على طول القرن العشرين، فكيف وقد دخلنا القرن الذي يليه؟

ولا أتمنى لك إلا راحة البال وأن تكوني في خير حال، وأن تبقي ناشطة بالقول والعمل السلمي.

فلوريدا: فجر الثلاثاء: ١٨-٣-٢٠١٤

تنويريّون.. وظلاميّون

ممّا جادت به علينا الأنظمة الديكتاتورية، عبر النصف الثاني من القرن العشرين، أنّ قادتها قسّموا المواطنين إلى: تقدميّين ويعنون أنفسهم، ورجعيّين ويعنوننا نحن المحكومين.

فلمّا أدرك الاهتراءُ هذين المصطلحَين، ابتدعوا، في مطلع القرن الجديد، آخرَين بديلين: تنويريّين ويعنون أنفسهم، وظلاميّين ويعنون كلّ من عداهم.

ويشهد الخَلقُ والتاريخ والأرض والسماء أنه كان من تقدّميّتهم وتنويريّتهم، أن فتحوا على الناس، كلّ الناس، أبواب جهنم: فالفقراء زادوا فقرًا وتعتيرا، والمثقفون زادوا قهرًا وذلًّا وتشهيرا.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٨-٣-٢٠١٤

وعلّمتني أمي أن أكون في صفّ المقهورين

لما سمعت سيّدةُ الدار أنّ هناك صبيّة مثل القمر يسكن أهلها في ذلك الحيّ، هُرعت إلى بيت أهلها تطلبها لثاني أولادها أبو السعود، ابن العشرين، الذي ما زال يلحّ في طلب الزواج. ولما دخلت الصبية، بنت الأربعة عشر ربيعًا، الدارَ كَنّةً، لم يكن لحماتها أن تَعْدل عن إيثارها لزوجة الابن الأكبر، المحنّكة والعاقر في آن، التي لها من العمر ضعفُ ما للكنّة الصغيرة.

ولم يكن الزوج معنيًّا قط بما يجري في الدار بغيابه. ولكنه، بعد أن وضعت زوجته بِكرَها بنتًا، ثمّ جئت أنا الصبيَّ الأول للأسرة ولحق بي أشقاء، بدا أنّ نفس أبي – وقد بلغ الثلاثين أو تجاوزها قليلاً – قد تفتّحت للنساء، فاعتاد سهرًا يعود منه إلى البيت منتصف الليل، فتُغلق أمي دونه الباب، قائلةَ وقد بدأت تعي حقوقها: «لا أريد بقية زوج! »، وجدّتي تحذرها: «إن ظللتِ على هذا العقل، هَهْ (وتمسك بخصلة من شعرها المحنّى) إلّا ما يطقّك بضرّة! ».

وقد فعلها أبي. فدخلت الزوجة الثانية البيت (وإنّ لي من وحي ذلك قصةً سمّيتُها: صغير على الهمّ، نشرتها في مجلة الفيصل، الرياض، العدد ٥٢، عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م). ثمّ كان الإنجاب المتواصل... وتأتّى لي -فيما بعد- أن أجعل من هذه المعاناة في بيتنا فكاهة تُروى، فصرت أحدّث أصدقائي الأدباء: «كانت إحدى الزوجتين تضع يوم السبت، فتحمل الأخرى مساء الأحد»، حتى بلغ العدد -دقّوا على الخشب- تسعة عشر (١١ ابنا وثماني بنات)، أطباء ومهندسون ومدرسون ورجال أعمال، وربّات بيوت.

أستطيع الزعم بأن ما عانته أمي في حياتها (١٩١٣-١٩٨٢) من الظلم على يد جدتي، وما تلقّته من إهمال من أبي (وكلّ أطفال الشرق وكثير من أبناء العالم مظلومون ومهملون) جعلني أكثر تفهّمًا لدواعي الظلم والقهر، فوقفت في صفّ المظلومين داخل الأسرة والمضطهدين خارجها. ويوم أردت أن أعدّ كتابا يجمع بين هاتين الحالتين اخترت "صغير على الهمّ" ممثّلةً

للحالة الأولى، وأتبعتُها قصصًا ترصد ما يمارسه النظام على المواطن، ابتداءً من إشاعة أتباعه الخشية والخوف بين الناس، مرورًا بتصرفات المتنفّذين اللامسؤولة، وليس انتهاءً بالموت تحت سياط الجلاّدين، سمّيته "الألم على نار هادئة" (ط ١٩٨٥، ١٩٩٠، ٢٠٠٢).

أرادت أمي، وأنا بعدُ تلميذ صغير بالروضة، أن تسابق الزمن فتجعلني في الصف الأول الابتدائي، فذهبت بي في صيف١٩٣٤ إلى مدرسة الحي. وكان بين أمي وبين مدير المدرسة من الحوار ما أزال أذكره بالرغم من مرور ثمانين عاما على تلك الواقعة، فسجّلتُه في نصّ سرديّ، تقرؤونه بعد غد في يوم الأمّ العربية، وعنوانه: يوم صحبتني أمي لتسجّلني في الأول ابتدائي.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٩-٣-٢٠١٤

هل ترونه دفاعا عن الصبايا؟

كانت الأمهات، وما يزال كثيرٌ منهنّ، يقرعن الأبواب في حارتهنّ، متجاوزاتٍ في ذلك إلى الحارات الأخرى، سؤالًا عن صبيّة لبيّة لابنهنّ الغالي. وليس عند الشابّ بأسٌ في أن يدخل عشرين بيتا، ثمّ يدير ظهره في كلّ مرة لهنّ، غير مكترث بما قد يسبّبه انصرافه في نفس الصبيّة، التي لم ترق له، من جرح صغير اعتادت تلقّيه. وأما إذا راقت له وأرادها، واعتذرت، فهو جرح له كبير!

حدّثني صديقٌ عمّا وقع له، في ذلك المساء البعيد، حين زاره في بيته في غياب أسرته، طالب قرب، قد تخرّج حديثًا في كلية الهندسة (وكان خريجوها يتمتّعون قبل ثلاثين وأربعين سنة بمنزلة).

يقول: إنه لاحظ، من أول نظرة، قِصَرًا في قامته على حين تتميّز ابنته بطول وجمال يستلفتان النظر. وعندما بدأ الضيف بالحديث -وبدا متكلمًا- جعل يشيد بما تتمتع به الأسرة من

الخصال، مشيرًا في ذلك إلى امتشاق قامة الصبية، فهذا كما يرى من أجمل الصفات.

يقول صديقي: «هنا... لم أتمالك نفسي من أن أبدي ملاحظة يؤسفني أنها لم تكن خالصة البراءة، عمّا إذا كان للفتاة الفارعة أن تطمح أيضًا إلى أن يكون شريك حياتها طويل القامة؟». يقول: إنه رأى الشابّ وكأنه بوغت! وبعد انصرافه، تلقّى منه مكالمة هاتفية يقول فيها: «نعم عمّي، ملاحظتكم وجيهة، ولكن ألا يمشي الحال إذا كان الشاب مهندسا؟».

فلوريدا: مساء الأربعاء ١٩-٣-٢٠١٤

خلّينا مغمّضين

بعد الخاطرة التي قدّمتُها قبل أيام، من أنّ المرأة الحاذقة تملك القدرة على أن تجعل زوجها يقول ويفعل ما تريده هي في الوقت الذي يعتقد أنه يتصرّف من وحي ذاته، كتبت إليّ على الخاص من بلد بعيد، صديقةٌ جرت على أن تعلّق أحيانا على خواطري، أنها همّت بأن تكتب مؤيّدةً، لولا خشيتها من أن يتنبّهَ زوجها إلى الحقيقة الواقعة، هو الذي «يعتقد أنّ كلّ ما يحصل في البيت من وحي ذاته».

أقول: خلّينا مغمّضين!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٠-٣-٢٠١٤

عندما تتواضع الأنظمة!

ومن العادات الجميلة، التي أرادت الأنظمة الشمولية إرساءها في المجتمعات، أنّ المسؤول منهم حين يدخل سيارته الرسمية، في انصرافه من عمله أو في ذهابه إليه، يتخلّى تواضعًا عن الجلوس في الصدارة، متّخذا مجلسه بجوار السائق. هم بذلك يدحضون الفرية التي تقول بأنّ ثمة فارقا بين كبيرهم والصغير!

وما هو إلا حين، أيها الأصدقاء، حتى كانت سجونهم تتّسع للفقراء والمثقفين على حدّ سواء، والطائرات تقصف سكان البيوت عشوائيّا، والمحاصيل الزراعية تُحرق في بيادرها، و... فنّ من الموت استحدثوه: غاز، تَمُجّه صواريخ، تحمله الريح، يتسلّل إلى الصدور، فيكون الموت اختناقًا.

ثمّ يرفعون الصوت عاليًا: «مو نحنا!»، ويقهقهون.

لله درّهم!

فلوريدا: مساء الخميس ٢٠-٣-٢٠١٤

البيئة الملهمة للأدب السردي

في أربعينيّات القرن الماضي، وأنا في الإعدادي والثانوي بحلب، كنا، نحن رفاق المدرسة (ثانوية المأمون، التجهيز الأولى) المولعين بالأدب، نتبارى في قراءة المجلات الأدبية والروايات المتاحة لنا آنذاك، خاصة تلك التي تصدر في السلسلة الشهيرة المسمّاة روايات الجيب مترجمةً عن اللغات الأجنبية.

وأذكر أننا، في إعجابنا بتلك الروايات التي ترصد ما يجري في المجتمعات الغربية من حوادث الحبّ وأحداث الحياة، كان يُخيّل إلينا أنها المجتمعات الغنيّة بالإلهام، وأنّ مجتمعاتنا العربية تفتقر إلى ذلك الخصب والغنى، فلن يكون عندنا إذن ما يُضاهي تلك الأعمال الروائية.

ولكني، وأنا أقرأ الأدب السردي العربي من قصص وروايات ومقالات قصصية، مما يكتبه محمود تيمور وتوفيق الحكيم وإبراهيم عبد القادر المازني على سبيل المثال (ولم يكن نجيب محفوظ قد عمّت شهرته)، أدركت أنّ كلّ مجتمع في العالم، ابتداءً من المجتمع الفرنسي الذي استوعبه أونوريه دي بلزاك في مجموعة أعماله الروائية التي أطلق عليها الكوميديا

الإنسانية، ومرورًا بأيّ مجتمع في القارة السمراء، وانتهاءً بأصغر ضيعة قريبة من حلب، جديرٌ أن يُلهم حكايا حبّ وأحداثَ حياة، ضاجّةً وهادئة، وإنما المعوّل عليه هو النظرة التي تتغلغل والموهبة التي تعمل.

وقد أكّد لي ذلك ما قرأته في تلك الآونة عينها، في مجلة الكِتَاب (عن دار المعارف بمصر)، في دراسة مستفيضة للروائي الفرنسي فرانسوا مورياك (عنوانها: الروائي وشخوصه) من أنّ الموضوعات تجدها على قارعة الطريق، وأنّ على الكاتب أن يلحظها، وأن يلتقطها التقاطَ العصافير للحَبّ حيثما تجده، أو كلام من هذا القبيل.

ومن هنا ابتدأت أستلهم، واثقًا، منذ بداية حياتي الأدبية، القصص والروايات، من سوق المدينة الذي يعمل فيه أبي، وزقاق الزهراوي مرتع طفولتي، والبيت الذي ولدت فيه ونشأت، وكذلك من قصر العدل الذي مارست فيه المحاماة مُدَيدةً، ومن عالم الأدباء، ووزارات الدولة التي عملت فيها موظفا، صعودًا إلى نظام الحكم في مستوياته.

وأذكر هنا قصة طريفة رصدتُ فيها رحلة أسرة شعبية إلى حمّام النِّسوان، ومعاناة الأم حيال المعلمة الباركة فوق المصطبة كالجمل تستقبل الزبونات، وقد اعترضتْ على دخول الصبي بداعي أنه أصبح كبيرا! وعندما ناقشتها الأم جابهتها المعلمة: روحي جيبي أبوه كمان! انظري كيف يحملق في النسوان!

فلوريدا: فجر السبت ٢٢-٣-٢٠١٤

تأثير الأدب!

في تلك العاصمة العربية، التي جريت على أن أحُلّ بها كلّ عام في معرض الكتاب بصفتي ناشرًا، وقفت ذلك اليوم في صالة المطار أمام مكتب الخطوط الجوية التابعة لبلدي، أنتظر

دوري.

لـمّا تبيّن المضيف الأرضي -وكان من أبناء تلك البلد- من الكتب التي أحملها في يدي، أني واحد من الكتّاب، رحّب بي، وأسرع في الإنجاز مع المراعاة، وتمثّل شكري له بأن وضعت بين يديه أحد مؤلفاتي، وفيما بدا عليه من سرور عبّر عن أنه سيتصل بمدير المحطة ابن بلدي السوري، ويذهب ليقدّم الكتاب إليه، وأضاف بأنْ منحني بطاقة تخوّلني أن أُستضاف في مقهى المطار حتى سويعة إقلاع الطائرة.

ثمّ كان أن سمعت، من الهاتف المعلن وأنا في المقهى أتناول فنجان القهوة، أني مطلوبٌ إلى حيث بدأ ركاب الطائرة بالخروج إلى الساحة. وهناك سَعِد كلّ منا، أنا ومدير المحطة، بالتعارف.

وفي صعودي إلى متن الطائرة، فوجئت بأنهم يوجّهونني إلى مقاعد الدرجة الأولى، وهناك زاد اهتمام المضيفة بي، وكان من لباقتها، وهي تتردّد عليّ مؤدّية الخدمات الفائقة، أن عبّرت عن حبّها للأدب، وسعادتها بالتعرّف على واحد من أدباء الوطن، فقدّمت، مرة ثانية، كتابا لهذه القارئة المرهفة، وتلك حالنا نحن معاشر الكتّاب، فكيف إذا كان الكاتب ناشرًا لكتبه! وممّا ظهر لي من فرحها، أنها ذهبت بالكتاب إلى الكابتن الذي، من بالغ لطفه، جاءني متعرّفًا وشاكرا.

وحُقّ لي، ساعتئذ، أن أختال بيني وبين نفسي: هأنتذا، أيها الكاتب الذي يظنّ نفسه مغيّبًا وراء الغيوم، يرحَّب بك أحسن الترحيب وأنت فوق الغيوم

ما وقع لي، أيها الأصدقاء، أني رأيت مدير المحطة، في العام التالي، وهو يشرف بنفسه على الأمور. ألقيت التحية، فما تلقّيت منه ردًّا جميلا بل عابسا. شككتُ بذاكرة الرجل، فذكّرته، فلم

يتغيّر: لم يهشّ، ولم يرحّب، ولم يراع... وهنا أدركت أنه قد قرأ الكتاب، أو بالأقلّ تصفّحه، وإنّ فيه ما فيه من قصص تندّد بظلم الظالمين وتنتصر للمقهورين!

وعلى متن الطائرة، في الدرجة السياحية مستواي، تحاشيت أن أتطلّع إلى حيث المضيفة التي أسرفت في الترحيب يوما. وطَوال الرحلة، كنت أتخيّلها مقبلةً نحوي لتقول معاتبةً: «لم يكن مُرضيًا أدبُك القصصي في الكتاب الذي أعطيتنا إياه العام الماضي!». وأضحك بيني وبين نفسي.

وأما ما تخيّلتُه من ردة الفعل عند الكابتن، فإني أفضّل ألّا أبوح به على الورق.

فلوريدا: فجر الأحد ٢٣-٣-٢٠١٤

النظر إلى الأطفال.. من بُعد!

كان أصغرُ الأشقاء، الذين أودِعوا المعتقل، ما يزال في الصفّ التاسع لم ينل شهادة الكفاءة بعد، وجَمَعَهم، مع رجال أشدّاء، قاووشٌ[1] واحد في ذلك المعتقل المرميّ على تَخْم البادية.

ذات عام، ذات شهر، ذات أسبوع، اشتاق الطفل لأن يجتمع بأندادٍ له، يحاورهم، يلاعبهم، يلامس أجسادهم. وكان اتفاقٌ مع سجّان طيّب -وفي السجانين قلوبُ آباء- على أن يأتي بأولاده إلى المعتقل. فجعل السجان أبناءه الثلاثة على السطح هناك، بحيث يشاهدهم الطفل السجين من بُعد، وكان من رقّة القلب أن طلب الأب منهم أن يتجاوزوا في وقفتهم الكلامَ إلى العناق، على مرأى من السجناء، وهم يستقبلون أشعة الشمس على طرف السطح.

ويا لها من عاطفة تدفّقت في قلب الصبي، وسرت إلى قلوب السجناء الذين فارقوا أطفالهم، وقلوب من لم يُكتب لهم أن يتزوجوا.

---

(١) غرفة في السجن.

اتفق لي، أن اجتمعت، في منتصف التسعينيّات، بالأشقاء الثلاثة في سجن الوطن الكبير.

كان الطفل، الذي تربّى في ظلام السجن بضعة عشر عامًا، قد أخذ يربّي نفسه عبر الكتاب، وكان يروي لنا هذا باسمَ الثغر، لم تذرف عيناه دمعة!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٤-٣-٢٠١٤

بين أربعة جدران.. تحت ضوء شاحب

على باب الجامعة ألقَوا القبض عليه، وهو خارج من لقاء جمع بينه وبين الطلاب استُدعي من أجله من العاصمة، ورمَوا به بين هذه الجدران الأربعة.

في البدء وجد نفسه وحيدا، يقتعد فراشا من الإسفنج هشّا وسخا، ثمّ بدأ يدخل عليه موقوفٌ بعد آخر، كان أولهم طالبا بكلية الهندسة، وليس آخرهم طالب الأدب الإنكليزي، فقد دُفع إليهم صبيّان في عمر الورود، بدت عليهما الفرحة، لأنهما الآن بين أناس بعد أن قضيا وقتا طويلا في ظلمة نفسية!

وفيما جرى من حديث، بين هؤلاء الموقوفين متفاوتي الثقافة الذين جمعتهم المصادفة تحت هذا الضوء الشاحب، تحدث تلميذا المدرسة الإعدادية، عن أنهما كانا في قاعة الدرس حين دُعيا إلى مكتب المدير، وهناك قام رجال بعَصْب عيونهما، ومضوا بهما إلى حيث ظلا كذلك في مكان ما يومين ونصف اليوم، حتى أوشكا أن يصابا بالجنون. وقبل قليل وجّه إليهما الضابط تهمة توزيع منشورات، وجيء بهما إلى هنا.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٥-٣-٢٠١٤

وليس يَخفى على النظام

الفرحُ الذي ينتاب أعداءَ الأمّة

كلما قَصف مسجدًا بعد مسجد...

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٦-٣-٢٠١٤

«تعالوا عارضوا هنا!»

من أغرب ما نسمع من أنصار النظام أحيانا أن يقولوا: «ولماذا تعارضون وأنتم في الخارج؟ تعالوا عارضوا هنا!».

وكأنما يَخفي على الناس أنهم سوف يتناولون القادم من الحدود، وإلى الأقبية المعتمة فورا: إما أن يموت تحت التعذيب وهم يردّدون: بدّك حرية؟ إي خود، وإما أن يرموه في مستودعات مهجورة ليموت صبرا!

ألا... ما أذكاهم!

فلوريدا: مساء الأربعاء ٢٦-٣-٢٠١٤

حديث أدب.. على طريق سفر

مخفورًا في سيارة، محصورًا بين اثنين، وثالثهما يتولّى قيادتها في الطريق من حلب إلى العاصمة.

كان يدرك أنهم يرون فيه خارجًا على النظام، حين سألوه عمّا قاله بالأمس في محاضرته حتى وصل إليهم! فشاء أن يحدّثهم عمّا يمسّ قلوبهم، ما كتبه عن عالم البائسين الذي إليه ينتمون، وبدأ بذلك الطفل الذي وُلد مكفوف البصر، فوجد نفسه ملقًى في البيت مهملاً، لولا

أن قُدّر له مَن يحمله إلى حيث يتعلّم القراءة والكتابة على طريقة برايل. وفي المعهد غنّى على عزف المعلمة المكفوفة صفاء على البيانو، وطرب ورقص مع رفاقه المكفوفين، وعلّموه مهنةً أتقنها: تقشيش الكراسي الخشبية (تعود القصة إلى سنوات الخمسينيّات)، واستطاع أن يُنجز، وأن تقوده أمُّه إلى سوق يبيع فيه نتاجه ويكسب. وتفتّحت امامه أبواب حياة جديدة.

ومن عجب أن يراهم أكثر إصغاءً حين عرّج في حديثه على تلك القصة المسيَّسة، التي قادته من باب الجامعة إلى حيث يعملون، عن انتشال المواطنين من أحضان زوجاتهم وأطفالهم ساعة الفجر، وسوقهم إلى الاعتقال، والاحتفال بهم في تعذيب ربما أدّى إلى الموت. حتى إن السائق، وبيتُه يقع في ضيعة على الطريق، دخلها بسيارته، وانتهى إلى حيث مُدّت على الأرض مائدة، حوت كلّ ما يجود به الريف الجميل من خيرات، فأكل، مقتعدًا الأرض بينهم، أشهى ممّا يأكله الناس في الخمس نجوم.

في العاصمة، طلبوا منه أن يستدلّوا على بيته، فمرّوا به، ووعدوا بأن يُخبروا أهل البيت. ثمّ كان أن ذهب واحد من أهله يسأل المسؤول أبو نيروز، فأنكر هذا وغضب وسبّ، وأخذ يحقق كيف وصل الخبر!

فلوريدا: فجر الخميس ٢٧-٣-٢٠١٤

ذات أصيل.. في مرسم لؤي كيالي

في ذلك الأصيل كنت أصعد من بيتي في شارع نوري باشا إلى العفيف حيث يسكن لؤي كيالي، أزوره في أعقاب معرضه في سبيل القضية.

كان خصومه قد أحكموا الرَّمي، في الندوة التي عملوا على إقامتها داخل المعرض (نيسان/ ابريل ١٩٦٧) في المركز الثقافي العربي بأبو رمّانة، مؤيِّدين من نفر من الكتّاب في

الصحافة اليومية، فاستطاعوا أن يُجرّحوا فنّ لؤي الاستثنائي ذاك، الذي نفّذه بالفحم عبر ثلاثين لوحةً، على ورق لا على قماش، صارخةً، تمثّل نضال الإنسان الضاري في سبيل الحياة والوطن.

معرض تنقّل بين المحافظات، وسهامُ النقد والتجريح تتوالى.

وفي الحقّ، لم يكن تهجّم هؤلاء الشانئين الحاسدين، هو الذي سبّب الاضطراب النفسي في وجدان لؤي كيالي تلك الآونة. كانت أعراض الفُصام (الشيزوفرينيا) قد تبدّت لي، أنا، في ربيع العام الذي سبق (١٩٦٦)، وكنت نزيلَ بيته في العفيف منقولًا بوظيفتي من حلب إلى العاصمة، وقد ظهرتْ متزامنةً مع علاقة حميمة نشأت بينه وبين إحدى كرائم دمشق (من أصول حلبية)، هي ابنة سفيرنا يومذاك في باريس، ومع استفحال الأعراض كان تأزّم في العلاقة وإحباط الأمل في مشروع الزواج... أقول: ولكنّ سلوك الشانئين نحو لؤي فجّر المواجع وزاد في الألم!

في ذلك اليوم، الذي مرّ في صيف العام ١٩٦٧، وفي أعقاب معرضه الذي تنقّل بين حمص وحماة وحلب واللاذقية، دخلت بيت لؤي كيالي. رأيته في مرسمه، وأمامه -يا للعجب! - كومةٌ ممّا كان مزّق ويمزّق من لوحاته الورقيّة، ما يعود منها إلى مجموعة أعمال في سبيل القضية، وإلى مجموعة ورقيّة أخرى كان سمّاها: الإنسان في الساح.

احتججت، اعترضت، رفعت صوتي، اندفعت نحوه، حاولت أن أتدخّل باليد، ثمّ بالتوسّل، وهو يتابع التمزيق، تمزيق جزء من كيانه، من تاريخه الفني، وقلبي يتمزّق، كما أتخيّل الآن أنّ قارئ كلماتي يتألّم. وأخيرا مدّ إليّ يده بآخر ما هنالك، اسكتش، دراسة للوحة من مجموعة "الإنسان في الساح" منفذّة بالحبر الصيني غير موقّعة، كان قد أنجزها لوحةً كبيرة بالألوان الزيتيّة وقدّمها هدية إلى اتحاد الفلاحين فرع دمشق عام ١٩٦٦ بمناسبة عيدهم الثاني.

ولد لؤي كيالي بحلب يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر كانون الثاني ١٩٣٤، وعاش، بعد ذلك الأصيل، أعوامَ مرض كان يتخلّلها إبداعٌ متفوّق، إلى أن حدثت واقعة احتراقه في سريره ليلة ١٠ من أيلول ١٩٧٨. وفي مستشفى حرستا قرب دمشق لفظ آخر أنفاسه ضحى الثلاثاء السادس والعشرين من كانون الأول من العام ذاته، من حروق كانت من الدرجة الثالثة. ثمّ كان ما كُتب عنه في الصحافة، تأبينًا وتوديعا، لا يرقى إليه، كمًّا وكيفًا، ما كُتب أو يُكتب عن أي مبدع حرّ يمتلك ريشة أو يحمل قلما.

رحم الله الفنان التشكيلي الخالد لؤي كيالي.

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٨-٣-٢٠١٤

الأيادي الملطّخة

وليست الأيادي الموظفة في القتل والتدمير

مجبولةً، بالضرورة، بالشرّ...

وإنما هي تمتثل، طوعًا... وخوفا

فإنْ أتت السانحة

تغيّر الاتجاه...

فلوريدا: مساء الجمعة ٢٨-٣-٢٠١٤

ورأيته على الرصيف.. ينتظرني!

رأيت في الفضائية، كما رأى كلّ الناس وسمعوا، أنّ النظام يطلب من المواطنين أن يغسلوا أدمغتهم ممّا عَلِق بها من مشاهد الدمار، وينسوا الموت تحت التعذيب والمجازر الجماعية، وأعلن

أنه يتّخذ الإجراءات لأن يستبدل بالبطاقات الشخصية هويّاتٍ أخرى أملاً في تحقيق النسيان!

في تلك الليلة فكرت مليّا في هذا الطلب العجيب، وذهبت في تفكيري إلى أولئك الذين يدعمون قتلنا وتدمير بلدنا وتهجيرنا من بيوتنا.

فرأيت، فيما يرى النائم، أنّ النظام يطلب أيضًا أن يقوم بعض المواطنين- وذُكرت الأسماء تحديدًا- بأداء امتحان الثانوية العامة مجدّدًا. وكان اسمي بين من ذُكر، وعلينا أن نتوجّه صباح الغد إلى قاعات الامتحان. والمتخلّف عن الحضور، وكذلك الذي يؤدّي ويرسب، تضيع منه كلّ المؤهِّلات العلمية التي نالها بعد البكالوريا، إذ كيف يتمتّع بها وهو غير حائز للبكالوريا! وإذا كان من أصحاب المواهب فإنه يفقد المقدرة على الإبداع! ولكني استطعت أن أذهب في الموعد المضروب، وأؤدّي الامتحان بنجاح تامّ.

هذه الغرائب كلُّها في استطاعتي تفسيرُها.

ولكنّ ما عجبت له أكبر العجب أن أرى، لحظة خروجي من الامتحان، السيد بوتن رئيس اتحاد الجمهوريات الروسية، في انتظاري على الرصيف، وكأني صديق له حميم، وكان رأسه مائلاً إلى اليسار قليلاً على عادته، وقد سألني عن امتحاني يريد أن يطمئنّ، فأجبته، ثمّ خطر لي أن أسأله: «وأين سيارتك، يا رفيق فلاديمير؟» قال: «في الشارع الخلفي!»، وذهب ليحضرها... ولم يعد حتى ساعة استيقاظي!

فلوريدا: فجر السبت ٢٩-٣-٢٠١٤

صفحات نوعية.. للتاريخ الآتي

يَرِد في كتب التاريخ أنّ أقوامًا غريبة اجتاحت البلاد، وأعملت القتل في أهاليها، حتى إنها أقامت من الجماجم أهرامات، أو أنّ زلزالًا وقع فخرّب الجامع العتيق، وأنّ حريقًا شبّ، وسدًّا

انهدم...

اليوم حكام البلد هم الذين يقصفون البيوت، ويدمّرون الجوامع، ويأتون على كلّ البنى التحتية، ويحزّون رقاب الأطفال بالسكاكين، ويخطفون النساء، ويشرّدون الملايين في الأصقاع.

وموتٌ آخر يكون تحت التعذيب، وبالتجويع، والحرمان من الرعاية الطبية والإغاثة الإنسانية،

مستعينين بغرباء، حين لا يستطيع ابن البلد الاقتراف،

مسجّلين في التاريخ صفحاتٍ نوعية.

فلوريدا: ضحى السبت ٢٩-٣-٢٠١٤

العلويّون.. أيّ شعور ينتابهم!

بعد حوادث حماة (شباط ١٩٨٢)، صرت أرى أصدقائي من العلويين وكأنهم يرزحون تحت وطأة شعور بالذنب. عند ذكر تلك الحوادث، يتزايد الشعور لدى بعضهم إلى حدّ الإحساس بالعار تفكيرًا وتعبيرا، وما أذكر أني رأيت فيهم مكابرًا، يُبرّر قتل الثلاثة والثلاثين ألفا من الأبرياء (وبينهم ١٦٠٠ بعثي، فقد كان القتل جزافيًّا)، لا ذنب لهم سوى أنّ النظام أراد أن يجعل منهم عبرةً لكلّ الذين تسوّل لهم أنفسهم المطالبة بالتغيير.

أتساءل اليوم عن حقيقة الشعور الذي سوف ينتابهم في المستقبل، إزاء هذا القتل الجماعي الذي يُلجئ الناس إلى أن يهيموا في كلّ مكان، والتدمير الممنهج الذي يُحوِّل التجمّعات السكانية إلى خرائب وأطلال... عن صمتهم القاتل ورماديّتهم المقيتة... سواء أَنجح النظام في البقاء، أم رحل؟

فلوريدا: فجر الأحد ٣٠-٣-٢٠١٤

خارج المخيّمات.. ذلّ آخر!

أسرة صديقة من أهالي حماة نزحت إلى دمشق، وسكنت في بيت الجدّ الراحل.

ضُربت المنطقة

التجأت الأسرة إلى لبنان.

الغلاء حملهم على الانتقال إلى القاهرة، فضُيّق على السوريين بعد مُرسي.

أمس كتبوا إليّ أنهم عند أردوغان.

ماذا يجري للمواطن السوري في هذا العالم الذي غابت فيه كلّ القيم الجميلة!

فلوريدا: فجر الإثنين ٣١-٣-٢٠١٤

عندما يكون النقد إبداعًا!

تحية إلى ماري اسكندر عيسى

في عام ١٩٧٢ وقعت في يدي أوراق معاملة من تلك التي تتنقّل بين الدوائر والوزارات، تُوقّع فيها الكتب الرسمية وتُذيّل بالحواشي وتُمهر بالتواقيع، ثمّ لا يكون منها أحيانًا جدوى، أو... كانت الجدوى، في القصة التي استلهمتُها من تلك الأوراق، تسريحَ موظف صغير من عمله!

وصلت هذه القصة، التي توشّحت بالكوميديا السوداء وزدت بأن سمّيتُها لعبة الأرقام المتوافقة. أقول: وصل الكتاب الذي ضمّها "الابتسام في الأيام الصعبة" [تونس ١٩٨٣، ط٢ دمشق ٢٠٠٢]، إلى يد الإعلامية الناشطة ماري اسكندر عيسى وهي في مغتربها بعد اعتقال وإطلاق سراح، فرأتْ في هذه القصة التي هي ممّا ظللت أكتبه عفو الخاطر مستلهِمًا تناقضات الحياة، اختزالًا للقهر ومن ثَمّ إرهاصًا للثورة. تقول:

ما أثار انتباهي مما قرأته للأديب فاضل السباعي وأنا في مغتربي، بعد وصول بعض من مؤلفاته لي بأعجوبة، كيف كان يؤمن بالثورة منذ الثمانينات، وهو الذي ينقد بهدوء ما يجري في مجتمعنا، بقصص تلامس هموم المواطن العادي المقهور ووجعه.

ومن يقرأ أدبه يعرف لماذا كان النظام يُغيّب مثل هذه الكتابات لصالح كتابات هشة وسطحية، ويرفض، عبر اتحاد الكتاب العرب، الذي ساهم الأديب السباعي في تأسيسه، طباعةَ كتبه ومؤلفاته، مما كان يجبره على طباعتها في بيروت [والقاهرة، وصولًا إلى تونس].

فكتاباته الابداعية امتازت بدقة الملاحظة، ووعي لحقيقة ما يجري في مجتمعنا من فساد وقهر وظلم للمواطن، قدّمها بتوصيف دقيق للواقع كما عايشه، مستفيدا من خبرته وعمله محاميًا لفترة، وموظفًا رفيعا لدى الحكومة لفترة أخرى. فكتب بضمير يقظ، وهو المؤمن بأن الأديب ضمير الأمة، وهو من عاهد نفسه أن يكون صوت المقهورين والمظلومين ونصيرهم، بالكلمة التي آمن بقدرتها على تغيير الواقع، وبالثورة التي انتظرها ودعا لها منذ الثمانينات، كما يبدو من قصة له بعنوان "لعبة الأرقام المتوافقة" في مجموعة قصصية له صدرت عام ١٩٨٣ بعنوان "الابتسام في الأيام الصعبة"، يذكرنا بطلُها ببوعزيزي تونس، المقهور والمظلوم والذي يحرق نفسه ليفجر ثورة تونس وبعدها ثورات الربيع العربي. لكن بوعزيزي قصة فاضل السباعي، المقهور والمظلوم، يكتفي بالصراخ ويهدّد بالثورة التي لا بدّ أن تأتي، لتخلّصه من الظلم والقهر في عالم يسوده الفساد واللاأخلاق. فبسبب مشكلة صغيرة في عمله تتعقد شيئًا فشيئًا ببيروقراطية الأنظمة السائدة، يصبح بلا عمل، وبسبب استهتار مؤسسته التي يعمل بها بمستقبل وحياة موظف، يُترك وعائلته وأطفاله ليواجه الجوع والضياع من أجل ثمن زهيد لنسختَي كتاب عن آثار بلاده أُمِر بشرائهما دون تحرير أمر مالي بذلك، وهو يتقصّد السرعة في

تلبية مديره الذي أراد أن يقدّمهما هدية لوفد يزور بلده ووزارته التي يعمل بها.

ذاك الظلم والقهر كان كفيلا بصراخ بطل قصة السباعي، صراخاً بقي مكتوماً آنذاك في مجتمع تحكمه القبضة الأمنية جيداً، ولا تتوفر فيه وسائل الاتصال الحديثة التي ساعدت في نشر هشيم الثورات في زمننا هذا، لكنها صرخة تثير فينا الوجع والقهر، وتحملنا على البكاء كما أبكتنا بداية الثورة.

يقول [بطل القصة في صرخته]:

«ولكن... لماذا أدفع، أنا وحدي، ثمن تناقضات النظم البالية؟! لم لا يعاقب واضعوها، ومطبّقوها، والراضون بها؟! إذا كانت هذه النظم تعجز عن حلّ مسألة صغيرة، فكيف بها أمام المعضلات الجسام؟! ألا تحتاج عقليتكم ذاتها إلى تغيير؟! أليس مجتمعنا الغافي في حاجة إلى ثورة، ثورة حقيقية، لا ثورة شعارات؟! أكثر من مئة توقيع تُخفق في صرف عشر ليرات سورية من خزينة الدولة! يا له من نظام! أن أسرّح أنا، تلك عدالة! أن يجوع صغاري، ذلك حق!! ولكن الثورة الحقيقية آتية لا ريب فيها. إنّ الظلام يُعقِبه فجرٌ منذ الأزل... ». [انتهى]

- - - - - - - - - - - - - - - - -

أقول: إنّ في بعض الدراسات النقدية إبداعًا. وهي ذي ماري عيسى تسجّل لنفسها إضافة لما تتمتّع به -ناشطةً وإعلامية وأديبة- أنها ناقدة ذات بصيرة نافذة. لها شكري مضفورًا بأجمل الإعجاب.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٣١-٣-٢٠١٤

الحـارس - لا تحفر بأرضي!

قصة قصيرة جدا (ق ق ج)

ما كان له أن يكفّ، في تلك الليلة، عمّا هو فيه، لا ولا تحوَّل صوتُه في أيّ لحظة إلى ما اعتادوا أن يطلقوا عليه البكاء! وخرج الجيران، في ذلك الهزيع من الليل، ليتبادلوا الحديث عن أنّ عنتر لا بدّ يسمع اللحظة ما لا يسمعون هم!

كان عنتر -كما يحلو لربّ البيت أن يتصوّر دائما- يؤكّد لساكني البيت أنه وحدَه المعنيُّ بحراسة الفيلاّ وحديقتِها. وهو الليلة ما زال يتلقّط، بسمعه المرهف، دبيبًا في باطن الأرض، هو حَفْرٌ متواصل يقوم به دخيلٌ تحت المرج الأخضر. سهلٌ عليه أن يحدّد الموضع، ولكنه يريد أن يستأصل هذا المعتدي الحقير. وهو يحفر بقوائمه الأربع، معمِّقًا، ناثرًا التراب في كلّ اتجاه.

هل ألهاه أنّ الجيران تجمّعوا، وأنهم يتحدّثون عن إخلاصه في الحراسة! خلال ذلك خرج الخُلْدُ من سردابه، وعدا سريعًا إلى الحديقة المجاورة، متجاوزًا الخطّ، الخطّ المُكهرَب!

لحق عنتر به، غاضبًا.

والخلد وقف وراء الخطّ. إنه، الآخر، يعرف، الحدود التي تمنع عدوّه اللدود من أن يتجاوزها.

على الجانبين، وقف الخلد يتطلّع بعينين كأنهما نقطتان تلتمعان، لاهثًا، يترقّب خائفا. وعنتر، ارتفع نباحه، يَضيق بذلك الطَّوق المعلّق في رقبته، يمنعه التكهرُبُ من اجتياز الحدّ الفاصل بين الحديقتين.

وفجأة، قفز أمام أنظار الجميع، غير عابئ، منقضًّا على الخلد، بمخالبه ثمّ بأنيابه، وعاد به متحمّلاً المخاطر مرة أخرى... ليرمي أمام سيّده جسد العدوّ نافقًا.

ثمّ بهدوء... توجّه إلى وِجاره، ليقضي ليلته ناعم البال، مؤكّدًا أنه حارس أمين.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١-٤-٢٠١٤

ليس بين الأصحاب تكليف!

ممّا لاحظتُه في تصرّفات النظام، أنه لا يتأخّر في ردع أصحابه بعقوبة لا يأتيها صديق في حقّ صديقه، ألَا وهي الرَّمْي في غَيابة السجن، ثمّ تُعقد بعد ذلك مصالحةٌ، يتمّ بموجبها إطلاق السراح، وعودة الصحبة، والتعامل وكأنّ شيئًا لم يكن!

في مجال الصحافة على وجه الخصوص، أذكر أنّ ديبلوماسيًّا من حلب، وقع عليه الغضب في سبعينيّات القرن الماضي، فعُزل وسُجن، وما هي إلّا مدةٌ حتى أطلق سراحه، واستردّ الثقة، وعُهد إليه بإصدار مجلة في لبنان تنطق باسم النظام!

وكاتبة صحفية من دمشق، مدعومة متبنّاةٌ، وقع عليها الغضب في عقد التسعينيّات، فأدخلت السجن، وبعد وقت عُفي عنها، وعادت تغرّد في الصحافة وكأنّ غضبًا لم يحُلّ وسجنًا لم تدخل!

كتبت هذه الخاطرة أمس، في الأول من نيسان/ أبريل، وصبرت على نشرها إلى اليوم تجنُّبًا لأن يُظنّ أنها كذبة نيسان!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢-٤-٢٠١٤

عند الخوجة أمّ أحمد!

(زقاق الزهراوي ١ من ١٢)

... والخوجة، عند أهل حلب، هي المرأة التي يُوْدِعنا أهلُنا عندها أيام الصيف تخلّصًا منّا، حيث يُحشر الصغار في غرفة ليست بذات اتّساع، تتلو الخوجة، المتربّعة في زاويتها مقابل الباب، وهم يردّدون بعدها.

وكان إلى جوارها قصبةٌ طويلة نراها مسندةً إلى الحائط، فإن حاول أحدنا أن يتسلّل من

المكان وهو يظنّ الخوجة منشغلةً عنه بالسماع، ما أحسّ إلّا والقصبةُ تهبط على رأسه بقَرعة خفيفة، فيُضطرّ إلى العودة أو يستأذن إن كانت به حاجة إلى الخروج. وكانت العتبة حافلة بالقباقيب، ولكن يستدلّ كلٌّ منّا بسهولة على ما يخصّه منها، سواء ما في العتبة وما تُرك وراءها تحت السماء.

وإذا كانت الخوجة أمّ أحمد تعلّم الصغار ما تيسّر من صغار السُّوَر، وتتقاضى من كلّ واحد الخميسيّة (وهي كما أذكر خمسة قروش سورية)، فإنها كانت تستفيد من الأولاد بأن يؤدّي كلٌّ منهم لها ما يَقدِر عليه.

فالبنات الواعيات تأخذهنّ ابنتها رمزية (درست فيما بعد التمريض بالجامعة السورية، وتزوجها أستاذٌ بالكلية مرموق غدا بعدئذ عميدا) إلى أرض الحوش للكنس والشطف، وتقودهنّ إلى المطبخ لجَلْي الصحون والطناجر، ويأخذ الابن الأكبر أحمد الصبيان، بحذر، إلى حيث الجُبّ للمعاونة في سحب الماء لسقاية شجرة الرمّان وما في الحوض من نبات، والشاطر الذي يسحب دِلاءً أكثر عددا.

على أنه كان في بيت الخوجة أمّ أحمد عملٌ تعاونيّ آخر، ظلّ يروق لنا أداؤه، ذكورًا وإناثا، فنسرع إلى القيام به عن طيب خاطر.

سوف آتي عليه في مقتطف آخر ممّا كتبته ونشرته في مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥، بعنوان زقاق الزهراوي.

فلوريدا: مساء الخميس ٣-٤-٢٠١٤

وتعلّمتُ.. ضَفْر الدّكّ!

... على أنه كان في بيت الخوجة أم أحمد عملٌ تعاونيّ آخر، ظلّ يروق لنا، نحن الصغار

صبيانًا وبناتا، أداؤه فنسرع إليه عن طيب خاطر، هو ضَفْر الدّكَك، تلك التي تُمسك بالسراويل السُّود الثقيلة عند لابسيها من الرجال الشعبيّين.

كان زوج الخوجة الشيخ أبو أحمد الضامَهْ جي، يأتي بقطاعة الحرير، الأسقاط منه، بخيوطه المختلطة المختلفة ألوانُها، فنساعده بأن ننسُل من هذه الكومة مجموعاتٍ من الخيوط نسلاً عشوائيّا، تأتي بين أيدينا على شاكلة حبال رفيعة، تمهيدًا لأن تُضفر منها الدّكك، فإذا أتقن أحدنا نسل الخيوط، إلى أن توشك راحتاه أن تتجرّحا، ارتقى عند الشيخ إلى مرحلة الضَّفر، التي كنّا نراها ممتعةً للغاية. وكان يطيب لنا في ذلك أن نتفرّج على واحد منّا، كانت له في كلّ كفّ إصبع زائدة ملتحمة بالخنصر، اسمه توفيق، فنرى كيف يضفر بأصابعه الستّ!

ووصْف عملية الضفر بأن يقتعد أحدنا الأرض مادًّا إحدى ساقيه إلى أمام، وممسكًا بالإبهام وبما يجاورها رأسَ الضفيرة، ويروح يضفِر بأصابعه الرقيقة الحبال الثلاثيّة، ويظلّ يفعل. وكنّا لقِصر الساق ننزع مبتدا الضفيرة ونُلقي به إلى ما وراء القدم، ونعود نمسك بالإبهام موضعًا منها آخر، ونتابع العمل، إلى أن تبلغ الضفيرة طولًا معيّنًا، فنقطع ونربط، جاعلين لها شُرّابة، ثمّ نبتدئ بضفيرة أخرى. وكانت هناك مرحلة نهائيّة، أن نتناول مقصّا من عديد المقصات المتاحة، ونأخذ في تشذيب الضفيرة، بأن نقصّ ما نَبَا فيها من خيوط الحرير ونَشَز، حتى تصبح الضفيرة - الدكّة ولا شائبة فيها.

وفي الغداة كان الشيخ يحمل حصيلة شغل البارحة، ويمضي بها إلى سوق المدينة [الذي أحرقوه أخيرا!]، فيبيعها لواحد من أقاربه اسمه أبو الوفا الضامَهْ جي، له دكان يبيع فيها الدكك وأنواع الخيطان.

ويقول الأسدي م. خير الدين، في موسوعة حلب المقارنة: إنّ كلمة الدكّة من العربية: التكّة، عن الفارسية، رباط السراويل والجمع دكك. وكان بعضهم يتّخذها من الساتان لتزيين

وسطه بأن يُبرزها للعيان، ومن تهكّماتهم «لباس مالُه ودكّتُه بأربطعش!».

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٤-٤-٢٠١٤

ثلاثيّ.. في العالم الثالث!

أرى أنّ من أعظم مَن أنجبهم العالمُ الثالث، في العقود الثلاثة أو الأربعة الأخيرة في زمننا، هم:

- نيلسون مانديلا، في دولة جنوب إفريقية،
- ومهاتير محمد، في ماليزيا،
- ورجب طيب أردوغان في تركية،

لما اتّخذوه من فلسفة حياة، ومن حكمة مقرونة بالإرادة، قادهم ذلك إلى النجاح في خدمة أوطانهم.

فلوريدا: مساء الجمعة ٤-٤-٢٠١٤

في كُتّاب الشيخ الزُّرْنَهْ جي!

(زقاق الزهراوي ٣ من ١٢)

لم يكن تردُّدي على بيت الخوجة أمّ أحمد، ثمّ على كُتّاب الشيخ الزُّرْنَهْ جي، في زقاق الزهراوي الذي نسكن، إلّا في أيام الصيف، وكنت أرافق، في الموسم الدراسي، شقيقتي الكبرى إلى مدرسة الحضانة القريبة فيما كان يسمى العَدَسات (وقد زال هذا المكان لاختراقه

من شارع المتنبي الذي سمّاه الناس طريق السجن لإفضائه إلى السجن المركزي الذي كان(.

تعلّم الطفل الذي كنتُه في بيت الخوجة أمّ أحمد سُوَرًا من القرآن الكريم، ومارس سحب الماء من الجبّ وسقيَ حوض الرمّان، وأتقن ضفر الدكك الحريرية. فلما كَبِر قليلاً وجّهه أهله إلى كُتّاب الشيخ الزرنَهْ جي، الذي لا يفصله عن يمين إلّا بيت واحد.

وفي معنى كلمة الزُّرْنَهْ جي، وقفتُ في موسوعة الأسدي، على أنّ الزُّرْنَه، هي الصّرْناية، آلة طرب يُنفخ فيها، من العربية عن الفارسية: سُرْناي (البوق، الناي)، وهي في حلب تُرافق الطبل في الاحتفالات، والنافخ فيها الزُّرْنَهْ جي. ومن عجب أنّ يُصوِّت مزمارُ الصُّرناية لدى الزفير ولدى الشهيق.

كان المكتب الذي يفيء إليه الأولاد، ذا اتّساع ملحوظ، تنتظم فيه مقاعد طولانيّة. وكان للمكان نافذة ذات عتبة، تُطلّ على قارعة الطريق، قد اتّخذ ابن الشيخ، الحدث سامي، من العتبة مثابة يبيع فيها لنا السكاكر والموالح، فيستجرّ ما في جيوبنا الصغيرة من نقود قليلة.

وما تجاوزت قوله في الحديث عن الخوجة أمّ أحمد، أنه كان في حيطانها ثقوبٌ صغيرة متخلّفة عن مسامير دُقّت فيها يوما ثمّ سُحبت، فغدت مأوى لتلك الهوامّ الصغيرة حمراء اللون، التي يخرج منها إذا ما سُحقت رائحة كريهة، فكانت الخوجة تعطينا حبّاسات ممّا تستعمله البنات للإمساك بشعرهنّ، فندسّ رأس الحبّاسة في الثقب. ومع أنّ حيطان بيت الخوجة كانت مليئة بالثقوب، والثقوب مليئة بهذه الحشرات (التي تسمّى بحلب الفُسْفُس، وفي غيرها البَقّ)، فإنّ أحدًا من أهل الزهراوي لم يطلق على مقرّها بيت الفسفس، على حين أننا – نحن الصبيان – نَبَزْنا مكتب الزُّرْنَهْ جي بلقب شيخ الفسفس، ولم تكن حيطانه بأكثر فسافسَ من حيطان الخوجة!

ولن تفوتني الإشارة إلى أنّ أهل حلب، وكذلك في بلاد الشام، اشتقّوا من لفظ الفسفس

الفعل: فَسْفَس يُفسفس، بمعنى: دسّ وذمّ في الخفاء. ومن طريف ما عندهم أنّ الحماة تسمّي كنّتها فسفسة المخدّة، لأنها تفسفس عند النوم!

هل بَعُدت عن مكتب الشيخ؟ كان في الكُتّاب حديقة فسيحة، ظللت أتذكّرها زاهرةً غنّاء لِما انبثّ فيها من شجر ظليل، وما غُصّت به دروبها الضيقة من تَنكات الزرع التي تدفّقت حتى الفِناء الذي يفصل ما بين المكتب والحديقة. وكان يخطف نظري فيه زريعةٌ تسمّى الزهر الجميل، تُفتّح زهرا على شكل أجراس صغيرة!

وكان الشيخ يجتهد في تعليمنا قصار السُّور. وكنت أراه يخرج، في أوقات الصلاة، فيرفع الأذان، فأصْلُ المقرّ وقفٌ ديني، وفيه -وما يزال- ضريح مَن بناه، تاجر لؤلؤ كان قد حلّ بحلب أواخر القرن التاسع عشر، ينتمي إلى بني زهير، تزوج من بنت لإحدى الأسر في هذا الزقاق، وعَمّر وشيّد فيه، فسُمّي باسمه محرّفًا: زقاق الزهراوي.

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر السبت ٥-٤-٢٠١٤

ويوقظ القتلُ مكامنَ الشرّ في النفوس!

هل استطاع النظامُ أن يُغيّر من طبيعة النفس البشرية عند بعضهم؟

بالنسبة إليّ، سوف أظلّ أعبّر عمّا أحسّه من الألم عند مشاهد الأذى يحُلّ في جانب النظام.

ولكني أراهم يصمتون عندما يقصف النظام، عشوائيّا، فيقتل النساء، ويمزّق الأطفال، ويدمّر ويشتّت. فإن سألتهم أجابوا: هؤلاء إرهابيون!

كم ذا استطاع النظام أن يوقظ مكامن الشرّ، الذي كان غافيًا في أعماق بعض بني البشر!

فلوريدا: مساء السبت ٥-٤-٢٠١٤

«يصبّحكنْ بالخير.. يا عمّار العمّارة!»

(زقاق الزهراوي ٤ من ١٢(

كان أهلنا يبعثوننا إلى الخوجة أمّ أحمد أو الشيخ الزُّرْنَهْ جي في أيام الصيف تخلّصًا منّا، ولكي نعتاد أن نحفظ آياتٍ من القرآن الكريم. وأما في غير الصيف فقد كانت هناك مدرسة الحضانة، القريبة من زقاق الزهراوي، نرتادها ونتلقّى فيها العناية على أسلوب التربية الحديثة، سواء في أواخر العهد العثماني أو عقود الانتداب الفرنسي التي امتدّت ربع قرن لا يزيد (١٩٢٠-١٩٤٦ عام الجلاء. (

يخرج الطفل، الذي كنتُه، عند الصباح بلباس الحضانة الموحّد (الصدريّة الحمراء أو الورديّة اللون)، يقطع وأخته التي تكبره بسنتين بقية الزقاق، نازلين إلى السُّويقة، المائجة بباعتها ومرتاديها وعابريها، مرورًا من أمام الحنفية العامة (التي يستقي منها الناس مجانا)، وخلفها فرن الصوصاني الشهير أواديس، وفي انعطافة أخرى يمرّان من أمام خان اسطنبول، سيّئ السمعة، حيث كان يُعذَّب المعتقلون من الوطنيين المناهضين للمحتلّ الفرنسي (بأقلّ مما أصبح يقع بعد ذلك)... ثمّ يكون الدخول إلى مدرسة الحضانة.

كان ممّا يطيب لي من الألعاب في المدرسة، تلك التي تأخذني أختي فيها من يدي إلى حيث تُنشئ البنات فريقين، يتكاتف كلّ فريق في صفّ، ويقف الصفان متقابلين.

تبدأ اللعبة بأن يتقدّم صفٌّ نحو الآخر، فيتقاربا إلى حدّ التماسّ، ثمّ يتباعدا، وهما يتناشدان هذا الحوار غناءً:

يصبّحكُنْ بالخير..... يا عمّار العمّاره

فيردّ الفريق الآخر التحيّة، لكن متأخرة عند المساء:

يمسّيكُنْ بالخير..... يا عمّار العمّاره

بعدئذ يأتي الطلب:

جينا نخطبْ بنتكُنْ..... هـ الحلوهْ، هـ الصبيّه

فيأتي الجواب:

ما منعطيكُنْ هيّه..... إلّا بألفْ وميّه

إلّا بشكّ الألماس..... جوّاة الصينيه

فتكون الإثارة والتحدّي:

مندخلْ على دارْها..... ومنكسّرْ أبوابْها

والحلا دوّارها..... وعروستْنا هيْ هيّه

ويكون هجوم على الفريق الآخر، يخطفون إحدى البنات على أنها العروس المختارة، وتنطلق الزغاريد... وكم تمنى الصبيُّ أن تكون البنت المخطوفة سُهيلة!

وسهيلة هي الطفلة التي كان يراها الأجمل بين بنات المدرسة، ربما لأنها ابنة المديرة! وهل تصدقون، أيها الأصدقاء، أني، وأنا أكتب هذا النصّ (صيف ٢٠٠٥) بدمشق، قمت أبحث، حتى اتصلت هاتفيًا بسهيلة إلى حلب، فجاءني صوتها متهالكًا حزينا لأنها فقدت منذ قريب زوجها الأستاذ عبد الحميد الذي أعرفه، وقد صحّحتْ لي أنها لم تكن الابنة للمديرة فهيمة الجراح، بل ابنة أخيها! وأما كلمات الأهزوجة، فقد صحّحتْها لي وأتمّتْها الباحثة الدكتورة المهندسة نجوى عثمان، رحمها الله.

و... يصبّحكنْ بالخير، وأنتم في الوطن مع الذكريات الحميمة، أو خارجه مع الأحزان

الأليمة!

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي بتصرف، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر الأحد ٦-٤-٢٠١٤

سورية.. مدمّرةً!

بعد حرب تشرين ١٩٧٣ وما تلاها من حرب استنزاف

احتفلت سورية

باستردادها القنيطرة مدمّرةً!

ترى

من هم الذين سيحتفلون في المستقبل

بتسلُّم سورية المدمّرة؟

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٦-٤-٢٠١٤

«يا عمّار العمّارة».. هل هي أهزوجة عربيّة؟!

في صيف ٢٠٠٥، بعد أن كتبت مقالتي المطوّلة زقاق الزهراوي فصلاً أول من سيرتي الذاتية، وقُبيل نشرها في مجلة المعرفة، عرضتُها - كما يحلو لي أحيانًا - على بعض الأصدقاء من الأدباء أو ممّن يتذوّقون الأدب، فكان أن هتفت إليّ الأديبة جمانة طه (عضو المكتب التنفيذي في اتحاد الكتّاب العرب بدمشق يومذاك) تعبّر عن أنّ يا عمّار العمّارة ما كان لها أن تفارق خاطرها منذ كانت تشارك في لعبها طفلةً في الروضة، وتظنّ أنها خاصة بمدينتها الساحلية

جَبْلة، والآن تعرف أنها ممتدّة إلى حلب وتغطّي بلاد الشام!

واليوم، بعد أن أطلقتُ خاطرتي في صفحتي يصبّحكُنْ بالخير.. يا عمّار العمّارة، علّق الصديق السوري في السعودية الدكتور حسين العثمان بالقول: إنه عثر على هذه الأهزوجة ضمن كتاب عن ألعاب الأطفال في بغداد! [وأفاد بأنّ] بنات حارتنا في مدينة الباب [محافظة حلب] كنّ يلعبنَها أيضًا. ويقتضيني القول بأني أشرت في الخاطرة إلى أنّ شقيقته الباحثة في التراث الإسلامي، الدكتورة المهندسة نجوى عثمان -رحمها الله- كانت قد صحّحت لي كلمات الأهزوجة وأتمّتْها بالصيغة البابيّة، في حديث بيني وبينها على الهاتف من دمشق إلى حلب.

وأذكر أني استمعت، قبل نحو عشرين عاما، من إحدى محطات الإذاعة المصرية، إلى: يا عمّار العمّارة، مؤدّاةً من فريق بأصوات متميّزة، تطرب لها الأذن، فضلاً عمّا تثيره في النفس من ذكريات الطفولة!

فالأهزوجة -إن صحّ التوصيف- عربيّة. وإذا ما جاءنا من بعض الإخوة في المغرب العربي ما يدلّ على شيوعها هناك، فهي إذن «عربيّة بامتياز»، وإنّ ممّا يوحّدنا أغاني الطفولة، وإن قصّروا في المغرب -سامحهم الله- في إنجاد الشام اليوم، وغاب عن بعضهم فَهْمُ الحال.

فلوريدا: ليل الأحد ٦-٤-٢٠١٤

زقاق الزهراوي.. الذي سكنه سليمان بن عبد الملك!

(زقاق الزهراوي ٦ من ١٢)

عزيزٌ عليّ زقاق الزهراوي، الذي أبصرت النور في أحد بيوته المبنية على الطراز العربي. ولكني أحسبه عزيزًا على التاريخ أيضًا، فقد سكنه شقيق الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، سليمان عامل حلب الذي أصبح الخليفة الأموي السابع، وقد بدَوَا وكأنهما يتباريان في إنشاء

الجوامع: فعندما انهمك الخليفة ببناء جامع بني أمية الكبير في حاضرة ملكه، كان أخوه يبني نظيرا له بحلب، الجامع الأموي الذي يسميه الناس الجامع الكبير.

وتذكر المصادر التاريخية أنّ مكان الزقاق سمّي السهيليّة، إلى أن سكنه في عهد سيف الدولة الحمداني (القرن الرابع للهجرة، ق١٠م) رجلٌ قدم من مدينة سُرّ مَن رأى، وأصل أبيه - كما يقول النديم صاحب الفِهْرِست - من خراسان (أفغانستان اليوم)، وكان يتعاطى لعب الجوارح، وأمسى الابن أحمد بن نصر بن الحسين البازيار نديمًا لسيف الدولة، وسمّي مكان سكناه درب البازيار (والبازيار هو مدرّب جوارح الطير، ومنها البُزاة، على الصيد!). ومرة أخرى تغيّر الاسم إلى زقاق الزهراوي باسم تاجر اللؤلؤ القادم من البصرة، من بني زهير!

وأعترف بأنه لم يَغب عني أن أعرّف، في مقالتي، بالزقاق تعريفًا مفصّلاً، فبيّنت أنه يقع على امتداد ما يسمّى سوق النسوان (أحد أسواق سوق المدينة الشهير) المتاخم لجانب من الجدار الشرقي للجامع الكبير، مبتدئا من مخزن الورّاق، مارّا ببيوت مثل آل الكيالي (ومنهم الفنان التشكيلي لؤي كيالي، خال أولادي!)، وآل الخانجي (ومنهم أحد مؤسسي وزارة الخارجية السورية في عهد الاستقلال، الدكتور علي أسعد الخانجي، وابنته الديبلوماسية أمل خانجي، وابنتها الديبلوماسية لمى الخاني وليس الخانجي، التي ترأسُ بعثتنا في برلين اليوم!).

ومع معرفتي بأني أستطرد على طريقة الجاحظ، أقول: إنّ دخولك في الزقاق، وهو ابتداءً يشبه الحرف اللاتيني (T)، يُفضي بك إلى بيت الخوجه أمّ أحمد الضامَهْ جي، وفي انعطافك يسارًا تجد البيت الذي قضيت فيه شطرا من طفولتي، يليه كُتّاب الشيخ الزُّرْنَهْ جي، ثم آل السباعي الحلبيون وأصلهم من حمص أيضًا (ومنهم أول نقيب للأطباء الدكتور نافع السباعي، وابنه المعمَّر الدكتور هشام أمدّ الله في عمره). وفي عودتك إلى اليمين تجد آل الأميري (ومنهم الشاعر الصوفي الكبير عمر بهاء الأميري). وماذا أقول بعد؟

لقد أمعنت في هذا الوصف. حتى إنّ صديقي الدكتور ظافر الوفائي، المشتهر بطبّ العيون في الولايات المتحدة، ثمّ في السعودية، وبعدها في العاصمة دمشق، والذي يتزايد حبّه لحلب كلما عنها ابتعد، أخذ يومًا مجلة المعرفة وذهب إلى حلب، ودخل زقاق الزهراوي يقرأ ويتعرّف. ثمّ فاجأني بصوته العاتب، وهو المعروف بروحه المرحة وبلهجته الحلبية التي لم يشأ أن يتخلّى عنها: «يا أخي! دوختني وأنا أمشي في زقاق الزهراوي والمجلة في يدي، أقرأ وأتعرّف والناس تنظر إليّ!».

أقف، الآن، عند المكالمة الهاتفية التي تلقّيتها ممّن كان في الخمسينيات بين تلامذتي في ثانوية سيف الدولة بحلب، والذي عاد أخيرا بسبب الأحداث إلى أمريكا، لأحدثكم غدًا عمّا وقع للطفل الذي كنته حين انعطفت عليه معلمة غريرة في مدرسة الحضانة!

فلوريدا: فجر الإثنين ٧-٤-٢٠١٤

قطبان عالميّان

أراهما نموذجين في مسألة الوعد

أولهما أخلَفَ في رفع الضيم

والآخر أنجزَ في سفك الدم

وكلاهما يُمْعِنان...

فلوريدا: مساء الإثنين ٧-٤-٢٠١٤

البنات الفراشات

(زقاق الزهراوي ٧ من ١٢)

كانت لعبة يا عمّار العمّارة خاصةً بالبنات، فهنّ الخاطبات اللواتي يطلبن يد العروس، ويُغيّب الذكور، الصبيان، فيها، إلّا أنّ شقيقتي سعاد، التي تكبرني بعامين (وتُكنى اليوم بأمّ منار كيالي صاحب مركز طبي في عاصمة دولة قطر)، كانت تتيح لي الانضواء تحت جناحيها، فأدخل هذه اللعبة متسلّلا!

وبدا أنّ الغَيْرة -ولنتلطّف فنسمّها القهر- عند الطفل الذي كنتُه، طغا مرة على الاعتراف بالجميل. وتفصيل ذلك أنّ المدرسة الابتدائية المتاخمة للحضانة (وكانت تسمّى مدرسة المركز قبل أن يتغيّر الاسم إلى الغافقيّة. تصوّروا التأثير الأندلسي الجميل!)، أرادت أن تقيم احتفالًا في باحتها، فعهدت إلى مديرة الحضانة فهيمة خانم بإعداد مشهد تقدّمه زهرات الحضانة، واختير لذلك عددٌ من تلميذات الصفّ الأعلى بينهنّ شقيقته سعاد. وبدأ الطفل يحسّ غيرة كلما شرعنَ بتلقّي التدريب في قاعتهنّ، وكان في التدريب رقص، ومع الرقص غناء، وهو وغيره من الصبيان الفضوليين، يقفون وراء الباب يسترقون النظر عبر الزجاج!

كان كلّ من مبنى المدرستين، في الأصل، جزءًا من دار عربية كبيرة (بل كان هناك مدرستان أخريان مجتزأتان من تلك الدار العريقة). وكان بين الحضانة والغافقية باب يُفتح عند اللزوم.

يوم الاحتفال، أُطلِقت الفراشات، فخرجنَ في موكب خلب ألباب الصبيان: بدلات ملوّنات، وقد رُكّب على الأكتاف ما يُشبه أجنحة الفراشات، فبدَوْنَ ملائكةً مجنّحات، وفُتح لهنّ الباب ما بين المدرستين، وانسربنَ إلى باحة الغافقية! وأما هو وسائر الصبيان، فقد حُبِسوا في غرفة الصفّ، وعُهد إلى آذنة المدرسة مهمة رعايتهم!

عندما قرأت أختي أمّ منار مقالتي زقاق الزهراوي كاملةً في مجلة المعرفة، قالت مبتسمة: «إذن كنت تغار مني! ». فدافعت: «ما كانت غيرة، يا أختي، ولا تطلُّعًا إلى أن نشارككنّ

الرقص والغناء أو أن تُركّب على أكتافنا أجنحة الفراشات، ولكنه القهر لمنعنا من أن نتفرّج عليكنّ وأنتنّ تؤدّينَ ما كان التدريب عليه أمام أعيننا! ». وضحكنا ضحك طفلين قديمين.

قهر؟!... وما كان لنا، نحن أطفال ذلك الزمان، أن نتنبّأ بما تخبِّئ لنا الأيام من قهر لا نظير له في العالم!

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي بتصرف، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٨-٤-٢٠١٤

سبع شجرات سَرْو!

ويتابع صديقي، الذي يمتلك مزرعة صغيرة غربيّ العاصمة، حديثَهُ عن أنه توجّه يومًا إلى مزرعته، وبرفقته زوجته والأولاد، لخدمتها كالعادة مرة في الأسبوع (وفي المواسم مرتين)، ففوجئوا بأنّ شجرات السَّرْو السبع السامقة، التي تفصل بين مزرعته ومزرعة جاره المتنفّذ، مقتلعةٌ من جذورها!

وبالسؤال عرف أنّ الجار أوعز، فجاؤوا بآليّاتهم، نشروا واجتثّوا، ومضوا بحِمْلهم الثقيل. سأله، فتعلّل: كانت تمنع عني الهواء العليل!

والأنكى أنه طالبه بتكاليف القطع، مع أنّ الجهة الفاعلة كانت شركة حكومية، للجار ولأمثاله عليها ألفُ دالّة.

سألتُه مستثارًا: «ودفعت؟ ». أجاب: «وهل أملك الامتناع؟ »

وللعلم: صديقي منتسبٌ منذ نعومة الأظفار، ولكنّ لذاك انتماءه الآخر.

وللعلم أيضًا: صديقي، منذ بداية الأحداث، بعيدٌ عن الوطن. وما زلت أُغلِظ له القول عبر الفيس: أنتم الذين أوصلتمونا، فيلتزم الصمت حزينا.

فلوريدا: ليل الثلاثاء ٨-٤-٢٠١٤

«لقيت لقية!»

(زقاق الزهراوي ٨ من ١٢)

وممّا يتذكّره الطفل أنه كان يومًا برفقة أبيه، وقد خرجا من زقاق الزهراوي متوجّهين إلى الدكان التي لهم في سوق المدينة المتاخم. ودخلا سوق النسوان (حيث يتبضّعنَ فيه مستلزماتهنّ)، ثمّ انعطفا يسارًا نحو سوق القَبقَبْجيّة، والطفل رافع يده ممسكًا بيد أبيه.

هنا رأى المرأة التي أمامه تعثُر بقدمها حتى تكاد تسقط أرضًا، ثمّ تتابع سيرها غير آبهة بها وراء العَثرة. ولكن الطفل نظر فرأى كتلة صغيرة مستلقية على بلاط الطريق، وهي ما تزال تُداس! لفت نظر أبيه، فتوقفا. انحنى الأب، والتقط ذلك الشيء. وانتحى به جانبًا من الطريق، يُحدّق في وجوه العابرين لعلّه يستشفّ في وجه واحد منهم أنه يبحث عن شيء، ثمّ ما لبث أن ارتدّ عائدًا إلى البيت ليعلن أنه لقي لقية!

لقد كان ما التقط من الأرض صرّةً صغيرة هي فَشكة مصاري، ينتظم في داخلها كثيرٌ من القطع النقدية الفضيّة! (والفَشَكَة، في الأصل، هي الطلَق الناري بجِرمه النحاسي وشكله الأنبوبي، والكلمة من التركية فَشْتَك، وتُستعار، في بلاد الشام، لما يُلفّ من القطع النقدية في ورقة تشبيهًا بالفشكة. والمصاري، والمصريات، واحدتها مصريّة، أطلقوها في الشام على النقود منذ حملة إبراهيم باشا).

ولمّا باح الطفل في البيت بأنه هو الذي كان وراء هذه اللُقية، تجارأت الأمّ فطالبت بنصيب

ابنها منها، وكان أن نَقَد زوجته مبلغا، تشتري به حاجة لنفسها وشيئًا جميلا يلبسه الطفل.

في اليوم التالي ذهبت الأمّ بنت العشرين ربيعًا، ترافقها سُلْفتُها الكبرى، مصطحبتَين الطفل إلى قسطل الحجّارين القريب، ومنه انحدرتا إلى شارع حمّام التلّ، وفي زاوية منه، إلى يمين النازل عند المنعطف، كانت هناك محلاّت أوروزدي باك بازار الشرق. وطلبت المرأتان للطفل بدلة من الصوف.

تشاورت المرأتان في مسألة اللون، فاختارتا الكُحلي. ثمّ بدأ التلبيس: قطعتان، كنزة وبنطال، وثالثة لفّاحة تُطوّق العنق، ولكنّ القطعة الرابعة، الطاقيّة، بدت صغيرة على رأس الطفل، فجاء البائع -وكان نُطقه يدلّ على أنه من مهاجري الأرمن عام ١٩١٥- بطقم آخر، وآخر... وظلّت الطواقي تأتي وتروح، حتى صرخ البائع بلهجته المكسّرة: «هادا وَلَدْ منين جايب هادا راس!. »

ومنذ ذلك الحين أدرك الطفل أنه يحمل رأسا يختلف عن رؤوس مَن هم في مثل سنّه. وفي أيام الفتوّة تناول القلم، يُقَرزم الشِّعر[1] ويحاول النثر ويرسم بالفحم، إلى أن تبيّن له أنّ ما يكتبه شيء يستحقّ النشر والقراءة.

ولن أبرح هذه الخاطرة دون أن أشير إلى أنّ جارتي في شارع نوري باشا بدمشق، طالبة الدكتوراه في الأدب العربي سحر السيوفي، سألتني، بلطف، عما إذا كان من الأنسب لو أنّ أبي توجّه بفشكة المصاري إلى قسم الشرطة؟ أقول: وعندئذ ما كان الطفل سمع من ذلك البائع ما يشير إلى كبر الرأس!

[مقتطف بتصرف من مقالتي زقاق الزهراوي، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)،

---

(١) يجيء به رديئاً. فصيحة.

العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر الأربعاء ٩-٤-٢٠١٤

المعلمـة الغـريرة!

(زقاق الزهراوي ٩ من ١٢)

أَما زالت في البال إشارةٌ أَوْمضتُها، قبل مقالتين، إلى ما جرى للطفل، وهو في مدرسة الحضانة تلك، حين انعطفت عليه معلمةٌ صبيّة غريرة... أم أنكم نسيتم إشارتي إلى ذلك؟

إن كان نسيان، فلتعلموا الآن، أيها الأصدقاء، أنّ ما وقع له، في تلك المرحلة من عمره، وما لم تستطع الأيام محوَه من ذاكرته، أنه كان بين رفقاء المدرسة طفل في مثل عمره اسمه عبدُه، وسيمٌ قسيم، حتى ليُشبه بجماله البنات، بقَصّة شعره الأسود الفاحم، الذي يُحيط بوجهه فيُحكم استدارته كالبدر، مع سُمرة في البشرة خفيفة وعينين كستنائيتين متألّقتين.

وقد لاحظنا، نحن الصغار، أنّ تلك المعلمة الجديدة الشابة، كانت تأخذه أحيانا إلى قاعة الصفّ في أثناء الاستراحة، وتُغلق عليه الباب، وبعدئذ يخرج إلينا وقد امتلأت كفّاه بالحلوى أو بالموالح، ولا يُطعمنا ممّا حصل عليه شيئًا، فنحسّ بالغيرة وبالغيظ!

ولست أدري كيف أخذتني هذه المعلمة يومًا من يدي، وأغلقت الباب خلفي، وقدّمت إليّ مثل ما كنا نرى بين يدَي عبدُه من المآكل اللذيذة. ولكني ما إنْ وضعتُ شيئًا منها في فمي حتى رأيت كفّيها تلامسان وجهي وتغمرني بحنان زائد، استرحت له بادئ الأمر. وقد كنت شكلاً على خلاف ما يتحلّى به عبده: قَصّة الشعر صبيانية، والبشرة ليست بسمراء، والعينان ملوّنتان. وإذ ضمّتني إلى صدرها لم يُحسّ الطفل -الذي كنتُه- هو بين يديها، بحنان الأمّ أو الخالة أو العمّة، وشدّته إليها، وهو يتابع مضغ الحلوى.

فلما ازدادت حرارة القُبل تنبّه الطفلُ واستغرب، ولم يعد يشعر بطعم ما يتناوله من الحلوى، فرماها أرضًا، وتخلّص... وخرج يبكي ويحكي.

وفي اليوم التالي افتقدنا هذه المعلمة، التي لم تلبث في المدرسة إلّا أياما.

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي بتصرف، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر الخميس ١٠-٤-٢٠١٤

الذين كانوا يستفيدون!

كانوا في الرِّكاب يمشون، منتسبين أو أنصارا، يتمرّغون في مِهاد النعيم، منكرين الانتساب أو الانتصار.

إنْ سألتهم عن المناصب المنهوبة والوظائف المسروقة؟

أجابوك: تُوزَّع، ونَنال ما نستحقّ!

(غير ناظرين إلى وِهاد القهر المحفورة)

وإنْ سألتهم عن القمع والقتل والتشريد؟

قالوا: خارجون على الدولة!

(فلم يكن مصطلح إرهابيون قد عمّ)

وعن حدود الوطن المسكوت عنها؟

سياسة عليا، متروكة للدولة!

وعن اغتيال الرؤوس، في الداخل وفي الخارج؟

يسرعون إلى الإجابة: نسأل مَن المستفيد، وإنها إسرائيل!

ولقّنوا بنيهم وبناتهم

نحن لا نتعاطى السياسة!

لـمّا هبّت الرياح... تلفّتوا، متنبّهين.

فلـمّا اشتعلت، حزموا متاعهم...

ومن بعيد: لعنوا النظام، هم وأبناؤهم، وأيّدونا!

فلوريدا: عصر الخميس ١٠-٤-٢٠١٤

جبّ الفار وعسكر السنغال!

(زقاق الزهراوي ١٠ من ١٢)

كان في مدرسة الحضانة قَبو مهجور، قد اتُّخذ مستودعًا لما لا حاجة له من سقَط الأشياء، وكنا نطلّ عليه من شبّاك في طرف الحوش فنراه معتمًا مرعبا. وقد أطلقوا عليه اسم جُبّ الفار. وأُشيع بيننا أنّ من يُظهر شيطنةً يُرمى فيه، بعد أن تُدهن أذناه بالزيت لتكونا مأكلة للفئران، فنزداد خوفًا ورعبا، ونحاول أن نكون أولادًا مطيعين!

إلّا أنّ الخوف الأكبر الذي انتابنا، في يوم من أيام العام ١٩٣٣ أو ٣٤، كان بسبب ما انتشر بين أهالينا من أنّ الفرنسيين قد اشتدّوا في قمع الحركة الوطنية. وكان علينا أن نمرّ، كلّ يوم عند الانصراف، من أمام باب خان اسطنبول العتيد، الذي يُحبس فيه الوطنيون وتُطلق عليهم الكلاب للتعذيب، فتملّكَنا الخوف من الجنود السنغاليين أن يعتدوا علينا لأننا أبناء الوطنيين!

وكانت العادة أن نخرج من المدرسة في صفّ اثنين اثنين، تقوده إحدى المعلمات، ننعطف فيه يسارا مارّين من أمام خان اسطنبول، ثمّ نتفرّق في السويقة، فيتوجّه كلّ إلى بيته. وقد بلغ

الخوف بنا، إذ وصلنا إلى حيث الجنود السنغاليون أمام الباب وعلى أكتافهم البنادق، أن ارتفعت أصواتنا بالبكاء، خوفًا من هؤلاء الجنود ذوي الوجوه الأبنوسيّة. ومن عجبٍ أن رأيناهم يشيرون لنا بأيديهم، مهدّئين مطمئنين، وهم يردّدون ضاحكين كلمة «مُسلم مسلم»، أي أنهم مسلمون مثلنا، فنسكت مستغربين!

بشَرَةٌ سوداء، يضحك أصحابها، فتَبين أسنانهم البيضاء.

واليوم... بشرةٌ بيضاء، والقلوب سوداء، والأيدي مخضّبة بدماء المواطنين.

[مقتطف من مقالتي زقاق الزهراوي بتصرف، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر الجمعة ١١-٤-٢٠١٤

«اسقوا الزرعات، يا أولاد! »

(زقاق الزهراوي ١١ من ١٢)

كان بيتنا، الذي يقع في أحد تفرّعات زقاق الزهراوي، رحيبًا، تحيط بصحن الدار (أرض الحوش) الحجرات، مرتفعة عن الأرض درجةً أو درجات، ويُرقى إلى الحجرة العالية - المُرَبّع (العِلّيّة) - بدرجٍ ذي درابزون، فهي تعلو حجرة أخرى. وفي أرض الحوش أحواضُ الزريعة هنا وهناك، محاذية لجدران الغرف، أو متوسطة فِناء البيت. وكانت في الوسط بِرْكة مربّعة الشكل، في مركزها نافورة.

هي بركة في حلب، ويسمّيها الدماشقة البَحْرة، وفي مصر الفُسْقيّة، واستمدّتْها الإسبانيةُ من العربية أيام الأندلس alberca. وورد في المعجم الوسيط التعريف بالفسقية: حوض من الرخام ونحوه، مستدير غالبًا، تمجّ المياهَ فيه نافورة، ويكون في القصور والحدائق والميادين (لم

يقل: البيوت!)، جمع فساقي.

وكان في أحواض البيت أشجارٌ. وعلى جانبَي باب الغرفة، التي وُلدت فيها، شجرتا ياسمين وليمون، وفوق الغرفة عريشة عنب معمَّرة، وفي الأحواض شجرة رمّان وعسليّة (بدمشق: ياسمين عراتلي)، وكثير من شَجيرات الغار.

ومما لا يَمّحي من ذاكرة الطفل الذي كنتُه، منظرُ أُصُص الأزهار، تلك التي تنتظم واحدا بجوار الآخر على حافة البِركة، فكانَ يرى جدّته أم رئيف -في غرامها بهذه الزرعات- تنفرد بجولاتها الصباحيّة والمسائيّة حول البركة، تتفقّدها وهي جالسة القُرفصاء، وتُطيل التفقّد غيرَ مَلول، تنفي هذه الورقة الذابلة من هنا وتستبعد ذلك العِرْق اليابس، مُبادلةً المواقع بين الأُصص أحيانا: فهذه تزكو في الشمس وتلك تؤذيها الشمس، وتنادي عليه وعلى أخته سعاد: الله يرضى عليكن، يا ولاد، اسقوا هالزرعات.

وكان ذلك يعني أن يبادر الطفلان النشيطان إلى ضخّ الماء من البئر بالطُّرُمْبة، في ذلك المطبخ العميق التحتاني، ونقلِه بسطول التوتياء الثقيلة (فلم تكن قد ظهرت سطول البلاستيك الرشيقة) إلى أرض الدار، وعندئذ ترتاح الجدّة، وتمنّي الحفيدين بأنّ هذه الزرعات العطشى سوف تدعو لهما بالخير!

وكان المطبخ الفوقاني مخصصًا للطبخ اليومي، ويستأثر المطبخُ التحتاني بالخدمات الاستثنائيّة. وسوف أظلّ أذكر عمتي محاسن (وهي الشقيقة الوحيدة بين ثلاثة إخوة، وابنها اليوم الدكتور منذر عياشي، أستاذ الأدب العربي بجامعة البحرين، والابن الآخر بسام عياشي الداعية الإسلامي في بلجيكا!)، المتفنّنة بالطبخ، عندما كانت تتهمّم بإعداد نار في هذا المطبخ، فوقها منصب، فوقه صينية الكنافة من طبقتين بينهما القشطة، وتسمّى الكنافة بين نارين، ذلك أنّ صينية أخرى مماثلة تُحكَم فوقها وتُقلب، وتعاد إلى النار، فيكون النضج متساويًا في

الوجهين، ثمّ يُرشّ القطر ويكون احتفال!

هذه الدار، التي هجرناها إلى طابق سكنّاه في حيّ الجميليّة صيف ١٩٤٢، ظلّت مرسومة في الخاطر. فلما آن لي أن أكتب روايتي "ثمّ أزهر الحزن" استعرتُ خريطتها، فأسكنت شخوص روايتي دارا تشابهها، قبل أن أخرج بهم أيضًا إلى دار يسكنونها غربيّ المدينة.

[مقتطف بتصرّف من مقالتي زقاق الزهراوي، مجلة المعرفة (وزارة الثقافة بدمشق)، العدد ٥٠٤، شهر أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥]

فلوريدا: فجر السبت ١٢-٤-٢٠١٤

طائفيّ آخر!

عندما لاحظ ضميرٌ سوريّ حرّ أنّ النائمين تحت الخيام في كلّ مكان ينتمون إلى طائفة واحدة، لم يتمالك نفسَه من أن يرتفع في صدره الأنين، دون أن يفوته الاعتذار عن ملاحظته المرهفة.

فإنّ معلّقًا من العراق يبادر إلى التعبير عن أنّ صدّام قد هجّر في زمنه الملايين في كلّ أصقاع الأرض. فكأنّ هذا الطائفيّ، يريد أن يقول: واحدة بواحدة!، ولا ينسى، في طريقه، أن يتّهمنا، نحن المنكوبين، بالطائفيّة!

تحدّيتُه أن يشجب الإبادة في سورية بمعزل عن جروح العراق، فقام يُلملم كلماته الملتبسة، في صفحة الضمير الحرّ، ويرحل.

فلوريدا: ضحى السبت ١٢-٤-٢٠١٤

يوم صحبتْني أمي لتسجّلني في أول ابتدائي

(زقاق الزهراوي ١٢ من ١٢)

كان الطفل في الخامسة لم يكد يُتِمُّها، وأمُّه تناهز العشرين، وهو الصبيُّ الأول لأبويه، سبقتْه بنتٌ ولحقت به أخرى تثغو وصبيٌّ يحبو. وقد بدت الأمُّ مستعجلةً في أن ترى ابنها البكر يدخل الصفّ الأول في ابتدائية الحيّ.

كان يُرافق أخته الكبرى في الذهاب إلى مدرسة الحضانة، فيشاركها اللعب وينضمّ إلى فريقها في لعبة يا عَمّار العَمّارة، ولكنّ أخته تركتْه قبل عام لتدخل ابتدائية البنات، الغافقيّة. وإنه ليصغي منذ أيام إلى حوار هو أشبه بالنِّقار بين أمه وأبيه، تلحّ أمه في أن يصحبه أبوه إلى ابتدائية الذكور في الحيّ، الحَمْدانيّة، فإنّ مديرها هو ابن ذلك الشيخ الكَرَسْتَهْ جي، الذي طالما خَطَروا من أمام دكانه وهم يعبرون سوق المَنَجِّدين!!

فكّر الأب الشابّ: ولكنّ ابنك لا تؤهّله سنُّه لدخول الصفّ الأول!

فجادلته: بل يمكنك أن تكلّم الشيخ بدكانه في المنجِّدين، فتوسِّطه عندَ ابنه مدير المدرسة أمين أفندي كرمان!

قال الأب: وتعرفين اسم المدرسة، واسم مديرها، ومهنة أبيه وموقع دكانه!

- ولِمَ لا؟ نحن أبناء حارة واحدة، والدنيا خواطر، وإننا من أسرة فيها الطبيب نافع بيك. أريد أن يدخل ابني الصفّ الأول، يتعلّم ويصبح رجلاً.

والواقع أنّ الأب، لو كانت سنّ طفله تُؤهّله لدخول الابتدائيّة لما كلّف نفسه الذهابَ إلى المدرسة لتسجيله، فقد كان بطبعه عَزُوفًا عن دخول الدوائر الحكوميّة ومقابلة موظّفيها. والواقع أيضًا أنّ الأمّ الصغيرة ما كانت تتوقّع من زوجها استجابةً لمطلبها الغالي، وهي التي

سجّلت قبل ذلك ابنتها في الغافقيّة، ودأبت على أن تأخذ الولدين مطلع كلّ صيف إلى الخوجة أم أحمد، أو تأخذ الولد إلى الكُتّاب عند الشيخ الزُّرْنَهْ جي.

وهكذا رأت الأمّ نفسها ذات صباح تُلبِّس ابنَها السترة والبنطلون، ثمّ تستعير من حماتها -التي لم تَهِشَّ لطموحها- لباسَ الخروج المحتشم: الخرّاطة تضمّ فيها جسدها، ثمّ تُلقي الملاءة على رأسها، وتمضي بالطفل إلى الحَمْدانيّة.

صَفَقت باب الدار وراءها. اجتازت ما تبقّى من الزَّهْراوي. وفي آخر سوق المنجِّدين -وقبل أن تدخل السُّوَيقة- كانت هناك دكان الشيخ كرمان. لمحته يتعامل مع زُبُنِه، من أصحاب الورشات في سوق حجّي أفندي، يساعده ابنه الأصغر. ولعلّه خطر في بالها أن تكلّم الشيخ، مُوَسِّطةً إيّاه عند ابنه المدير، ولكنها تعرف أنّ المدير الآن على رأس مدرسته يستقبل أولياء التلاميذ الجُدُد. وإنها لذاهبةٌ إليه، تقطع الطريق بخطواتٍ عجلى: السويقة، سوق خان إسطنبول، العَدَسات. وعلى باب الحَمْدانية -الذي يجاور باب مدرسة الحضانة - سألت البوّاب عن المدير؟ فأشار إلى مكتبه، ذاك الذي يُرقى إليه بدرج.

اجتازت باحة المدرسة، وهي تسحب طفلها من يده. ولم تجد في مكتب المدير سواه: هل انقضت مهلة التسجيل أم أنها لمّا تبدأ بعد؟

قالت معرِّفةً: نحن جيران. بيتنا في زقاق الزَّهْراوي، القريب من دكان الوالد.

رحّب المدير: ولدك، أظنّ، ألمحه يمرّ في سوق المنجّدين.

- إنه ابني البكر.

- الله يخلّيه.

أمعن المدير النظر إلى الطفل. رآه صغيرًا.

ـ كم عمره؟ تعرفين تاريخ مولده؟

ـ مولود... في... تشارين!

ـ تشرين أول؟ ثان؟

ـ أول!

ـ طيّب والعام؟

كانت الأمّ الصغيرة تُدرك جيّدًا أنّ ابنها غير مؤهَّلٍ لأن يدخل الابتدائيّة، ولكنها معلِّقةٌ الأمل على أنّ المدير وأباه وأخاه ممّن نعرفهم في الحارة ويعرفوننا. فلما اضطرّت إلى أن تُصرّح بسنة الولادة، وجدها المدير -ذو الطربوش الأحمر الطويل- سانحةً ليقول: عمره خمس سنوات، لم يُكملها. نُسجّله لكِ في العام المقبل إن شاء الله، يكون في السادسة في سنّ القبول.

اعترضت: ولكننا جيران، يا أمين أفندي كرمان!

ولعلّ المدير سُرّ لأنّ هذه المرأة، المتخفّي وجهُها وراء الباشاية السوداء، بنت حارة الزَّهْراوي، تخاطبه باسمه الكامل. قال:

ـ على العين والراس، يا أختي. نِعْمَ الجيرة. أنتم أسرة معروفة في الزَّهْراوي وفي البلد كلّها. عميدكم نافع بيك السباعي. لكنّ التعليمات لا تسمح.

ألحّت: إنه أول ولد أسجّله عندكم، السنة الماضية سجّلتُ أخته في الغافقيّة، وقد ترفَّعت إلى الصف الثاني.

وأشارت بيدها، من تحت الملاءة، إلى حيث مدرسة الإناث، وراء الجدار الأصمّ.

قال المدير: الله يخلّي لك أولادك. التعليمات لا تسمح، يا أختي!

وقف الطفل مشدوهًا، يُصغي إلى النقاش يدور بين أمّه التي تدافع عن حقّه في التعلُّم

وبين مدير مدرسة الحيّ، وعيناه لا تفارقان وجه المدير الذي سيحتلّ في حياته عمّا قريب موقع الخوجة أمّ أحمد وشيخ الكتّاب والمديرة فهيمة خانم. لاحظ طربوشه الطويل مائلاً، والشرّابة السوداء خلف الطربوش تترنّح مع كلّ هزّة رأس. ورأى على الجدار صورةً في برواظ لرجلٍ بادي الاحترام. وثمة ساعةٌ كبيرة معلقة على الحائط، يتحرّك فيها الرقّاص يمنةً ويسرة، وكراسي خيزران تحيط بالمكان.

كانت أمّه تتكلّم بحرارة، والمدير يحاورها بلطافة. وكان آخر ما سمع أمَّه تقوله بنزَق، وهي تهمّ بالانصراف: هذا لا يجوز... والله لا يجوز!

وانطلقت به إلى الدرج، فانقاد لها. انقاد لأمٍّ مهزومة، ولكنها بدت له شُجاعةً. وكان فخورًا بأنها تناضل من أجله.

وإلى العَدَسات خرجا. وانعطفا إلى سوق خان إسطنبول، فسويقة علي، فالمنجّدين. ورأى أمَّه تُشيح بوجهها عن دكان الكرستَهْ جي الشيخ، هذا الذي لم يحقّق ابنُه لها أملاً عزيزا.

وفي البيت، رمت الملاءة والخرّاطة، وهي تقول للجدّة في قهر: أَجَّلوا تسجيل الولد إلى السنة القادمة!

قالت الجدّة: ألَم يقل زوجُكِ لكِ هذا، يا صبحيّة؟

ولم تشأ الأمّ أن تَدَعَ هذا الكلام يمرّ: لو حضرته أخذ ابنه بيده إلى المدرسة، كان المدير قَبِل. حديث الرجل للرجل غير شي

وتعيّن عليَّ أن أقضي في مدرسة الحضانة عامًا دراسيًّا آخر، وأشارك -دون مرافقة أختي عامًا آخر- في لعبة: يصَبّحْكُنْ بالخير، يا عمّار العمّارة!

فلوريدا: فجر الأحد ١٣-٤-٢٠١٤

صورة جديدة لبنت أربعين

كانت من أوائل من توثّقت الصداقة بيني وبينهم في دنيا التواصل الاجتماعي، ربما لامتلاكها كلّ إرث شاعرة راحلة مبدعة ومحبوبة.

كانت خفيفة الظلّ، ومبدعةً لمقولاتٍ يمكن أن تسير بين الناس طرائفَ ونُكتا، في الأربعين، مضربةً عن الزواج.

ولاحظت في بروفايلها إهمالَها لنفسها. سألتها عن ذلك يومًا، فجاءتني منها صورة حديثة: شعر، وثغر، وعينان، واستدارة وجه...

لله درّهنّ!

وانهمرت عليها آيات الإعجاب:

• قد مللتُ العيشة معها!

• ظلّت على حالها، لم تحاول أن تُماشيني في الثقافة!

• أنا... أمّنت للأولاد مستقبلهم!

• إني أملك.....

تحدّثني من بلدها، بالخاصّ وعلى الهاتف، ونضحك.

هؤلاء الرجال، الذين تتفتّح قلوبُهم، وتُسرف هي في التفتيح، وتدّعي ضيقًا بهم.

ولم تعد إلى بروفايلها القديم.

فلوريدا: ظهيرة الأحد ١٣-٤-٢٠١٤

صديقي حيدوش

أعربتُ له عن إعجابي بعصاميّته في تحصيله الدراسي، بعد أن استمعت إليه، بعد أن قرأتُ له، وهو يروي:

«أنا حيدوشHidouche، من مواليد ١٩٦٢ في أولاد سي سليمان إحدى قرى الأوراس الأشم.. اشتغلت بالرعي من السنة الخامسة من عمري الى الثانية عشرة. بعدها التحقت بمدرسة محو الأمية لمدة شهرين، تعلمت القراءة والكتابة. بعد ذلك التحقت بكتّاب القرية مع الشيخ المرحوم عزيز أحمد رحمةُ الله وسلامُه عليه وأسكنه فسيح جناته. لقد علمني رغمًا عن أبي الذي أرادني راعيًا لغنم أحد الجيران، فتعهّدني الشيخ وعلّمني بلا مقابل لمدة ستة أشهر أجدت خلالها الخط والكتابة.. ثم التحقت بالمدرسة الابتدائية بقريتنا، فسجلني المدير في السنة الثالثة. وفي نهاية السنة نقلني المعلم إلى قسم السادسة. نجحت في امتحان شهادة التعليم الابتدائي فانتقلت الى التعليم المتوسط، وختمتها بشهادة التعليم المتوسط، والتي وُظفت بها كمعلم مساعد، ثم معلم للمدرسة الأساسية، ثم أستاذ التعليم الأساسي. وأنا الآن على أبواب التقاعد. وسعيد بمعرفتكم. سأبقى أطالع كل ما تكتبه أستاذي الفاضل فاضل السباعي. وفي الأخير أسأل الله أن يعيد إلى شعبنا السوري والمصري الأمن والأمان. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته».

وقال يوما:

«لو تُبرز لنا، سيدي الفاضل، معاناة الشعب السوري في هذه المرحلة، وتفضح النظام الغاشم الذي تحوّل إلى سفاح ضد شعبه. أنت تثلج صدري بما أقرأ لك من الخواطر التي كتبتَها من قبل، وأكبر فيك هذه المثابرة وأنت في هذه السن. حقا الأزمة تولد الهمّة. وليس لي ما أقوله

بعد قول زهير بن أبي سلمى إن لم تخنّي الذاكرة: سئمت تكاليف الحياة ومن يعش * ثمانين حولا لا أبا لك يسأم. وأنت لم تسأم. أسأل الله أن يمدّك بالقوة، فالأمة في حاجة إليك وإلى أمثالك».

قبل أيام تلقّيت منه سؤالا: «إذا أردتُ أن ألغي صداقة فماذا أفعل؟ ». تأخّرتُ في الردّ قليلا، فرأيته كمن يصرخ ملهوفا: «لماذا ترفض الإجابة، أخي الكريم؟ لقد وقعتُ في ورطة! أنقذني منها جزاك الله كل خير». فدللتُه أن يذهب إلى صفحة ذلك الصديق، وأن يفعل كذا وكذا. فكتب إليّ بعدئذ: «الحمد لله، لقد تخلّصتّ منها! يسلم». وكان ذلك عند الساعة العاشرة ليلاً بالتوقيت المحلي بالجزائر، من يوم السبت الذي انقضى. ولم أسأله عن التفاصيل!

فلوريدا: عصر الإثنين ١٤-٤-٢٠١٤

شيخ حارة.. للمغتربين!

وربّ سيدةٍ، من المتطوّعات في أعمال الإغاثة، تسألني أن أنشر في صفحتي بيانًا يعلن عن أُسَر منسيّة في ثنايا الشتات!

وشابٍّ، قد ضيّع العمل والبيت، فهو متشرّد في الأقطار، يسألني كيف السبيل إلى أن يستلقي هو والزوجة والولد، في أحضانٍ دافئة في صقيع أوروبة الباردة!

وسيّدةٍ حامل تستفسرني عن تلك الإجراءات القانونية المتعيّنِ اتّخاذُها، حتى يتسنّى لها دخولُ الدولة التي فيها أقيم، فتضع مولودها مكتسِبًا الجنسية!

استشارات قد تَدمع لها عيون ذوي القلوب الرحيمة. ولكنّ عين العالم المتحضّر جامدة، لا يرفّ فيها جفن ولا يتحرك رمش أو ضمير!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٥-٤-٢٠١٤

ويقهقـه الصـديق.. طربًا!

حدّث يومًا صديقَه المستفيدَ من النظام، عن أنّ أحد كتّاب السلطة قد شتم أدبه وأقذع، وقرأ له... فرآه يضحك، ويُقهقه، حتى أوشكت الكَنَبَة التي عليها يجلس أن تنقلب!

عاتبه: أوَ تضحك هكذا لمَن شتم أدبَ صديق عمرك!

أجاب، وهو يمسح دموع الضحك: وهل تريدني أن أبكي؟

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ١٥-٤-٢٠١٤

ويقود المراهقون السيارات!

قرأت، اللحظة، أنّ حادثة مرور وقعت قبل قليل في مدينة فراتسواف (٧٠٠ ألف نسمة) في بولندا، بأن اصطدمت سيارة محافظ المدينة بحافلة ترامواي. الشرطة بيّنت أنّ المحافظ خالف تعليمات المرور واستحقّ المعاقبة، والمحافظ نفسه، الذي نُقل إلى المستشفى مكسور عظم الحوض، أقرّ بخطئه واعتذر لسائق الترامواي!

فكان متوقّعًا عندي أن أتذكّر أبناء المسؤولين في المدارس الثانوية بأحياء دمشق الغربية، وهم يسوقون سيارات آبائهم الرسمية ساعة الانصراف، ويندفعون في الشوارع حول حديقة الجاحظ، ويشفّطون مبتهجين، فإذا اعترضهم شرطي، نزل الشباب وعملوا له اللازم، ثمّ تابعوا النزهة!

النظام لم يعمد إلى مساءلة الآباء، بل سيّر مع كلّ شرطي سير شرطيّا عسكريا!

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٥-٤-٢٠١٤

هل من تشرشل جديد للبيت الأبيض!

معارِضٌ سوري في العاصمة الأمريكية، رأيته بالأمس يقترح، بين الجِدّ والمزاح، إجراء انتخابات مبكّرة للرئاسة في الولايات المتحدة.

سبب ذلك ما يتبدّى من ضعف الرئيس الأمريكي إزاء تسلّط سيد الكرملين، ولاسترداد هيبة واشنطن في أنظار العالم: اللهيب الذي ما آن له أن يخمد في المنطقة العربية، وابتلاع موسكو للقرم، والتهديد بانفصال مناطق أخرى من أوكرانيا وضمّها إلى روسيا مُضيًّا في استعادة ممتلكات الاتحاد السوفياتي المنقضي.

تذكّرت طفولتي، وأنا ابنٌ لأسرة تهتمّ بالسياسة، شأنَ كلّ الأسر السورية، أستمع في البيت إلى الراديو حديث العهد، وصوت المذيع العراقي يونس بحري يعلن: هنا برلين، ونُذُر الحرب العالمية الثانية قائمة. وما كان يترامى إلينا من مظاهر ضعف رئيس الوزراء البريطاني آنذاك تشامبرلين إزاء تنامي قوة ألمانيا النازية، من ابتلاع النمسا، والاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا، ومهاجمة بولندا، وتشامبرلين ما زال يُداري ويتفادى، وهتلر يضمّ ويتمادى، إلى أن ألجأ مجلسُ العموم البريطاني رئيسَهم إلى الاستقالة، وحلّ محلّه تشرشل الداهية الذي تصدّى، وقاد، وأحرز النصر الأخير.

اقتراح المعارض السوري لا يعدو أن يكون مزحة. ولكنها مزحة تعكس أملاً في أن تكون حكمة سيد البيت الأبيض تضاهي ما ينبغي أن يتّسم به من حزم يحافظ على الهيبة.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٦-٤-٢٠١٤

حتى موسم الزيتون

قصة قصيرة جدا، كتبتها بدمشق عام ١٩٦٨

(إلى ابنتي الفنانة التشكيلية سهير التي نشرت أمس الأربعاء في صفحتها، نصّا مشابها سمّته: بلا عنوان)

أَوْهَت المحنةُ جَلَدَه، حتى لم يعد فيه من قدرة على الاحتمال.

- متى يحين موسم الزيتون؟

- ما يزال بعيدًا!

بدا له المكان مثل قصر مهجور. الجدار، هو ذا، يبتعد عنه تارة، ويتدانى. وفي أدناه صندوقٌ أسودُ طويل. وقد نَجَم في عقله أنّ الخلاص في أنْ ينام حتى موسم الزيتون.

- أريد أن أغيب في سُبات أصحو منه مع موسم الزيتون، تكون المحنة قد انقشعت.

- وإذا لم يُسْعفْك الصحوُ في الأجل المنشود؟

حقّا، إنْ لم يُواتِه الصحوُ، استحال السُّبات إلى موت أكيد.

- لقد قتل اليأس الحياةَ في عروقي.

وبدا له الصندوق الأبنوسي، في أدنى الجدار، نَعْشًا.

- أريد أن أنام. لم يعد في وُسعي أن أتحمّل المحنة وأنا يَقِظٌ حيّ!

استحالت ملابسه إلى ما يُشبه أردية رجال الفضاء، قد شُدّت على جسمه بإحكام. ولكنّ ساقيه استعصتا على السير.

تدانى الجدار. بدا النعشُ، أمامه، على مرتفع.

- أزيحوا، يا صِحابي، غِطاءه.

وتعاونوا على حمله إلى النعش، وهو جسمٌ صلب مشدود.

مدّدوه داخله. سَوَّوا ساقيه حتى أخذتا الوضع المريح. وسَّدوا رأسه:

ـ هل أنت مرتاح هكذا؟

وجد المِهاد، تحته، وثيرًا إلى أوفى حدّ:

ـ جدًّا.

ـ إلى اللقاء في موسم الزيتون.

ولم يستطع الردّ على تحِيّتهم. كان النعاس قد أخذ يدِبّ في لسانه.

أنزَلوا عليه الغِطاء، فعَمّ عنده ظلام القبور. وشيئًا فشيئًا غاب عن الوجود!

دمشق الشام: ١٩٦٨

[من كتابي حزن حتى الموت: بيروت ١٩٧٥، ٨٠، ٨٣، دمشق ٢٠٠٢، باريس بالفرنسية ٢٠٠٢]

- - - - - - - - - - - - - - -

فلوريدا: فجر الخميس ١٧-٤-٢٠١٤

حتى المامونيّة الحلبيّة![1]

ذات يوم، في مطالع العقد الأول من سنوات هذا القرن، سألني أحد الثاقفين -والتعبير للعلامة الحلبي الأسدي م. خير الدين[2]- أن يقرأ كتابا من كتبي، وهو يسمع عني ويلتقي، ولم يكن قد قرأ. وكنت ألحظ فيه ملامح استيقاظ من احتضان النظام له. فلما قرأ، عانق، وهنّأ، وهتف: «أنت منذ الستينيات كنت تنتقد ونحن نصفّق؟!»، قلت: «لست بمنجّم ولا متنبّئ،

(١) المأمونية هي حلوى من سميد وسمن وسكر، نسبت إلى اسم مبتدعها.

(٢) أي كلمة "الثاقفين". يستخدمها خير الدين الأسدي في موسوعته بمعنى: المثقَّفين.

بكل بساطة كنت أرى وأنتم لا تبصرون! ».

• أحد الأصدقاء... الذي ما أدري هل هو يُعشّش في ذاكرة حلب، أم أنّ ذاكرة حلب تعشّش فيه؟ وهو لا يكتفي بالتذكّر في نفسه ولنفسه، بل يأخذ القلم وينفث حروفه عطرا... يتنفّسه القرّاء في شبكة التواصل.

• نعم، يا عبد الله. أنا أبصرت النور في بيت من بيوت زقاق الزهراوي العتيقة، الحيّ الذي كان سكنه سليمان بن عبد الملك قبل أن أصبح خليفة. وحين كان أخوه الخليفة الأموي السادس الوليد بن عبد الملك يبني، يوسّع الجامع في حاضرة بني أميّة، تهمّم هو، عاملُ حلب، ليبني ما كان قبلُ بستانًا، يجعل منه جامعًا، أتى له بالموادّ، بالآلة النبيلة، من أطلالٍ في ريف الشمال، فكان الجامع الكبير، الجامع الأموي بحلب الذي بالأمس أحرقوه!

• نعم ثانية، بعض قصصي تُرجم إلى لغات هي عشر، وكتابان تُرجما، أحدهما إلى الفرنسية والآخر إلى الإسبانية، وفيهما تسمع -كما قلتَ- حفيفَ الحرية، ولنقل: ضجيجَها، وترى العذاباتِ المختلفَ أشكالُها وألوانها!

• لا أعلم أيّ ابن شقيقة لي نَقل إليك كلامًا (وإنّ أبي قد أنجب تسعة عشر من البنين والبنات، ثمانية منهم نساء). ولكن للحقيقة والتاريخ أنّ جليّة الأمر أنه عقب وفاة والدة الرئيس -وليس بعد رحيل الابن- جاءني فريق من التلفزيون إلى بيتي: يريدون أن أتحدث عن كفاح الأمّ كوثر الشخصية الأولى في روايتي ثمّ أزهر الحزن، وأن أعرّج... ولم يُقدَّر... كان أحدهم يسجّل في أثناء ذلك، في خاطره، ما كنت أتحدث به معهم من منثور القول، ثمّ رتّب وبدّل، ونشره حوارًا في الثورة خارجًا عن التقاليد الصحفية!

• الصورة، التي نشرتَها لي وأنا في ركن من حديقة بيت في موسم صيف وراء طاولة... إنها

في بيتي الدمشقي.

• وأما صحن الـمامونيّة، الفَطور الحلبي المرموق، فنأكله معًا بدمشق، في بيتي، أو... في أحد بيوت أبنائي هنا، حيث أقيم ويشتدّ بي الحنين.

الآن وقفتُ، يا عبد الله زنجير، على التوصيف الذي يليق بك: أنت في الذاكرة الحلبية ساكنٌ وأنت بحلب مسكون. وشكرا لما أوحيت لي.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٨-٤-٢٠١٤

ويردّد أطفالنا الشعارات الملقّنة!

من بلدة كايو سور مير Cayeaux Sur Mer، اصطحبونا، نحن رفاق الرحلة الثلاثين، بالحافلة إلى ما أسمّيه روضة الأطيار، التي هي مَراحٌ للطيور النادرة، في ناحية قريبة من ساحل الـمانش. ولكنّ الروضة لم تبدُ لنا، الآن، غنّاءً بسبب الأمطار. أجل، نحن في منتصف حزيران (يونيو)، ولكنّ أمطار باريس وشماليّ البلاد، موسمها العام كلّه!

ومن الحافلة دلفنا إلى مقهى خشبيّ البنيان، السقفُ رأيته على شكل جَمَلون[1]، مثلّث منفرج الساقين، مناضدُه قُدّت من الخشب أيضًا، كبيرة وثقيلة. في ركن منه فتاةٌ تبيع صور الطيور الملوّنة، والكتب والكُتيّبات التي تُعنى بالأطيار.

راقت لي الجَلسة، ليس لأنّ المقهى يذكّرني بما قرأت من روايات لبلزاك وصحبه من روائيّي القرن التاسع عشر وحسب، بل لأنّ مبارحتي له، ولست أملك مظلّة، تُعرّضني للبلل. ولكنّ قائد الرحلة روبير، والدليل المبعوث لنا من قبل إدارة الروضة، يحثّاننا على الإسراع. وبمظلّته صديقٌ بولونيّ أظلّني، وهل يمكن لمظلّة واحدة أن تقي سوى رأسين يتدانيان؟ وأمّا

---

(١) سقفُه على شكل سنام الجمل

الجسمان فإنهما للبلل يتعرّضان، والأقدام في الأطيان تغوص. ولم يصعب عليّ إقناع صاحبي بقطع هذه النزهة المبلولة والعودة إلى المقهى الظريف، النظيف، الآمن من المطر!

رأيت في المقهى عددًا من رفاق الرحلة، الذين ابتلّت جسومهم فسبقونا، وظلّ في الروضة ذوو الرؤوس اليابسة! ولكن كانت في المقهى حركة غير عادية لم ألحظها في المرة الأولى. إنها تعُجّ، الآن، بتلامذة صغار، من الجنسين.

أخذت أتأمّلهم. صحّةٌ وعافية ونظافة، وجوهٌ مشرقة بالسعادة، ألبسةٌ تغلب عليها الأناقة. إنهم يتضاحكون في مرح، ويُغنّون معًا أغانيَ تُحسّ أنها، بلحنها السائغ وأدائها العفويّ، نابعةٌ من القلوب الهانئة. لا قيود تُلجمهم، لا حرج، منفلتون من كلّ همّ. أبو كلّ منهم، أو الوالدان معًا، ذوا دخل مرتفع إذا قيس بدخول العاملين في بلدنا، يفي بالحدّ الأدنى من متطلّبات الأسرة، ويَفيض منه ما يُمكّنها من أن تقوم برحلاتٍ للترفيه والاستجمام.

في تأمّلي، تذكّرت أطفالًا من أوطان أخرى، وما يطفو على وجوههم من الشحوب. ألبستهم قديمة غالبًا. يضحكون بمقدار، ويكتئبون دون حدود وكأنّ هموم الدنيا قد أدركت هذه الأكباد مذ كانت في المهد. إنْ ذهبوا في رحلة لم يُنشدوا إلّا الأناشيد الحماسية ولم يردّدوا سوى الشعارات الملقّنة. يعمل الأب، والأمّ أحيانًا، بدخل لا يكاد يفي إلّا بالكفاف، حتى ليصبح من عادة الأسرة أن تستدين قبل نهاية الشهر. وأمّا الرحلات الترفيهية والاستجمام، فهي لفئات من الناس وُلدوا وفي أفواههم ملاعق الذهب، أو هم خطفوا هذه الملاعق من أفواه أخرى ودسّوها في أفواههم هم، في كلّ فم ملعقتين أو ثلاثا!

[من قصة في الليل تحترق الغابة، باريس، صيف ١٩٧٨ - مجلة الموقف الأدبي، خريف ١٩٧٨ - كتابي الألم على نار هادئة، طبعة ١٩٨٥، ١٩٩٠، ٢٠٠٢]

فلوريدا: فجر السبت ١٩-٤-٢٠١٤

«كلّ شيءٍ للقضيّةْ!»

قبل ستّين سنة أو سبعين، أصبح للعرب ما سمَّوه القضيّة الفلسطينيّة، اهتمّوا بها، وأجمعوا رأيًا على أنها قضيتهم الأولى، وأخذوا يبيّتون الخُطط ويضفرون الأماني، ابتداءً من رمي العدوّ في البحر، وانتهاءً بالمقاومة والممانعة. ولم يَفُتهم وضع الأناشيد الوطنيّة والأغاني القوميّة، من «يا زعيم يا حبيب الملايين»... إلى «كلّ شيء للقضيّةْ«...

اليوم... ظهرت قضيّة شاميّة أخرى، لنُسمِّها القضيّة السوريّة.

ولكنّ العرب غير مجمِعين فيها رأيًا، فبعضهم يقف مع الشعب وبعضهم يصفّ مع النظام. ويبدو أنه بعيدٌ أن نستمع، في المستقبل المنظور، إلى أغنية تُلهب المشاعر يرسلها صوتٌ أجشّ: «كلّ شيءٍ للوطنْ * كلّ شيءٍ للقضيّةْ! «.

فلوريدا: عصر السبت ١٩-٤-٢٠١٤

منذ عهد الاستقلال

هو لا يعرف مقدار الترحيب في الجيش، منذ عهد الاستقلال، بمن يشير إليهم بالأقليّات.

يُروى أنّ زعيما حمويّا كان، في زياراته لمنطقة ما، يربّت بيده الحنونة أكتافَ الشباب، متمنّيًا لكلّ منهم: «في العام القادم أرى نجمة هنا! «.

ويأتينا اليوم، من تتلبّسه هيئة شبّيح، يعلّق على خاطرتي كلّ شيءٍ للقضيّة بقوله: «من سيُرمى بالبحر، الصهاينة أم الأقليّات؟».

إنه لا يكتفي بأن يكون أصمّ أبكم أعمى!

فلوريدا: مساء السبت ١٩-٤-٢٠١٤

الحزن على الضحايا

ما زلت أبدي حزني على الضحايا الذين يتساقطون في جانب النظام، فهم -أولًا وأخيرًا -إخوتنا وأبناؤنا ما في ذلك شكٌّ أبدا.

ولكني لم ألاحظ في صفوف أنصار النظام من يُبدي حزنًا، أو يُظهر أسفًا، أو يعبّر عن قلق، على مئات الضحايا من جرّاء القصف بالبراميل، أو على الذين تُحزّ أعناقهم بسكاكين الحقد المستدعَى من أعماق التاريخ!

فنانٌ يُبهجنا بتمثيله، يقول: «وهل تريد أن يقصفك بالورد والحلوى مثلا!»، فلا نضحك للنكتة، بل نكاد نبكي.

آخر، محام شابّ، يتذكّر اقتحام الدبابات لبلده عام ١٩٥٤، فيطرب لما يحدث، ويتطلّع «إلى لقاء قريب في حمص العديّة بإذن الله ربّ العالمين!»

كيف استطاع النظام أن يوقظ كلّ تلك الأحقاد، ويُطلقها؟

ما الصعبُ الذي نلقاه غدًا، إن فاز هذا الطرف أو ذاك، في محاولتنا لأمَ الجراح؟

هل في نفس النظام شيء من الحبّ لشعبه، وقد ظلّ زمنًا يتباهى بما يتلقاه منه من تلك النسبة السحرية: ٩٩,٩٩٪!؟

فلوريدا: ظهيرة الأحد ٢٠-٤-٢٠١٤

ليلة القطايف!

ذات ليلة باردة، في شتاء بعيد، توجّهت -وأنا في إحدى زياراتي لمدينتي حلب- إلى بيت

الأديبة المرهفة ضياء قصبجي (في طلعة المساكن، إلى الشمال الغربيّ من متنزّه السبيل الشهير).

كنت في تلك الزيارة على موعد مرتجل، ولكنّ ما لم أكن فيه على موعد هو ما فاجأتني به ربّة البيت وبنتاها الصبيتان -اللتان بدا أنّ القدر كان يُعدّهما لتكونا أديبتين -من أكلة، كانت قد مضت عليّ مدةٌ لم أتناولها، وهي ممّا يطيب في أيام الشتاء الباردة!

كنت أتجاذب أطراف الحديث مع زوجها الأستاذ موفق كنيفاتي، الذي ظللت أراه من أحسن الأزواج اهتمامًا وتشجيعا للزوجة الكاتبة.

فجأة دخلت صينيّة، فوقها زورق من القطايف، المحْمرّةِ الوجنات خجلاً أو قَلْيًا، المحلاةِ بالقَطْر، المعطّرةِ بالقُرفة، المنتفخةِ الأوداج نضجًا أو غضبًا! صحنٌ سكبتْ لي فيه لولوة، وأسرعت أختها إيغار تقدّم الشوكة والسكين. بالاختصار، كانت أجمل قطايف أكلتُها في حياتي، قليًا وتعطيرًا وتقطيرا، ومفاجأةً في ليلة قد اشتدّ بردها!

أصبحت، في زياراتي التالية، كلما أتيت على ذكر ليلة القطايف، يقول موفق بأريحيّة: «أستاذ، أنت بس أعلِمْنا قبل ٢٤ ساعة. «!

اليوم، يا ضياء، نراك -وقد اضطررت إلى هجرة بيتك الحبيب- تزورينه أمسِ خلسةً، تتسلّلين إليه خوفًا من قنّاص جبان محتمل.

ثمّ تصفين لنا حالة البيت، بيتك، الأثاث والمكتبة واللوحات التي كنت مررت عليها بريشتك يومًا. يغمرك الحنين، ليس حنينك وحدك، ولكنه حنين الأصدقاء الذين ظللت تستقبلينهم على مدى الثلاثين عاما الماضية، يتحدثون في الأدب الجميل، وهم يستظلّون لطفك النبيل.

وللأجيال سوف يبقى ما تروين، يا ضياء.

فلوريدا: فجر الإثنين ٢١-٤-٢٠١٤

شــكـوى!

الأطفال يَشْكون من قسوة الآباء

المرأة تشكو من ظلم الرجل

الرجال يشكون من قهر الدولة

الدول النامية تشكو من تسلّط الدول المتقدّمة

المتقدّمة تشكو من هيمنة القطبَين

والقطبان... يتبادلان الزئير!

فلوريدا: صباح الثلاثاء ٢٢-٤-٢٠١٤

حوار عند السَّحَر!

سألتُه، والشمس عندها تصعد في كبد السماء، مبديةً شيئًا من حرج:

ـ أستأذنك، سيدي الكريم، إنّ في نفسي منذ مدة أن أسألك، كأديب يجيد استعمال الكلمات، عن الفرق في المعنى بين كلمتَي الأنثى والمرأة، لغويًّا ومعنويّا؟

كان قد انتابه الأرقُ ليلاً، فنهض إلى الفيس يستنطقه:

ـ من أنت، أيتها الطالعة لي سويعة السَّحَر؟ من أيّ بلد؟ ما دراستك؟ ماذا تعملين أنت يا مَن اسمك عبير؟

ـ من الوطن الذي تركتَه أنت إلى بلد الأزهار فلوريدا! خريجة أدب انكليزي. موقوفة عن العمل بسبب الأولاد. أعمل أدمن لصفحتي! يؤرّقني أنّ الأدباء عامة لا يهمّهم من الأنثى إلّا أن يروها امرأة! أبرّر سؤالي بأنه قد يُترجِم محاولةً مني للهروب من التفكير بأمور أشدّ ألما!

ـ أجيبك، والنعاس يُرنّق أمام عينيّ، بأنّ معنى كلمة أنثى يشمل مختلف مراحل العمر وكلّ الكائنات [تحاشيت القول: الحيوان والنبات]. وأرى -وأنا لست لغويًّا ولا نحويّا- أنّ كلمة امرأة تُطلق على مَن تزوّجت، وتشمل أيضًا غير المتزوجات إذا كنّ ضمن مجموع. هذا إلى أنه ليس لكلمة مرأة أو امرأة جمعٌ من جنسها، فالجمع نساء، وأيضًا نسوان، هذا اللفظ الذ ي يجري على ألسنة الناس! والله أعلم، كما يقول الأقدمون.

ـ وأيّ من الكلمتين، الأنثى والمرأة، تختزل معنى أكبر؟

ـ في شفافيّة المعنى نقول: الأنوثة، وتعني الرقة والحنان، تقابلها كلمة الرجولة. ولكلمة المرأة معنى العمومية، نقول مثلا: «قضية المرأة المسلوبة الحقوق من الرجل! »... أم أنك تتمتّعين بها من جانبك!

ـ وهل هناك امرأة تحظى من الحقوق إلّا ما يجود به الرجل؟

ـ أنت، يا عبير، تُدخلينني في دوّامة: المرأة تشكو من ظلم الرجل! الرجل يشكو من ظلم الدولة! دول العالم الثالث تشكو من ظلم الدول المهيمنة.

ـ سأخرجك من الدوّامة. مقالتك ليلة القطايف، التي أبدعت في سردها بما اغترفت من ذاكرتك الفيّاضة ما شاء الله، حرّكتْ عند زوجي حبَّه للقطايف فاقترح أن نعمل منها، ونرشّ عليها القرفة!

ـ والورود، التي تملأ صفحتك، يا عبير، يُخيّل لمتصفّحها أنه يشمّ عبيرها!

ـ أحبّ أن أعلمك أني أجيد صنع الماورد ومربّى الورد الذي ما عاد في هذه الأيام حدا يحسّ بطعمته! أعوّض عن ذلك بنشر صور الورود، حتى إنّ زوجي وأبي يسمّياني عبير الورد!

ـ وتشكين من ظلم الرجال!

ـ أنت أعلم كم تُجهِد المرأة نفسها في الشرق لتجعل الأطفال رجالا!

ـ وقد أكون أجهدت نفسي ساعة الفجر هذه، بمقدار ما أمتعتُها بالحديث إليك. هل تسمحين بأن أستأنف نومي، يا عبير؟

وسكتت شهرزاد، عن حديث المرأة والورد المباح.

ليس هذا حُلمًا، أيها الأصدقاء.

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٢٢-٤-٢٠١٤

وتظلّ الذكرى تخفق في خواطرهم!

هل استطاع العالم المتحضّر أن يسجّل على نفسه انحطاطًا أكثر ممّا يَقْتَرف اليوم، حين يرى براميل الموت تتساقط حاصدةً أرواح الأبرياء في بقعة ما من العالم الذي بات صغيرًا، وهو لا يفعل شيئًا أيّ شيء!

ما ذاك إلّا أنّ العدوّ الإقليمي سعيدٌ بالذي يجري، وأنّ الغرب المنافق يخفي ابتساماته بأن يرى مساجد المسلمين تتحوّل إلى أنقاض، فذكرى بواتييه، وقَرْعِ أبواب فيينّا، وسقوطِ القسطنطينيّة، ما كان لهذه كلّها أن تُفارق الخواطر، مثلما هي أيضًا ذي قار.

قد تواعدوا،

والساحة بلاد الشام.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ٢٣-٤-٢٠١٤

كلمة.. أمام أعزّ الأصدقاء!

في جِلسة له بين أعزّ الأصدقاء، أعرب صديقي، الضابطُ برتبةِ قياديّ، منزلِقًا لسانُه إلى أنّ اجتماعاته الحزبيّة في الجيش قد تراخت، لأنه... لأنه بات يرى أنّ الحزب الذي تربّى في أحضانه

منذ شبابه الأول، قد أخذ يتّجه نحو الطائفيّة!

ومن فم إلى أذن إلى فم وأذن وصلت الكلمة، وأُوصِل هو إلى حيث جُرِّد، وكُسِّر، ونام في غَيابة سجن سنتين، ثلاثًا، أربعا...

يوم التقيتُه عرَضًا سألته حزينًا -وأنا أعرف بعض ما هنالك- عن غيبته الطويلة؟ فاكتفى بأن مدّ لسانَه ثمّ قال: «السبب هادا، هادا!»... ولم يَزِد.

فلوريدا: ظهيرة الخميس ٢٤-٤-٢٠١٤

إذا عَلِمتَ.. فـ. بَـلِّـغْ!

في اجتماع حزبيّ صغير، في مكان ما من أرجاء الوطن الحبيب، أخذ الرفاق يتداولون في شأن تسمية المشفى، الذي ما زالوا يجمعون له الأموال لإقامته في ربوع ريفهم الجميل.

اقترح كبيرهم أن يُطلقوا عليه اسم ذلك الشابّ الذي انتقل إلى جوار ربّه منذ قريب، مخلّفًا الحزن العميق في قلب الوطن، فتلطّف رفيقٌ آخر بالقول بأنّ تسميته باسم المنطقة التي إليها ينتمون -كما سبق أن اتفقوا- أدعى للمعرفة والشهرة في البلدات والقرى القريبة والمجاورة.

الذي وقع، بعد ذلك اليوم، أنّ المتلطِّف بالقول لم يُعرف له مكان إقامة. ثمّ عُلِم مقدار ما ناله من المهانة والتعذيب والتجريد والتغييب! وعُلِم أيضًا أنّ الذي بَلَّغ هو كبيرهم الذي لم يكن إلّا خالًا له شقيقًا للأمّ! وعُلِم -ثالثةً- أنّ جميع الحاضرين في ذلك الاجتماع قد بلَّغوا!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٥-٤-٢٠١٤

نظام.. يوظّف المواطنين مخبرين على بعضهم!

صديقي أحمد، من موطني حلب الشهباء، كاتبٌ وشاعر، مُعار للجزائر في ثمانينيّات القرن الماضي مدرّسًا للغة العربية، يزور الوطن صيفَ كلّ عام. هتف إليّ في مروره بدمشق مرة،

وأكرمني بقبوله دعوتي للجلوس معًا حول المائدة في حديقة بيتي.

لحظة استقبلته، في ذلك اليوم من عام ١٩٨٣، رأيته بادي الاستفزاز والتأثر. كان قد غادر لتوّه فرع الأمن القريب من بيتي، الذي أعرف أنّ على كلّ موظف في الدولة يعمل خارج الوطن أن يراجعه قبل السفر مستحصِلاً على إذن بالمغادرة. ماذا هنالك، يا أحمد؟ وروى.

قاده موظف الأمن هناك إلى رئيسه، الذي أخذ يُحاسنه القول: نظرًا للظروف الراهنة التي يُستهدَف فيها الوطن من قبل أعدائه في الداخل والخارج، ولأنك من أبناء الريف الكادحين، فإنك مدعوّ إلى أن تُسهم معنا في حماية الوطن بما تقدر عليه، تزوّدنا بتقارير عمّا تسمع وتعرف من أحوال زملائك هناك، نتلقّاها منك باسم حركيّ نتفق عليه، وسوف يُلحَظ لك راتب، تريده شهريًا أو على التقرير!

أخذ صديقي يتململ بين يدي هذا الأمنيّ، ويُفرفح[1]. وقد خطر له أن يتعلّل بأنه مؤلف تشغله الكتابة، فوجدها هذا سانحة: «أنت تحسن الكتابة إذن!»، قال: «أنا أديب، أنظم الشعر منثورًا وعموديًا، وأكتب في النقد الأدبي».

وختم صديقي الطيب، الذي كان يناهز الأربعين من العمر، المربوعُ القامة مائلاً إلى القِصَر، البدينُ بعض الشيء، حديثَه بأنه لم يعرف كيف انتهت المقابلة!

فيما بعد، عاد أحمد إلى الوطن. وعلمت -وهو ابتداءً معلمُ ابتدائي قد رفّعوه لمقدرته في العربية إلى الإعدادي- أنهم أعادوه إلى نقطة بدايته، ليدرّس ليس العربية لكن ليعلّم تلامذة الابتدائي -كما بلغني- الرياضةَ البدنيّة، التي كان غير مؤهَّل لها البتّة، لا من ناحية الخبرة ولا السنّ ولا البدن! فكان استغرابنا نحن أصدقاءه من ذلك لا يعادله إلّا إشفاقنا عليه ونحن

(١) يتلوّى

نتخيّله ينطّ أمام الصغار في باحة المدرسة!

ثمّ إنه ترك الوظيفة متقاعدًا، واشتغل كسبًا للرزق في مجال النشر من أضيق أبوابه، بأن يتعهّد طباعة كتب المبتدئين في الكتابة، لقاء ربح زهيد يحصل عليه أو يفرّ من بين يديه!

إنه الصديق الطيب الذي يملك قلبًا من ذهب، الشاعر، الناقد أحمد دوغان، الذي استغرقتْه طويلاً الكتابة عن كتّاب الوطن بقدر ما استهوته متابعة نتاج أديبات الجزائر وأدبائها، البلد الذي قضى فيه من عمره زمنا طيبا. وإنّ له كتابا عنوانه: الصوت النسائي في الأدب الجزائري المعاصر، يُعدّ مرجعًا عن الأديبات في الجزائر.

لقي وجه ربّه الكريم صيف عام ٢٠٠٩ بحلب، وهو من مواليدها ١٩٤٦، رحمه الله.

فلوريدا: فجر السبت ٢٦-٤-٢٠١٤

راتب.. دون عمل!

في ثمانينيّات القرن الماضي، حدّثني صديقي وجاري الكاتب المترجم سعد صائب رحمه الله (١٩١٤-٢٠٠٠)، عن أنّ صديقًا لنا نحن الإثنين، ممّن يتعاطون التأليف التاريخي، قام يومًا بزيارة صديق له يتبوّأ منصبًا أمنيّا عاليا.

في أثناء الزيارة عرض الأمنيُّ على صديقنا المؤرخ أن يمنحه راتبًا شهريّا ممّا يقدّمه الفرع لعملائه المخبرين، فاعترض المؤرخ (وكان ممّن ينتقدون النظام لكن في الخفاء!): «أنا لا أقوم بمثل هذه الأعمال!»، فقال: «أعرف، نحن نُدرج اسمك هنا، فتقبض كلّ شهر ما يعادل راتبك دون أن تقوم بأيّ عمل».

وعرّج المؤرخ في انصرافه على بيت سعد، يحدّثه ويقول: «اليوم تجلّت لي ليلة القدر، رُزقت راتبا إضافيّا يضاهي راتبي من الدولة ويزيد!»، وكان - كما وصف سعد - يضحك

من أعماق قلبه!

فلوريدا: ضحى السبت ٢٦-٤-٢٠١٤

حنين

وإنك لترى الأسرةَ السورية النازحة، إذا ما واتاها الحظّ بأن يكون لها ابنٌ أو ابنة، ممّن يعملون ويقيمون في بلد ينعم بالماء، والكهرباء، والمكيّف، والتدفئة، والفيسبوك، والمآكل المطيَبة، والأشربة المبرَّدة، والأمانِ كلّ الأمان...

تراها ما تلبث أن تَعاف نفسُها هذه الأطايب الهنيّة والنِّعَم السنيّة

ويتسلّل إلى قلبها الحنينُ للبيت هناك

وأثاث البيت

وإطلالة البيت

والطريق إلى البيت

ودعوة الجارة

وجلبة الأولاد يلعبون في الحارة

و... لعطر الياسمينة المتعربشة على الجدار، متغذّيةً من تربة الوطن.

فلوريدا: مساء الأحد ٢٧-٤-٢٠١٤

وكانوا.. من طلاب الجامعة!

اسمحوا لي، أيها الأصدقاء، أن أكرّر، بصيغة مختلفة، ما سبق أن قلت، فإنّ له هنا مناسبة.

يوم وقفت في مدرّج المتنبي في آداب حلب، قبل بضعة وثلاثين عامًا، أجيب عن أسئلة الطلاب حول ما كتبتُ من أدب تفوح منه رائحة عرق العاملين سعيًا وراء لقمة العيش، وما رويت من خَبَرِ المثقفين الذين يطالبون بالحرية ويتعرّضون للإهانة والتعذيب والموت... كنت على يقين من أنّ بين أولئك الطلاب آذانًا تُصغي، وأفواها تُخبِر، وأقلاما تكتب. دام اللقاء ساعتين، بحضور عميد الكلية الذي كان واحدًا من تلامذتي في ثانوية سيف الدولة، وعشرةٍ من الأساتذة الأجلاّء، اختتمتُه بتقديمِ آخر ما كنت كتبت من القصص المسيّسة: الأشباح، حكاية تعذيبِ مثقف حتى الموت، وفي فانتازيا مُحْكَمة جعلتُه يتحوّل إلى شبح غير مرئيّ يتعرّف على أمثاله من الأشباح، وأهديتها إلى مَن خرج الكُتّابُ الروس من معطفه: غوغول!

وبعد أن قضيت سويعة بمكتب العميد، في مسامرة مع الأساتذة المرحِّبين، ولدى انصرافي، اعترضني اثنان من الطلاب، ما زلت أذكر سحنتَيهما، يسألاني أوراقَ القصة، فقد أرّقهم هناك -فيما بدا- مضمونُها، ولم يشفع لي اجتماعُ العميد بمن وُجد ساعتئذ من أعضاء فرع الحزب، وإلى السجن ذهبت.

زمنٌ مضى وأنا ما أزال أتذكّر ذَينك الوجهَين الكريهَين. وقد كان من حقي، كاتبًا قد أسهَم في صنع المستقبل، أن أستشفّ في عيونهما الأملَ الواعد في بناء الوطن، إلّا أنّ التربية التي تلقّياها جعلتهما يفتخران بأنهما قادا محاضرا أديبا إلى ظلمة السجن!

وما أضيعَ التعليمَ والتربية في نفوس ترى، اليوم، أنّ إلقاءها البراميل المتفجّرة على المدنيّين الأبرياء يخدم القضية!

فلوريدا: فجر الإثنين ٢٨-٤-٢٠١٤

ديوان.. وقصيدة!

صديق لي، شاعرٌ مرموق، ما زال يلقَى الرعاية من اتحاد الكتّاب في بلدي، فهم ينشرون له نتاجه ديوانًا بعد آخر.

ألقى مرة قصيدة في الثناء على أدبي في حفل تكريم لي في أحد المراكز الثقافية في الوطن، ثمّ إنه فطن إلى ما في القصيدة من تنويه بالمذهب الأدبي الذي أتّبِعه في كتابتي، فأدخلها في مخطوطة ديوان يُعدّه، قدّمه إلى الاتحاد كي يظهر في منشوراته على العادة، فجاءه منهم اعتذار!

قلت له لمّا حدّثني: «ذلك بسبب القصيدة، التي سمّيتَها باسم عمل لي».

وقد جرت العادة ان يُجدِّد المؤلِّف عرض عمله المرفوض تحت عنوان آخر، فقد يمرق مع تغيّر أعضاء لجان التحكيم عند التقديم الثاني، فجاءه الرفض ثانية، وثالثة!

قلت له: «أنت تعرف مقدار ما يُثيره اسمي عندهم من حساسيّة، ومن نَعْرة تقشعرّ لها أبدانُهم المرهفة، فاخلع تلك القصيدة من مخطوطتك، أيها الشاعر الذي يرجو نشر ديوانه! ». ثمّ لم أعد أعرف، وقد اشتعلت الحرب، ما كان.

للعلم: إنّ كتابًا لي أيّ كتاب لم يصدر في منشورات الاتحاد، وأنا... أنا عضو مؤسّس فيه منذ عام ١٩٦٩، امتنعوا عن النشر لي طوال السبعينيّات وأوائل الثمانينيّات، ما جعلني أتّجه إلى تأسيس دار نشر خاصة بي سمّيتها دار إشبيلية هوًى في نفسي نحو الأندلس، لم أزل أنشر فيها أعمالي، الجديد منها وأعيد نشر ما سبق.

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ٢٨-٤-٢٠١٤

المُحَكَّمون.. منكم وإليكم!

في أسلوب التحكُّم في نشر المخطوطات، الذي ظلّ يتّبعه رئيس اتحاد الكتّاب في وطني الحبيب، وقد لبث في منصبه ثمانية وعشرين ربيعا متوالية، حتى خُيّل إلى الراصدين أنّ الاتحاد، وهو الاتحاد، أنه كان يستأثر بإحالة المخطوطات إلى القارئين المحَكِّمين الذين يختارهم بعناية، لا يتنازل عن هذا الحقّ لأيّ من زملائه في إدارة الاتحاد.

فكان إنْ أحبّ تمرير المخطوطة اختار لها مِن المحكّمين مَن يأنس فيه الموافقة لصداقةٍ أو لمصلحة، فإن أراد العكس اختار مَن يُضمر أو يُظهر الكراهية لصاحبها. وكان الاتحاد يخصّني دائمًا بالحالة الأخيرة!

ذات عام صرخ، في المؤتمر السنوي للاتحاد، مَن رُفضت مخطوطاتهم، فكان أن أجابهم رئيس الاتحاد، بمنطق وديع: «المحكّمون منكم وإليكم، ومن أين آتي بمحكّمين؟ ».

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٩-٤-٢٠١٤

كبريـاء وعُنجهيّة!

قال لي صاحبي، ونحن ندفع العربة التي امتلأت بالمشتريات، في اتجاه باب الخروج: «أترى إلى هذا الذي يمسح الأرض مَن يكون؟».

نظرت إلى الرجل، الذي لا تخلو هيئته من مهابة، وهو يمشي بمسّاحة قد امتدّت قاعدتها مع المبالغة مترًا، يُزيل بها ما خلّفته خطوات مرتادي هذا المتجر الكبير، قلت: «رأيته، ما به؟ ».

قال: «إنه مدير هذا المتجر الذي تراه».

قلت: «ولماذا يؤدّي هذه المهمّة بنفسه؟ ».

أجاب: «ليكون قدوة للعاملين الذين يرأسهم! ».

واستحضرت في خاطري صورةَ أولئك المديرين، في اليابان، وهم يقومون بمسح أحذية موظفيهم وتلميعها، كَسْرًا لكبريائهم الشخصي وتعبيرًا عن احترامهم لكلّ من يعمل في مؤسستهم.

وتذكّرت أناسًا، في مكان ما من العالم، ينزلون إلى المدينة نزولَ غُزاة، متسلّحين بعنجُهيّة عمياء، يكتسحون بها مساحات الوطن.

ليخلو لهم الجوّ فيرتعوا.

وتذكّرت أيضًا مقولة صديق طبيب طيّب: «لا إسلام هنا، ولكنّ تعاليمه تُطبّق، ومسلمون هناك ولا يُطبّقون! »، وما قلت له: «ولا ننسى زَرْعَهم عدوًّا في قلب الوطن العربي، وصَمْتَهم اليوم عن دمار أجمل شعوب المنطقة! ».

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ٢٩-٤-٢٠١٤

زوجان من الطواويس!

حدّثوني، ليلة أمس ونحن على مائدة العشاء، بأنّ هناك زوجَين من طيور الطاوس ما زالا يتردّدان على حديقة بيتهم المنفتحة على حديقة الجيران، قادمَين في كلّ مرة من الغابة المتاخمة، وهم يرون الذكَر ناشرًا ذيله الزاهي الألوان، مثل مروحة عظيمة، فيبهَرهم منظرُه بمقدار ما ينال من إعجاب أنثاه.

ذات يوم شاهدوهما يعبران الشارع، يمشيان الهوينى. والسيارات توقّفت في الاتجاهين، انتظارًا لأن يقطع المختالان الطريق عَرْضًا.

فتذكّرت وأنا أصغي، أناسًا، أطفالًا، في مكان ما من العالم، يسيرون في الطرقات

مسرعين، وعيونهم مرفوعةٌ إلى فوق، متوقّعين شيئًا تجود به عليهم السماء!

فلوريدا: فجر الأربعاء ٣٠-٤-٢٠١٤

أيها العُربان، جهلكم بلغ حدّ التواطؤ!

ليلة أمس، وبأدب جمّ مثل كلّ مرة، بدأ حديثه معي على الخاص: «كيف الحال أستاذ؟ أوجّه إليك هذا السؤال التقليدي وأنا خجل أمام نفسي!».

هو يعترف بأنها انتفاضة قامت، ابتداءً، «للإطاحة بنظام ديكتاتوري غاشم»، ثمّ تحوّلت. يرى هذا المثقف التونسي الشبابَ حوله يتوجّهون إلى سورية «للجهاد ضد الكفرة لتأسيس إمارة إسلامية»، ويرى كذلك أنّ «الشعب السوري ضحية الطرفين معًا!».

الطرفان... ويُعرّفهما: المتطرّفون والنظام!

أخي التونسي، الذي يعيش في سيدي بوزيد مدينة البوعزيزي،

لتعلم أنّ آمال الشباب المجاهدين القادمين من عندكم، يعتريها تغيُّر، من يوم أن يتسلّمهم المتطرّفون، فيغسلون أدمغتهم: قبل تأسيس الإمارة علينا أن نقوم بتنظيف البلاد من المرتدّين الكفرة في صفوف هذا الشعب، وبعدئذ نحارب النظام! فداعش التي تخافها أنت، هي صنيعةٌ قد أحكَم النظام صوغَها، وأطلقها بُعيد انطلاق الانتفاضة كفيروس مضادّ، مثلما أشاع وأحكم أنّ الشعب يريد إبادة الأقليّات!

لا، ليس المتطرفون والنظام طرفَين اثنين، إنهما طرفٌ واحد، والطرف الآخر هو الشعب الذي ما تزال تُدمَّر بُناه التحتيّة والفوقيّة، وتَحمِل الأسرة ما تبقّى من أبنائها، وتَهيم بهم على وجهها باحثة عن ملاذ، عبر الجوع، والعُري، والاغتصاب. وتأتينا أنت، أيها العربيّ البعيد موطنًا، لتقول لي في هدأة الليل: «إنّ العنصر السلفي أسهم في تعكير الموقف، وأكسب النظام

فرصة لتلميع صورته، فبدا في حالة المدافع عن النفس».

وعندما اضطررت إلى أن أعبّر لك عن أنّ «تخوّفكم المبالغ فيه من الإسلام السلفي يُلهيكم عن النظر إلى المجازر التي لا مثيل لها، في البلاد العربية أو الإسلامية أو في العالم، وأنّ الانتفاضة قامت سلميّة سلميّة سلميّة، والنظام حَرَفها وجرحها وجرّها، وأنّ الشعب السوري سوف يظلّ، على مدى هذا القرن الحادي والعشرين، أكثر الشعوب المراقةِ دماؤهم ظلمًا وعدوانا، مُسمّيًا إياك في ذلك، أنت ومن يرتؤون رأيك، بالعربان. إنك وجدت أنّ هذه التسمية «تنضح إهانة»، غافلاً عن أنّ ضبابيّة الرؤية عندك وعند من هم في صفّك، هي أشدُّ مضاضة!

أيها الإخوة الذين تجهلون أنّ كراهيّتكم للإسلام (أقول هذا وأنا علمانيّ)، وأنّ ازدراءكم لتاريخ أمتكم، وأنّ تعلّقكم بأوهام تجعلكم تنفخون في جسدٍ قد مات أملاً في ردّ الحياة إليه. أنتم، يا من يأتينا منكم شبابٌ مهووسون، يسعون إلى الجهاد الملتبس، فيقتلون في النهار بلا ذنب أبناءنا، ويصلبون فتياننا لكلمة يقولونها، ويحزّون يد طفل إنْ سرق رغيفا بسكين مثلّمة، وفي الليل يُمرّرون سكاكينهم اللامعة على رقاب الأطفال والنساء.

إنّ... إنّ قصوركم في التفكير، إنّ تقصيركم في الوصول إلى لبّ الحقيقة، ذلك ما قد بلغ حدّ التواطؤ، فهو يؤلمنا، يفعل فينا فعل صواريخ النظام.

فاعرفوا... أو فالزموا الصمت رحمةً بنا!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢-٥-٢٠١٤

«الأنظمة.. لا تسمح»!

• يدخلون الكليات التي يريدون، بمعدَّلات تؤهِّل أو لا تؤهّل.

• تصل أسئلة الامتحانات إلى بيوت بعضهم، في أنصاف الليالي، يحملها أساتذةٌ متخصّصون!

• إن تاقت النفس إلى مؤهِّل دكتوراه قام المشتاق بزيارة خاطفة لعاصمة العم لينين وعاد بها.

• وربما وصل المؤهِّل إلى الأكثر دعمًا منهم، من أوروبا الشرقية، دون سفر!

• لهم كلّ الوظائف الهنيّة، والمناصب العليّة، واللقمة المغمّسة بمعاناتنا وشقائنا!

ولنا نحن...؟

صوتٌ نقيّ، مضمَّخٌ بالصدق وبالطموح الذكيّ، يتحدّث فيروي أنه جمع في الثانوية ما يؤهِّله لدراسة الهندسة، ولكنّ نفسه عافتها لأسباب، مؤثِرًا معهدًا متوسطا يُعنى بصحة الإنسان، وعمل في المشافي العريقة عشرين عاما بكفاءة مشهودة، وقد توقّف ترفيعه الوظيفي عند سقف لا يمكنه تخطّيه إلى الفئة الأولى، فوجد نفسه -كما عبّر- «مثل المساعد الأول في الجيش، يبقى ثابتا في مكانه وغيرُه يأتون بعده ويسبقونه ويصبحون أسياده وهو في مكانه يراوح»! فقرّر استئناف الدراسة مبتدئًا من الثانوية، وبعدها انتسب إلى كلية الآداب قسم اللغة الإنكليزية، متحمّلاً مع الدراسة أعباء الوظيفة وتكاليف المعيشة، وتخرّج. ولكنهم ما عدّلوا وضعه الوظيفي، بحجّة أنّ الأنظمة لا تسمح!

يقول بروح عذبة: «الموضوع بحاجة لواسطة»! عمره اليوم خمسون.

تحضُرني، أيها الأصدقاء، حكايةُ ذلك الضابط الكبير الذي طمحت نفسه لأن يكون طالبًا جامعيًا. يوم الامتحان الأول جاؤوا به إلى مكتب رئيس الجامعة، وقدّموا له ورقة الأسئلة مع الكتاب المقرّر، متيحين له فرصة الغشّ، فصرخ بهم: العمى بقلبْكِنْ! لَكْ كيف بدّي أعرف من أي صفحة أنقل! (أو كلاما من هذا القبيل)

ثمّ يتساءل بعض الطيبين: لماذا قامت الثورة؟

فلوريدا: فجر السبت ٣-٥-٢٠١٤

وماذا يريد القطبان.. بعد؟

يا أوباما!

أما اكتفيت من هول الدمار الذي ينزل في وطني!

أم أنك تترجّى تدميره على الآخر، استجابةً لدواعي الفيروس الذي حقنتموه في كبدنا؟

وأنت، يا بوتين!

هل ما تزال عندك بقيّةٌ من ظنّ بأنّ ثمّة ودًّا يشدّك إلى العرب،

وإلى المسلمين،

وإلى الشرفاء في العالم؟

فلوريدا: ضحى السبت ٣-٥-٢٠١٤

ساكن البيت الأبيض، جدَّد وفرغنا من أمره

ولكنّ ساكن الكرملين

بعد التمديد والتجديد، نزولًا وصعودًا

يُقلقنا في شأنه سؤال:

هل له «ابن»؟

فلوريدا: مساء السبت ٣-٥-٢٠١٤

متعة التعذيب حتى الموت! /١

رأيتهم ينفردون بمواطن أعزل في مكان مهجور، ينهالون عليه بالعصيّ الغليظة وقضبان الحديد الثقيلة، وهو يحاول اتقاء الضربات، بذراعه تارة وبانقلابه إلى جانبه الآخر تارة، يتعاون عليه في هذه المهمّة أربعة جنود، وعندما كان يَعوقهم تحرّكُه فإنّ أحدهم يتقدم ليدوس بطنه، أو عنقه. ولما رأوا أنّ الحياة لم تفارقه، حمل أحدهم حجرًا ثقيلا ورماه على رأسه، رمَحَ تحته، وكرّر الفعل آخر، حتى آن لحركته أن تخمد، فتأكّدوا من موته، ثمّ رصاصة من بندقية في الرأس، ورصاصة أخرى، وخرجوا، غير نافضين أيديهم المخضّبة، ومجلّلين بعار سجّلوه بالصوت والصورة!

في تقديمها هذا الفيديو التاريخي، أستاذةٌ محامية تتحلّى بضمير حرّ يقظ، عبّرت ساخرة عن شكرها «للجنود البواسل ذوي القلوب القوية والأخلاق العالية». لماذا؟

لأنهم سمحوا بتصوير شجاعتهم في فيديو. ووعدت ساخرة مرة أخرى «بأننا سنشهد في القريب محاكمات لجرائم مصورة في لحظات ارتكابها، ممّا يُسهّل عمل الضابطة العدلية، فليس هناك داع لتمثيل الجريمة».

الذين علّقوا، في ذلك الملتقى الحقوقي، كنت أتخيّل، وأنا أقرأ كلماتهم، الدمعَ ينهلّ من عيونهم، والدم ينزف من القلوب، إلّا واحدا، انبرى مدافعًا منافحا، مدّعيًا متّهما، خالطًا الأوراق، لا، ولم يرفّ له جفنٌ حين ذكّره زميل له في المهنة: «أنت تدافع عن نظام، اعتَقل حتى زملاءك المحامين، وعذّبهم حتى الموت، ولم يَبقَ لنا منهم سوى عبيرهم الذي سيلاحقك أينما حللت».

والغريب أنه بدا ناصحًا بأنه كان يمكن أن تكون المطالبة بالحرية «ناعمة حضاريّة»، ونسي -المنظوم- أنّ المطالبة بدأت سلميّة، وأنّ النظام أدماها لغاية هي سحقُها، فلما استحال

السحق كانت الإبادة والتهجير والتدمير.

مع تشتيت الرجل الخواطر ونثره الآراء في كل اتجاه، طوال بضع عشرة ساعة، كانت بدايتها مساء الجمعة أمس الأول، وجدتُني أتدخّل، ولي الحقّ بصفتي زميلا لهم مُجازا بالحقوق، فأشرت على الأصدقاء المعلّقين بالامتناع عن الحوار مع هذا الرجل، الذي دخلتُ في تلك اللحظة صفحته، فرأيته فيها فرحًا مرحا، ينطّ مثل عصفور في المتنزّهات، وكأنْ لا سيلَ من دماء يجري في أرجاء الوطن!

فلوريدا: فجر الأحد ٤-٥-٢٠١٤

«متعة التعذيب حتى الموت/٢»

ويَغْرُزّون السكاكين في الظهر!

تلقيت قبل قليل على الخاص الرسالة التالية، تعليقا على خاطرتي عن متعة التعذيب حتى الموت، خطّتها يد مواطنة سورية مهاجرة، اعتادت أناملها الرسم، مثلما تمرّست حَنجرتها بالغناء. تحدثت عما قرأتْه اليوم بألم، زاد عليه ما عانته من رؤية حادثة مماثلة من التعذيب الوحشي.

الاسم هديل.... هديل نعم، تأمّلوا المعنى: إرسال اليمامة تصويتها الحنون. والخشية أن تصيب هديلَ يمامتنا البُحّةُ في الصوت في هذا الزمن الرديء!

كتبَتْ:

سيدي الكريم، طاب نهارك.

ما نشرتَه هذا الصباح تصويرا لما حدث ويحدث كل يوم في بلدنا المُصاب. أعدتُ قراءته مرتين، وأنا أتخيل كل مرة ما كان يجري، وكأنه يمرّ أمامي: صورة الضحية، صوته المخنوق،

وكأني أسمعه، وجوه الوحوش وابتساماتهم الغبية، ومدىٰ المتعة التي هم فيها.

تستوقفني هذه الفكرة كثيراً وتجعلني أتساءل: مِمَّ هُم مصنوعون هؤلاء الوحوش؟ من أي شيء خُلِقوا؟

منذ بضعة أيام، راودتني فكرة استراق دقائق معدودات من أحد الفيديوهات. شاهدت ما لم أتوقع أن أشاهده: رجلا مطويّاً على بطنه محصورا في زاوية، مقيّد اليدين إلى الخلف، لا تتّضح معالم وجهه. بدؤوا بغزّ السكاكين في ظهره وكأنهم يقطعون رغيف خبز طري. ما استرعى انتباهي أنه لم يستطع حتى أن يُطلق صرخة واحدة، كل ما استطاع فعله هو رفع إحدىٰ ساقيه إلى الوراء من الألم. هذا مع الكثير الكثير من الشتائم الموجهة إليه، والقول بأن هذا ما يجنيه المطالبون بالحرية! وتوقفت هنا، لم أستطع الإكمال.

أكتب كلماتي هذه والدموع تنساب من عينيّ. لا ينتمي هؤلاء للإنسانية بأي شكل من الأشكال. صَدْمَتي مما رأيت استمرّت معي لساعات، حتى إن إحدى صديقاتي ظنت، وهي تحدثني على الهاتف، أني زعلانة منها.

منذ اليوم الأول لانتفاضتنا في سبيل الحرية، كنت أقول، وما زلت أُردد: ما كنت أظن أبداً أني سأحيا لأكون شاهدة علىٰ وحشية كهذه!

وعذرا أستاذي الفاضل لأني زدت في آلامك.

فلوريدا: مساء الأحد ٤-٥-٢٠١٤

«متعة التعذيب حتى الموت/٣»

هل سبقت ذلك تجارب (شادرافيان والحلو)؟

أولُ مخابراتيّ تسلّط على الناس في سورية كان المقدّم عبد الحميد السراج (توفي أيلول/

سبتمبر ٢٠١٣)، وكان عمله في هيئة الأركان يُعرف بالمكتب الثاني، مدعومًا في ذلك الحين من قبل التحالف الهشّ بين البعثيين والقوميين والشيوعيين، هؤلاء الذين أسرفوا بشتم خصومهم الوطنيّين ونَعْتهم بالرجعيّين!

لا بأس في القول بأنّ أول ما وقع في ملاحقة أعداء الوحدة هو زجّ الشيوعيين في السجون (١٩٥٩)، وكان المعتقل يُخيّر بين أن يبقى أسير السجن إلى أجل غير مسمّى وبين أن يعترف أمام الملأ (في الإعلام المسموع) بانتمائه إلى الحزب الشيوعي، مع ذكره رقم الانتساب، وأنه تاب وارعوى، وعندئذ يعاد إلى وظيفته، إلّا إذا كان في التعليم فيُنقل إلى جهة أخرى.

هناك فظاعة وقعت في أثناء ذلك ظلّت مدار أحاديث الناس في سورية زمنا. اثنان من الشيوعيين البارزين: بيير شادرافيان من حلب، تُحَرَّق مواضع من جسده بالسيكارة حتى الموت، وفرج الله الحلو، رئيس الحزب الشيوعي السوري - اللبناني آنذاك، هذا الذي أفزع موتُه غير المقصود قاتليه، فعمدوا إلى إخفاء جريمتهم، بأن يذوّبوا جسده بمادة الأسيد، فكانت فضيحة في عُرف ذلك الزمان. وتبيّن، قبل نحو عشر سنين من يومنا هذا، أنّ الفاعلين كانوا عناصر في الأمن ينتمون إلى البعث حلفاء الشيوعيين بالأمس القريب!

هل كان البعثيون في تلك المرحلة يقومون بتجارب على التمويت تحت التعذيب، لِما طبّقوه بتوسّع بعد بضعة وعشرين عاما (١٩٨٢) في حماة، ثم ازدادوا توسّعًا وانتشارا في بدايات ٢٠١١؟

أرحّب بما يرد إليّ من تصحيح من قبل العارفين المعاصرين.

فلوريدا: فجر الإثنين ٥-٥-٢٠١٤

قبر بعيد المزار!

سنين تقضّت وأنا في بِعاد عن أديبة حلب المرهفة ضياء قصبجي، ولكني لا أنقطع عن تذكّري لها ولزوجها الأستاذ موفق كنيفاتي، ولابنتيها الشابتين الأديبتين لولوة وإيغار، وذلك ما حملني على أن أكتب، قبل أيام، ما سمّيته ليلة القطايف: ليلة شاتية، دخلت فيها بيتهم قبل أعوام لعلها عشرة، فنهلت من لطف هذه الأسرة السعيدة، وأكلت ما فاجؤوني به من القطايف المقليّة، «المُحْمَرّة الوجنات - كما وصفتُ - خجلاً أو قليًا، المحلاّة بالقَطْر، المعطّرة بالقرفة، المنتفخة الأوداج نضجًا أو غضبا»، وأشرت إلى الزوج «الذي ظللت أراه أحسن الأزواج اهتمامًا وتشجيعًا لزوجته الكاتبة».

وفي الخاص بيني وبين ضياء، أخبرتني أنّ موفق مريض، وفهمت -مع الألم- أنه مُدْنَف، وأنها قرأت عليه الخاطرة وهو في سريره يعاني، وما كان لي أن أعلم أنّ الرجل يتأهّب لأن يكون بين يدَي الله. ثمّ كان الرحيل بعد أيام.

أمسِ قرأت رثاء للزوج، نَبَع من قلب ضياء، وسال به القلم نهرَ حزن، زادته لوعةً الظروفُ التي تمرّ بها حلب.

في وصفها لآخر اللحظات تقول: إنّ قطعة التفاح التي أغرته بأكلها كانت آخر ما تناول، وكان آخر ما أرسله لسانُه من الكلمات «أنا رايح! ». ألا ما أصعب أن يدرك الإنسان حقيقة رحيله! وما أصدق تعبيرَها عن إحساسها بالفراق، بالوحدة، بالعزلة، في زمن تفرّق الناس في كلّ الاتجاهات!

تقول:

مات الذي عشت وإياه أكثر من أربعين عاما. مات وتركني في لُجّة العذاب والقهر، والبلد مُنْهك، والموت والقتل. مات، وتركني أواجه ما تبقّى لي من أيام وحيدة بلا رفيق ولا صديق!

اليوم حُمل جثمانه. ووري الثرى في مقبرة بعيدة، لا يتسنّى لي حتى أن أرى قبره.

مات زوجي فانهارت الجدران من حولي!

الجدران!!

إحدى الابنتين، إيغار، ما زالت وأسرتها الصغيرة في تركية منذ عامين. وشقيق يقيم في مدينة أخرى. وشقيقة اجتازت الحدود. وشقيق أكاديميّ آخر فاجأهم برحيله قبل حين، وقبيل ذلك ذهبت الوالدة فالوالد. الجدار الباقي لك، يا ضياء، هو ابنتك لولوة، وهي ذاتُ أسرة، ولها عمل تغدو إليه كلّ صباح، على إيقاع الهاون وما تجود به السماء. وإنّ لك جدرانًا أخرى بحلب، أشقاءً وأحبابًا هم إلى جانبك على الدوام.

أيها السوريون! ما أحلكَ أيامَكم ولياليَكم! كم ذا تعانون من الحزن والقهر والعذاب!

للراحل جنان النعيم، وللزوجة والابنتين الصبر والسلوان، والرحمة والعزّ لكلّ شهداء الوطن.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٦-٥-٢٠١٤

البنت وأمّها

تظلّ الابنة متعلّقةً بوالديها، وبالأمّ أكثر.

فإنْ تزوّجت وانفصلت مكانًا، وابتعدت، زاد تعلّقُها. ويشتدّ إن امتنع عليها الإنجاب. ويبلغ الذروة إن ظلّت عزباء، أو تزوّجت ولم تسعَد في زواجها.

ويتحوّل رحيل الأمّ عندها، خاصةً إنْ جاء مباغتًا، إلى ذكرى أليمة لا يهدأ أُوارها.

وإن كان بين الوالدين خلاف، فإنها غالبًا ما تنحاز إلى أمّها، وإذا ظنّت في أبيها الظلمَ

والجور، أضمرت له الكره وقد تعلنه.

ويبدو لي الابنُ بعيدًا عن هذه العواطف المعقّدة، لانشغاله في تأسيس أسرة وتحمُّل تَبِعاتها، إلّا ما ندر.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٦-٥-٢٠١٤

المكان الذي رأوه مناسبًا!

عندما غدا قريبُه نافذَ الكلمة

رفّعوه هو إلى مرتبة مدير

يوم غضبوا على قريبه فجرّدوه

لم ينسَوه

فنقلوه إلى وظيفة في مكتب دفن الموتى

فمات.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٧-٥-٢٠١٤

خطبة لعيد الشجرة!

في عام ١٩٥٩ كنت مديرا للشؤون الاجتماعية والعمل في إحدى المحافظات جنوبيّ العاصمة. وكان المحافظ عسكريًا، عرفناه -نحن المديرين في المحافظة- قاصرًا في الإدارة بمقدار طول باعه في إصدار الأوامر والنواهي. وقد جرى على أن يكلّف مدير المركز الثقافي العربي كتابةَ الخُطب التي يُلقيها في المناسبات. فلما استمع إليّ متكلّمًا في احتفال عيد الطفل العالمي، ممّا تُعدّه وزارتنا في المناسبات الاجتماعية عادة، أعجبه -لحسن حظّي أو لسوئه-

كلامي المنثور، فانصرف من يومئذ عن صاحبه (م. ز. ب)، يَعْهد إليّ بكتابة خطبه: يدعوني، يحدّثني عن الموضوع، أصغي بحواسّي، ثم أكتب له الخطبة، وبأناملي أنسخها على الآلة الكاتبة التي تخصّني، وأقوم بتشكيل كلماتها وقايةً له من الوقوع في أثناء القراءة في إشكال. وعلى هذا جرينا.

واتفق لي أن كتبت إليه، في أواخر ذلك العام، أطلب إجازة هي آخر ما كنت ادّخرتُه من إجازتي السنوية، أقضّي أيامها مع أسرتي في مدينتي حلب، فامتنع -يا للغرابة، وأنا مَن يزقّه الخُطب زقّا! - عن الموافقة، فدفعني الغيظ والمرارة والألم إلى أن أراجعه. وبدا أنه انزعج من مطالبتي وممّا لاحظه عندي من معنى الدالّة عليه، فارتفع صوته في غضب، ثمّ... ثمّ أمر باحتجازي وتقديمي إلى المحكمة بتهمة التهجّم على المقامات (وهل هذا معقول!)، وأُوقفت فعلاً، وقُدّمت فورا... لولا أنّ القاضي -وقد بات قضاة العدل يضيقون بتجاوزاته- نظر وأطلق سراحي تَوّاً. فكان أن دفعتني فورة الشباب إلى أن أرفع على المحافظ دعوى (وهل هذا معقول أيضًا!). فقام الرجل يشكوني إلى وزيره، وزير الداخلية عبد الحميد السراج، الذي كان قد كُلّف بالمصادفة في ذلك الحين (مطلع العام ١٩٦٠) إدارةَ وزارتي، الشؤون الاجتماعية، إثر انسحاب وزراء البعث السبعة ومُناصبتِهم جمال عبد الناصر العداء!

أسرعت الوزارة توفد رئيس الهيئة التفتيشية إلى المحافظة، فتبيّن له مدى ما لحق بموظف الوزارة من الظلم والإجحاف، في حجب الإجازة وفي التوقيف، فتعاطف، دون أن يفوته التعبير الشفّاف عن الإعجاب بجرأتي في رفع مثل هذه الدعوى. وصحبني بسيارته الرسمية إلى العاصمة بناء على طلب المحافظ.

هل كانت مسألتي أول ما عُرض على الوزير السراج من أمور؟ بدا أنه ساءه أن يتجرّأ موظف على رفع دعوى على واحد من التابعين له، فطلب أن أمثل بين يديه.

دخلت مكتبه برفقة كبير المفتشين، فكان يتأمّلني مليّا وهو يعنّفني على تجارئي في مخاطبة المحافظ، وعكس هذا هو الصحيح! طبعا، أيها الأصدقاء، لم يخطر لي أن أرفع دعوى(!!!) على أول من أشاع نظام المخابرات في الشعب الذي ينتمي إليه! ولكنّ كبير المفتشين (مظفّر بقاعي، رحمه الله) همس في أذني أن أسحب الدعوى، ففعلت، ثمّ صدر قرار بنقل وظيفتي إلى حيث رضيت.

الأمر المفارِق أنّ امتناع المحافظ عن الموافقة على الإجازة -كما علمت فيما بعد- كان سببه أنه يريد استبقائي بجواره كي أكتب له خطبة بمناسبة عيد الشجرة (٢٩-١٢ من كل عام)، وما كان أسهل عليه -هذا الفهيم- أن يلتمسها مني قبل ذهابي إلى الإجازة، فأكتبها له مشكّلةً، ممسّكةً، معطّرة!

بعد عشرين عاما استوحيت من هذه الحادثة قصة سمّيتها كاتب الخُطب، بعثت بها إلى صديقي عبد النبي حجازي رئيس تحرير الأسبوع الأدبي، فتحرّج من نشرها، وناولها لصديقه صفوان قدسي الذي كان في زيارته، فقال هذا: إنها تنتقص من هيبة المسؤولين! ثمّ نُشرت في مجلة البيان (عن رابطة الأدباء الكويتيين)، ونزلت بعدئذ في كتابي اعترافات ناس طيبين (طبعة ١٩٩٠، ٢٠٠٢).

فلوريدا: فجر الخميس ٨-٥-٢٠١٤

امرأتان.. عربيّتان!

ساهرٌ ليلتي، أتابع أخبار وطن يُدمّر.

قبيل دقائق تلقّيت رسالة من فتاة أو سيدة، تنتمي إلى بلد عربيّ مرتاح ماليّا وأمنيّا، سألتني: أيش لون عيونك؟ حلوين!، لم أقمعها، سألتها: ممكن تعرّفيني بنفسك بسطرين؟،

فغابت. تُسمّي نفسها أميرة الكلمات!

في اللحظة ذاتها كتبت إليّ سيدة سورية تعاني:

قبل ساعة [أي حوالى العاشرة والنصف صباحا بالتوقيت المحلي] كنت أشرب الشاي مع ابنتي قبل أن تذهب إلى عملها. فجأة رأينا الطاولة التي نجلس حولها تهتزّ، ترتفع وتنخفض مع صوت هائل. انتابني الهلع، لكني قلت لابنتي: لا تخافي بنتي!. وعلِمنا أنه انفجار مريع هزّ حلب من أساساتها!. إنها الأديبة ضياء قصبجي، التي رحل عنها زوجها قبل أسبوع.

فلوريدا: الساعة الخامسة من صباح الخميس ٨-٥-٢٠١٤

دمّر النظام جامع الصحابي الراشدي خالد بن الوليد بحمص.

وأحرقوا الجامع الكبير الأموي بحلب، وسوق المدينة فيها.

ولن يتورّعوا عن تدمير أموي دمشق إن خسروا العاصمة!

هم يكرهون تاريخنا.

هل نُجاريهم في تدمير معالمنا؟

فلوريدا: منتصف ليل الخميس ٨-٥-٢٠١٤

يوم أضرب الأولاد عن أكل الزيتون!

هل أقول: إنّ حيطان الفيسبوك تستدرجني إلى الاسترسال في نَسْل خيوط ذكرياتي؟ هو ذا صديقٌ يُحرّضني: ولم لا تحدّثنا عن زمن كنت فيه مديرًا لمعهد سيف الدولة لإصلاح الأحداث الجانحين بحلب في أواسط الستينيّات؟ لله درُّه، إنه يعرف عني أشياء!

مختصِرًا أقول: إني ودِدْتُ، يوم عهدوا إليّ بإدارة هذا المعهد، أن أكون صديقًا للأحداث

فيه. ومِمّا يطيب لي أن أرويه في ذلك أني حضرت إلى المعهد صباح يوم (وهو يبعد عن شمالي حلب حوالى عشرين كيلومترا)، ففوجئت بالأولاد مضربين عن الفطور... لماذا؟ لأنهم وجدوا لون الزيتون المقدّم إليهم ضاربًا إلى سَواد!

دخلت المطعم. ومن عَيّنة لاحظت أنّ حبّة الزيتون الخضراء قد غَشِيَتْها رماديّةٌ داكنة بسبب التعرّض للهواء قليلاً بعيدًا عن الماء المالح... تذوّقت، قلت: ما فيه عيب!، وطلبت أن أتناول الفطور بينهم. وجاء الشاي والجبنة، آكل، والأولاد حولي مبتهجون!

موقنٌ أنْ لا مكان لهذا الحديث في وقت تُدمّر فيه مدينتي حلب وسائر أنحاء الوطن. أيّ تاريخ تسجّله أيادينا!

فلوريدا: فجر الجمعة ٩-٥-٢٠١٤

القصف.. لماذا؟

الذي... عن سؤالي أجابني بأنّ قصف جامع الصحابي خالد بن الوليد بحمص، كان سببه أنّ هذا الجامع صار مركز قيادة العمليات العسكرية وأكبر مستودع للسلاح.

في نفسي أن أسأله، مرة ثانية، أن يدلّني على كلمة أصفُه بها ألطف من كلمة كَذوب!

وذلك يمنعني من أن أسأله، كرّة ثالثة، عن طائرات النظام، التي تُحلّق في سماء حلب وتُسقط كلّ يوم أربعة براميل أو خمسة على المواطنين العُزَّل غير الآمنين، ما إذا كانت تستهدف أيضًا أوكار الإرهابيين ومستودعات أسلحتهم الفتّاكة؟!

ولا ينسى في مخاطبته لي أن يحلف: والله يا أستاذ!، أو يشفع قوله بـ: صدّقني يا أستاذ!.

فلوريدا: فجر السبت ١٠-٥-٢٠١٤

أمام باب البيت

ساعة فاجؤوني بأن أطلقوا سراحي بعد اعتقال لم يَطُل، خرجت أمشي في الطريق متعثّر الخطا. كانوا قد حجبوا عني نعمة المشي نصف ساعة كلّ يوم في فِناء السجن، تلك التي يتمتّع بها المعتقلون القدامى، أسمع جلبتَهم وأنا في زنزانتي المنفردة!

لم يبدُ على سائق التكسي خوفٌ عندما أشرت له بالوقوف، وأنا غير حليق الذقن، والشعرُ ملتصقٌ بالرأس والصرّة تتدلّى من يدي، ولكن ظهر عليه الخوف لحظة قدّمت له المفتاح ملتمسًا منه النزول ليفتح باب بيتي المطلّ على الرصيف كي يتسنّى لي الانسلال دون أن يلمحني أحد من الجيران وأنا في هذه الهيئة، وقال متوسّلا: اعفيني، أستاذ، الله يخلّيك!، وانطلق بسيارته مسرعا. كان ذلك ضحى يوم الإثنين ٢٩-١٢-١٩٨٠.

وأما حكاية ماجدولين الرفاعي على قارعة الخجل، أدناه، فإنها من المَرويّ المذهل مضمونًا وسردًا. فاقرؤوها.

فلوريدا: مساء السبت ١٠-٥-٢٠١٤

أدب سقاية.. وأدب نهب!

أسرع بسيارته يريد أن يدخل جورة الشيّاح، ويبلغَ محلّه الذي كان قد تركه مغلقًا طَوال الأشهر التي سيطر فيها الحرّ على السوق، فمنعه الآن النظامي من أن يدخل بها، قالوا له: تسير على قدميك، قال: أريد أن أنقل بضاعتي، قالوا: تنقلها بيديك!

في هرولته، كان يرى المحالَّ، المستودعات، مكسورة الأقفال، منتهكَة الأبواب، مقتحَمة. شبيحة يتزاحمون بالمناكب، ويتشاحنون، مع توافر المنهوب، يحملون بالأيدي، على الأعناق،

فوق الظهور والرؤوس، مالًا استباحوه، بعد الأرواح والأعراض.

تذكّرتُ، وأنا أستمع عبر الهاتف، إلى هذا الحديث يسرده صوتُ حمصيّ ملتاع، قد تزاحموا على ماله ينهبونه أمام عينيه.

أومضتْ في ذاكرتي صورةٌ مدّخَرة من أيام الطفولة، في زقاق الزهراوي بحلب، قبل ثمانين عاما لا تنقص، حين لم تكن مياه الشركة ممدّدة إلى بيتنا، فيبعثنا أهالينا إلى الحنفية العامة، في رأس الزقاق، نحمل أباريقَ من صفيح وسطولًا من توتياء، لنملأها ماء للشرب. وإنّ في البيت جُبّا عليه طُرُمْبة تسحب الماء للغسيل.

كنا نشهد على العين ازدحامًا في بعض ساعات النهار. لكن لم يكن هناك انتهابٌ للماء. كنا نضع أوانينا في صفّ، يملؤها كلٌّ بدوره. أدب سقاية، نهلناه في ذلك الزمن الجميل. ونراهم اليوم يستبيحون الأموال، ودون أدب يحملونها أمام أعين أصحابها.

ونسي الرَّعاعُ تزاحمًا في الدفاع عن الحدود.

فلوريدا: فجر الأحد ١١-٥-٢٠١٤

إنْ كنت.. كاتبًا!

يسخرون من أدبك، فأنت في رأيهم عاطلٌ من الموهبة!

ويَحُطّون من فكرك، فأنت متخلّفٌ عن زمنهم الباهر!

ويُجرّدونك من الوطنيّة، فأنت من المارقين الخاسرين!

وينزعون عنك عباءة القوميّة، فأنت من الخارجين على الأمّة!

ويُفرِغون قلبك من المشاعر الإنسانيّة، فأنت من أعداء البؤساء والكادحين!

إنْ ناصرتَ في أدبك الحقَّ، قالوا: إنما أنت تبغي الباطل!

وإن دعوت إلى الخير، قالوا: أنت تستدعي الشرّ!

وإن تغنّيت بالجمال، قالوا: إنّ صوتك أقبح الأصوات!

فإذا أتيح لك أن تقف يومًا، فوق منبر لهم، ودفعك شوقك للحرية إلى أن تطالب بها، أسرعوا يتّهمونك بالتعرّض للمقامات العليا، فتصرُخ بهم: أوَ تريدون أن تَزُجّوا بي في غَيابة؟ يقولون: وتستحقُّها!

حتى إذا آن للزمن أن يتغيّر، رأيت أحدهم: إمّا أن يبقى في الحضن هناك، فهو ارتباطٌ عضويّ كالجنين في المشيمة، وإمّا أن يكون متاحًا له الخلاص، فيأتيك بعنقٍ مائل: قد أحكموا خداعي، فسامِحوني!

فكيف، بالله، تَقْدِرون على الغفران، أنتم، يا مَن آلموا نفوسكم، سنين غيرَ معدودة ولا محدودة

وجرّحوا قلوبكم، وساموكم سوء العذاب!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٢-٥-٢٠١٤

لا أدري...

ما إذا كانت اللوحة توحي للشاعرة بإبداعها

أم أنّ الصورة تستمدّ ألقَها من كلمات الشاعرة!

فلوريدا: ظهيرة الإثنين ١٢-٥-١٤

بالأمس.. كان عيد الأمّ في أمريكا

منذ عرف الإنسان فضل الأمّ والشعوبُ تحتفي بهذا الفضل العظيم. هل نقول: إنّ أول

من احتفل بما هو قريب من الاحتفال بعيد الأمّ، في الزمن القريب، كان ذلك الشعب في آسيا الصغرى (تركيا اليوم) واسمه فريجيا Phrigia؟ وأنّ الفلسفات والأديان حضّت على احترام الأمّ والأب أيضًا، وبالوالدين إحسانا؟

إلى أن كانت ابنةٌ في الولايات المتحدة، اسمها آنّا جارفيس Anna JARVIS مولودة في ولاية فرجينيا ١٨٦٤، ما فتئت تسمع من أمّها، في أعقاب الحرب الأهلية (١٨٦٥-١٨٦١) التي أشاعت بانتهائها الكراهيّة بين الأسر التي تحاربت، وهي تردّد هذه العبارة: في وقت ما، وفي مكان ما، سينادي شخصٌ ما، بفكرة الاحتفال بعيد الأمّ، تعني أنه إذا عمدت هذه الأسر التي كانت تتحارب، إلى تكريم الأمّ، فإنّ ذلك يضع حدًّا للكراهية التي تملأ القلوب.

بعد أن توفيت هذه الأمّ سعت ابنتها، البارّة، إلى تحقيق ما كانت أمُّها تعنيه، فأخذت تُصرّح، وتخطب، وتكتب، داعيةً مَن حولها إلى تبنّي فكرة إقامة عيدٍ للأمّ، إلى أن وفّقت في إقامة أول احتفال بذلك يوم ١٢ مايو/ أيّار ١٩٠٧، وتابعت دعوتها إلى أن قام الرئيس ويلسون (يوم ٩ مايو ١٩١٤) بتوقيع إعلان جعل من هذا اليوم عيدًا قوميّا، حُدّد له يوم الأحد الثاني من شهر مايو من كلّ عام. ثمّ لم تألُ آنّا جهدًا في الدعوة إلى أن يكون هذا العيد عالميّا، وتحقّق ذلك قبيل وفاتها في العام ١٩٤٨.

في مصر تبنّت الصحافة الدعوة إلى الاحتفال بعيد الأمّ العربية، فكان أول ما أقيم في يوم ٢١ مارس/ آذار ١٩٥٦. وخرجت الفكرة إلى بلدان الشرق الأوسط، وما أسرع ما رأيتُ هذا في بلدي سورية! وما أحرصُ على تدوينه هنا أني دخلت الوظيفة الحكومية في أوائل آذار ١٩٥٧، رأيت الدائرة التي انتسبت إليها (الشؤون الاجتماعية والعمل بحلب) منهمكةً في الإعداد لهذا الاحتفال، يوم ٢١ آذار، اليوم ذاته الذي تحدّد في مصر. ثمّ شاءت الظروف أن أكون المسؤول في عملي عن الإعداد لعيد الأمّ العربية وليوم الطفل العالمي (أذكر أنه كان في

شهر تشرين الأول/ أكتوبر من كلّ عام إن لم تخنّي الذاكرة، وألتمسُ من الأصدقاء التصحيح).

ولن أدع الحديث عن عيد الأم دون أن أعترف بأنّ هذا الاحتفال هو الذي أوحى إليّ بفكرة روايتي "ثمّ أزهر الحزن". ذلك أني في استقبالي الأمهات للتحضير لعيدهنّ، واختيار أعدادٍ منهنّ، أمهاتٍ فُضليات وبينهنّ أم مثلى، كنت أتعرّف على مقدار ما عانينَ في حياتهنّ من المشقة وشظف العيش في تنشئة أبنائهنّ. ولقد وجدت كثيرًا منهنّ أمهاتٍ لأبناء وبنات، معلمين ومحامين ومهندسين وأطباء. ومن هؤلاء الأمهات ابتدعتُ شخصية الأمّ كوثر، التي رحل عنها زوجها مخلّفًا لها خمس بنات وجنينًا وَلَدَته فكان صبيًّا. وتسير الأحداث، عبر بضع عشرة سنة، تتخلّلها الأفراح والأحزان والدموع. حتى وقفت كوثر على المِنَصّة أمام الجمهور في احتفال عيد الأمّ لتسمّى أمّاً مُثلى.

وبعيدًا عن آذار عيد الأمّ العربية، قد كان يوم أمس الأول، الأحد ١٢ مايو، عيدًا للأمّ هنا في أمريكا. واجتمعت الأسرة، التي جعلتني الأيام عميدًا لها، في أحد البيوت الخمسة التي تسكنها فروعُ الأسرة، وقُدّمت الهدايا للأمهات الشابّات: ديمة وقمر وعافيت.

ولكن كان للأطفال، أحفادي وأسباطي، نصيبُهم من العيد، نزلوا إلى المسبح، في دفء النهار، يسبحون ويلعبون بطابة الماء، وقد تركوا فاضل الصغير على الحافة، يتناول منهم الطابة، ثمّ يتلقّى النداءات من السابحين والسابحات بأن يرميها لهذا أو ذاك، على حين جلس عبّودة الصغير جانبًا، يدلّي ساقيه في الماء، غيرَ مَعنيّ بالسباحة!

أجل. الأطفال هنا، ينعمون بالماء، غوصًا، وطَفْوًا، وتراشقا. وأنا، أنا أتذكّر الأهل في الوطن، وهم يصطفّون لملء آنية، يُطفئون بمائها ظمأ، أو يغسلون وجهًا ويدين.

مفارقة تبعث على ألمٍ يصل حدّ البكاء!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٢-٥-٢٠١٤

أركان، زوايا، منعطفات

في بلاد الشام

كلها تنعم بالدف، وتحضّ على الحب...

يريدون تدميرها!

فلوريدا: ضحى الثلاثاء ١٣-٥-١٤

زمن الاستباحة!

عندما وصل بسيارته إلى أمام باب المحلّ، في جورة الشيّاح بحمص، غداة انسحاب الجيش الحرّ من المنطقة، يرافقه ثلاثةٌ أشداء، لنقل البضاعة قبل أن تمتدّ إليها أيدي السارقين المتوقّعين، لم يفاجأ كثيرا لحظة رأى الباب مكسورًا والمحلّ منتهكا، وقد تخلّى لابسو الخاكي عن سلاحهم، فهم يحملون الآن كلّ ما تصل إليه أياديهم.

تجارأ واحتجّ.

فأشار عليه أحدهم بأن يحمل مثلهم ما يستطيع!

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٤-٥-٢٠١٤

حلب العظيمة!

أهالي حلب الغربيّة، البقية الباقية من سكانها الذين ما زالوا تحت خيمة النظام،

إنهم، في نظر الجيش الحرّ، موالون لم ينتفضوا على النظام!

وهم، في نظر داعش، بحكم المرتدّين، الذين يجب تطبيق حكم الشرع عليهم!

وهم، في نظر النظام، مهيَّؤون للانقضاض، فهو يُعِدّ لهم... إنْ فعلوها!

إنهم، في نظر الجميع، يستحقّون الحرمان من اللحم والشحم والفحم، ومن الخُضرة والوجه الحَسن، ومن الكهرباء والهاتف والإنترنت، ومن الماء الذي به يروون ظمأهم ويغسلون ويغتسلون.

يا حلب العظيمة، ما أروعك!

تتلقَّين الحرمان والدمار بيد، وتقتلعين باليد الأخرى السهام وتضمّدين الجراح!

فلوريدا: فجر الخميس ١٥-٥-٢٠١٤

جدّي.. الذي قَدِم من حمص

هل نَرْجِع، لحظاتٍ، إلى الخاصّ، فنستنشقَ عبير الآباء والأجداد؟

قُبيل بداية ثلاثينيّات القرن الماضي، أتيتُ أولَ الأحفاد لجدّي، القادم من حمص سليم المفتي السباعي، والمستوطنِ بحلب منذ حرب السفرْ بَرْلِكْ عام ١٩١٥.

كان، قبل مولدي، يسافر من حلب إلى بغداد في تجارة.

ثمّ في العشرينيّات وما بعدها، جعل يغدو إلى مصر، ستة أشهر فستةً أخرى بحلب. وبدا أنه لم يكفِه دفء الشتاء هناك، فاستزاد من دفء النساء بأن تزوج بمصريّة وأنجب، فإنّ لي في القاهرة أعمامًا وعمّاتٍ قريبين من عمري، وإنّ لهم اليوم أبناءً وأحفادا وأسباطا!

أعترف بأنّ إعجابي بشخصية جدّي يفوق إعجابي بأبي وأعمامي بحلب. فكان حزني عليه، يوم رحل عشيّةَ الإعلان عن نهاية الحرب العالمية الثانية، لا يُضاهيه إلّا حزني على أمي المتوفاة في صيف ١٩٨٢. رحم الله الجميع.

أجل. هي الدنيا، وإنْ رَحُبت، قريةٌ صغيرة.

وإنّ الزمان، وإن بَعُد، قريب.

فلوريدا: فجر الجمعة ١٦-٥-٢٠١٤

حُلُـــم!

في الصباح الباكر عنده، وفي ساعة الضحى عندها، كتبتْ له: إن كنت وراء الفيسبوك أحبّ أن أحكي معك، أستاذي.

كتب لها: أَرِقْتُ قبل قليل، فنهضت.

ـ حُلُمٌ راودني فجر اليوم، لم أنتظر حتى تشرق شمسكم. عندك وقت لأحكيه لك، أستاذ؟

ـ تفضّلي!

ـ كنتَ تقف على منصّة أمام جمهور تلقي محاضرة أخذتْ بمجامع القلوب. بعد أن نزلتَ التفّ حولك كثيرٌ من الحضور، وبينهم سيدات وصبايا، يسلّمون عليك ويتودّدون. وجدتُني أزاحمهم. حتى اقتربت منك!

ـ بس؟ مافيش حاجة تانية!

جاءه منها بعد صمت: يعني متل شو؟

ـ يعني.. وقفتِ بينهم تقولين: إنني شجّعتك على الكتابة، وأنّ المجلات بدأت تنشر قصصك برحابة صدر، وأنها حازت... وأنّ الأستاذ سوف يكتب مقدمة لها حين تُنشر في كتاب؟

ـ هـا!! الحقيقة.. اقتربتُ منك كثيرا، وسلّمت عليك بحرارة. كنت أفتخر بأنني أقرب منهنّ إليك.

فلوريدا: مساء الجمعة ١٦-٥-٢٠١٤

وتعلّمت الكتابة

هل نَمَّى المخيالَ الروائي عندي، في وقت مبكّر من حياتي، جدّي لأمي فايق سليم آغا الذي كنت أصغي إليه طفلاً وهو يروي الحكايا الغريبة، يستمدّها من واقع يعرفه مطعِّمًا إياه – كما تبيّنت فيما بعد– بخيال منه جميل؟

وقد تشجّعت على الحكي والقصّ وأنا أستمع إلى ابن خال أبي مراد مراد آغا الذي دأب على السهر عندنا، مقدّمًا لأبي وعمي –اللذين يُحسنان الإصغاء أكثر من إجادتهما الحديث– حوادثَ الأيام وأحداث الحياة، بحضورِ بديهة يسترعي الانتباه، وطلاقةِ لسان.

والذي حبّب إليّ الثقافة هو زوج عمّتي عطاء الله العيّاشي، الذي كان يُعرّج، وأنا برفقته أحيانا، على المكتبة العربية لصاحبها علي عرب، في أعلى جادة الخندق إلى يمين الصاعد، كي يختار كتابا، أقرؤه بعده، مثلا كتاب حبّ ابن أبي ربيعة وشعره، تأليف زكي مبارك.

وأما من زاد في ولعي بالقراءة وأغراني بالكتابة، فهو شابّ بسيط جدا وقرابتي له معقّدة شيئًا ما، فهو ابن عمّة أمي خالديّة خانم، التي كانت زوجة لرجل من الجند العثماني آثر أن يبقى عندنا بعد رحيل العثمانيين عن بلدنا في أعقاب الثورة العربية الكبرى ١٩١٦، اسمه مصطفى نوري، وهو بالأحرى ابن زوجها من زواج سابق، وقد كان عاملاً في معمل نسيج، يهوى المطالعة، وله محاولات بالكتابة متواضعة.

صحبني مصطفى نوري في يوم ماطر إلى السُّويقة، بجوار بيتنا القديم في زقاق الزهراوي، وكنا قد انتقلنا إلى حيّ الجميلية، مقترحًا عليّ شراء مجلة كان قد صدر حديثا عددها الأول في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٥، عن دار المعارف بمصر. سألَنا صاحب المكتبة العصرية

عبد الرحمن كيالي (وهو سِبْط الكواكبي العظيم)، فأفاد بأنّ هذه المجلة نلقاها عند بائع الجرائد جان كردي في باب الفرج (في الجزيرة التي أزيلت فيما بعد، مقابل سينما الشرقي). رأيت الرجل قابعًا في دكانة صغيرة جدا لا تتّسع إلّا له مقتعدًا كرسيًا. مدّ يده إلى أقرب الأرفف وناولني العدد الأول، وكذلك العدد الثاني الذي كان قد وصل إليه توًّا.

واظبت على قراءة مجلة الكتاب الراقية طوال المرحلتين الإعدادية والثانوية من دراستي، لم يفتني منها عدد. وزاد اهتمامي بها بعد أن غدوت طالبًا في جامعة القاهرة. وقد حرصت على زيارة دار المعارف، وتعرّفت على رئيس تحرير المجلة الشاعر عادل الغضبان، الذي رأيته بشوش الوجه وذا عينين زرقاوين، وهو سوريّ حلبيّ متمصّر.

أستحضر في خيالي اللحظة فرحة مصطفى نوري -الذي كان قد ارتقى في عمله إلى مرتبة ريّس- لحظة أطلعته على أول قصة نُشرت لي في مجلة الأديب اللبنانية، لصاحبها ألبير أديب، في عدد نوفمبر ١٩٥٣، فرحة استشعرت، بعد عشرين سنة، بما يماثلها وأنا أقرأ رسالة تلقّيتها من ابن عمتي منذر عياشي، الذي كان يدرس الآداب بجامعة مرسيليا، وقد سعيت لنشر أول قصة له في مجلة الثقافة الدمشقية، لصاحبها مدحت عكاش.

وأما أبي، الذي أرهقته تكاليف الحياة وهو مستمرّ في الإنجاب حتى التسعة عشر من البنين والبنات، فقد كان يشفق على ابنه وهو يراه منصرفًا في بعض الأماسي عن الدوام إلى مكتب المحامي الأستاذ، قابعًا في غرفته عاكفًا على الكتابة تحت ضوء محدود الانتشار. يخيّل إليّ أنه كان يتساءل مشفقًا عما إذا كانت هذه الكتابة تُطعم خبزا؟ ومرة تبسّط وسألني: هل أستطيع أن أكتب مثل قصة عنترة العبسي؟

رحم الله الذي ذكرتهم. لم يبقَ منهم من يمشي على الأرض خفيف الوطء إلّاي وابن عمتي الدكتور منذر.

فلوريدا: فجر السبت ١٧-٥-٢٠١٤

كلّ شيء مستباح

أسرة معارضة نموذجيّة

اجتاز الابن الأكبر أحمد الحدود إلى تركيا، بعد أن عرف أنه مطلوب للنظام بسبب نشاطه في الثورة التي بدأت سلميّة.

وكان أخوه محمد قد أُدخل السجن، فهو منذ عشرة أشهر ينتظر محاكمة مستحيلة.

أمسكوا الابن الثالث سالم رهينة كي يستسلم أخوه أحمد.

وكانت أسرة أحمد، زوجته والولدان، قد نزحوا إلى بلدة قريبة حيث يأوي أهلها. سقط عليهم برميل من السماء، فكانوا في عداد من قُتلوا.

سالم تحت التعذيب مات.

لمّا دخلوا بجثمانه بيت الأب، سقط مغشيًّا عليه ومات. والأمّ أصيبت بشلل نصفي.

وكان قد قُدِّر لثلاث من الشقيقات أنهنّ يعملنَ مع أزواجهنّ خارج الوطن، حملوا الأمّ إلى تركيا عند ابنتها ماريّة، التي أصبحت تعلّم العربيّة في إحدى الجامعات.

زوجة محمد وابنها، امتنع عليهما الالتحاق بالشقيقة رَهَف في الخليج، لتقليصهم هناك عدد من يستقبلون من أبناء الوطن المنكوب، فتوجَّها إلى مصر عند الشقيقة الثالثة شَغَف، التي أصبحت مطلوبة للأمن في وطنها، منذ وصلهم أنها تمارس أعمالًا إغاثيّة.

تبقى الشقيقة الصغرى ميّادة، التي تتابع دراستها الجامعية في الوطن، اغتصبوها في ليلة قمراء ورموها معطوبةً، فحملها الطيّبون إلى شقيقتها الكبرى في تركيا.

الموالون، في شماتتهم، يقولون: بيستاهلوا! بدهن حرية؟ هَيْ حريّة!

بعض الغُربان، من بعيد، ما زالوا يرسلون تغريداتهم: مؤامرة كونية! دون أن يُبيّنوا، أو يَتبيّنوا، مَن هم الذين تستهدفهم المؤامرة؟

فلوريدا: فجر الأحد ١٨-٥-٢٠١٤

كلّ شيء لهم

أسرة موالية نموذجيّة

على خطا الأب مشى الابن، إلى حيث تتألّق على الأكتاف الأنجم. وكانت الطريق ممهّدةً للبنت يوم أحبّت الطبّ. وإذا كان قد خذلها المعدّل فإنّ الدعم سوّى ورمّم! وكذلك الابن الثاني الذي أراد الهندسة، على حين فضّل الابن الأخير أن يدخل الحقوق قبل أن يتولّى القضاء تحت سيف النجوم ولألائها!

جيلٌ جديد نشأ في الضاحية، ما أسرع ما استطاع أن يتآلف مع أبنائها، يجلسون في مدرسة الحيّ على مقعد واحد، يلعبون الكرة في الشارع، ماسحين عرق الجباه بأصابعهم، نافضينه في الهواء، يتقاسمون الصندويش، ويتخاطفون أكياس البوشار، ومعًا إلى المسابح يذهبون، وإلى المسارح والمنتديات الليلية.

تجاوزت منازلُهم إلى أن تصبح قصورًا صغيرة باذخة، تنبعث منها الأنوار والألحان في الليالي الملاح وغير الملاح. يستبدلون بسياراتهم القديمة مطلع كلّ عام أخرى مستحدثة. غرفٌ خشبية مرتجلة، تُسمّى كولَبًا، مزروعة على الأرصفة العريضة، تتّسع لأَسِرّة يهجع فيها الحرس المتناوبون.

وجاهات، بُلَهنية عيش، أسفار هنيّة، وسفارات سخيّة.

و... عيون الضاحية، في كلّ هذا، تشهد. ولم يخطر لأي منهم أن يتساءل: من أين؟ فمعروفةٌ مقدرتُهم على أن يرفعوا أناسًا على الأعواد، وأن يُجنّبوا كذلك الصعود إليها. ولكلّ شفاعة أتعابُها.

لمّا هبّت الرياح، أيها الأصدقاء، وتحوّلت إلى سكود، وبراميل، وكيماوي، عبّر صغارهم لأولاد الحارة: «أنتم تريدون أن تذبحونا! »، وانعزلوا عنهم، فأدخلوهم في متاهات من خوف!

وبعض العربان تصلنا أصواتهم من بعيد: مؤامرة دولية!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٩-٥-٢٠١٤

مغتربون... وعلى الأدب نلتقي

مروة حلاوة شاعرة فيها فيض من الحلاوة والعذوبة في شعرها وفي شخصها، ومحمد منذر لطفي، زوجها، مُتْرع القلب بالودّ الصافي بعد إبداعه في الشعر أو قبله.

هذه القصيدة التي شاء لطف الشاعر لطفي أن يُسمّيها «بطاقة حبّ.. لفاضل السباعي»، كان قد ألقاها في حفل أقيم بمناسبة صدور الطبعة الثالثة من روايتي ثمّ أزهر الحزن عام ١٩٩١ في المركز الثقافي العربي بأبو رمّانة بدمشق، أدارته الشاعرة الدكتورة مها قنّوت.

والقصيدة هي التي عنيتُها في خاطرتي: ديوان وقصيدة (٢٨-٤-٢٠١٤)، ديوان ما زال مغيّبًا، وتنزل قصائده اليوم في صفحة الشاعر.

للشاعر منذر الثناء على عنايته بأدبي الروائي، وللشاعرة مروة جزيل الشكر لأنها أيقظت القصيدة من رقادها، فبعثت بها، عبر صفحتها، من الوطن إليّ وأنا في مغترَبي.

مغترِبين أصبحنا، ولكننا على الأدب نلتقي.

فلوريدا: صباح الإثنين ١٩-٥-٢٠١٤

ورأيت مياه النهر.. مختلفة!

هممتُ بأن أجتاز الشارع من الرصيف إلى ضفّة النهر، كي أستمتع بمرأى المياه التي تتدفّق في المجرى في يوم الربيع ذاك.

وقفت، ورِجلٌ مني في أرض الشارع وأخرى ما تزال على الرصيف، أرقب انقطاع سيل السيارات القادمة من الجسر الأبيض باتجاه ساحة الروضة.

فجأة، أحسست جسمًا ثقيلا يضربني بجانبي الأيمن. نظرت: سيارة كانت تصفّ بحذاء الرصيف، تحرّكت إلى الخلف ببطء فصدمتني! رفعت صوتي مندّدًا، أجابني صاحبها، من مكمنه، مستاءً: «مانك شايف؟». فلم يغب عني أنه رجل أمن، ينتسب إلى الفرع المجاور لبيتي، رأى فيّ هيئة خواجا، ضحيّةً سهلة تستأهل المناحرة والمناجزة! وخرج إليّ.

لم أسكت، تابعت احتجاجي بشدّة، فهدّدني: «باخْدَكْ ع الفرع، ها!»، رددتُ عليه بصوت أعلى: «أنا باخدك ع الفرع!». هدأ، تأمّلني، ثمّ دخل سيارته، يقودها إلى أمام.

هو قصد فرع الأمن القريب الذي يعمل فيه جلاّدًا، وقصدت أنا فرع اتحاد الكتّاب، الذي شاركت عضوا مؤسّسا فيه، وهو ما زال يسومني -فلست من الكتّاب الموالين- سوء العذاب!

اجتزت إلى الضفّة، وأنا أضحك من نفسي: قال فرع الاتحاد قال!

وأذكر أني رأيت مياه النهر مختلفة في ذاك الربيع.

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٠-٥-٢٠١٤

وكان الدكتور رفعت.. طليعةَ الكتّاب!

في مطلع الثمانينيات صدر عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، كتاب -دليل ضمّ أسماء الأعضاء المنتسبين، ولاحظنا أنّ اسم الدكتور رفعت يتقدّم جميع الأعضاء. ثمّ كان أن غاب هذا الاسم في طبعة الكتاب اللاحقة، من بين الأعضاء السوريين والعرب، الأحياء منهم، والراحلين عن الوطن، والراحلين من الحياة!

ولسنا نرى لومًا، في إدراج الاسم، يُوجّه إلى أعضاء الاتحاد بمجموعهم، ولا إلى الكاتب المأمور الذي حرّر الكتاب.

ولكنّا نتساءل: كيف وافق رئيس الاتحاد، الذي قاده بجفنٍ لا يرفّ، طَوال ثماني وعشرين سنة (من١٩٧٧-٢٠٠٥)، على تبنّي هذه الكذبة التاريخية، ونراه اليوم مُسبلاً جفنيه وكأنه في غيبوبة!

فلوريدا: ضحى الأربعاء ٢١-٥-٢٠١٤

مدينة.. على أطلال مدينة

بصعوبة اجتاز الحواجز، حتى وصل إلى محلّه، في المناطق التي انسحب منها الحرّ في مدينة خالد بن الوليد، وغمره الفرح أن وجد باب المحلّ سليمًا، على حاله، لم تمَسَسْه يدٌ بسوء.

كان عليه أن يستأذن هناك لنقل المحتويات. أسرَع. سأله الضابط عن موقع محلّه، ثمّ تركه وحيدًا وغاب، ليعود وفي يده ورقة بالسماح له بالنقل، موقّعةً حسب الأصول ومختومة باللون البنفسجي!

لما وصل رأى النيران تشتعل في محلّه!

جعل يتحدّث إلى أصحابه: «صدقًا، يا جماعة، أنا لم يُحزنّي كثيرا أن أرى رزقي يُحرق أمام عيني، ولكنّ ما يُدمي القلب إدراكُنا أنهم عازمون على أن يبنوا مدينةً أخرى على أطلال مدينتنا، التي يستبيحونها بالقتل، والحرق، والاغتصاب، والتهجير، والتدمير! ».

ولم تدمع له أو لهم عين، فإنّ الخطْب أعظم.

فلوريدا: مساء الأربعاء ٢١-٥-٢٠١٤

والمصاحف.. ما أخدوها!

أستاذي الكريم،

اليوم بالمصادفة، وأنا برفقة أبي بالسيارة [في إحدى دول الخليج]، قرأت خاطرتك "مدينة على أطلال مدينة" فدمعت عيني، وقرأتها على أبي فقال: «هذا كاتب. قرأت له كثيرا في المجلات العربية».

أبي، يا أستاذ، قارئ يعجبك. في بيتنا الذي كان بحمص مكتبة كبيرة، مئات الكتب، وآلاف المجلات، ومجلدات مطبوع عليها اسم أبي بماء الذهب. تربّيت على المطالعة.

هل تصدّق أستاذ؟

عندما دخلنا بيتنا بعد غياب رأينا أنهم أخذوا كل شيء. سامحني رح أحكي بالعامية شوي. أخذوا غرف النوم، الضيوف، ألعاب الأولاد، المكيّفات قلعوها، البرادات شالوها، المطبخ فضّوه عن آخره حتى الخزن نزعوها وحملوها. تركوا بيتنا منهوب ومدمر!

بس تركوا المصاحف القرآنية، ولوحة كبيرة بالصالون للكعبة المشرفة، مقابلها لوحتين «الله» و«محمد»... كأنهم بعثوا لنا رسالة: خلّوا هدول ينفعوكن!

استأذنتُه في أن أنشر كلماته! قال: «شكرا. بس أرجوك لا تذكر اسمي».

فلوريدا: فجر الخميس ٢٢-٥-٢٠١٤

وقد يخاف المثقفُ على المثقف!

ألأنني وُفّقت في أن أعبّر عن مشاعرهم في هذه الأيام الظلماء، تأتي إليّ أنداء تكتب فجر اليوم: «أجمل الصباحات هي التي أزور فيها صفحتك، أستاذي الكريم.

أنت وصفحتك وأدبك العسلُ، أشتارُه[1] مثل نحلة من عطر روضتك النديّة، منذ أن أفتح عينيّ على نور الصباح. حفظك الله، وردّك إلينا سالمًا غانمًا».

وعندما رجعت إلى ما سبق من رسائلها، هذه المثقفة، الفلسطينية الجنسية، السورية الهوى، التي تُعرّفني بشخصها فتقول: «وُلدت وتربّيت وما زلت في سوريا. درست المرحلة الجامعية الأولى، وأُعِدّ أطروحة دكتوراه قاربت النهاية»، لمست عندها خوفًا عليّ عبّرت عنه – وأنا ما أزال أرسل من دمشق خواطري الساخنة- مغادرةً التلميح إلى التصريح: «سيدي، أعتذر إن كان كلامي خارجا عن صلاحيّاتي. أنت اسم معروفُ الشخصية والهيئة والسكن، في دولةِ مَن لا يَعنيهم كبير ولا صغير. أفلا تخشى على نفسك؟ فإنّا والله نخشى عليك».

يرجع تاريخ هذه الرسالة إلى أيام كنت فيها أحزم حقيبة تغَصّ بالدفاتر والأقلام والفِكَر متأهّبًا للسفر، وما تأتّى لي يومئذ أن أتوقّف عندها. ولكني ألاحظ، اليوم، أني أجبت عنها بعد أيام، والطائرة تحلّق بي فوق المحيط الأطلسي (ظهيرة الإثنين ٧-١٠-٢٠١٣)، قلت:

واللهِ

ما فارقتك، يا وطني

---

(١) أجمعُه من خلاياه.

خوفًا من عيونهم المبثوثة

ولا رهبًا من سيوفهم المسلولة

ولكن

لأنّ الأسرة التي أنشأتُها

على مدى نصف قرن ويزيد

قد رحل أفرادُها في كل اتجاه

ولم يبقَ لي بدمشق

مَن إذا انتابني وجعٌ

يمّد إليّ يده بكأس ماء».

لك كلّ التحايا الزكيّة، يا متألّقة الفكر، متأجّجة المشاعر، مفعمة الإحساس بالوطنية والإنسانية. يا من تتسمّى أنداء الصباح!

فلوريدا: فجر الجمعة ٢٣-٥-٢٠١٤

التدجين!

كنت كلما زرت بلده والتقيت به، يقول لي: «الشباب بدّنْ يشوفوك! ».

وذات سَفرة تصيَّدني. وفي السهرة التي رتّبها في بيته، لم أجدهم شبابًا بل كهولًا قد وخطَ الشيب أفوادَهم وأسقطت السِّنون شعورهم. ولكنّ ما لاحظته أنهم كانوا جميعا ينتسبون إلى الحزب الحاكم، خلافا لصاحب البيت. وأنا الذي يعرفون أنه اتّخذ في أدبه القصصي، فنًّا آخر منذ آذار المعلوم: أني أنقد الظلم وأشهّر بالظلام، موشّحًا ذلك بكثير من الفانتازيا، التي تُمكّن القارئ من إدراك مغازيها، ولكن تجعل الرقابة تتردّد في أن تمنع دخولها عبر المجلات العربية،

أو أن تمنعني من نشرها بكتب في الدار التي أنشأتها لهذا الغرض.

ما استرعى انتباهي أنّ أشواق الكهول للاجتماع بي، كان مردّها إلى رغبتهم في أن يبوحوا لي بما يعانونه هم من هيمنة فئات في الحزب عليهم، وأيضًا ما يكتوي به الشعب من ممارسات الحزبيين المتسلّطين. حتى خُيّل إليّ، علمَ الله، أني مرجع في هذا الشأن! وكانوا، إذا استفاضوا في البوح وتكلموا خطيرا، خفضوا الأصوات.

صدّقوني، أيها الأصدقاء، أني لم أستغرب هذا. فإني أعرف ما تكنّه غالبية المنتسبين من المشاعر الحقيقية نحو الحزب، فهو استمالَهم، أعطى وأغدق، وتأتّى له أن يُدَجِّن، ولكن ظلّت في النفوس ثغراتٌ تهجع فيها الحقيقة متطلّعةً إلى البوح دون أن تجد لها متنفّسا. فهل توقّع هؤلاء الرجال أن يجدوه عندي؟

قلت: لم أستغرب استفاضتهم في الحديث، ولا علوَّ الأصوات وانكماشها، وكذلك لم أستغرب، فيما بعد، أنّ واحدًا منهم استُدعي في أوائل الربيع إلى العاصمة، وقَبِل أن يتسلّم منصبًا في هذا الزمن العصيب، فإنّ للاستمالة جَناها: التدجين، أيها السادة!

ذات يوم صادفت في طريق واحدا من أولئك. لم أحقّق توقّعه بأن أسأله عن ذلك المنشقّ عنهم! ولكنه هو مال عليّ ليهمس بصوت رأيته حزينا: «شايف؟ الله يسامحه! خَذَلنا«.

فلوريدا: فجر السبت ٢٤-٥-٢٠١٤

أهلا وسهـلا

يقولون: لماذا تعارضون وأنتم في الخارج؟ تعالوا عارضوا في الوطن!

وكأنما يغيب عن الأذهان أنهم يريدون لهم الموت في أقبية التعذيب!

يقولون لساكني الخيام: لماذا غادرتم بلدكم؟ عودوا إلى الوطن وأقيموا في منازلكم

هانئين!

وذلك حتى يكونوا ضحايا سهلة للبراميل التي تتساقط على رؤوس المواطنين!

فلوريدا: مساء الأحد ٢٥-٥-٢٠١٤

جَلَبة في ساحة التنفُّس!

جعلوني وحيدا في الزنزانة رقم١ في الطابق العلوي، ومنعوا عني الخروج للتنفّس، فإني حديث الاعتقال!

ولله كم كنت أحسد السجناء السياسيين الأقدم، الذين أسمع، عبر الكوّة في أعلى الجدار، عند الساعة الثانية عشرة ظهيرة كلّ يوم، أصواتهم وهم يتحرّكون في باحة التنفّس مدة ثلاثين دقيقة، يتمشّون خلالها، تعلو منهم الأصوات، الكلماتُ المكرورة والضحكات المقهورة. كانت جَلَبتهم هي كلّ ما يربطني بالعالم الخارجي!

إنهم الثلاثة والعشرون مثقفا، الذين عُرفوا بمعتقلي النقابات المهنية (محامين، مهندسين، أطباء)، الذين لبثوا في السجن سبع سنين دون محاكمة، لم يخرج منهم في أثنائها إلّا واحد أتاحوا له أن يموت بمرضه العضال بين أفراد أسرته (هو المهندس ع. م. أ. ش).

فلوريدا: صباح الإثنين ٢٦-٥-٢٠١٤

وضرب صاحبي جبهته بكفّه وقال!

يوم طالني الاعتقال قبل ثلاثين سنة ونيّف، لسبب أدبيّ متماهٍ مع السياسة، أخذ صاحبي يحفِر لي ويُعمِّق، أملاً في أن يُزيلني من الطريق منافسًا، مع أنّ طريق الأدب عريضٌ يتّسع. وفي تلك الأيام -كما الحال دائما- «الداخل مفقود والخارج مولود!».

لم ألبث، لسوء حظّه، في الاعتقال إلّا قليلاً، لا لعدالة مسألتي، ولكن لأنّ النظام جرى

يومئذ على أن يخشى المنظّمين في سجلات الأيديولوجيات ولا يهتمّ كثيرا بالذين يُبربرون خارج السِّرب.

لما علم صاحبي أني ما زلت على قيد الحياة والحرية، ضرب -وهو في المقهى بين أصحابه- جبهتَه بكفّه ضربًا هيّنًا وقال: «العمى! بكرة بقول: ناضلت وناضلت!»، فبعثت إليه من يحمل قولي: «حتى على هذه تحسدني!».

وظلّ هو أعمى القلب والقلم، وظللت بَصيرَهما.

هو يراني عاثر الحظّ قليل حيلة، وأنا أراه واسع الحيلة مختالا.

وعلى هذا لا نزال.

فلوريدا: مساء الإثنين ٢٦-٥-٢٠١٤

لو دمعةٌ.. أو كلمة حزن!

ما زلت أذرف أدمعي وأعبّر عن أحزاني على الشهداء الذين يتساقطون مثل أوراق الخريف هنا وهناك، فكلُّهم إخوة لنا في الوطن وأبناء.

وأعترف بأني أشتهي أن أرى نصيرًا واحدا للنظام يذرف دمعة على الأبرياء الذين يموتون بالبراميل المتفجّرة، يرميها من علٍ مستهترون بالوطن وبالقيم الإنسانية، أو أن يُعبّر آخر بكلمة حزن على ملايين المهجّرين، الذين يهيمون على وجوههم في أنحاء البلاد، أو يجتازون الحدود إلى خيام الذلّ، أو يمضون بعيدًا ليغيبوا في زحمة المجهول!

فلوريدا: فجر الثلاثاء ٢٧-٥-٢٠١٤

الذي جمع الفكر من أطرافه!

إذا جلس مع الشيوعيين حدّثهم: ومن يُنكر أنّ الشيوعية لم تَدَع في مجتمعاتها عاطلاً عن العمل إلا شغّلته!

وأمام القوميين السوريين يعلن إعجابه: يا أخي، إنها سلسلة من الحضارات استمرّت في بلادنا، قبل مجيء الإسلام، آلاف السنين!

وفي مجالس القوميين العرب: ويمكننا اعتبار فتح العرب للعالم، خلال خمسين عاما، معجزة المعجزات. ولولا ذلك بأيّ لغة كنت أكتب اليوم؟

وأمام الإسلاميين: بالاختصار، أنا ابن شيخ جامع يؤمّ الناس بالصلاة!

ولم يختلف إلّا مع ذلك الأكاديميّ المستنير، الذي طالب بالإصلاح السياسي والاقتصادي في الوطن، فقال في حقّه أمام جمهور التلفزة: هذا مجنون موضعه مستشفى الأمراض العقلية! ثمّ اكتفى بأن اعتذر عمّا قال في مجلس خاص.

فلوريدا: فجر الأربعاء ٢٨-٥-٢٠١٤

مدارس.. لأبناء الشهداء

لو أنّ معجزة تقع

فتدخلَ الرحمة إلى قلب النظام

ويتوقّف عن قتل الناس

ويتّجه إلى أن يُنشئ مدارس ترعى أبناء الذي قتلهم.

إذن

لتحوّلت المدارس كلُّها، في طول البلاد وعرضها

إلى مدارس لأبناء الشهداء!

فلوريدا: ضحى الأربعاء ٢٨-٥-٢٠١٤

ومن بين أيدينا.. يُسرق الوطن!

قبل بضعة عشر عاما، صَحِبَه قريبُه إلى بيتي بدمشق: «هذا ابن عمّي، بعثيّ مثلما كنتُ، مُغمِّض، فَتِّحْه إن استطعت! ».

كان صديقي قد جاءني قبل سنوات من ذلك التاريخ، وحيدًا، يتعرّف، وهو خريج جامعة، قد امتلأ عزمًا على المساهمة في بناء الوطن بالقلم الذي في يمينه. وأذكر أنه بعد تخرّجه قرع الأبواب، وهو البعثيّ من أيام الطلائع، طالبًا العمل فلم يجده، على حين كان يرى الوظائف تُقدَّم إلى رفاقٍ له على صينية من ذهب، فأدار ظهره للحزب وللحزبية، وغادر، ساح وكافح ونجح.

ولكنّ ابن عمّه، المتخرّج حديثًا أيضًا، الذي جاءني به لأُفتّح عينيه، كان موعودًا بعمل، وبدا الأفق أمامه متّسعا، فحماسته للحزب، وهو في عهد الشباب الأول، كانت فائقة. إلّا أنّ عينيه، في صعود نجمه، كانتا تتجوّلان: لمّا ضربوا بالنار المظاهرات السلميّة تألّم، فلما أعملوا الحديد في رقاب النائمين ليلا، وجعلوا يُسقِطون الصواريخ في وضَح النهار على الآمنين في بيوتهم، قال لحماسته، لقناعته: قفي! وفي ظلمة ليل، محتضنًا أسرته الصغيرة، ودّع الوطن مجروح الفؤاد، سائحًا في الكون.

قبل أيام فاجأني بأن شارك، من مهجره، في خاطرة لي، وشاء له وعيُه، المزدان بالألق، أن يُضمّخها بعاطر من ثناء، أتجاوزه إلى قوله: «... فأنت أول من شعر بأنّ الوطن يُسرق من بين

أيدينا! ».

فلوريدا: فجر الخميس ٢٩-٥-٢٠١٤

أمنيات طيّبة.. من محامية مؤيّدة

في مناقشةٍ اليوم على شبكة التواصل في منتدى ثقافي متميّز، حول إجراء خطير يُلوِّح النظام باتخاذه (قيام الدولة بتأجير المنازل الشاغرة، بغياب أصحابها في الخارج)، رأيت بين المنتدين محاميتين ترحّبان بهذا الإجراء لدواع إنسانية وشرعية! (وينسون الأطفال واليتامى والأرامل والجوع والتشريد!).

وفي تفنيدي هذه الحجج (ولم يفتني أن أشير إلى الموقف الدقيق من الحكومات السورية المتعاقبة من أملاك اليهود الغائبين)، وصفتْ إحدى المحاميات نفسها بأنها في المحاماة ما تزال ناشئة، واستدركت: ولكنّ «الحَجر الصغير... » ولم تُكمل! ثمّ بعد احتدام النقاش قالت: «الواضح أنك مو هون لنقدر نتفاهم بكامل المنطق»! وعبّرت عن ظنّها: «أنت لم تتعلم القانون السوري! ».

- في مسألة الحجر رددتُ: «أفهم أنك حجَر صغير ولكن يفجّ! ».
- وفي الثانية قلت: «تريدين أن أكون أمامك، أعرف لماذا. يا للاستقواء! ».
- وفي الثالثة: «قد عملت محاميا يوما، قبل مولدك».

أسرعت تُبرّر: «أستاذ قصدي بالبلد: ع الأرض، ومو متل ما حضرتك فكّر (وكأن الحوار في الشبكة يستوجب وجود المتحاورين على أرض واحدة. وحذفتْ...

أقول: لم تحذف من أقوالها ما يتعلق بتمنّيها أن أكون ع الأرض، بل ما يتعلق بالحجر الصغير الذي...!

وكان ختام ما كتبتْ: «الله يحميك لعيلتك ولحْبابك»، فتمنّيت: «آمل أن تكون هذه الدعوة صافية».

يقمعون مَن هم في الداخل، ويُلوِّحون بذلك للبعيد. وممّن؟ من أنثى رقيقة تعمل في مجال الحقوق الإنسانية!

فلوريدا: مساء الخميس ٢٩-٥-٢٠١٤

والطير يرقص

عجبتُ، ويَعجب كلُّ امرئ

من نظام

ما زال يقصف البيوت

ويدكّ الحارات والقرى

التي كان كثيرٌ أو قليلٌ من أبنائها

منتسبين موالين

ثمّ يَتوقّع منهم

أن يَدبكوا في الساحات العامة ابتهاجًا!

أم أنّ النظام يدرك

من البداية

أنّ الناس ليسوا على شيء من ولاء؟

فلوريدا: صباح الجمعة ٣٠-٥-٢٠١٤

انشــقاق

يوم عرفوا أنها تُضمر الانشقاق، وتتأهّب لمفارقة الوطن، دعاها كبيرُ الأمنيّين إليه، وبكلمات معسولة أبلغها أنّ عندها صبيَّين وبنتا!

فكان أن ذهبت بأولادها الثلاثة، يدًا بيد، رِجلاً برجل، حُضنًا بحضن، مجتازةً الحدود تحت جُنح الليل، مخاطرةً بالحياة، إلى عالم المجهول!

وهم أخذوا الزوج، غير المنشقّ، رهينةً!

فلوريدا: ظهيرة الجمعة ٣٠-٥-٢٠١٤

إســلام ومسيحيّة

أفرحُ عندما أقرأ تأييدًا تخطّه يدُ واحد من أبناء وطني المسيحيّين، وأحزن حين أرى آخرين ينحازون.

وما زال في خاطري ذلك الهتافُ الذي صدحت به الحناجر في ثلاثينيّات القرن الماضي: «بدْنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحيّة! ».

ذلك الحين، الذي انهارت فيه آخر الدُّويلات، التي أراد الانتداب الفرنسي أن يمزّق بها أوصال الوطن، بعد سايكس بيكو التي شطرت البلاد إلى شمال وجنوب!

فلوريدا: فجر السبت ٣١-٥-٢٠١٤

نادل في مقهى

قدّموه مديرًا. اعتزّ به أبناء ضيعته، فأقبَلوا.

ولكنه لم يتمالك نفسه يوم تحرّكت أنسام الربيع، فعاقبوه بأن قصفوا منازل أهليه وما

جاورها. وكان نزوح، وبعيدًا عن الوطن.

بدا مؤهَّلاً لأن يعمل في مقهى. إلى أن ابتسمت له الظروف، فأُخِذ إلى الجامعة يُدرّس العربية، وفي البيت يعطي دروسًا بالإنكليزية.

ذات يوم، جاءه رجلٌ يرافقه ابنُه. تذكّر الأب أنه لمح هذا الوجه يومًا. فأقبل يعانقه، وامتزجت الدموع، والفتى المذهول يشهد.

فلوريدا: فجر الأحد ١-٦-٢٠١٤

إنّ التعبير عن الفرح

عند نزول قذيفة على آمنين في بيوتهم

والإعلان عن أنّ هؤلاء إرهابيون

ذلك يعني

أنّ النظام قد أفلح في أن يُغيّر في الهندسة الوراثيّة

في عقول بعض البشر!

فلوريدا: ضحى الأحد ١-٦-٢٠١٤

لُغَتي.. والمفتي حسّون

في صيف ١٩٩٨، عُقد قران بنت من بنات إخوتي بحلب على ابن واحد من أبناء المسؤولين فيها، ولأنّ أخي، والدها، متوفًّى، فقد كان عليّ أن أتولى أمر الزواج بصفتي الوليّ الشرعي لها. دُعي إلى الحفل خلقٌ، ومنهم مسؤولون رأيتهم يتصدّرون المكان بجلوسهم وراء طاولات مصفوفة.

ما أودّ أن أرويه هنا أنه، لحظة عقد الزواج الذي يحرّره مأذون مكلّف من قبل المحكمة الشرعية، كان علينا أن نتحلّق -هو وأنا ووالد العريس- حول طاولة، وأمامنا مكبّر للصوت، ليكون توقيع العقد على مسمع من الحاضرين ومشهد.

النكتة أنّ المأذون، الذي ينطق -حسب العادة- بالعبارات الشرعية ويكون عليّ أن أكررها بعده، كان يلفظها ملحونة متجاوزًا فيها قواعد النحو التي أعلم، فكنت، وأنا أردّد ما يقول، أنطقها سليمة معافاة، وما كان هذا ليخفى على السامعين الذين يفقهون اللغة.

بعد الانتهاء وقراءة الفاتحة على نيّة التوفيق، تعيّن عليّ أن أمرّ بصفّ كبار المدعوّين كي أتلقّى المباركة، فكنت أسير أمامهم وأحيّي باليد... ولكنّ مفتي حلب يومئذ، الأستاذ أحمد حسّون، وهو المتكلم الحاذق، شاء أن يستوقفني ليقول: «أديب، أستاذ السباعي، لا تَدَعُها تمرّ! ».

فلوريدا: ضحى الإثنين ٢-٦-٢٠١٤

يا إلهي!

صار شعارنا: «عائدون»!

فلوريدا: ظهيرة الثلاثاء ٣-٦-٢٠١٤

مَن يذبح مَن؟

صديق، بيني وبينه مودّة قديمة، يسألني: يا أخي! ساعة أجلس إليك لا أرى منك إلّا المحبّة وإلّا الودّ الصافي الذي جمع بيننا منذ سنوات، وكذلك عندما أجلس إلى أصدقاء مثل إحسانك. طيّب، لماذا ساعة أجالس جماعتي أراهم يعبّرون عن مخاوفهم من أنكم إذا تسلّمتم الحكم سوف تذبحوننا؟! ».

فلوريدا: مساء الثلاثاء ٣-٦-٢٠١٤

في ليلة ليلاء من صيف ١٩٤١

في حزيران ١٩٤١، دخلت البلادَ، سورية ولبنان، قواتُ الحلفاء البريطانية والفرنسية التابعة للجنرال ديغول.

وما أذكره أننا، في منتصف ليلة من ذلك الشهر، عرفنا أنّ طائرة حليفة اخترقت المجال الجوي لمدينة حلب، وألقت قذيفة على موقع محتمل يعود لقوات دول المحور (الذي كان يتشكّل من إيطاليا وألمانيا وفرنسا حكومة فيشي، بالإضافة إلى اليابان). ومع الدّويّ الهائل الذي أحدثه سقوط القذيفة، تجمّع أفراد الأسرة البضعة عشر، ونصفهم من الصغار، في بيت الجدّة أمّ رئيف، وأخذنا نردّد: «يا لطيف، يا لطيف، يا لطيف...»، إبعادًا للأذى عنّا واستدعاءً للطف الله.

في اليوم التالي رأيت في أبي (وكان له من العمر أربعة وثلاثون عاما) حرصًا على أن يذهب إلى حيّ العزيزية الذي عُرف أنّ إحدى القذائف نزلت فيه، متيحًا لي مرافقته. لم تسقط القذيفة حيث أرادوها على القنصلية الإيطالية، بل على مبنى قريب منه، ما جعل أبي يُخمّن أنّ الطيار كان في حالة سُكر. واليوم أقول: بل إنه لم يكن يملك الأسلحة الذكيّة التي ابتكرتها أمريكا في نهاية القرن!

تلك كانت ليلة ليلاء لم تغادر ذكراها خاطري، وأنا في الثانية عشرة من عمري. فما حال أهالي حلب اليوم، وهم يتلقّون، ليس من دولة أجنبية، لكن من حكامها الوطنيين، وليس قذيفة أو اثنتين، بل قذائف السكود غير الدقيقة، والبراميل المتفجرة التي تتساقط، منذ سنة اثنتين ثلاثًا، ليس على قنصلية معادية، بل على رؤوس المواطنين الأبرياء. وذلك إضافة إلى

الحرمان من الكهرباء والماء والخبز، وقبل ذلك افتقاد الأمن والأمان!

فلوريدا: صباح الأربعاء ٤-٦-٢٠١٤

طلاب شعراء

كانت المشاعر الوطنية في ذروتها، وأنا -في أربعينيّات القرن الماضي- تلميذٌ في مرحلة الدراسة الإعدادية في ثانوية المأمون بحلب. أجّجها أنّ الاحتلال الفرنسي قد طال أمده (خمسا وعشرين سنة!)، وأنّ الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها في شهر أيّار/ مايو ١٩٤٥، فأثار ذلك المطامح في نفوس السوريين للتعجيل في نيل الاستقلال. وكان من شأن ذلك أن تحرّك الإبداع الشعري عند الموهوبين من الطلاب في مدرستنا التي كانت تضمّ المرحلتين الإعدادية والثانوية معًا، فأخذوا ينظمون القصائد، ويلقونها أمامنا، فيزيدون من حماستنا الوطنية.

فلما وقع الاعتداء الفرنسي على البرلمان في العاصمة، يوم التاسع والعشرين من أيّار ١٩٤٥، تلته اعتداءات وحشية أخرى على أحياء بدمشق، لم يكتفِ الطلاب الشعراء بإلقاء قصائدهم أمامنا، بل أخذ كلٌّ منهم يذهب بقصيدته إلى المطبعة، ليعود بها في شكل منشور، يقوم بلصقه على جدران الشوارع العامة. وكان أبرز هؤلاء الطلاب الشعراء أنور الزعيم وعبد الرحيم مَزِيد، وهما يتقدمانني في العمر والدراسة.

أذكر أني، وبعض رفاق المدرسة، كنا عصر يوم عند موقف الترامواي في مبتدأ شارع إسكندرون بحيّ الجميلية، فرأينا منشورا من ذلك للطالب الشاعر أنور الزعيم ملصقا على عمود كهرباء، فوقفنا نقرأ القصيدة. وما زلت أحفظ من مطلعها هذين البيتين:

يا فرنسيين اخرجوا من أرضنا، لا تزعجونا

فلقد مللنا قربكم وبقاءكم فينا سنينا

واتفق أن حضر تلك الساعة الطالب الشاعر الآخر، عبد الرحيم مزيد، فحدَّث بأنّ في أول القصيدة خللاً في الوزن، تصحيحُه: «يا فرنسيسُ اخرجوا»، فنبّهتْني ملاحظته إلى أوزان الشعر، فعُنيتُ بها. ثمّ لست أدري كيف بدأت أنظم الشعر موزونًا ومقفّى، قبل أن أنصرف عنه، في تلك المرحلة المبكرة من عمري، مفضّلاً النثر، القصة والدراسة والبحث.

ومن المؤسف أني لم أسمع، بعد تلك الآونة، باسم أيٍّ من هذين الشاعرين!

فلوريدا: فجر الخميس ٥-٦-٢٠١٤

٢٥ دقيقة لـ فارس بيك الخوري

لم يكن الطلب الذي أرادت به قوات الانتداب الفرنسي في سورية، في شهر أيار/ مايو ١٩٤٥، أن تقوم عناصر من حامية المجلس النيابي، البالغ عدد أفرادها الثلاثين من الدَّرَك، بتحيّة العلم الفرنسي لدى إنزاله من فوق سارية مبنى الأركان الفرنسية (الذي كان يقع مقابل مبنى البرلمان في الموقع الذي شُيِّد عليه لاحقًا بناء السكري)، لم يكن سوى ذريعة لتوجيه ضربة دامية للحكومة السورية الوطنية، تتبعها ضربات.

ذلك أنّ الحكومة الفرنسية في باريس، كانت عازمة على التنصّل من التعهدات، التي انتزعها الجانب السوري في مفاوضات ومحادثات عسيرة، وهي أن تتسلّم الحكومة الوطنية السورية الوليدة جميع المصالح الحكومية، ولكنّ فرنسا تريد استثناء إدارتين: القطعات العسكرية والأمن العام!

ولقد رفض رئيس المجلس النيابي سعد الله الجابري هذا الطلب المذلّ، فقامت قوات فرنسية بإطلاق نيران المدافع والرشاشات على البرلمان، واجتاحته وقتلت جميع عناصر الحامية

(عدا اثنين نَجَوَا بأعجوبة)، وكان ظنّها أن يكون ثمة اجتماع في البرلمان يحضره الوزراء، فيكون القضاء على الجميع، وتأتي بحكام موالين.

تلك قصة سجّلها التاريخ بأحرف من نار تحرق أصابع المعتدين، وهي صفحات فخار تُنير الطريق للسوريين، الذين كانوا قبيل ذلك قد ساروا في مظاهرات عمّت البلاد، تهتف بدمشق «ما في عيش بلا جيش»، وفي حلب هتفنا نحن طلاب المدارس» نريد جيشا للوطن».

والحديث بعد هذا مفصّل في الكتب، قتْلٌ ومقاومة انتهيا بانسحاب المعتدين إلى ثكناتهم، ثمّ بجلائهم عن البلاد، اختير للاحتفال به -وما أُحَيلاه! - يوم السابع عشر من نيسان ١٩٤٦، ودمُ الثوار تعرفه فرنسا... وتعلم أنه نور وحقّ.

ولكني، هنا، لأذكر حكاية طريفة وردت في بعض المواقع، من أن هيئة الأمم المتحدة، التي كان قد جرى التفكير فيها والتحضير لها منذ ١٩٤٣ بهدف منع الحروب بين الدول، إلى أن تجسّدت على أرض الواقع في ٢٤ نيسان/ ابريل ١٩٤٥ في مؤتمر بمدينة سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة الأمريكية، قبل أن تتخذ مقرّا لها في نيويورك، مؤلفة من الدول الخمس (دائمة العضوية في مجلس الأمن) ومن نحو خمسين من الدول التي كان معظمها لـمّا يحظَ بالاستقلال بعد، ومنها سورية. أقول: عُرض عليها النظر في القضية السورية بعد العدوان.

تقول الحكاية: إن فارس بك الخوري، مندوبنا في الأمم المتحدة، دخل قاعة الاجتماعات قبل بدء الاجتماع بدقائق، وتعمّد الجلوس في المقعد المخصص لمندوب فرنسا. فلما حضر هذا، أشار إلى أنّ مقعد سورية هو ذاك الموضوع عليه العلم السوري هناك! ولكن فارس بيك، الذي كان قد خلع ساعته من معصمه ووضعها أمامه، لم يحرّك ساكنا، وذاك يكرّر الطلب، إلى أن تملّكه الغضب. هنا قال مندوبنا: «يا سعادة السفير! أنا جلست على مقعدك خمسا وعشرين دقيقة فكدت تقتلني غضبًا، فما بالك بسورية التي احتملت فظاعاتكم طوال خمس وعشرين

سنة! »، ثمّ أخذ ساعته، ومضى إلى المقعد السوري!

أقول: أجل. خمس وعشرون. والخمسون بعدها؟!

فلوريدا: ضحى الجمعة ٦-٦-٢٠١٤

إلى بطريرك أنطاكية وسائر المشرق

للكنيسة السريانية الأرثوذكسية

صدِّقني، يا غبطة البطريرك مار إغناطيوس أفرام الثاني، أني أحببت السُّريان وقدّرت صنيعهم منذ عرفت، في شبابي الأول، أنهم ممّن أسهموا في نقل علوم الفلسفة والطبّ من اللغة الإغريقية إلى العربية، فكانوا في طليعة من وضع المداميك الأولى للحضارة العربية الإسلامية. وما سجّلت مرة إعجابي بصنيعهم، فيما أتناول من تاريخ حضارتنا، إلّا أحسست دمعة تترقرق في العين حبًّا لهذه الأمة المثقفة التي فاض الإخلاص للمعرفة في عقول أبنائها ومن أقلامهم الثرّة.

وإني لأفهم، اليوم، أن تهنّئ الرئيس بشار الأسد على تجديد انتخابه لولاية ثالثة، ولكن أن تخاطبه فتقول: «وأنت الرئيس الأعلى الجديد للكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العالم، وبطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسُّريان الأرثوذكس»... فأنت إن ظننت أنك ترفع بذا من قدره، فقدره محفوظ معروف، فهو منذ أربعة عشر عاما رئيس لأجمل بلد عربي، وابن رئيس لثلاثين سنة خلت. ولكن هل حافظت على قدر نفسك عند جماهير بلدك، الذين ما زالوا يَقْضون، أطفالًا ونساء ورجالا، في بيوتهم ليلَ نهار تحت البراميل القاتلة، بعَونٍ وتحريض من غرب وشرق وشمال، بذريعة أنهم «إرهابيون»؟!

وليتك كنت أصغيت إلى هتاف الجماهير، ذاك الذي ما زال في خاطري منذ ثلاثينيات

القرن الماضي، والانتداب قد قسّم سوريّة التي باتت صغيرة إلى أربع دويلات، سمعته وأنا طفل صغير: «بدْنا الوحدة السورية، إسلام ومسيحية». فما أضعفَ ما تملك من استراتيجية تستشرف مستقبل وطنك الذي تمشي على أرضه، يا غبطة البطريرك!

فلوريدا: مساء السبت ٧-٦-٢٠١٤

وازددتُ إيمانًا بالعدالة!

وفي نشرة قدّموها لنا، وأنا معتقلة بسجن النساء في عدرا، صادرة عن مكتبة الأسد، قرأت أنّ من مؤلفاتك التي تقتنيها هذه المكتبة العامة كتابا بعنوان: الابتسام في الأيام الصعبة.

ولو تعلم، يا أستاذي الفاضل، كم كنت في حاجة إلى الابتسام وأنا في أيامي الصعبة الحزينة، تلك التي استمرّت أحد عشر شهرا بلا ذنب جنيت سوى أني كنت أراسل إحدى الصحف العربية. وكان من حقّ المعتقلين كما وعدونا أن يطلبوا من إدارة السجن فيأتوا لنا بالكتاب من هذه المكتبة العامة الكبيرة لمطالعته، ولكنهم لم يردّوا على طلبي، فكررت وألححت دون جدوى. وأخيرا جاؤوا لي بكتاب عن فكر القائد الراحل.

وبعد أن أطلق سراحي أسرعت لقراءة كتابك، فكنت، صدقًا يا أستاذ فاضل، أضحك من الأعماق عند قراءتي بعض قصصه، وأضحك عند غيرها مع إحساسي بالضيق والألم. وأما عندما وصلت إلى آخر قصص الكتاب "حوار للفصل الأخير"، كيف يتّهم مواطن بريء هو من المعارضة السلمية بقتل صديقه الحميم الموالي للنظام، يرسمون له الجريمة ويفرضون عليه الاعتراف، فإني أحسست وكأنّ يدًا تمتدّ إلى صدري وتعتصر قلبي. وليلتها لم أنم، ولكني ازددت إيمانًا بالعدالة، وعرفت لماذا منعوا عني الكتاب!

شذى المداد. صحفيّة سوريّة في المهجر

فلوريدا: ليل الأحد ٨-٦-٢٠١٤

وبعد القصف

طلب ممّن حوله

أن يجمعوا أشلاء ابنه

لينحني عليها، عليه،

يُقبّله القبلة الأخيرة.

فلوريدا: مساء الاثنين ٩-٦-٢٠١٤

بين الطالبات.. عند تحيّة العلم!

في عام ١٩٨٠ أو ما حوله، وكانت تلميذةً في الثانوي ترتدي مثل زميلاتها بدلة الفتوّة، اقتحموا بيت الأسرة ساعة الفجر طلباً لأخيها الذي استطاع أن ينجو بالقفز من الجانب الخلفي للبناية.

وإذا كان فعلهم قد أفزع الأسرة، وبثّ الهلع في نفوس الكبار والصغار، فإنها هي صحَّ عزمها على أن ترفع صوتها بالاحتجاج. فعند اصطفاف الطالبات في باحة المدرسة صباحا لتحيّة العَلم المعتادة «وحدة حريّة اشتراكية»، استسنحت لحظةَ صمت رفعت فيها صوتها كما لم تتوقّعه زميلاتها قائلة: «وأين الحرية وقد اقتحموا عند الفجر بيتنا يطاردون أخي الأصغر؟ »، فألقَوا القبض عليها، وأخضعوها لمحاكمة انتهت بالحكم عليها ثلاث سنوات سجن تقضيها في سجن النساء في مدينة قَطَنا غربيّ العاصمة دمشق.

ثمّ إنّ الوالدين دأبا على زيارتها كلّ أسبوع، متحمّلين مشقّة السفر من حلب إلى دمشق

فقطَنا، طَوال سنوات السجن الثلاث، التي شاؤوا هم أن يحتفظوا بها -لدواع أمنية- ثلاث سنوات أخرى!

وأما الأب فقد مات خلال السنوات الأولى قهرًا، وأما الأم فقد هدّتها أوجاع الأمراض وتراكمُ الأحزان، والابن خرج ولم يعد.

والبنت... تابعت الدراسة، وتخرّجت في الجامعة، وهي تعمل، متزوجةً تربّي أبناءً متفوّقين، خارج حدود الوطن.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٠-٦-٢٠١٤

إرهابيّ أنا في نظر النظام!

لأنني أستعمل موقعا إلكترونيّا، صفحة في الفيسبوك، أشكو فيها المظالم التي يتعرّضَ لها المواطنون وأطالب بالحرية لشعبي، فأنا، في نظر النظام، إرهابي لأني أسهم في توهين نفسية الأمة... مستفيدًا هو ممّا ابتدعته امريكا، بعد يوم الحادي عشر من سبتمبر، من مصطلح تَصِم به أعداءها بالإرهابيين، ودون أن يحاول التعريج بنظره على ما يرتكبه هو بحقّ أبنائنا، حين يرميهم بالبراميل، جاعلاً أشلاءهم عَصيّةً على الجمع، فيحرم أبًا وأمّا من أن ينحنيا على جثمان ولدهما ليطبعا على وجهه القبلة الأخيرة!

وغير ذلك، إنّ عليّ، أنا الإرهابي، أن أسلّم نفسي، بموجب قانون العفو الصادر يوم أمس الأول، وخلال شهر، إلى الجهات المختصة، لتنظر ما إذا كنت أستحقّ أن أتمتّع بالعفو، أم أنه ممتنع عليّ!

لكن ماذا أبقيت، أيها النظام، من الثقة في صدور مواطنيك حتى يُصدّقوا أنهم إنْ سلّموا النفس لك عادوا إلى حيث كانوا سالمين، وإنّ في الخواطر عبارتك سيّئة الذكر: «خمس دقائق

فقط، نسألك وتعود! ». ثمّ لا يعود المواطن، وقد يغيب، يغيب عن الوجود!

أيها النظام! كم هي بعيدة بعيدة المسافة ما بيننا!

فلوريدا: صباح الأربعاء ١١-٦-٢٠١٤

اختلاف المكان.. واتفاق الزمان!

قرأت ما كتبه الآن أحد السوريين المغتربين، يقول:

في مثل هذه الساعة، قبل سنة تماماً، دخلت الأردن وأنا مصاب بطلق ناري أدى لكسر فخذي الأيمن.

أكثر ما أدهشني في تلك الساعة هو وجود الناس في الشوارع، وازدحام السيارات، والمحالّ التجارية المفتوحة، والحياة الطبيعية، والناس في الطرقات.

رأيت الأمر عادياً عندهم، ولكنه كان مدهشا للغاية لشخص غادر بلاده التي تشهد حالة حرب مجنونة!

الأردن: ليل الأربعاء ١١-٦-٢٠١٤

- - - - - - - - - - - - - -

فلوريدا: مساء الأربعاء ١١-٦-٢٠١٤

من الـلايك.. إلى التحقيق!

في مكالمة هاتفية بيني وبين صديق مواطن سوري عزيز، قَدِم أخيرًا إلى بلاد العمّ سام كالمهاجر، كان ممّا حدّثني أنّ صديقنا فلان الفلاني، المنتسب إلى الحزب الحاكم عن غير قناعة البتّة، لا في الخطوط العامة ولا في التفاصيل، ولكنها الوظيفة الحكومية التي تُلجىء، سوّلت له

نفسه مرة أن يضع لايك على خاطرة راقت له في صفحتي، فما وعى إلّا وهو يُستَدعى للتحقيق.

ثمّ كان لا بدّ من أن نستطرد في تبادل هذه الأسئلة العجيبة:

قلت: «هل أفضى إليك بهذه الواقعة على الهاتف؟ ».

أسرع يجيب: «أعوذ بالله! بل حدّثني بها ونحن... وجهًا لوجه»، ثمّ سألني: «هل لاحظت أنه حذفك أو حظرك؟».

قلت: «صديق حميم، لا يفعلها! ولكني الآن أتذكّر أنه كفّ عن محادثتي منذ مدة«!.

قال: «هي ذي... منذ أن استُدعي! ».

ولم تكن هذه الواقعة هي الفريدة التي تناولناها في حديثنا على الهاتف

فلوريدا: صباح الخميس ١٢-٦-٢٠١٤

نعم.. العربية لغة فكر وعلم

نشرت جريدة الاتحاد التي تصدر بـ دبي، في ملحقها الثقافي اليوم (الخميس ١٢-٦-٢٠١٤)، كلمتي التالية تحت عنوان «ثمرات يانعات» في ملف «كما تكون أمتنا.. تكون لغتنا» بعناية ساسي جبيل:

فاضل السباعي*

لا أراه منصفاً السؤالَ عمّا إذا كان للعربية «أن تكون لغة فكر وعلم معاصرة».

أقول: عندما نرى أنّ اللغتين، الصينية واليابانية، تُدرَّس بهما مقرّرات الطبّ والعلوم، إلى جانب اللغة العالمية الأولى الإنجليزية للمتابعة والتواصل، فإنّ ذلك يُبطل الزعم بقصور لغتنا في المواكبة، هذا إلى أنّ هاتين اللغتين هما من اللغات «العصيّة»، وربما كانتا في حُكم اللغات المندثرة لولا اجتهاد العلماء في هاتين الأمتين العظيمتين في التطويع والتحديث والتسويغ. قديماً

كان الشعر «ديوان العرب»، كما يقولون، ولكنّ العرب طوّعوا لغتهم لتدوين «أيام العرب» منذ القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي.

ومن ذا الذي كان يتصوّر أنّ لغة قريش سوف تخوض بحر العلوم بمعناه المعاصر اليوم SIENCES، وتحقّق فيه نجاحاً؟ على سبيل المثال قام العالم السُّرياني «اصْطفَن بن بَسيل»، المستظلُّ العصر العباسي، في القرن الثالث للهجرة، بنقل/ ترجمة كتاب العشّاب الإغريقي ديسقوريدس (من أهل القرن الأول الميلادي، الذي يطيب لي أن أصفه بـ«الشامي» فهو من مواليد «عين زربة» ما وراء الحدود التركية اليوم وعاش عمره في بلاد الشام!)، نقله إلى العربية «بإصلاح من الطبيب حُنين بن إسحاق»، ولم يُعجزه في عملية النقل سوى أنّ بعض المصطلحات اليونانية في الكتاب لم يجد لها في العربية مقابلاً، مُحيلاً هذا الأمر إلى الجيل الذي يليه، ومعَرِّباً في الوقت ذاته مفرداتٍ بأن ينقلها كما هي بلفظها، ومنها ما سرى في لغتنا حتى وصل اليوم إلى أغانينا الأكثر شعبية... يغنّي صباح فخري:

«ليموني» ع الليموني... دخيل الله

والله حْبابي ظلموني... خَصْمُنْ ألله

فإنّ كلمة «ليمون» إغريقية يونانية بامتياز، مثل «كمّون» وكثير من ذلك!

وهل نُذكّر بأمهات كتب الطبّ العربية: «الحاوي» بأجزائه الخمسة والعشرين للرازي، والكتاب الموسوعة «القانون في الطبّ» لابن سينا، في المشرق العربي؟ بأية لغة كُتبت هذه الأسفار العلمية العظيمة؟

أم أشير إلى كتاب أبي القاسم الزَّهراوي «التصريف لمن عَجَز عن التأليف» الموسوعة الأولى في علم الجراحة الطبية في التاريخ بشهادة الغرب (واسمه منسوب إلى مدينة «الزهراء»

التي بناها أعظم أمراء الأندلس عبد الرحمن الناصر، القرن الرابع هـ/ العاشر م)، ولن أنسى يقيناً صاحبي الذي اشتغلت عليه كثيراً، عبد الملك بن زُهْر الإشبيلي، بكتابه المتميّز «التيسير في المداواة والتدبير»، الذي تزاوجت فيه لغة الطبّ مع اللغة التي دوّن بها الطبيب بعض ذكرياته الشجيّة!

لغة الفكر؟

لقد استطاعت اللغة الطالعة من الجزيرة العربية، أن تشتمل على فكر الإغريق، ذلك الفكر الذي كان الروم (البيزنطيون) قد نبذوه، أو هم دفنوه في أقبية الأدْيِرة، بعد اعتناق الإمبراطور قسطنطين الأكبر المسيحية في القرن الرابع الميلادي، فقد أمسى هذا الفكر في رأيهم «وثنيّاً»، لولا أنّ العلماء السُّريان، في ظلّ الدولة العباسية الناهضة، لفتوا الأنظار إلى هذه الكنوز الفكرية، حين أشاروا على الخليفة العباسي أن يُبادل بأسرى الروم، في أعقاب "المناوشات"، كتباً من مخزون تلك الأديرة، والمفارقة في ذلك أنّ الروم وَهَموا أنّ في هذا الطلب سانحة لهم، فحمّلوا الجِمال كثيراً من كتب الفلسفة، ظنّاً منهم أنها سوف تُفسد على المسلمين عقيدتهم.

والذي كان أنّ هذه الكتب نُقلت إلى العربية، ثمّ برع العرب في «شرح» هذا الفكر اليوناني، وفِكر أرسطو خاصة، وأوفَوا على الغاية. وكان من أعظم الشارحين ابن رشد الأندلسي (القرن السادس هـ/ ١٢ م)، الذي تناوله بفهم مدعوم، وهنا بيت القصيد بلغةٍ معبّرة سائغة، جعلت الغرب، في نهضته، يُقبل على ترجمتها إلى اللاتينية فيما نُسمّيه «مدرسة طليطلة». والأمر المفارق هنا، مرة ثانية، أنّ البيزنطيين (الروم) بنبْذهم أفكار فلاسفتهم، ضيّعوا «أصول» هذه الكتب التي كان العرب قد تعهّدوها بالنقل/ الترجمة والشرح والإضافة. وبذلك قُدّر لهذه الثروة الفكرية أن تصل إلى الغرب عبر لغة العرب وفكرهم وعنايتهم!

ولقد طوّع العرب، في فجر نهضتهم الحديثة، لغتهم في مجالات. ولن أستفيض هنا، مكتفياً

بالإشارة إلى روعة اللغة التي صاغ فيها عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥ . ١٩٠٢) فكره الاجتماعي والسياسي في كتابه «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد»، معانيَ باذخة في لغة أخّاذة.

أختتم بالحديث عن «اللغة الطبية» في عصرنا:

إنّ علماء بلاد الشام، بعد أن خرج العثمانيون منها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، تهمّموا لتعريب الطبّ، عبر مؤسسة بادروا عام ١٩١٩ إلى إنشائها، المجمع العلمي العربي (فيما بعد: مجمع اللغة العربية)، وهو الأول من نوعه في الأقطار العربية، وأيضاً في رحاب كلية الطبّ في الجامعة السورية، جامعة دمشق، وكان لهم السبْق في هذا التعريب، عائدين فيه إلى المصنّفات الطبية التراثية، ومستحدثين الجديد من المصطلحات. فالطبّ، منذ ذلك الحين، يُدرّس في بلاد الشام بالعربية، متجاوزاً العقبات ومذلّلاً كلّ الصعاب.

من الذاكرة، أصدقائي، أكتب هذه الأسطر، وأنا بعيد عن الوطن والبيت والأوراق، وهي أفكار لم أجدني فيها محتاجاً إلى مراجع، لأنها ثاوية في الوجدان، يحملها العربي، المحبّ للغته وتراثه وأمته، أنّى سافر أو هاجر أو اغترب.

* روائي [وباحث] سوري مقيم في فلوريدا

- - - - - - - - - - - - - - - -

فلوريدا: الخميس ١٢-٦-٢٠١٤

ورأيت «الناصريّة»

تنتعش بصعود «السيسي»

وتستعيد المواقف والأمجاد

فلوريدا: الجمعة ١٣-٦-٢٠١٤

وقال حدّاد في قرطبة: شقّ الكير، يا صبي!

تحتاج الانتفاضات التي تجترحها الشعوب، إلى شخصية تقودها ذات كاريزما.

ومع إدراكي أنّ أنظمة الحكم الفردي تحرص على إفراغ المجتمع من تلك الشخصيات اتّقاءً، بل هي تعمد إلى تغييبها حتى من الدائرة الضيقة في الحكم حيطةً وحذرا، إلّا أنّ انتفاضة شعب تظلّ في حاجة إلى شخصية ذات جاذبية، تجتمع عندها العقول، وتهفو إليها الأفئدة والقلوب.

في التاريخ الأندلسي أنه لما وقع الهَيْج (الثورة في مصطلحنا) في حاضرة قرطبة (ولست أذكر، وأنا في مغتربي، ما إذا كان ذلك في عهد الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل في أوائل القرن الثالث للهجرة، أم في أيام هشام بن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر آخر القرن الثالث)[1]... أنّ شيخًا من العامة، حدادًا، كان جالسًا على كِيره يعالج صنعته (والكِير -كما هو معروف- جهاز من الجلد يستخدمه الحداد للنفخ في النار لإشعالها)، سمع...

فقال: «ما بال الناس؟ »،

قالوا: «قامت العامّة على السلطان «!،

فقال: «لَهُم رأس؟ »،

قالوا: «لا. «!

فقال مخاطبًا أجيره: «سق الكير، يا صبي! »، يأمره بالشروع بالعمل!

تقول الرواية: وذهبت مثلا.

---

(١) هي في عهد الحكم بن هشام.

في هَيْجنا، في ثورتنا، رؤوس كثيرة، منها النظيف، واليابس، والمتطلّع، والمخادع...

وأكتفي.

فلوريدا: مساء السبت ١٤-٦-٢٠١٤

لكن.. مؤامرة كونية.. كيف؟!

عندما اجتاح النظام مدينة حماة، عام ١٩٨٢، اكتفى بالتبرير بأنّ الرجعيّة تغتال رجاله، ولكن عندما عمّت المظاهرات السلميّة أرجاء البلاد، بعد ثلاثين عاما من ذلك التاريخ، وشعارُها المرفوع: «الله، سوريّة، حريّة وبس»، أسرع النظام يقول: مؤامرة كونيّة، وأنّ المتظاهرين السلميّين هؤلاء ينوون ذبح الأقليّات!

كيف؟!!

فلوريدا: مساء الأحد ١٥-٦-٢٠١٤

اعتقال الذكريات

مهداة إلى الصديق رياض نعسان آغا.

كان المعارض، المطالب بالحرية، يضطرّ إلى مغادرة الوطن نجاةً بنفسه، فيقومون باحتجاز الأعزّاء من أهله للضغط عليه.

اليوم،

أضافوا الاستيلاءَ على بيته،

وأشيائه،

واعتقال ذكرياته!

فلوريدا: فجر الإثنين ١٦-٦-٢٠١٤

الأثاث.. في الحفظ والصون!

مما تعيه الذاكرة أنّ رفعت الأسد، عندما صعد نجمه منذ أوائل السبعينيات حتى قليلٍ من الثمانينيات، تراءى له أن يستكمل مجده بإصدار مجلة شهرية، سمّاها الفرسان، متّخذًا لها مقرّا في مبنى بأدنى حي أبو رمّانة، يقع ما بين قصر الضيافة وفندق الميرديان.

ثمّ إنه احتاج إلى التوسّع، لهذا الأمر أو ذاك. وكان يجاور المقرّ بيتٌ يناظره، قد أقفله صاحبه لسفره خارج البلاد، فهو ديبلوماسي بمرتبة رفيعة (أذكر اسمه زكريا سباهي). ويوم عاد من سفره برفقة زوجته، تعذّر على المفتاح أن يدور في ثقب الباب. وفجأة فتحوا له من الداخل، بَدَوا هم مستنكرين أن يقلق راحتهم غريب، وصاحبا البيت مندهشان للسطو على بيتهما الذي جنياه بالادّخار الطويل.

وفي أثناء تناولهما القهوة، بفنجانين أنيقين ممّا حوى بيتهما، سمعا ربّة البيت تقول بلهجة طيبّة: اطمنّا... الأثاث كلّه في الحفظ والصون!

فلوريدا: عصر الإثنين ١٦-٦-٢٠١٤

ربينا سوا!

يوم كان صغارنا يلعبون في الحيّ مع بعض أبناء المسؤولين، حدّثوني فقالوا: «كلّهم كارهون للنظام، ما من أحد منهم إلّا وله شقيقٌ معتقل، أو ابنُ عمّ هارب، أو ابن خالة مقتول!».

لمّا هبّت الرياح جاؤوني يقولون: «عمّو! قالوا لنا: إنْ أنتم ملكتم فسوف تذبحوننا. ولكنهم لا يخافون منّا نحن لأننا ربينا سوا».

فلوريدا: فجر الثلاثاء ١٧-٦-٢٠١٤

آخر ما صدر عن النظام إلماحُه إلى الاستيلاء على بيوت الغائبين!

ترى... هل يريدهم أن يعودوا ليشاركوا في بناء ما خرّبه القتال؟ أم أنه ينثر لهم الحَبّ ليتصيّدهم، ويُصفّي حسابات له مع الناس، لا أول لها ولا آخر؟

فلوريدا: صباح الثلاثاء ١٧-٦-٢٠١٤

في العلم والحضارة

العرب أمس، العرب اليوم

في كلمة نزلت، قبل قليل، في موقع لإحدى الكليات في الجامعات السورية، قرأت اعتزازًا باللغة العربية يبعث الدفء في النفوس:

هل تعلم أنّ في القرن الحادي عشر الميلادي كان حُلُم الشعوب الأوروبية تعلّمَ اللغة العربية، حيث كان من يُجيد التحدّث بها في كلّ من ألمانيا وفرنسا وإيطاليا، يعتبر شخصًا ذكيًا ومتحضّرا داخل مجتمعه، ففي تلك الحقبة اهتمّ المسلمون باللغة العربية وطوّروها حتى أصبحت اللغةَ الحضارية الأولى.

فبادرت أؤيّد وأبيّن:

ويعود اهتمام الأوروبيين بلغتنا إلى ما تحصّل للأندلسيين حينئذ من العلم والحضارة. حتى إنّ الأوروبيين الذين أتقنوا العربية في حاضرة الأندلس قرطبة، تجمعوا في مدينة طليطلة التي استولى عليها الإسبان، وأخذوا يترجمون إلى اللاتينية كتب العرب العلمية، ازدهر ذلك عندهم في القرن ١٢ الميلادي.

واليهود أيضًا في أزهى أيامهم في العصر الوسيط في الأندلس، كانوا يترجمون عن العربية إلى العبرية.

وفي أحيان كان المترجمون يسرقون المصنَّف العربي فينتحلونه، حتى إنّ كتب الحِسبة أخذت تَمنع من إتاحة الكتب العربية للأجانب!

وفي هذه المرحلة ابتدأ دخول المفردات العربية في اللغة اللاتينية. اللوغاريتم مثلا«

نعم. كان أجدادنا، من كلّ الأعراق والملل، ينتجون المعرفة، ويصدّرون من فنون العلم ما يُزيّن للمتعلمين الطامحين في العالم أن يترجموا، ويقتبسوا، ويستفيدوا، ويستمتعوا.

واليوم... نقدّم للعالم أنموذجًا مختلفًا جدّا: كيف يُبيد حكامٌ شعوبَهم بالقصف، والقتل، والتدمير، والتشريد.

فلوريدا: عصر الثلاثاء ١٧-٦-٢٠١٤

حالة اللاجئين السوريين

حالة اللاجئين السوريين في دول الجوار، مُزرية، لكن ليس إلى حدّ أن تُبكي قلوب الأوروبيّين المتحجّرة!

تصوّروا فقط لو أنّ تركيا كان يحكمها واحد مثل أجاويد[١]، وليس الحاكم الطيّب رجب طيب أردوغان، الذي صرّح وعزم: «السوريون ضيوف، هم المهاجرون ونحن الأنصار«.

فلوريدا: مساء الثلاثاء ١٧-٦-٢٠١٤

(١) رئيس وزراء سابق لتركيا.

كان فتحًا.. وكان الأطباء عربًا ومسلمين

ليكنْ محبّو الحقيقة على علمٍ بأنّ ما قام به العرب من رفعٍ لراية الإسلام في الشعوب التي سيطروا عليها، لم يكن غزوًا بأيّ صورة من الصور، فالغزو -مثل الاستعمار- احتلال أرض وسفك دم ونهب خيرات، ثمّ عودة اختيارية أو انسحاب قسري أو بقاء مستنزِف، ولكنّ ما كان من العرب المسلمين فتحٌ بأجلى معانيه. وأما القول بأنّ الإسلام نُشر بحدّ السيف، فتلك فِرية أخرى! نعم، كانت السيطرة على البلد المفتوح تتمّ بحدّ السيف، فذلك منطق الحروب، ولكنّ نشر الإسلام لم يكن قسرًا. والدليل على ذلك أنّ الشعوب المفتوحة ما انفكّ الناس يدخلون الإسلام في ظلّ الفتح على مدى سنين وقرون (بلاد الشام ومصر والمغرب والأندلس...)، إلى أن بلغت الأسلمة حدًّا ما دخل الإسلام قطرًا إلّا لبث فيه حتى يوم الناس هذا. فهو فتحٌ بامتياز، ونَفْيٌ للغزو بامتياز أيضًا. وما خسر الإسلام إلّا قطرًا واحدا هو الأندلس لأسباب.

وأما الزعم بأنّ معظم الأطباء في العصرين الأموي والعباسي، كانوا من أهل البلاد الآراميين، فذلك قولٌ بعيد عن الصحة. نعم، كان هناك، في البدء، أطباء من أهل البلاد، السُّريان، مارسوا الطبّ ونقلوا كتب الحكمة من الإغريقية إلى العربية، وما كان لها أن تنتهي قوافل الأطباء والعلماء، من العرب ومن المسلمين مختلفي الانتماءات، في كلّ فنّ من فنون الحكمة والمعرفة.

لو أنّ الباحث يقرأ كتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جُلجُل الأندلسي (من أهل القرن الرابع للهجرة/ ق١٠م، وهو مسلم من أصول إسبانية) لرأى غلبة المسلمين فيهم. ويزداد المتتبّع معرفةً في ذلك إمّا اطّلع على الموسوعة في تاريخ الطبّ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء

لابن أبي أُصَيبِعة الدمشقي (من أهل القرن السابع هـ/ ق١٣م)، فالأغلبية العظمي هم عربٌ ومسلمون. وإنّ من موضوعية المؤلف -السابقة لعصرها- أنه لم يُغفل في كتابه أحدا من الأغارقة ولا من السّريان، فكان مصدرا تاريخيا متميّزا، ما حدا المستعربَ الفرنسي غابرييل كولان إلى ترجمته كاملاً إلى الفرنسية.

فلوريدا: فجر الأربعاء ١٨-٦-٢٠١٤

الذين لا يفرّقون بين الغزو والفتح!

بعيدًا عمّا ينتقيه أحدهمُ من أحداث التاريخ، يسُلُّها من سَداها ولُحْمتها ويستفرد بها على نحو ما كان يفعل غُلاة المستشرقين، الكارهون لامتداد ظلال الإسلام في العالم، يعود هذا الرجل -بعد أن أُجهِض ادّعاؤه في مسألة الأطباء زمن الأمويين والعباسيين: ما إذا كانوا من صلب الأمة أم هم آراميّون! - يعود إلى ارتكاب جهالة أخرى: أنّ دخول الإسلام إلى الأندلس كان غزوًا.

لقد زاغ عنده البصر والبصيرة، فما يفرّق بين الغزو الناهب الهدّام وبين الفتح الباني للحضارة الزاهية، ولا اطّلع على التراث الذي خلّفه الأندلسيون، المكتوبةِ صفحاتُه بماء الذهب، يُنشر اليوم في الكتب والأسفار، لا، ولا لمحت عيناه صور الصُّروح الأندلسية الباذخة، التي ستظلّ تجلب إلى إسبانيا اليوم والغد، السيّاحَ من كلّ فجّ!

وأنصحه بالكفّ عن مُهاتراته، فليس عندنا وقت نبذله في الردّ والتفنيد.

ولتكن، يا صديق، بألف خير.

فلوريدا: ظهيرة الأربعاء ١٨-٦-٢٠١٤

المحتويات